

أعمال

محمد الماغوط

أعمال محمد الماغوط

محمد الماغوط



المدى

منشورات




Author : Muhammad AlMaghout	اسم المـــؤلف : محمد الماغوط
Title : Works	عنوان الكتـاب : أعمال محمد الماغوط
Al- Mada : Publishing Company	النـاشـــــر : دار المدى للثقافة والنشر
First Edition 1998	الطبعـة الأولى : ١٩٩٨
Copyright © Al-Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

حُزن في ضَوءِ القمر



طفولة بريئة وارهاب مسن

مأساة محمد الماغوط أنه ولد في غرفة مسدلة الستائر اسمها الشرق الأوسط . ومنذ مجموعته الأولى « حزن في ضوء القمر » وهو يحاول إيجاد بعض الكوى أو توسيع ما بين قضبان النوافذ ليرى العالم ويتنسم بعض الحرية . وذروة هذه المأساة هي في إصراره على تغيير هذا الواقع ، وحيداً ، لا يملك من أسلحة التغيير إلا الشعر . فبقدر ما تكون الكلمة في الحلم طريقاً إلى الحرية نجدها في الواقع طريقاً الى السجن . ولأنها كانت دائماً إحدى أبرز ضحايا الاضطرابات السياسية في الوطن العربي ، فقد كان هذا الشاعر يرتعد هلعاً إثر كل انقلاب مرَّ على الوطن ، وفي أحدها خرجت أبحث عنه ، كان في ضائقة قد تجره إلى السجن أو ما هو أمرّ منه ، وساعدني إنتقاله الى غرفة جديدة في إخفائه عن الأنظار ، غرفة صغيرة ذات سقف واطئ حشرت حشراً في خاصرة أحد المباني بحيث كان على من يعبر عتبتها أن ينحني وكأنه يعبر بوابة ذلك الزمن .

سرير قديم ، ملاءات صفراء ، كنبة زرقاء طويلة سرعان ماهبط مقعدها ، ستارة حمراء من مخلفات مسرح قديم . في هذا المناخ عاش محمد الماغوط أشهراً عديدة .

لنفترض أن الشرق العربي بقعة سوداء على خريطة الماضي والحاضر ، فما يكون لون المستقبل ؟ ولنبحث بعد ذلك عن مصير الشعر والشعراء من خلال ذلك الظلام الدامس . وإذا ما استعملنا ضوء الذاكرة وجدنا أن محمد الماغوط في وجه من الوجوه جزء من المستقبل ، لذا كان لابد من حمايته من

غباء الحاضر . ألا يكون مستقبل شعرنا رماداً لو تركنا الشعراء للسلطة ؟ ولأن هذا الشاعر محترق بنيران الماضي والحاضر ، لجأ إلى نيران المستقبل وهو جزء منها بحثاً عن وجود آخر وكينونة جديدة . بدت الأيام الأولى كاللعبة البطولية لنا نحن الاثنين . ولكن لما شحب لونه ومال إلى الاصفرار المرضي وبدأ مزاجه يحتد بدت لي خطورة اللعبة . كان همي الكبير أن يتلاشى الاعصار دون ان يخنق غباره «النسر» .

كنت أنقل له الطعام والصحف والزهور خفية . كنا نعتز بانتمائنا للحب والشعر كعالم بديل متعال على ما يحيط بنا . كان يقرأ مدفوعاً برغبة جنونية . وكنت أركض في البرد القارس والشمس المحرقة لأشبع له هذه الرغبة ، فلا ألبث أن أرى أكثر الكتب أهمية وأغلاها ثمناً ممزقة أو مبعثرة فوق الأرض مبقعة بالقهوة حيث ألتقطها وأغسلها ثم أرصفها على حافة النافذة حتى تجف . كان يشعل نيرانه الخاصة في روائع أدبية بينما كانت الهتافات في الخارج تأخذ من بعيد شكلاً معادياً .

وقبل ذلك كان محمد الماغوط غريباً ووحيداً في بيروت . وعندما قدمه أدونيس في أحد اجتماعات مجلة «شعر» المكتظة بالوافدين ، وقرأ له بعض نتاجه الجديد الغريب بصوت رخيم دون أن يعلن عن اسمه ، وترك المستمعين يتخبطون (بودلير ؟ . . رامبو ؟ . .) لكن أدونيس لم يلبث أن أشار الى شاب مجهول ، غير أنيق ، أشعث الشعر وقال : «هو الشاعر . .» لاشك أن تلك المفاجأة قد أدهشتهم وانقلب فضولهم إلى تمتمات خفيضة . أما هو ، وكنت أراقبه بصمت ، فقد ارتبك واشتد لمعان عينيه . بلغة هذه التفاصيل وفي هذا الضوء الشخصي نقرأ غربة محمد الماغوط . ومع الأيام لم يخرج من عزلته بل غير موقعها من عزلة الغريب الى عزلة الرافض .

من يدرس حياة هذا الشاعر يرى أن فترات الخصب عنده تتواقت مع الأزمات . «فالعصفور الأحدب» وأعمال أخرى مازالت مخبأة في الأدراج ، وقسماً كبيراً من «الفرح ليس مهنتي» جاءت نتيجة انفجار بشري داخلي عنيف حدث في أواخر ذلك الشتاء . في هذه الحميا أخذ يرى علائق الأشياء

بعضها بالبعض الآخر . وإن هذه الارتباطات قد تنقلب الى علائق حصرية بينما إذا تضخمت من طرف واحد تاركة الطرف الآخر يرتجف دون حول أو قوة . ومحمد الماغوط يبحث عن الحماية منذ صغره . لكن كلما التجأ الى ركن رآه خانقاً كالسجن أو واهياً كالورق . أراد أن يدخل كون الشعر حيث لا سلطة إلا للمتفوقين . والبيئة المضطربة المتقلبة التي عاش في مناخها ، كانت تقف كالسوط في وجهه لترده باستمرار الى الداخل فيعتصم بمخيلته . في تلك المؤامرة الكبيرة التي حاكتها البيئة ضده عظمت براءته وقوي صفاؤه . وقد أعطته تلك الاقامة السرية فرصة كبيرة للتأمل الذهني . وتحت تلك العدسات كان الوجود الانساني يدخل سلسلة من التحولات . سكب أحماضه المأساوية على الفوضى البشرية ، فبدا الوجود الواحد يحمل في أعماقه وجودات لا حصر لها . وهذا ما دفعه لأن يطرق ألواناً أخرى غير الشعر .

في الشعر يمتطي حلمه ويغيب . ليس بمعنى التخلي الشعوري عن واقعه ، وإنما بمعنى الطموح الملح لخلق وجود بديل عنه . وجود آخر يهيم معه في سفره . غرفة الشعر غرفة لينة ، واسعة ، فضفاضة . تنتقل كلما أشار اليها الشاعر . أما الآن فلا مفر له وهو داخل تلك الجدران المتسخة من مواجهة الواقع . لذا انعكست أوضاعه على أبطال « العصفور الأحدب » سجنهم ، خلقهم مشوهين وبأمزجة حادة ، متقلبة وشائكة . المسافة في المسرحية لا تنقلهم نحو أحلامهم أو نحو الأفضل وإنما تحاصرهم . وعندما امتلكوا الحرية تغيرت مرتفعاتهم الانسانية . دخلوا في علائق جديدة . شكلوا مرة أخرى لعبة الحاكم والمحكوم التي ما استطاعوا أن يذهبوا خارج حدودها بالرغم من الحريات التي امتلكوها فيما بعد . في « العصفور الأحدب » لم يلتق محمد الماغوط بجمهوره بمعنى المواجهة . التقى به في حالة الجذب والقيادة . ولأن الزمن بينه وبين الآخرين كان شاسعاً أنكرت كعمل مسرحي وسميت قصيدة . في الحقيقة كان في « العصفور الأحدب » قائداً يسير خلفه جيش مهترئ ، منكوب أرمد . لذا ارتد القائد في « المهرج » وفضح تلك المخازي .

يعتبر محمد الماغوط من أبرز الثوار الذين حرروا الشعر من عبودية الشكل . دخل ساحة العراك حاملاً في مخيلته ودفاتره الأنيقة بوادر قصيدة النثر كشكل مبتكر وجديد وحركة رافدة لحركة الشعر الحديث . كانت الرياح تهب حارة في ساحة الصراع ، والصحف غارقة بدموع الباكين على مصير الشعر حين نشر قلوعه البيضاء الخفاقة فوق أعلى الصواري . وقد لعبت بدائيته دوراً هاماً في خلق هذا النوع من الشعر ، إذ ان موهبته التي لعبت دورها بأصالة وحرية كانت في منجاة من حضانة التراث وزجره التربوي . وهكذا نجت عفويته من التحجر والجمود . وكان ذلك فضيلة من الفضائل النادرة في هذا العصر .

سنية صالح

حزن في ضوء القمر

أيها الربيعُ المقبلُ من عينيها
أيها الكناري المسافرُ في ضوء القمر
خذني إليها
قصيدةَ غرامٍ أو طعنةَ خنجر
فأنا متشرّد وجريح
أحبُّ المطر وأنين الأمواج البعيدة
من أعماق النوم أستيقظ
لأفكر بركبة امرأة شهيةٍ رأيتها ذات يوم
لأعاقرَ الخمرة وأقرضَ الشعر
قل لحبيبتي ليلى
ذاتِ الفم السكران والقدمين الحريريتين
انني مريضٌ ومشتاقٌ إليها
انني ألمح آثار أقدام على قلبي .
دمشقُ يا عربةَ السبايا الورديه
وأنا راقدٌ في غرفتي
أكتبُ وأحلم وأرنو الى الماره
من قلب السماء العاليه

أسمع وجيب لحمك العاري .
عشرون عاماً ونحن ندقُّ أبوابك الصلده
والمطر يتساقط على ثيابنا وأطفالنا
ووجوهِنا المختنقةِ بالسعال الجارح
تبدو حزينةً كالوداع صفراءَ كالسلّ
ورياحُ البراري الموحشه
تنقلُ نواحنا
إلى الأزقة وباعة الخبزِ والجواسيس
ونحن نعدو كالخيولِ الوحشية على صفحات التاريخ
نبكي ونرتجف
وخلف أقدامنا المعقوفه
تمضي الرياحُ والسنابلُ البرتقاليه . . .
وافترقنا
وفي عينيكِ الباردتين
تنوح عاصفةٌ من النجوم المهروله
أيتها العشيقةُ المتغضّنة
ذات الجسد المغطَّى بالسعال والجواهر
أنتِ لي
هذا الحنينُ لك يا حقوده !

قبل الرحيل بلحظات
ضاجعتُ امرأة وكتبتُ قصيده
عن الليل والخريف والأمم المقهوره

وتحت شمس الظهيرة الصفراء
كنت أسندُ رأسي على ضلْفات النوافذ
وأترك الدمعه
تبرق كالصباح كامرأة عاريه
فأنا على علاقة قديمة بالحزن والعبوديه
وقربَ الغيوم الصامتة البعيده
كانت تلوح لي مئاتُ الصدور العاريه القذره
تندفع في نهر من الشوك
وسحابةٌ من العيون الزرقِ الحزينه
تحدقُ بي
بالتاريخ الرابضِ على شفتيّ .
يا نظراتِ الحزن الطويله
يا بقع الدم الصغيره أفيقي
إنني أراكِ هنا
على البيارق المنكّسه
وفي ثنياتِ الثياب الحريريه
وأنا أسير كالرعد الأشقرِ في الزحام تحت سمائك الصافيه
أمضي باكياً يا وطني
أين السفنُ المعبأةُ بالتبغ والسيوف

والجاريةُ التي فتحتْ مملكةً بعينيها النجلاوين
كامرأتين دافئتين
كليلة طويلةٍ على صدر أنثى أنت يا وطني

إنني هنا شبحٌ غريبٌ مجهول
تحت أظافري العطريه
يقبعُ مجدك الطاعن في السن
في عيون الأطفال
تسري دقاتُ قلبك الخائر
لن تلتقي عيوننا بعد الآن
لقد أنشدتُكَ ما فيه الكفايه
سأطل عليك كالقرنفلةِ الحمراء البعيده
كالسحابةِ التي لا وطن لها

وداعاً أيتها الصفحات أيها الليل
أيتها الشبابيكُ الأرجوانيه
انصبوا مشنقتي عاليةً عند الغروب
عندما يكون قلبي هادئاً كالحمامه . .
جميلاً كوردةٍ زرقاء على رابيه ،
أودُّ أن أموت ملطخاً
وعيناي مليئتان بالدموع
لترتفعَ إلى الأعناق ولو مرة في العمر
فانني مليء بالحروفِ ، والعناوين الداميه
في طفولتي ،
كنت أحلم بجلبابٍ مخططٍ بالذهب
وجواد ينهب بي الكروم والتلال الحجرية
أما الآن

وأنا أتسكَّعُ تحت نور المصابيح
أنتقل كالعواهرِ من شارعٍ الى شارع
أشتهي جريمةً واسعه
وسفينةً بيضاء ، تقلُّني بين نهديها المالحين ،
الى بلادٍ بعيده ،
حيث في كلِّ خطوةٍ حانةٌ وشجرةٌ خضراء ،
وفتاةٌ خلاسيه ،
تسهرُ وحيدة مع نهدها العطشان .

جنازة النسر

أظنُّها من الوطن
هذه السحابةُ المقبلةُ كعينين مسيحيتين .
أظنُّها من دمشق
هذه الطفلةُ المقرونةُ الحواجب
هذه العيونُ الأكثر صفاءً
من نيرانٍ زرقاءَ بين السفن .
أيها الحزن . . يا سيفيَ الطويل المجعّد
الرصيفُ الحاملُ طفله الأشقر
يسأل عن وردةٍ أو أسير ،
عن سفينةٍ وغيمة من الوطن . . .
والكلمات الحرّة تكتسحني كالطاعون
لا امرأة لي ولا عقيده
لا مقهى ولا شتاء
ضمني بقوة يا لبنان
أحبُّكَ أكثر من التبغِ والحدائق
أكثر من جنديٍّ عاري الفخذين
يشعلُ لفافته بين الأنقاض

ان ملايين السنين الدمويه
تقف ذليلةً أمام الحانات
كجيوشٍ حزينةٍ تجلس القرفصاء
ثمانية شهور
وأنا ألمس تجاعيد الأرضِ والليل
أسمع رنينَ المركبه الذليله
والثلجَ يتراكمُ على معطفي وحواجبي
فالترابُ حزين ، والألمُ يومضُ كالنسر
لا نجومَ فوق التلال
التثاؤبُ هو مركبتي المطهمةُ ، وترسي الصغيره
والأحلام ، كنيستي وشارعي
بها أستلقي على الملكاتِ والجواري
وأسيرُ حزيناً في أواخر الليل .

أغنية لباب توما

حلوه عيونُ النساء في باب توما
حلوه حلوه
وهي ترنو حزينةً الى الليل والخبز والسكارى
وجميلةٌ تلك الأكتافُ الغجريةُ على الأسرّه
لتمنحني البكاء والشهوة يا أمي
ليتني حصاةٌ ملونةٌ على الرصيف
أو أغنيةٌ طويلةٌ في الزقاق
هناك في تجويفٍ من الوحل الأملس
يذكرني بالجوع والشفاه المشرده ،
حيث الأطفالُ الصغار
يتدفقون كالملاريا
أمام الله والشوارع الدامسه
ليتني وردةٌ جوريةٌ في حديقة ما
يقطفني شاعرٌ كئيب في أواخر النهار
أو حانةٌ من الخشب الأحمر
يرتادها المطرُ والغرباء
ومن شبابيكي الملطّخة بالخمر والذباب

تخرج الضوضاءُ الكسوله
الى زقاقنا الذي ينتجُ الكآبةَ والعيون الخضر
حيث الأقدامُ الهزيله
ترتعُ دونما غايه في الظلام . . .
أشتهي أن أكون صفصافة خضراء قرب الكنيسه
أو صليباً من الذهب على صدر عذراء ،
تقلي السمك لحبيبها العائد من المقهى
وفي عينيها الجميلتين
ترفرفُ حمامتان من بنفسج
أشتهي أن أقبِّل طفلاً صغيراً في باب توما
ومن شفتيه الورديتين ،
تنبعثُ رائحةُ الثدي الذي أرضَعَه ،
فأنا مازلتُ وحيداً وقاسياً
أنا غريبٌ يا أمي .

في المبغى

من قديم الزمان ،
وأنا أرضعُ التبغَ والعار
أحبُّ الخمرَ والشتائم
والشفاه التي تقبّل ماري
ماري التي كان اسمها أمي .
حارّة كالجرب
سمراء كيومٍ طويل غائم
أحبُّها ، أكره لحمها المشبعَ بالهمجية والعطر ،
أربضُ عند عتبتها كالغلام
وفي صدري رغبةٌ مزمنه
تشتهي ماري كجثة زرقاء
تختلج بالحلي والذكريات .
من قديم الزمان . . أنا من الشرق . .
من تلك السهول المغطاةِ بالشمسِ والمقابر
أحب التسكعَ والثيابَ الجميله
ويدي تتلمس عنقَ المرأة البارده
وبين أهدابها العمياء

ألمح دموعاً قديمةً تذكرني بالمطر
والعصافير الميتة في الربيع
كنت أرى قارةً من الصخر
تشهقُ بالألم والحرير
والأذرعِ الهائجة في الشوارع .
فأنتم يا ذوي الأحذية اللامعه
والسلاميات المحشوةِ بالإثم والخواتم
ماذا تعرفون عن ماري الصغيرةِ الحلوه
ذات الوجه الضاحك كقمرٍ من الياسمين
ماذا تعرفون عن لحمها الذي يتجشّأُ العطر والأصابع
حيث الشفاهُ المقرورةُ الخائفه
تنهمر عليها كالجراد
وهي ترنو إلى الطرقات الحالكه
بعد منتصف الليل
والنوافذ المفروشة بالزجاج والدم
قابعة كالحثالة في أحشاء الشرق
تأكلُ وتنام
وتموت قبلةً إثر قبله
تحلم بملاءةٍ سوداء
ونزهةٍ في شارع طويل
ممتلئٍ بالضجّة والدفاتر والأطفال
وثغرُها الطافحُ بالسأم
يكدح طيلة الليل لتأكل ماري

الأفران مطفأةٌ في آسيا
والطيورُ الجميلة البيضاء
ترحل دونما عودة في البراري القاحله .

المسافر

بلا أمل . .
وبقلبي الذي يخفقُ كوردةٍ حمراءَ صغيره
سأودّع أشيائي الحزينةَ في ليلةٍ ما . .
بقع الحبر
وآثار الخمرة الباردة على المشمّع اللزج
وصمت الشهور الطويله
والناموس الذي يمصُّ دمي
هي أشيائي الحزينه
سأرحلُ عنها بعيداً . . بعيداً
وراء المدينة الغارقةِ في مجاري السلّ والدخان
بعيداً عن المرأة العاهره
التي تغسل ثيابي بماء النهر
وآلاف العيون في الظلمه
تحدق في ساقيها الهزيلين ،
وسعالها البارد ، يأتي ذليلاً يائساً
عبر النافذةِ المحطّمه
والزقاقُ المتلوي كحبلٍ من جثث العبيد

سأرحلُ عنهم جميعاً بلا رأفه
وفي أعماقي أحمل لك ثورةً طاغيةً يا أبي
فيها شعبٌ يناضل بالتراب ، والحجارة والظمأ
وعدة مرايا كئيبه
تعكس ليلاً طويلاً ، وشفاهاً قارسةً عمياء
تأكل الحصى والتبن والموت
منذ مدة طويلة لم أرَ نجمةً تضيء
ولا يمامةً شقراء تصدحُ في الوادي
لم أعدْ أشربُ الشاي قرب المعصره
وعصافيرُ الجبال العذراء ،
ترنو إلى حبيبتي ليلى
وتشتهي ثغرها العميقَ كالبحر
لم أعد أجلس القرفصاء في الأزقه
حيث التسكع
والغرام اليائس أمام العتبات .
فارسل لي قرميدةً حمراء من سطوحنا
وخصلةَ شعرٍ من أمي
التي تطبخ لك الحساء في ضوء القمر
حيث الصهيلُ الحزين
وأعراسُ الغجر في ليالي الحصاد
بعْ أقراط أختي الصغيره
وارسل لي نقوداً يا أبي
لأشتري محبره

وفتاة ألهث في حضنها كالطفل
لأحدثك عن الهجير والتثاؤب وأفخاذ النساء
عن المياهِ الراكدةِ كالبول وراء الجدران
والنهود التي يؤكل شهدُها في الظلام
فأنا أسهرُ كثيراً يا أبي
أنا لا أنام . .
حياتي ، سوادٌ وعبوديةٌ وانتظار .
فاعطني طفولتي . .
وضحكاتي القديمة على شجرةِ الكرز
وصندلي المعلَّقَ في عريشة العنب ،
لأعطيك دموعي وحبيبتي وأشعاري
لأسافرَ يا أبي .

الشتاء الضائع

بيتُنا الذي كان يقطنُ على صفحةِ النهر
ومن سقفه المتداعي
يخطُرُ الأصيل والزنبقُ الأحمر
هجرتُه يا ليلى
وتركتُ طفولتي القصيره
تذبلُ في الطرقات الخاويه
كسحابةٍ من الوردِ والغبار
غداً يتساقط الشتاءُ في قلبي
وتقفز المتنزهاتُ من الأسمالِ والضفائر الذهبيه
وأجهشُ ببكاءٍ حزين على وسادتي
وأنا أرقبُ البهجة الحبيبه
تغادرُ أشعاري إلى الأبد
والضبابُ المتعفّنُ على شاطئ البحر
يتمدّدُ في عيني كسيلٍ من الأظافرِ الرماديه
حيثُ الرياحُ الآسنه
تزأرُ أمام المقاهي
والأذرعُ الطويلةُ ، تلوحُ خاويةً على الجانبين

يطيبُ لي كثيراً يا حبيبة ، أن أجذبَ ثديك بعنف
أن أفقد كآبتي أمام ثغرك العسلي
فأنا جارحٌ يا ليلى
منذ بدءِ الخليقةِ وأنا عاطلٌ عن العمل
أدخّنُ كثيراً
وأشتهي أقربَ النساء إليّ
ولكم طردوني من حاراتٍ كثيره
أنا وأشعاري وقمصاني الفاقعة اللون

غداً يحنُّ إليّ الأقحوان
والمطرُ المتراكمُ بين الصخور
والصنوبرةُ التي في دارنا
ستفتقدني الغرافات المسنّه
وهي تئنُّ في الصباح الباكر
حيث القطعان الذاهبةُ إلى المروج والتلال
تحنُّ إلى عينيّ الزرقاوين
فأنا رجلٌ طويلُ القامه
وفي خطواتي المفعمةِ بالبؤس والشاعريه
تكمن أجيالٌ ساقطةٌ بلهاء
مكتنزةٌ بالنعاسِ والخيبة والتوتر
فاعطوني كفايتي من النبيذ والفوضى
وحرية التلصصِ من شقوق الأبواب
وبنيّةً جميله

تقدم لي الورد والقهوة عند الصباح
لأركضَ كالبنفسجة الصغيرة بين السطور
لأطلقَ نداءاتِ العبيد
من حناجر الفولاذ .

رجل على الرصيف

نِصفُهُ نجوم
ونصفه الآخرُ بغايا وأشجارٌ عاريه
ذلك الشارعُ المنكفئُ على نفسه كخيطٍ من الوحل
وراء كل نافذه
شاعرٌ يبكي ، وفتاةٌ ترتعش ،
قلبي يا حبيبةُ ، فراشةٌ ذهبيه ،
تحوّم كئيبة أمام نهديك الصغيرين .

كنتِ يتيمةً وذات جسدٍ فوّار
ولأهدابك الصافيةِ ، رائحة البنفسجِ البرّي
عندما أرنو الى عينيك الجميلتين ،
أحلم بالغروب بين الجبال ،
والزوارقِ الراحلةِ عند المساء ،
أشعرُ أن كل كلماتِ العالم ، طوعَ بناني .

فهنا على الكراسي العتيقه
ذاتِ الصرير الجريح ،

حيث يلتقي المطر والحب ، والعيون العسليه
كان فمك الصغير ،
يضطرب على شفتي كقطراتِ المطر
فترتسمُ الدموعُ في عيني
وأشعر بأنني أتصاعد كرائحة الغابات الوحشيه
كهدير الأقدام الحافيةِ في يوم قائظ .

لقد كنتِ لي وطناً وحانه
وحزناً طفيفاً ، يرافقني منذ الطفوله
يومَ كان شعرك الغجري
يهيمُ في غرفتي كسحابه . .
كالصباح الذاهب الى الحقول .
فاذهبي بعيداً يا حلقاتِ الدخان
واخفقْ يا قلبي الجريح بكثره . .
ففي حنجرتي اليوم بلبلٌ أحمرُ يودُ الغناء

أيها الشارع الذي أعرفه ثدياً ثدياً ، وغيمة غيمه
يا أشجار الأكاسيا البيضاء
ليتني مطرٌ ذهبي
يتساقط على كل رصيفٍ وقبضةِ سوط
أو نسيمٍ مقبلٌ من غابة بعيده
لألملم عطر حبيبتي المضطجعة على سريرها
كطير استوائي حنون

ليتني أستطيع التجول
في حارات أكثرَ قذارة وضجه
أن أرتعش وحيداً فوق الغيوم .

لقد كانت الشمس
أكثر استدارةً ونعومة في الأيام الخوالي
والسماء الزرقاء
تتسلل من النوافذ والكوى العتيقه
كشرانقَ من الحرير
يوم كنا نأكل ونضاجعُ ونموتُ بحرية تحت النجوم
يوم كان تاريخنا
دماً وقاراتٍ مفروشه بالجثث والمصاحف .

تبغ وشوارع

شعركِ الذي كان ينبضُ على وسادتي
كشلالٍ من العصافير
يلهو على وساداتٍ غريبه
يخونني يا ليلى
فلن أشتري له الأمشاط المذهبه بعد الآن
سامحيني أنا فقيرٌ يا جميله
حياتي حبرٌ ومغلفاتٌ وليل بلا نجوم
شبابي باردٌ كالوحل
عتيقٌ كالطفوله
طفولتي يا ليلى . . ألا تذكرينها
كنت مهرجاً . .
أبيع البطالة والتثاؤبَ أمام الدكاكين
ألعبُ الدّحل
وآكل الخبز في الطريق
وكان أبي ، لا يحبني كثيراً ، يضربني على قفاي كالجارية
ويشتمني في السوق
وبين المنازل المتسلخةِ كأيدي الفقراء

ككل طفولتي
ضائعاً . . ضائعاً
أشتهي منضدةً وسفينة . . لأستريح
لأبعثر قلبي طعاماً على الورق

في البساتين الموحله . . كنت أنظمُ الشعر يا ليلى
وبعد الغروب
أهجر بيتي في عيون الصنوبر
يموت . . يشهق بالحبر
وأجلسُ وحيداً مع الليل والسعال الخافت داخل
الأكواخ
مع سحابة من النرجس البرّي
تنفض دموعها في سلال العشبِ المتهادية
على النهر
هدية لباعة الكستناء
والعاطلين عن العمل على جسر فكتوريا .
هذا الجسرُ لم أره منذ شهورٍ يا ليلى
ولا أنت تنتظرينني كوردةٍ في الهجير
سامحيني . . أنا فقيرٌ وظمآن
أنا انسانُ تبغٍ وشوارع وأسمال .

جفاف النهر

صاخبٌ أنا أيها الرجلُ الحريري
أسيرُ بلا نجومٍ ولا زوارق
وحيد وذو عينين بليدتين
ولكنني حزينٌ لأن قصائدي غدت متشابهه
وذات لحن جريح لا يتبدّل
أريد أن أرفرفَ ، أن أتسامى
كأميرٍ أشقر الحاجبين
يطأ الحقول والبشريه .

وطني . . أيها الجرسُ المعلّقُ في فمي
أيها البدويُّ المشعثُ الشعر
هذا الفمُ الذي يصنع الشعر واللذه
يجب أن يأكلَ يا وطني
هذه الأصابعُ النحيلة البيضاء
يجب أن ترتعش
أن تنسج حبالاً من الخبز والمطر .

لا نجومَ أمامي
الكلمةُ الحمراء الشريدة هي مخدعي وحقولي .
كنت أودُّ أن أكتب شيئاً
عن الاستعمارِ والتسكع
عن بلادي التي تسير كالريح نحو الوراء
ومن عيونهاالزرق
تتساقطُ الذكرياتُ والثيابُ المهلهله
ولكنني لا أستطيع
قلبي باردٌ كنسمةٍ شماليه أمام المقهى
إن شبحَ تولستوي القميء ،
ينتصبُ أمامي كأنشوطةٍ مدلاة
ذلك العجوز المطوي كورقةِ النقد
في أعماق الروسيا .
لا أستطيع الكتابةَ ، ودمشقُ الشهيه
تضطجعُ في دفتري كفخذين عاريين .

يا صحراءَ الأغنية التي تجمع لهيب المدن
ونواحَ البواخر
لقد أقبلَ والليلُ طويلاً كسفينة من الحبر
وأنا أرتطمُ في قاع المدينه
كأنني من وطنٍ آخر
وفي غرفتي الممتلئة بصور الممثلين وأعقابِ السجائر
أحلمُ بالبطولة ، والدم ، وهتاف الجماهير

وأبكي بحرارة كما لم تبكِ امرأة من قبل
فاهبطْ يا قلبي
على سطحِ سفينةٍ تتأهب للرحيل
إن يدي تتلمس قبضة الخنجر
وعيناي تحلقان كطائرٍ جميلٍ فوق البحر .

الغرباء

قبورنا معتمةٌ على الرابيه
والليل يتساقطُ في الوادي
يسيرُ بين الثلوج والخنادق
وأبي يعود قتيلاً على جواده الذهبي
ومن صدره الهزيل
ينتفض سعالُ الغابات
وحفيفُ العجلات المحطّمه
والأنينُ التائهُ بين الصخور
ينشدُ أغنيةً جديدةً للرجل الضائع
للأطفال الشقر والقطيع الميت على الضفة الحجريه .

أيتها الجبالُ المكسوةُ بالثلوج والحجاره
أيها النهرُ الذي يرافق أبي في غربته
دعوني أنطفئ كشمعةٍ أمام الريح
أتألّم كالماء حول السفينه
فالألم يبسط جناحه الخائن
والموتُ المعلقُ في خاصرة الجواد

يلج صدري كنظرةِ الفتاة المراهقه
كأنين الهواءِ القارس .

الخطوات الذهبية

قابلةٌ للموتِ تلك الجباه السكَّريه
قابلة لأن تنشد وتبتسم
تلك الشفاه الأكثر ليونة من العنبِ الخمري .
من رغوة النبيذ المتأججِ على خاصرة عذراء
قصتُها تبدأ الليله
أو صباحَ غد
حيث الغيومُ الشتائيةُ الحزينه
تحمل لي رائحة أهلي وسريري
والسهراتِ المضيئه بين أشجار الصنوبر .

آه كم أود أن أكون عبداً حقيقياً
بلا حبٍّ ولا مال ولا وطن
لي ضفيرةٌ في مؤخرة الرأس
وأقراطٌ لامعةٌ في أذنيّ
أعدو وراءَ القوافل
وأسرجُ الجياد في الليالي الممطره
وعلى جلدي الأسود العاري

يقطرُ دهنَ الاوز الأحمر
وتنثني ركب الجواري الصغيرات
إنني أسمعُ نواحَ أشجارٍ بعيده
أرى جيوشاً صفراء
تجري فوق ضلوعي .

يقولون ، إن شعركَ ذهبيٌّ ولامعٌ أيها الحزن
وكتفيك قويان ، كالأرصفه المستديره
لفَّني يا حبيبي
لفني أيها الفارسُ الوثني الهزيل
إنني أكثر حركه
من زهرة الخوخ العاليه
من زورقين أخضرين في عيني طفله .
أمام المرآة أقفُ حافياً وخجولاً
أتأملُ وجهي وأصابعي
كنسرٍ رمادي تَعِس
أحلم بأهلي واخوتي
بلون عيونهم وثيابهم وجواربهم .

من رأى ياسمينةً فارعةً خلف أقدامي ؟
من رأى شريطةً حمراء بين دفاتري ؟
إنني هنا فناءٌ عميق
وذراعٌ حديديةٌ خضراء

تخبطُ أمام الدكاكين
والساحات الممتلئة بالنحيب واللذّه
إنني أكثر من نجمةٍ صغيرة في الأفق
أسير بقدمين جريحتين
والفرحُ ينبض في مفاصلي
إنني أسيرُ على قلب أُمّه .

جناح الكآبة

مخذولٌ أنا لا أهل ولا حبيبه
أتسكعُ كالضباب المتلاشي
كمدينةٍ تحترقُ في الليل
والحنين يلسع منكبيّ الهزيلين
كالرياح الجميله ، والغبار الأعمى
فالطريقُ طويله
والغابةُ تبتعدُ كالرمح .
مدّي ذراعيك يا أمي
أيتها العجوزُ البعيدةُ ذات القميص الرمادي
دعيني ألمس حزامك المصدّف
وأنشج بين الثديين العجوزين
لألمس طفولتي وكآبتي .
الدمعُ يتساقط
وفؤادي يختنق كأجراسٍ من الدم .
فالطفولة تتبعني كالشبح
كالساقطة المحلولة الغدائر

الرجل الميت

أيتها الجسورُ المحطَّمة في قلبي
أيتها الوحولُ الصافيةُ كعيون الأطفال
كنا ثلاثه
نخترق المدينةَ كالسرطان
نجلسُ بين الحقول ، ونسعلُ أمامَ البواخر
لا وطنَ لنا ولا أجراس
لا مزارعَ ولا سياط
نبحثُ عن جريمةٍ وامرأة تحت نور النجوم
وأقدامُنا تخبُّ في الرمال
تفتحُ مجاريرَ من الدم
نحن الشبيبة الساقطه
والرماح المكسورة خارج الوطن
من يعطينا امرأةً بثياب قطنية حمراء ؟
من يعطينا شعباً أبكماً نضربه على قفاه كالبهائم ؟
لنسمعَ تمزُّق القمصان الجميله
وسقسقةَ الهشيم فوق البحر
لنسمعَ هذا الدويّ الهائل

لستةِ أقدام جريحة على الرصيف
حيث مئةُ عام تربضُ على شواربنا المدمَّاة
مئة عام والمطر الحزين يحشرجُ بين أقدامنا .

بلا سيوفٍ ولا أمهات
وقفنا تحت نور الكهرباء
نتثاءبُ ونبكي
ونقذف لفائفنا الطويلةَ باتجاه النجوم
نتحدثُ عن الحزن والشهوه
وخطواتِ الأسرى في عنقِ فيروز
وغيوم الوطن الجاحظه
تلتفتُ إلينا من الأعالي وتمضي . .
يا ربّ
أيها القمرُ المنهوك القوى
أيها الإلهُ المسافرُ كنهدٍ قديم
يقولون أنك في كل مكان
على عتبة المبغى ، وفي صراخِ الخيول
بين الأنهار الجميله
وتحت ورقِ الصفصاف الحزين
كن معنا في هذه العيون المهشمه
والأصابع الجرباء
أعطنا امرأة شهية في ضوء القمر
لنبكي

لنسمعَ رحيل الأظافر وأنين الجبال
لنسمعَ صليل البنادق من ثدي امرأة .
ما من أمةٍ في التاريخ
لها هذه العجيزةُ الضاحكه
والعيونُ المليئةُ بالأجراس .

لعشرين ساقطة سمراء ، نحملُ القمصان واللفائف
نطلّ من فرجات الأبواب
ونرسل عيوننا الدامعة نحو موائد القتلى
لعشرين غرفة مضاءةٍ بين التلال
نتكيءُ على المدافع
ونضع ذقوننا اللامعة فوق الغيوم .
ابتسمْ أيها الرجلُ الميت
أيها الغرابُ الأخضرُ العينين
بلادُك الجميلةُ ترحل
مجدك الكاذبُ ينطفيءُ كنيران التبن
افتح ساقيك الجميلتين . . لنمضي . .
لنسرع إلى قبورنا وأطفالنا
المجدُ كلماتٌ من الوحل
والخبزُ طفلةٌ عاريةٌ بين الرياح .

يا قلبي الجريح الخائن
أنا مزمارُ الشتاء البارد

ووردةُ العار الكبيره
تحت ورق السنديان الحزين
وقفتُ أدخن في الظلام
وفي أظافري تبكي نواقيس الغبار
كنت أتدفقُ وأتلوى
كحبلٍ من الثريات المضيئة الجائعه
وأنا أسير وحيداً باتجاه البحر
ذلك الطفل الأزرق الجبان
مستعداً لارتكاب جريمة قتل
كي أرى أهلي جميعاً وأتحسسهم بيدي
أن أتسكعَ ليلةً واحده
في شوارعِ دمشق الحبيبه .

يا قلبي الجريح الخائن
في أظافري تبكي نواقيسُ الغبار .
هنا أريد أن أضعَ بندقيتي وحذائي
هنا أريد أن أحرقَ هشيم الحبر والضحكات
أوربا القانية تنزفُ دماً على سريري
تهرولُ في أحشائي كنسرٍ من الصقيع
لن نرى شوارع الوطن بعد اليوم
البواخرُ التي أحبها تبصقُ دماً وحضارات
البواخر التي أحبها تجذبُ سلاسلها وتمضي
كلبوةٍ تجلد في ضوء القمر

يا قلبي الجريح الخائن
ليس لنا إلا الخبز والأشعار والليل
وأنت يا آسيا الجريحه
أيتها الوردةُ اليابسةُ في قلبي
الخبز وحده يكفي
القمح الذهبيُ التائهُ يملأ ثدييك رصاصاً وخمراً .

الليل والأزهار

كان بيتنا غاية في الاصفرار
يموتُ فيه المساء
ينام على أنين القطارات البعيده
وفي وسطه
تنوح أشجارُ الرمّان المظلمةُ العاريه
تتكسّر ولا تنتج أزهاراً في الربيع
حتى العصافير الحنونه
لا تغرد على شبابيكنا
ولا تقفز في باحة الدار .
وكنت أحبكِ يا ليلى
أكثر من الله والشوارع الطويله
وأتمنى أن أغمسَ شفتيك بالنبيذ
وألتهمك كتفاحةٍ حمراء على منضده .

ولكنني لا أستطيع أن أتنهّدَ بحريه
أن أرفرفَ بك فوق الظلام والحرير
انهم يكرهونني يا حبيبه

ويتسربون الى قلبي كالأظافر
عندما أريد أن أسهرَ مع قصائدي في الحانه
يريدونني أن أشهر الكلمه
أمام الليل والجباه السوداء
أن أجلد حروفي بالقملِ والغبار والجرحى
إنني لا أستطيعُ يا حبيبه
وفؤادي ينبضُ بالعيون الشهل
والسهرات الطويلة قرب البحر
أن أبني لهم امبراطورية ترشحُ بالسعالِ والمشانق
أنا طائرٌ من الريف
الكلمة عندي أوزةٌ بيضاء
والأغنيةُ بستانٌ من الفستق الأخضر

حريق الكلمات

سئمتك أيها الشعر ، أيها الجيفةُ الخالده
لبنان يحترق
يثب كفرس جريحة عند مدخلِ الصحراء
وأنا أبحثُ عن فتاة سمينه
أحتكُّ بها في الحافله
عن رجلٍ عربي الملامح ، أصرعه في مكانٍ ما
بلادي تنهار
ترتجفُ عاريةً كأنثى الشبل
وأنا أبحثُ عن ركنٍ منعزل
وقرويةٍ يائسة ، أغرّر بها .

يا ربة الشعر
أيتها الداخلةُ إلى قلبي كطعنة السكين
عندما أفكر ، بأنني أتغزّل بفتاة مجهوله
ببلادٍ خرساء
تأكل وتضاجعُ من اذنيها
أستطيع أن أضحك ، حتى يسيل الدم من شفتيَّ

أنا الزهرة المحاربه ،
والنسرُ الذي يضرب فريسته بلا شفقه .

أيها العرب ، يا جبالاً من الطحين واللذّه
يا حقول الرصاص الأعمى
تريدون قصيدةً عن فلسطين ،
عن الفتحِ والدماء ؟
أنا رجلٌ غريبٌ لي نهدان من المطر
وفي عينيَّ البليدتين
أربعةُ شعوبٍ جريحة ، تبحث عن موتاها .
كنت جائعاً
وأسمع موسيقى حزينه
وأتقلب في فراشي كدودة القز
عندما اندلعت الشرارة الأولى .

أيتها الصحراء . . إنك تكذبين
لمن هذه القبضةُ الأرجوانيه
والزهرةُ المضمومةُ تحت الجسر ،
لمن هذه القبورُ المنكّسة تحت النجوم
هذه الرمالُ التي تعطينا
في كل عام سجناً أو قصيده ؟
عاد البارحةَ ذلك البطل الرقيق الشفتين
ترافقه الريحُ والمدافع الحزينه

ومهمازه الطويل ، يلمع كخنجرين عاريين
أعطوه شيخاً أو ساقطه
أعطوه هذه النجوم والرمال اليهوديه .

هنا . . .
في منتصف الجبين
حيث مئاتُ الكلمات تحتضر
أريد رصاصةَ الخلاص
يا إخوتي
لقد نسيت حتى ملامحكم
أيتها العيونُ المثيرة للشهوة
أيها الله . . .
أربع قاراتٍ جريحة بين نهديّ
كنت أفكر بأنني سأكتسح العالم
بعيني الزرقاوين ، ونظراتي الشاعرية .

لبنان . . يا امرأةً بيضاء تحت المياه
يا جبالاً من النهود والأظافر
اصرخْ أيها الأبكم
وارفعْ ذراعك عالياً
حتى ينفجر الابط ، واتبعني
أنا السفينةُ الفارغه
والريح المسقوفة بالأجراس

على وجوه الأمهات والسبايا
على رفات القوافي والأوزانِ
سأطلق نوافير العسل
سأكتب عن شجرةٍ أو حذاء
عن وردة أو غلام
ارحلْ أيها الشقاء
أيها الطفلُ الأحدبُ الجميل
أصابعي طويلة كالإبر
وعيناي فارسان جريحان
لا أشعارَ بعد اليوم
إذا صرعوك يا لبنان
وانتهت ليالي الشعر والتسكع
سأطلقُ الرصاص على حنجرتي .

وداع الموج

في المرافئ المزدحمة ، يلهثُ الموج
في قعر السفينة يتوهجُ الخمر
وتُضاءُ النوافذ ،
والزبد الحريري ، يرنو الى الأقدام المتعبه
ويتناثر على الحقائب الجميله
هنا بيتي ، وهناك سروتي وطفلي .
ابتعدي أيتها السفنُ الهرمه ،
يا قبوراً من الاجاص والبغايا
عودي الى الصحراء المموجه
والقصور التي تفتح شبابيكها للسياط

إنني أتقدم في ضجة الميناء
أبحث عن محرمة زرقاء وامرأةٍ مهجورة
أرسل نحيبي الصامت
نحو الشارع القديم ، والحديقة المتشابكه
يدي تلوح للنهدين المتألقين تحت الأشجار
للأشعار الميتة في فمي .

سأبكي بحرارة
يا بيتي الجميل البارد
سأرنو الى السقف والبحيرة والسرير
وأتلمس الخزانة والمرآة
والثياب البارده
سأرتجفُ وحيداً عند الغروب
والموتُ يحملني في عيونه الصافيه
ويقذفني كاللفافة فوق البحر .

سرير تحت المطر

الحبُّ خطواتٌ حزينةٌ في القلب
والضجرُ خريفٌ بين النهدين
أيتها الطفلة التي تقرع أجراس الحبر في قلبي
من نافذة المقهى ألمح عينيك الجميلتين
من خلال النسيم البارد
أتحسَّسُ قبلاتكِ الأكثر صعوبةً من الصخر .
ظالمٌ أنت يا حبيبي
وعيناك سريران تحت المطر
ترفق بي أيها الالهُ الكستنائي الشعر
ضعني أغنيةً في قلبك
ونسراً حول نهديك
دعني أرى حبك الصغير
يصدحُ في الفراش
أنا الشريدُ ذو الأصابع المحرقه
والعيونُ الأكثر بلادة من المستنقع
لا تلمني اذا رأيتني صامتاً وحزيناً
فإنني أهواك أيها الصنمُ الصغير

أهوى شعرك ، وثيابك ، ورائحة يديك الذهبيتين .

كن غاضباً أو سعيداً يا حبيبي
كن شهياً أو فاتراً ، فإنني أهواك .
يا صنوبرةً حزينة في دمي
من خلال عينيك السعيدتين
أرى قريتي ، وخطواتي الكئيبة بين الحقول
أرى سريري الفارغ
وشعري الأشقر متهدلاً على المنضده
كن شفوقاً بي أيها الملاك الوردي الصغير
سأرحلُ بعد قليل ، وحيداً ضائعاً
وخطواتي الكئيبه
تلتفت نحو السماء وتبكي .

القتل

ضع قدمك الحجريةَ على قلبي يا سيدي
الجريمةُ تضرب باب القفص
والخوفُ يصدحُ كالكروان
هاهي عربةُ الطاغية تدفعها الرياح
وها نحن نتقدم
كالسيف الذي يخترقُ الجمجمه .

أيها الجرادُ المتناسلُ على رخام القصور والكنائس
أيتها السهولُ المنحدرة كمؤخرة الفرس
المأساةُ تنحني كالراهبه
والصولجان المذهَّبُ ينكسر بين الأفخاذ .
كانوا يكدحون طيلة الليل
المومساتُ وذوو الأحذية المدبَّبه
يعطرون شعورهم
ينتظرون القطار العائد من الحرب .
قطار هائل وطويل
كنهر من الزنوج
يئن في أحشاءِ الصقيع المتراكم

على جثث القياصرة والموسيقيين
ينقل في ذيله سوقاً كاملاً
من الوحل والثياب المهلهله
ذلك الوحل الذي يغمرُ الزنزانات
والمساجد الكئيبة في الشمال
الطائرُ الذي يغني يُزجُّ في المطابخ
الساقيةُ التي تضحك بغزاره
يُربّى فيها الدود
تتكاثرُ فيها الجراثيم
كان الدودُ يغمر المستنقعات والمدارس
خيطان رفيعة من التراب والدم
تتسلّق منصّاتِ العبودية المستديره
تأكل الشاي وربطات العنق ، وحديد المزاليج
من كل مكان ، الدود ينهمرُ ويتلوى كالعجين ،
القمحُ ميت بين الجبال
وفي التوابيت المستعمله كثيراً
في المواخير وساحات الاعدام
يعبئون شحنة من الأظافر المضيئه الى الشرق
وفي السهول التي تنبع بالحنطة والديدان . .
حيث الموتى يلقون على المزابل
كانت عجلاتُ القطار أكثر حنيناً الى الشرق ،
يلهث ويدوي ذلك العريسُ المتقدّم في السن
ويخبط بذيله كالتمساح على وجه آسيا .

كانوا يعدّون لها منديلاً قانياً
في أماكن التعذيب
ومروحةً سميكةً من قشور اللحم في سيبريا ،
كثير من الشعراء
يشتهون الحبر في سيبيريا .

البندقيةُ سريعةٌ كالجفن
والزناد الوحشي هادئٌ أمام العينين الخضراوين
هانحن نندفع كالذباب المسنّن
نلوّحُ بمعاطفنا وأقدامنا
حيث المدخنةُ تتوارى في الهجير
وأسنان القطار محطّمة في الخلاء الموحش
الطفلةُ الجميلة تبتهل
والأسيرُ مطاردٌ على الصخر .
أنامُ وعلى وسادتي وردتان من الحبر
الخريفُ يتدحرج كالقارب الذهبي
والساعات المرعبه تلتهبُ بين العظام
يدي مغلقة على الدم
وطبقةٌ كثيفة من النواح الكئيب
تهدر بين الأجساد المتلاصقة كالرمل
مستاءةً من النداء المتعفّن في شفاه غليظه
تثير الغثيان
حيث تصطُك العيونُ والأرجل

وأنين متواصل في مجاري المياه
شفاه غليظة ورجال قساة
انحدروا من أكماتِ العنف والحرمان
ليلعقوا ماء الحياة عن وجوهنا
كنا رجالاً بلا شرفٍ ولا مال
وقطعاناً بربرية تثغو مكرهة عبر المآسي
هكذا تحكي الشفاه الغليظةُ يا ليلى
أنت لا تعرفينها
ولم تشمي رائحتها القويةَ السافله
سأحدثك عنها ببساطة وصدق وارتياح
ولكن
ألاّ تكوني خائنة يا عطورَ قلبي المسكين
فالحبر يلتهب والوصمةُ ترفرف على الجلد .

غرفتي مطفأةٌ بين الجبال
القطيع يرفع قوائمه الحافيه
والأوراق المبعثرة تنتظر عندليبها
وندلفُ وراء بعضنا الى المغسله
كجذوع الأشجار يجب أن نكون
جواميس نتأملُ أظلافها حتى يفرقع السوط
نمشي ونحن نيام
غفاة على البلاط المكسو بالبصاق والمحارم
نرقد على بطوننا المضروبة بأسلاك الحديد

ونشرب الشاي القاحلَ في هدوءٍ لعين
وتمضي ذبابة الوجود الشقراء
تخفقُ على طرف الحنجره
كنا كنزاً عظيماً
ومناهلَ سخيه بالدهن والبغضاء
نتشاجرُ في المراحيض
ونتعانق كالعشاق .

أعطني فمك الصغير يا ليلى
أعطني الحلمةَ والمدية اننا نجثو
نتحدثُ عن أشياء تافهه
وأخرى عظيمة كالسلاسل التي تصرُّ وراء الأبواب
موصدة . . موصدة هذه الأبواب الخضراء
المنتعشة بالقذاره
مكروهة صلده
من غماماتِ الشوق الناحبة أمامها
نتثاءبُ ونتقيأُ وننظر كالدجاجِ الى الأفق
لقد مات الحنان
وذابت الشفقة من بؤبؤ الوحشِ الانساني
القابعِ وراء الزريبه
يأكل ويأكل
وعلى الشفة السفلى المتدلية آثار مأساة تلوح
أمي وأبي والبكاء الخانق

آه ما أتعسني إلى الجحيم أيها الوطنُ الساكن في قلبي
منذ أجيال لم أرَ زهره .

الليالي طويله والشتاءُ كالجمر
يومٌ واحد
وهزيمةٌ واحدة للشعب الأصفر الهزيل
إنني ألمس لحيتي المدبَّبه
أحلم برائحة الأرض وسطوح المنازل
بفتاةٍ مراهقةٍ ألعقها بلساني
السماء زرقاء
واليد البرونزيةُ تلمس صفحة القلب
الشفاهُ الغليظةُ تفرز الأسماء الدمويه
وأنا مستلقٍ على قفاي
لا أحدَ يزورني أثرثرُ كالأرمله
عن الحرب ، والأفلام الخليعه ، ونكران الذات
والخفير المطهَّم ، يتأمل قدميَ الحافيتين
وقفتُ وراء الأسوار يا ليلى
أتصاعد وأرتمي كأنني أجلس على نابض
وقلبي مفعمٌ بالضباب
ورائحة الأطفال الموتى
إن أعلامنا ما زالت تحترقُ في الشوارع
متهدلة في الساحات الضاربة إلى الحمره
كنت أتساقط وأحلم بعينيك الجميلتين

بقمصانك الورديه
والهجير الضائع في قبلاتكِ الأخيره
مرحباً بكِ ، بفمك الغامقِ كالجرح
بالشامة الحزينة على فتحةِ الصدر
أنا عبدٌ لك يا حبيبه
ترى كيف يبدو المطر في الحدائق ؟
ابتعدي كالنسيم يا ليلى
يجب ألا تلتقي العيون
هرم الانحطاطِ نحن نرفعه
نحن نشكُّ راية الظلم في حلقاتِ السلاسل
بالله لا تعودي
شيءٌ يمزقني أن أراهم يلمسونك بغلظه
أن يشتهوك يا ليلى
سألكمُ الحديد والجباه الدنيئه
سأصرخُ كالطفل وأصيح كالبغي
عيناكِ لي منذ الطفولة تأسرانني حتى الموت .

انطفأَ الحلم ، والصقرُ مطاردٌ في غابته
لاشيء يذكر
إننا نبتسمُ وأهدابنا قاتمةٌ كالفحم
هجعت أبكي أتوسَّل للأرض الميتة بخشوع
أوّاه لم زرتني يا ليلى ؟
وأنت أشدُّ فتنةً من نجمة الشمال

وأحلى رواءً من عناقيد العسل
لا تكتبي شيئاً سأموتُ بعد أيام
القلبُ يخفق كالمحرمه
ولا تزال الشمس تشرق ، هكذا نتخيل
اننا لا نراها
وعلى حافة الباب الخارجي
ساقيةٌ من العشب الصغير الأخضر
تستحمُّ في الضوء
وثمة أحذية براقة تتنقّل على رؤوس الأزهار
كانت لامعة وتحمل معها رائحة الشارع ، ودور السينما
كانت تدوس بحريه
ووراء الباب الثالث
يقومُ جدارٌ من الوهم والدموع
جدار تنزلق من خلاله رائحة الشرق
الشرق الذليل الضاوي في المستنقعات
آه ، إنَّ رائحتنا كريهه
اننا من الشرق
من ذلك الفؤاد الضعيف البارد
إننا في قيلولةٍ مفزعةٍ يا ليلى
لقد كرهتُ العالم دفعة واحده
هذا النسيجَ الحشريَّ الفتاك
وأنا أسير أمام الرؤوس المطرقة منذ شهور
والعيون المبلَّلة منذ بدء التاريخ

ماذا تثير بي ؟ لاشيء
انني رجلٌ من الصفيح
أغنية ثقيلة حادة كالمياه الدفقه
كالصهيل المتمرد على الهضبه .
هضبة صفراء ميتة تشرق بالألم والفولاذ
فيها أكثرُ من ألف خفقة جنونيه
تنتحبُ على العتبات والنوافذ
تلتصقُ بأجنحة العصافير
لتنقل صرخةَ الأسرى وهياج الماشيه
من نافذة قصرك المهدمة ، ترينها يا ليلى
مرعبة ، سوداء في منتصف الليل
ومئات الأحضان المهجورة تدعو لفنائها
وسقوطِ هامتها
وردمها بالقشِّ والتراب والمكانس
حتى لو قدِّر للدموع الحبيسة بين الصحراء والبحر
أن تهدرَ أن تمشي على الحصى
لازالتها تلك الحشرةُ الزاحفةُ الى القلب
بالظلم والنعاس يتلاشى كل أثر
بالأنفاس الكريهة
والأجساد المنطوية كالحلزونات
بقوى الأوباش النائمة بين المراحيض
سنبني جنينة للأطفال
وبيوتاً نظيفه ، للمتسكعين وماسحي الأحذيه .

أتى الليل في منتصف أيار
كطعنة فجائية في القلب
لم نتحركْ
شفاهنا مطبقةٌ على لحن الرجولة المتقهقر
في المقصورات الداخلية ثمة عويل يختنق
ثمة بسالة مضحكة في قبضة السوط
الأنوارُ مطفأة . . لماذا ؟
القمرُ يذهب الى حجرته
وشقائق النعمان تحترق على الاسفلت
قشٌ يلتهبُ في الممرات
وصريرُ الحطب يئنُّ في زوايا خفيه
آلاف العيون الصفراء
تفتِّشُ بين الساعات المرعبة العاقة
عن عاهرةٍ ، اسمها الانسانيه
والرؤوس البيضاء ، مليئة بالأخاديد
يا رب تشرق الشمس ، يا إلهي يطلع النجم
دعه يغني لنا إننا تعساء
عذبْنا ما استطعت
القملُ في حواجبنا
وأنت يا ليلى لا تنظري في المرآة كثيراً
أعرفك شهيةً وناضجه
كوني عاقلة وإلا قتلتك يا حبيبه .

لتشرق الشمس
لتسطع في إلية العملاق
الحدأةُ فوق الجبل
الغربةُ جميلةٌ ، والرياحُ الزرقاء على الوساده
كانت لها رائحة خاصه
وطعم جيفيّ حار ، دعه
ملايين الابر تسبح في اللحم .

أين كنتَ يوم الحادثه ؟
كنت ألاحقُ امرأةً في الطريق يا سيدي
طويلةً سمراء وذات عجيزة مدملجه
إنني الوحيد الذي يمرُّ في الشارع دون أن يحييه أحد
دعني ، لا أعرف شيئاً
اطلقْ سراحي يا سيدي أبي مات منذ يومين
ذاكرتي ضعيفه ، وأعصابي كالمسامير .
أنا مغرمٌ بالكسل
بعدة نساءٍ على فراشٍ واحد

الجريمة تعدو كالمهر البري
وأنا ما زلت ألعقُ الدم المتجمدَ على الشفة العليا
مالحاً كان ، من عيوني يسيل
من عيون أمي يسيل
سطّحوه على الأرض

الأشرعة تتساقط كالبلح
لقد فات الأوان
إنني على الأرض منذ أجيال
أتسكع بين الوحوش والأسنان المحطمه
اضربه على صدره انه كالثور
سفلَه ، دعني آكل من لحمه
بشدةٍ كان الألم يتجه في ذراعي
بشدة ، بشدة ، نحن عبيد يا ليلى
كنت في تلك اللحظه
أذوق طعم الضجيج الانساني في أقسى مراحله
مئات السياط والأقدام اليابسه
انهمرتْ على جسدي اللاهث
وذراعي الممددة كالحبل
كنت لا أميّزُ أيَّ وجهٍ من تلك الوجوه
التي نصادفها في السوق والباصات والمظاهرات
وجوهٌ متعطشةٌ نشوى
على الصدر والقلب كان غزالُ الرعب يمشي
بحيرة التماسيح التي تمرُّ بمرحلة مجاعه
مجاعة تزدردُ حتى الفضيله
والشعورَ الالهي المسوَّس
لقد فقدنا حاسة الشرف
أمام الأقدام العاريةِ والثياب الممزقه
أمام السياط التي ترضعُ من لحم طفلةٍ بعمر الورد

تجلد عاريةً أمام سيدي القاضي
وعدة رجال ترشحُ من عيونهم نتانةُ الشبق
والهياجُ الجنسي
وجوه طويلة كقضبان الحديد
تركتني وحيداً في غرفة مقفلةٍ ، أمضغ دمي
وأبحث عن حقد عميق للذكرى .

النجيع ينشدُ على طرف اللسان
والغرابُ ينهض الى عشّه
الألمُ يتجول في شتى الأنحاء
والمغيص يرتفعُ كالموج حتى الهضبه
كادت تنسحب من هذا النضال الوحشي
من هذا المغيص المروع
رأسي على حافة النافوره
وماؤها الفضي يسيلُ حزيناً على الجوانب
من وراء المياه والمرمر
يلوح شعرُ قاسيون المتطاير مع الريح
وغمامةٌ من المقاهي
والحانات المغرورقة بالسكارى
تلوح بنعومة ورفقٍ عبر السهول المطأطئة الجباه
لم يعد يورقُ الزيتون
ولم تدرْ المعاصر ، كلهم أذلاّء
وأضلاعي تلتهبُ قرب البحيره

انها تسقي الزهور ، أنا عطشان يا سيدي
في أحشائي الصحراء
انقذني يا قمر أيار الحزين .

استيقظي أيتها المدينة المنخفضه
فتيانك مرضى ،
نساؤك يجهضن على الأرصفه
النهد نافر كالسكين
أعطني فمك ، أيتها المتبرجةُ التي تلبس خوذه .

بردى الذي ينساب كسهلٍ من الزنبق البلوري
لم يعد يضحك كما كان
لم أعد أسمع بائع الصحف الشاب
ينادي عند مواقف الباصات
الحرية منقوشة على الظهر
واللجام مليء بالحموضه .
ضعْ قدمك الحجريةَ على قلبي يا سيدي
الريحُ تصفر على جليد المعسكرات
وثمة رجل هزيل ، يرفع ياقته
يشرب القهوه
ويبكي كإمرأةٍ فقدت رضيعها

دعْ الهواء الغريب
يكنس أقواس النصر ، وشالات الشيوخ والراقصات
انهم موتى
حاجز من الأرق والأحضان المهجوره
ينبت أمام الخرائب والثياب الحمراء
وذئاب القرون العائدة بلا شاراتٍ ولا أوسمه
تشقُّ طريقها داخل الدم
تموتُ على الرمال البهيجه الحاره
لاشيء يُذكر الأرض حمراء
والعصافير تكسر مناقيرها على رخام القصر .
وداعاً ، وداعاً إخوتي الصغار
أنا راحلٌ وقلبي راجعٌ مع دخان القطار .

غرفة بملايين الجدران

أوراق الخريف

طالما عشرون ألف ميلٍ بين الرأس والوساده
بين الحلمة والحلمه
لن أعود إلى المسرح بأصابعَ محطَّمه
والحبر ينزف من غرتي على الجدران والقاعات .
سأعيشُ هكذا
زهرةً يرويها الدمُ وتقصفها الريحْ
لأروي ظمئي العميق
إلى الرمل والجنونْ
للتشفي من بلادٍ حزينه
تتأرجحُ أسنانها كالحبال على مدخل التاريخ .

* * *

طالما عشرون ألف ميل بين الغصنِ والطائر
بين السنبلة والسنبله
سأجعلُ كلماتي مزدحمةً كأسنانٍ مصابةٍ بالكزاز
وعناويني طويلةً ومتشابكة كقرون الوعل

* * *

ولكن كما هو الثدي الفوّار
بحاجةٍ الى الأصابع الوثنيّه
والزنود المشمَّرة مع جلدها حتى الابط
كذلك أنا
بحاجة إلى شيء مجهول
له نعومةُ النهدِ وشراسة الصقر
يقبضُ عليّ من معصمي كالسارق
يلتفُّ حول طاولتي كلجام من الصمغ .

* * *

ولكن . .
تنقصني العيون الصافيه
والشعرُ المسترسل إلى الوراء
القدرةُ على سَبْكِ الكلمات
وتشذيبها كأذرع خارجة من القبر
ينقصني العمرُ والإيمان
الكوخ الأزرق الذي أحلم به
والطاولة المحدَّبة التي أشتهيها
حيث لا وطنَ للمرافق
ولا مقرَّ للدموع .

* * *

ولكن . .
بعضُ الكلماتِ زرقاء أكثر مما يجب
صعبة وجامحه

وترويضها كترويض الوحش
ولكنني سأكافحُ بلا رحمه
بلا أزهارٍ أو طبول
متَّكئاً على طاولتي كالحداد
مستلقياً على قفاي كالشريد
حتى أحسَّ الحياة كلها
الحياة والحب والدمار
العسل والريح والسياط
تتطايرُ وتلتهب
تتطايرُ وتهوي كأوراق الخريف في الغابات .

* * *

لأن الكلماتِ الأخيرةَ ستقالُ في ليلة ما
لأن يدي
سفينةٌ مطفأةٌ بين دربين من النجوم
سأهجرُ المطر والريح
سأترك الجوعَ يتراكم بين أسناني
كما يتراكم الثلج على أجنحة العصافير
لأجل العيون الغريبه
والنجومِ المهترئة كأصابع القدم
سألبسُ المعاطف الجلديه
وياقاتِ الفروِ الحمراء
سأنتعل أحذية العمال الموتى
وآكل في مطاعمهم ذات الأجراس

سأكونُ شهماً وضالاً
ولي عنفوان الآلهه
سأجعلُ الهموم تتراكم على شفتي
كما يتراكم الجليد على أفواه المغارات الأثريه
أترك غبار المكانس والقطاراتِ
يملأ أذني
وألتفُّ حول قصائدي كالذيل
لا أريد أن أسمع شيئاً
لا المطرَ ولا الموسيقى
لا صوت الضحية ولا صوت الجلاد
لن أسمع إلاّ طقطقة القصائد في جيوبي
وارتطام الحقائب على ظهري من مكان إلى مكان .

نجوم وأمطار

في فمي فمٌ آخر
وبين أسناني أسنانٌ أخرى .

* * *

يا أهلي . . يا شعبي
يا من أطلقتموني كالرصاصةِ خارجَ العالم
الجوعُ ينبضُ في أحشائي كالجنين
إنني أقرضُ خدودي من الداخل
ما أكتبه في الصباح
أشمئزُّ منه في المساء
من أصافحهُ في التاسعه
أشتهي قتله في العاشره
أريد زهرةً كبيرةً بحجم الوجه
ثقباً كبيراً بين الكتفين
لتنبثقَ ذكرياتي كلُّها كالينبوع
أصابعي ضجرةٌ من بعضها
وحاجباي خصمان متقابلان .

* * *

أريدُ أن أهزَّ جسدي كالسلك
في احدى المقابر النائية
أن أسقطَ في بئرٍ عميقه
من الوحوش والأمهات والأساور
لقد نسيت شكل الملعقة وطعمَ الملح
نسيتُ ضوء القمر ورائحة الأطفال
ان أحشائي مليئةٌ بالقهوة البارده
والمياه العمياء
وحنجرتي مفعمةٌ بقصاصات الورق وشرائح الثلج
أيها الماءُ القديم
أيها الماء النيئ . . كم أحبك .

* * *

بياقات صلبةٍ تصل حتى الذقن
بشفاه دبقة ومعاصم تخنقها الأزرار
نقف لنأكل
نقفُ لنشتاق
نهوي على الذباب بالقصائدِ والمناديل
لنلمحَ شجرةً أو طائراً يمضي .
بأقدامٍ صغيرة لا تعرف الرحمه
نتكئ على الأرض
ونقذف أضلاع الريف من شارع إلى شارع .

* * *

كنتُ أصعدُ الأدراج الملتوية مئات المرات

نظيفاً كالقطن
لمَّاعاً كورق الآس .
اصعدُ وأهبطُ كخنجرِ القاتل
بأحذيةِ الشهرة ، وأحذية البغضاء
معلقاً تعاستي في مسامير الحائط
غارساً عينيَّ في الشرفات البعيده
والأنهار العائدة من الأسر
رأيتهم جميعاً تحت السماء الصفراء
أغنياء ومسالمين
فقراء ووحوش
ملايين الأسنان تصطدمُ في الشارع
ملايين الوجوه المقطَّبه
تخفض بصرها تحت الرعد
رأيت الجنازاتِ المسرعه
وأعنَّة الجياد البربرية تلتهبُ في الشوارع
والعمال يسقطون من الأدوار العليا
يقبرون باحكام تحت المطر الحزين
مع تبغهم وثيابهم وصُرَرِ طعامهم
دون أن يثورَ شيء ما في الصحراء
الريحُ تصفرُ فوق النجيع
والقبورُ الصغيره
تتساقطُ كالندى على القبعاتِ والمعاطف .

* * *

رأيتُ النسيم المعلَّب
والصحف المرتطمةَ بالأمطار
شربتُ المياه المسنَّه
ولعقتُ الزبدة التي فيها دماء الثدي
ولم تساورني الشكوك أبداً
في هذه الأرض النائمة كالطفل
في هذه الأرض المحدودبة كالجزّار
ولكن من خلال الشبابيك
من خلال الآلاف المؤلفه
من النجوم والجثث والمطارق الناريه
كنت أبحثُ عن ضربةٍ قاصمة لوجهي
عن بحر صغير أنتعله بقدمي
وطعام متكبِّر
أطويه على زندي كالوشاح .
لقد مللتُ السلالم الطويلة وقاعات الانتصار
أريد أن أشوي الذرة عند الغروب
أن آكل الحجر والحصى عند الغروب .

* * *

أريد أن أضمَّ إلى صدري أيَّ شيءٍ بعيد
زهرةً بريةً
أو حذاء موحلاً بحجم النسر
أريد أن آكل وأشرب وأموت
وأنام في لحظة واحده

إنني مسـرع مسرع
كغيمة أصيبت بالجرب
كموجةٍ وحيدة مطاردة في البحر .

خيانة

كان ينتظرني في العاشرة مساء
وعيناه تومضان كنبعين متجاورين
ذلك الرجلُ الغريب
وقد أتى مسرعاً في العربة الأخيره
من القطارِ الأخير
ليقذفَ لفائفه من الأدوار العليا
ويمدَّ يدهُ كالبندقية من النافذه .

* * *

وأنا أغذُّ السير في الضواحي
بين الوحولِ وصفائحِ التنك
حيث المطرُ ينهمر
والنوافذُ البعيده
تلمع كنظَّارات تغطيها الدموع .

* * *

كانت الحربُ في نهايتها
والأشجارُ الكثيفة تعلوها الأزهار .
كانت الحربُ في بدايتها

والأنهارُ الممزقه
تسافر نحو الجنوب
تعلوها جبالٌ من الرعد والزكام
وذباب المطاعم المقفره
يحوم فوق المنعطفات وعورات التماثيل .

* * *

كان يقبِّلُ حبيبته على الشرفه
بعد أن أيقظها بحذائه
وغطَّى سريرها بالغبار وقشِّ المعتقلات
دافعاً يديها الى الوراء
منحنياً على صدرها
كأحد تلك التماثيل النحاسية
التي تُنْصَبُ في ساحات الانتصار
لاعقاً غضاريف الأذن والحواجب
كما تُلْعَقُ أطراف المغلَّفات .
لقد كانت الحربُ في نهايتها
ونهداها الأزرقان
يتأرجحان تحتَ المطر كمثانتين فارغتين .

* * *

«لقد نهبوها
لقد تركوا لي العطر . . الغضاريف
والستائر المضرَّجة بالدماء»
. . . وأنا أجلسُ كالجرذِ عند العتبه

أعدُّ الغيوم وحلقاتِ الدخان
لقد كان صديقي الوحيد
وطفلته الجميلة من صلبي .

الرجل المائل

لأجلك أيها الطائش
أيها الرخيمُ كالعصفور
أمسك الملعقةَ من ذيلها
أمرِّرُها بين نهديَ كالزنبقه .

* * *

منذ شهورٍ وهو راقدٌ بجوارنا
متلألئاً كالسيف تحت المياه
يكتب ويدخِّنُ ويبكي
ولا ينظر إلينا .
ساعات طويلة وهو يغنّي
وهو يبكي فوق النفايا البربريه
يمسك المرآة بيديه
يشدُّها كجلدة الصدر
بحثاً عن الأيام الغابره
والفرسان الذين أخرجوا من أوكارهم
بأطراف الأحذيه
ثم يمدُّ رأسه خارج النوافذ

كأنه يحمل قريةً صغيرة بين أسنانه .

*   *   *

في ليالي الشتاء
كنت أرنو إليه من شقوقِ الأبواب
أتأمل جلده الفضفاض
وصدره الهادئ كالحقل
ألصِقُ نهدي على قبضة الباب
أغرسه في مسامير الباب
وأبكي
ولا ينظرُ إليّ
يسير حافياً على البلاط العاري
هامساً كالجاسوس
وأوتارُ ظهره نافرة كأوتار القيثارات
يردّد كلماتٍ لا أفهمها
عن المطر والأشرعه
وحقول الأرز الصفراء
ويضرب طاولته في الزوايا بإحكام
كمن يبني جسراً لجيش يتقهقر
ثم يقعي أمام النافذه
يتّكئ على الجدران الأربعة ويغني
الأيام الجميلة مضتْ
الأيام الراسبة في الوديان
وقاع الفناجين

تسعى كالنمل على أرجلِ الطاولات
تلتهم الخبز والخمروأطراف المسدسات .
ثم يثب كالراقصة الى السرير
وذراعاه الأشقران
متدليان على جانبَيْ السرير
كأنه يبحث عن حقائبَ ما . . في الظلام
عن عنقٍ ما . . يخنقه .

* * *

كنت أقضي الساعاتِ الطويله
بعد أن ينامَ أطفالي
وتتقابل أنوفهم الصغيره
كعيون العشاق في المقاهي
أتأمل قفا قدميه السمراوين
أتأملُ آلاف الأميال
والطرقات المتربة الحارة التي أجتازها
ألمح القشَّ والدم والسياط
فوق ظهره الهارب
أتخيَّلُ وجهه الأبيض الحبيب وهو
يتصبَّبُ عرقاً في الأدغال
وأرجله العاليه
تغوصُ في الوحل والشوكِ والمقابر
من أجل الحريه
من أجل الكسل والفوضى .

* * *

كنت أشتهي تقبيله وصفعه كالعبد
أن أرقدَ بجواره كالطفله
وأمضغَ شفتيه كاللبَان
ذلك الذي يرخي قدميه من النافذة
كبوقين مكسورين .

* * *

وفي يوم من الأيام
عطّرْتُ جسدي وشعري ودموعي
وتخيَّلْتُ جسده الهارب فوق جسدي
زنده الموحش
يلفُّني كالأفعى المريّشه
تخيَّلت كلّ طيور العالم
تلتقي وتفترق بين نهدي .

* * *

قرعتُ الباب بهدوء
وأسلمت عينيّ لوجهه الحبيب
للسفن المبعثرة كالعَلَقِ على قدميه
فلم أجد غير الريح
والأوراق الممزقه .
سريره فارغٌ
وثيابه مسلوخةٌ عن الجدران
والمطرُ يضرب النوافذ كالجلاّد
كان وسط الشارع يغيبْ
زافراً كأولئك الثوار المشبوهين
يتأبط ثيابه وكتبه ووطنهْ .

منزل قرب البحر

ماذا يريد الصدرُ البرونزي
والبحرُ الرّاكب فرسه الجميلة
لا أريد الشوارع قصيرةً هكذا
أريدها عميقة وهيّابه
طويلة وفاتنه
كأحشاء مبعثرة في الريح
أريد فقط
وللحظة واحده
أن أداعب الزبدَ الأبيض بعقالي
وأنا مبحرٌ إلى مكان ما
تحت مطر حزين . . حزين
أن أرى بلادي الجائعه
تبتعد عني
زهرة زهرة وشجرة شجره ،
أن أرى الفقرَ والوطنية والمساواة
من نوافذ السفن
حيث الطيورُ المائيّةُ الكسلى

تبيضُ على قبْعتي
وتشعل لي لفافتي المائلة مع الريح

* * *

لا أريد أباً يلوّح بشملته
أو حبيبةً تنعقُ لأجلي كالغراب
أريد أن أرحل هكذا
فقيراً وكسولاً
في كل عام أخطو خطوة
وفي كل جيل أكتب كلمه .

* * *

لقد آن الأوان
لتمزيق شيء ما
للابحار عنوةً تحت مطر حزين حزين . . .
لا كمغامر
تلفُّه سيول من الحقائبِ والأزهار
بل كفأرٍ خسيس
كفأر دامع العينينْ
يستيقظ مذعوراً
كلما ناحت إحدى البواخر
وتألقت مصابيحها
كعيون الضباع المبلَّله .

* * *

يا أرصفةَ أوروبا الرائعه

أيتها الحجارةُ الممدّدة منذ آلاف السنين
تحت المعاطفِ ورؤوس المظلاتْ ! ؟
أما من وكرٍ صغير
لبدويٍّ من الشرقْ ؟
يحمل تاريخه فوق ظهره كالحطّاب .

* * *

لا . .
لن أرحل تحت النجوم
ولن أطأ أمواجك الصافية بحذائي
سأظلُّ في مؤخرة السفينه
أنهشُ خشبها كاللحم
أعبرها موجةً موجةً ، على رؤوس الأظافر .

* * *

سأصنع أوكاراً ملتوية بين الأمواج
ملتوية وعميقة كالأزقه
أختبئ فيها من العواصف
وزمجرات الريح
سأصنع وسادة من الأمواج العتيقه
وأنام بثيابي وحذائي ودفاتري
حتى الصباح .

* * *

سأشقُّ طرقاتٍ واسعةً للتسكع
وأزرع جوانبها

بالأشجار والمقاعد الفارغه
سأبحث عن سمكة صغيره
بعينين عسليتين
أبحث عن أثدائها بأصابعي
وأعقدُ قراني عليها
تحت وهج القمر ونيران المذابح .
سأصنع لها شعراً طويلاً من شرايين المياه
وصدراً ناهداً
من عيون البحارة القدامى
أكتب لها الأشعار
وأتجوّلُ معها في أعماق البحر الخلاب
كما يتجول العاشقان في الأسواق .

* * *

وتحت غيوم الكستناءِ الزرقاء
بين عواء الزنوج
وصرير النهود البريَّه
حيث يودّعني البحر ، وهو يسعلُ ويتنهد
كرجلٍ مدمنٍ على التبغ
سأغوص بحراشفي باتجاه الجزر والأدغال
حيث دموعُ النسور تتراكم كالطمي
والكلماتُ الوحشيه
تتدلّى من الأشجار كثمر التين .
لن أكون ضجراً هناك

وأنا أختال كالطاووس
في غرفِ الفحم الملتهب
حيث يتصبَّبُ عرقي على الحقائب
وغدائر المسافرات
حاملاً أطفالهن على مداخل الجزر
ضاغطاً أثداءهن الصغيرة بكتفي وظهري
رافعاً دفاتري القروية كالسيف البراق
في وجه العالم أجمع .
وفي الليل
عندما تظلمُ الأمواج كالقبور
وتسيل دماء الأسرى تحت الأشرعة الغاربه
سأقفُ على موجة عاليه
كما يقف القائد على شرفته
وأصرخ :
إنني وحيد يا إلهي .

مصافحة في أيار

ـ هل وجدتَ عملاً ؟

ـ لا

ـ هل كتبتَ شيئاً ؟

ـ لا

ـ هل أحببتَ أحداً ؟

لا

لا . . ولكنني أشعر بزهوِ الجلاَّد

بأنين الطيّار الذي يضربُ وطنه بقنابله

إنها تثير قرفي تلك السماء الزرقاء

إنها تثير شهوتي

تلك الأرصفة الطويلة الملساء .

الأرض والسماء والجبال الضخمه

الوحلُ والغضب

الموسيقى الناعمة تثير شفقتي .

ولكن صوتي خافتٌ وضعيف

وقلبي يذهبُ ويجيء كالفقاعةِ تحت الجلد

كعصفور أخضرَ بين سحابتين مهجورتين

لقد اهترأتْ ذقوننا على المناضد
والتوتْ أنوفنا من القبلات الطويله .
ـ هل ترحل ؟
ولماذا ؟
هل لأعودَ في أواخر العمر
على عكازين وسخين
وأتمرَّغُ على أول رصيف
يلوحُ لي من الوطن
أم لأعودَ لابساً قبعة من القش
متأبطاً ذراع امرأه
ضاجعها رجالٌ بعدد النجوم .
لا
سأظلُّ متكئاً على ريشتي حتى الشيخوخه
متكئاً على مرفقي
حتى يسيلَ اللحم على الخشب .

* * *

لا . . إلى حفّار القبور
أيها الأبله
إلى قبرٍ يتدلى كالجرس من عنق الصحراء
السهولُ التي نحلم بها لم توجد بعد
الانزواء في الغرف الرطبه
أيها الأبطال المجانين
الانزواء في الخنادق التي دمَّرتْها الحرب

وشوّهتها أقدامُ المنتصرين .
هذه ليست أصابع لكتابة الشعر
إنها مشاجبُ قديمةٌ للأظافر
وهذه ليست أرجلاً للمشي
إنها قطعٌ كبيرة من اللحم
لضربِ الاسفلت
للوداع ، للشهره
للاحتكاكِ بالوطن . . . بالسراويل .

* * *

الانحناء كالصقور الهاربه
أيها الشعراء الموتى
الاختباء في زحام القطارات
وتحت أذرع التماثيل.
الرقاد على الحصى والغبار
على بطون الزوجات المتسخة
برائحة السمك والصابون
حتى تبزغَ شمسٌ جديده
وعقولٌ جديده
تفهم نعاسنا في المقاهي
وقهقهاتِنا خلف رذاذ السفُنِ وبكاء المدافع .

* * *

الرجلُ المائلُ فوق البحيره
يخطو نحوكم كالجلأَّد

الفلاحُ الحامل عقاله بين شفتيه
يخاطبكم وهو يهتزّ كالراقصه :
الأشجارُ ترحل خلسةً في الليل
تعود خلسة في الليل
سيطلع بؤسٌ كبيرٌ من قلب الحضاره
ستطلع أزهار قرعاء
وسنابل تتضوَّر جوعاً وعهراً
من قلب السهول التي أحببناها
من وراء النوافذ والنظّارات
حيث لن تبقى إلا السماء المجدبه
وآثار النجوم
الشبيهة بآثار الماشية في الصحراء .

* * *

يا صديقي
ضع لفافةً الى جانبي وارحل
لا . . .
تعالَ إلى نور المصابيح
لأراكَ وأنت تمشي
لأراك وأنت تعطي !!

بكاء في رحلة صيد

أحبُّ أن أرثي ذلك الرجل
وأنا مشوَّهٌ وطريد
في تلك الأقاليم الغائمه
حيث الجيادُ تصهل
والقمرُ يشبّ كالحيوان خارج الوطن .
أحبُّ أن أرثي ذلك الرجل
أن أحملَ نعشه بيدي كاللفافه .

* * *

منذ عشرين عاماً
رأيته يرفعُ غدائره بيده
يلوِّحُ بسوطه فوق أرضنا المغتصبه
وكلابُ صيده تخشخشُ بأطواقها المعدنيه
داخل الضباب الممزَّق بالرصاص .

* * *

أنا وحدي الطفل الأبله
ذو العين الدبقه
والشعر المسترسل على كتفي كالصوف

كنت أنامُ في الصناديق
وأسافر في الشاحنات
أتسلّق أشجار السرو حتى نهايتها
لأرى بصيلاتِ شعره وسواحلَ فمه
لأرى فكَّهُ الأبيض
وهو يقرضُ النهود والخضراوات
لأرى الحبَّ والفقر من علوٍّ شاهق
أرفع سروالي وأتمتم كالعصفور :
مولاي !!
إنني ضجر يا مولاي !!
أرسلني مع بضائعك وقبعاتك إلى مكان آخر
أكتبْ اسمي على حوافر جيادك
واركضْ بي كالصاعقه فوق الصخور
فالرمالُ في بلادي لا تجيد القراءه
والغبارُ لا يحبُّ عيون الأطفال :

* * *

وكان يبكي في الشتاء
يرقصُ وحيداً في الزمهرير
ينظرُ إلى أمهاتنا وأخواتنا
وقد فتَّت الزحامُ أثداءهن
كنت أرهبُه وأعبده
وأنا ألمح أرضي الحبيبه
تثبُ وتضحكُ وتتألم

من خلالِ الحوافرِ وأغلفةِ الرصاص
أرض بيضاء كالمرهم
مليئة بروث الجياد والدم وسراويل النساء الباكيات
وهو يصعدُ التلال بعنفِ القراصنه
تاركاً فمه الأحمر
يئزُّ كالفراشة فوق الكروم
فوق التلال المقلوبةِ كالمناضد
وأمواج البدو والعسكريين الزرق
ينحدرون كالعاصفه
بين الأنهار والملاءاتِ السود
حيث الغربانُ تبكي
والفضاءُ مظلمٌ كفوهة المدفع .
وكنت وحدي . . أعود إلى القرية المهجوره
والترابُ السّاخن يسلُقُ قدمي
منحنياً خلف الأسيجه
منتصباً كالفأر على رماد التاريخ
والحبر يلمعُ بين أسناني كالسكين .
لماذا لا يكون لي بنطالُهُ وشعرُهُ وسوطه ؟ ؟
لماذا لا تكون لي هذه الماشيه ؟
وهذه الطبول ؟

* * *

لقد كان من تلك السلالات المنقرضه
التي ترجّل شعرها عند المنعطفات

وفوق سطوح الفنادق
وكنا نحن بعض الصبية القذرين
نحبّه ونهواه
ونضع له الأمشاط والمرايا وسط الحقول
نأخذ له اللحم والمال إلى قمم الجبال
وهو يمدُّ لنا يده كالخرطوم
لاعقاً كلَّ شيء
قشطةَ الأرض وغلَّة الحوانيت
حصيلة الأطفال
وحلوى الشيوخ والمقعدين
ومع ذلك . .
كان الفرحُ ينهمر كالمطر في الغابات
أرضنا هشَّة كالكعك
خضراءُ كالزيت
تفور بالخير والبسالة والأعراس .
ولكن . . .

* * *

منذ أن غاب عنا ذلك الغريب
أضحتْ خرائب قاتمه
تصفرُ فيها الريح
تنعقُ فيها الغربان .

* * *

لن يصدقوا أبداً انه مات

وان فمه الشهي
أنتُزِعَ عن الأرض بالملاقط
سيقولون ان روحه
مازالت ترفرفُ في كبد السماء
وانه راقدٌ في علياء الكون
كما ترقدُ الفراشةُ في أذنِ الطفل .

* * *

سلاماً أيتها العقول المؤمنه
أيتها الجلابيبُ
أيتها الضوضاءُ القديمه
سلاماً أيتها الكروم
التي مزّقها الركضُ والايمان .

اصفرار العشب

القمحُ الأزرقُ ، ذو الأهداب الطويله
يبكي فوق حقولنا .
أيها الرجلُ المجهول
اقذفْ قبعتي في الوحل
اضربْ حبيبتي بالسياط
ولكن دعني آكل
دعني أغرق أسناني في الأمكنة النائية
في الأمكنة التي أحبُّها
في المطر .. في النساء
في دواليبِ القطارات التي أشتهيها

* * *

أيها الطائرُ المجهول
عندما يكون القمرُ ساطعاً
والتلالُ الخضراء تمدُّ مناقيرها من الشاحنات
تأمّلني وأنا آكل
وأنا أشتاق
تأمّلْ أظافري القذرة على الأكواب

وفمي المذَبَب كالنصل باتجاه السماء .

* * *

أيها الطائر المجهول
اضربْ شقيقاتي بالسياط
إحصِ أثداءهن والقلم خلف أذنيك
ولكن دعني أخبئ الخبز في لحمي كالدبابيس
اقتله كالشوارب السريّة فوق شفتي .
لست مجنوناً ولا خائناً
ولكنني صقر ينكش أضراسه تحت المطر
ينثر مخالبه كالبذار .

* * *

أيها الطفل
أَيها القاتل
أسناني أحنتْها الريح
من غرفتي النتنه
من بين جذور القمح وأظافر الموتى
أخاطبك أيها القاتل
على لساني خمسةُ عصافير
من الدهن والمطر
نواةُ غابة تغطيها الثلوج
بين أسناني خمسُ سفنٍ من الدموع
وغزالٌ يتأبّطُ صحراءه كالتلميذ .
عبر الاصبع والاصبع . . آلافُ الجثث والخرائب

عبر الناب والناب
آلافُ الجبال والأودية والزجاج المحطَّم
ولكنني قادرٌ على قضم الشرفِ كالخبز
الخبز الأبيض . .
ذو الفقاقيع الليلكيه
والمتدلي كالشريطة على غدائر الطفل .

* * *

اقذفْ قبعتي في البحر
خذْ حبيبتي حيث تشاء
« سأجري اليها »
عندما يكون هناك « وقت وريح »
إنني قبرٌ بعجلات لا تحصى
ولكن دعني الآن . . لا غداً
اغرق أسناني في الأشياء التي أحبُّها
في الماء . .
في الضَّجيج ، في عضلات الحقول
دعني أدفع مخالبي . .
في الأيدي الظالمه
والأيدي البعيده
في المطر . . في الدهن
في الأقدام التي تجوسُ شوارعنا
في البنادق المزهرةِ كالعوسج فوق قبورنا

مقهى في بيروت

لاشيءَ يربطني بهذه الأرض سوى الحذاء
لاشيء يربطني بهذه المروج
سوى النسيم الذي تنشّقته «صدفة» فيما مضى
ولكن من يلمسْ زهرة فيها
يلمسْ قلبي
من «بلس إلى جاندارك»(١)
ومن «جاندارك إلى بلس»
رفعت يدي مئاتِ المرات
محيِّياً مئاتِ الأشخاص
باليد التي تأكل
والتي تكتب
والتي تجوع .

* * *

من التاسعة حتى العاشره
رأيت نوافير الطيور والدم

---

(١) شارعان متقاطعان في بيروت .

والفراشاتِ الممزَّقة منذ أجيال تحت الحوافر
شربت قهوة وماء وتبغاً ودموعاً
حتى أصبحت كالحبلى
وما ارتويت .
وعرضت نعلي في وجه
الصيف والخريف
في وجه البحر والصحراء
والأمطار اليابسه كالحجر
وما ارتويت .

* * *

سمعتُ موسيقى حزينه
وهززتُ رأسي كالجواد
واشتهيت أن أصهل صهيلاً طويلاً يمزق عنقي
أن يكون عنقي من البلّور الصافي
لأرى أنهارَ الشوق والجوع والذكريات
كيف تجري ؟
أن أخلع نواجزي
وأضعُها على طاولتي كالقفاز
وأنام . . حتى ينتهي العالم .

* * *

اشتهيتُ أن يدخل أبي
من ذلك الباب المذهَّب
وعقاله يتأرجحُ على ظهره كحبال المسارح

ومخاط بقرته الحبيبه
يسيل هنا وهناك
كما يسيلُ الدم من شقوق المقابر .
اشتهيت أن أرى قرنيها اللامعين
يثقبانِ الضجر والحريه
الريح والمطر والهتافات
وتلك الأثداء المفلطحه كأزرار المعاطف .

* * *

اشتهيتُ أن تدخل أختي الصغيره
ذات العيون الفستقيه
والجدائل المربوطه بالقنّب
لأبتلع يديها الصغيرتين كالنعناع .
اشتهيتُ أن أسمع ضحكةً عاليةً علوَ النجوم
تخلخلُ ملايين الجدران
وتطحنُها أمامَ عينيّ كالرمل .

* * *

من التاسعة حتى العاشره
حيث أمعاءُ الساعات تبرزُ من المعاصم
اضَّطجعتُ وحيداً على الصخور
ذهبتُ الى دورة المياه
شادّاً ربطة عنقي إلى أسفل
تاركاً إيّاها
تتأرجح كيدٍ ميتةٍ على صدري

وتخيلت آلاف الأشجار المحترقه
تهوي على الأرض
آلاف الجنازير والأفواه والسلاسل
تطوّق غرفتي كالضماد .

* * *

اتكأتُ بجوار المداخن
والأوراق المضغوطة بالحبر
لأسرِّح شعري جيداً
لأشدَّ حزامي جيداً
كي تبرزَ كآبتي كلها
كي تبرز أعضائي المتوترة كلها
كما تُبْرِزُ الفتاةُ نهديها في النزهات .
ورجعتُ الى الزاوية نفسها
مستحماً حتى قمة رأسي باللهب والانكسار
« أيتها المرأة ، أيتها الحصاة ! »
أيتها النافذه
« كوني أماً أو شقيقة أو حبيبة لي » .

* * *

من الواحدة حتى الواحده
حيث لحمي يرفع جناحيه كالعصفور
شربت ماء مثلَّجاً بالقشّ
ومسحتُ العرق بالجدار
وتذكرت الطبيعة الشاسعه

والبيادر المنفصلة عن بعضها كالكنائس .
تذكرت الضفادع وأغصان الغار :
كنت أستلقي على مرفقي فيما مضى
أشرب بفمي وحواجبي وجلدي
أشرب ماء أزرق بلون العضلات
بلون البنفسج
بلون الدماء الملكيه .

* * *

من « جاندارك إلى بلس »
ومن « بلس إلى جاندارك »
سرت آلاف الكيلومترات المرصوفه فوق بعضها
رأيت أطناناً من النساء والخادمات
تأملت النقود البريه
والحلوى الهادرة تحت الجسور
تأملت أصابعَ النادل الرفيعه
وهي تمسح دموعي عن الطاولة كالحساء .

* * *

قهوة قهوة أيتها الجدران
مزيداً من الأرصفةِ والغبار أيها الله
شفتاي في قاع الزجاجه . . .
أريد أن أكون سمكةً في مستنقع بعيد
سمكة في غيمةٍ عاليةٍ تتحرك .

الرعب والجنس

عندما أكون وحيده
ومستلقيةً على النهدِ الذي يحبه
يأتي إليّ
زنخاً كالقصّاب
وحيداً كطائر عُذِّب حتى الموت
يعضّني في فمي وشعري وأذني
ويرفعني بين يديه عالياً
كي أرى دموعه من منابعها
لأرى ملايين القطارات المسافره
تلهث بين حاجبيه الكثيفين .
عندما أكون وحيده
وشهوتي تتمايلُ كورق النخيل
يأتي إليّ
بحذائه الضيق
ومعطفه المموّج كالبحر
يمرِّرُ يده القذرة بين نهديَّ
ثم يمضي ولا يعود .

* * *

وعندما يجوع
وتتّسخ ثيابه من الحبر والكتابه
ولا يجد بيتاً أو شارعاً يأوي إليه
يأتي إليَّ
بطيئاً تحت الأشجار الجرداء
يلوّح شهوته كالسلسلة بين اصبعيه

* * *

يقفُ ذليلاً على الباب
والدموعُ ترفرف في عينيه كالعصافير
يقف وحيداً أمام العالم
ليشقّ طريقه كالملاح إلى سريري
في الظلمه
الظلمة العميقة الآسنه
حيث الريحُ تزأر
والأشجارُ المبلّلَةُ تنوح كنسوةٍ مغتصبات .
يطوقني بين ذراعيه
وينغرس في لحمي كالصنبان .
يحدثني عن الرعب وأوراق السرو الخضراء
عن تسلّخ الجلدِ في المعتقلات
وتساقطِ الشفاهِ في المغاسل
عن الصهيل القديم
والغيوم المرفوعة كالأشرعة على رؤوس الحراب .

* * *

آه لو كانت الذكريات تمشي
طبقاتٌ كثيرةٌ من شفتي
ضاعتْ في المباغي والملاعق
أشياء كثيرة فقدتُها بلا معنى
« محارم ، أزرار ، حقول »
ولاعات بشكل النجوم .

* * *

الحياة مملة كالمطر بلا ماء
كالحرب بلا صراخ أو قتلى
فأضحك كثيراً
وأضمه بين ذراعي . . صغيراً صغيراً
أكاد أشربه كالنبيذ
ذلك الغريب الذي يصعد الى صدري
كأنني سفينة أو قطار .

* * *

وعندما ينهمرُ المطر في الشوارع
وتمتلئ الأزقة بالبؤس والأوحال
ينهضُ عن صدري
ويرفع كتفيه على شكل زورق . . ويمضي .

الصديقان

كسنبلةٍ مكسوَّة بالشعر
رأيتك تنزف على فوهة الخليج
أيها المشوَّه
تحصي جراحك وندوبك
كما تحصي الغابة طيورها عند المساء .
يا معيلي أيام المحنه
أيها المطرُ والرعبُ والرصاص
انظر
النجومُ والبراغيث على قمة الجبل
فمٌ مقابل فم
ونسرٌ مقابل نسر
والأبواب الزجاجية الصفراء
تمنعُ الشوارع الملتهبة من السفر
من التفيؤ تحت الطاولات والستائر .

* * *

انظر . .
أنفكَ يتحرَّك كالفراشه

وأنفي يسيل كالمزمار
نريد طيوراً غاضبة
تثقب الزجاج بمناقيرها
أكواباً عالية . . تتكيء عليها شفاهنا .
آه ما أشهى النسيم
الذي يفصل أصابعي عن بعضها
ويبعثر أهدابي فوق البحار
الأمهاتُ يابساتُ على السطوح
والأوراقُ الخضراء
لم تلامس بعضها منذ الصباح
لا طائر
لا غبار
لا أمطار
والبحرُ بجوارنا مقفرٌ كباحة المدرسه .
أمواج صغيره
ترنُّ كالتنك منذ أيام
الشواطئُ مملوءةٌ برسائل الغرام
والحلماتُ المجوفة كالغلايين .

* * *

آه يا صديقي
ما أشهى النسيم الذي مرَّ بنا منذ عام
في نفس الصيف
ونفس المكان

لقد كان بارداً ولاذعاً كالوحش
يدخل سراويلنا كألسنة الخراف البيضاء .

* * *

انظرهناك
حيث أشيرُ باصبعي
بعض الأمواج الصفراء الميته
كيف هي طافيه
كقطع من الخشب فوق المياه .
انظر إلى السماء
حيث أشير لك بلفافتي
بعض الغيوم
كيف امَّحَتْ من التشرّدِ والتجوال
ثم انظرْ
كيف هي طافية على وجه السماء
مهترئة كقفا السراويل .

* * *

آه ما أشهى النسيم الذي مرَّ بنا منذ عام
لقد كان يهزّني كالشجره
ويرفع سترتي كالذَّيل
حيث الأمواج تصفع بعضها منذ الصباح
وصوت البحر يعلو ويهبط
كصوت عنقٍ يذبح .

* * *

انظر . . .
عقربُ ساعتك يتثاءب
وعقربُ ساعتي يمد رأسه خارج الاطار
أتذكر فمَ الشقيقة العسلية ؟
لقد كان صغيراً كحبة القمح
كالفم الذي رسمته بدموعي على الطاوله
أتذكرُ هتافاتِ الطفوله ؟
وطيران اللعاب
حيث الريحُ تغني
والقبلةُ تنفتح كالشراع .

* * *

هيا يا صديقي
ثمة غيمة تشبه الرصيف
لنمضي
الريح تهبُّ
والاسفلتُ يرتفع لأجلنا كاللحاف .

الأعداء

تحت المصابيح المبقعةِ بالدم
رأيتُ ضرسي يطول
يلتفتُ نحو دموعي كالحمامه
رأيت أدمغتهم داخلَ القبعات
وأرجلهم الرفيعة تتشابك كالخيطان تحت المناضد .

* * *

ما أجملَ طعنه في القلب
ذلك الفلاح المشرئب وسط النار الآكله .
غداةَ رأيناه
بسترته المقلّمة
وشعره المعطَّر كورق الريحان
يشير غاضباً الى الصحراء البعيده
والمطرُ المتورّم بين الأدغال
شعرنا بالفضيحة السريه .
غداة رأيناه
يعقفُ قدمه كالجواد
ويضرب بها حافة الرصيف

كأنه يضرب العالمِ على يافوخه
شعرنا بآلاف الكتب تجري كالأوزّ في المستنقعات .

* * *

كنا علماءَ وصحفيين وسكارى
نتحدثُ بأصوات متقطعه
عن القلق والحرب والغيوم الداعره
نترنَّح ظماءً لقروي غريب
له غدائرُ الفرس
يصرخُ بين الأرائك
ويرفع يده كالمذراة في وجوهنا
كنا نحتضر
والشعر جنازة ترافقها الطيور الحمراء الى المنفى

* * *

وعقب خراب مرير في جوارنا
أقبل الحلمُ الذي اشتهيناه
سريعاً نشوان لا يعرفُ الرحمه
ومن بين قدميه الصحراويتين
يتصاعدُ دخان البحار التي عبرناها
وحرائق الكتب التي قرأناها .
نخرجُ سويةً على الشاطئ
نتأملُ شعره المبلَّل
وفمه الذي يلتقط المطر كالعصفور
وهو يسيرُ أمامنا كقائدِ الشرذمه

مرحاً سعيداً
والوسخُ حول أذنيه يشبه الحواجب . .

* * *

في ربيع قديم . بلا أزهار
هبَّتْ رياح النشوه
سوداءَ مجنَّحه ، تومض كأسلحه على الحصى
تقلب الشموع والأرائك
والفلاح الأزرقُ العينين
يغطُّ في نوم عميق
وبخار الكلمات اللقيطه
يتصاعد من فمه وأذنيه ولحمه
كما يتصاعدُ الضباب في الوديان الخضراء .

* * *

الأسلحة كلُّها مشحوذةٌ قرب المدفأه
اللحم والنقود
وسفينة خيالية في جيبه .

* * *

ليستيقظْ ذلك الغريب
ليحمل قصائده بيديه
ويمضي بعيداً بعيداً كبائع البنفسج
العالم كله يطارد غريباً أزرق العينين .

* * *

أنقبرُهُ الليله ؟ ؟

هنا
في ينبوع العلم الأزرق
أم نتذكرُ سترته المقلمه
وأخوته المزدحمين كالجراد على النوافذ ؟ ؟

* * *

ـ أنا الكهلُ الدقيق الملامح
حاصدُ الأفكار المجهول
أريد أن أضمَّه كطفلي
أن أمرّر يدي على وجهه الحبيب
وأداعبَ حنجرته النافرة كالنهد
أي جرسٍ ينوح فيها ؟
أي هزارٍ يرقد فيها رقاد الفراعنه ؟

* * *

دعونا نفكِّر
نحن الأوزُّ السابح في أمواج الفكر
نحن الفقاقيعُ المطاردة بالمدافع
دعونا نفكر
أضيئوا الغلايين
أضيئوا الأحذية
دعونا نفكر
أنعيش كالديدان على فضلات حزنه وشموخه ؟
دعونا نضمَّه الى صدورنا حتى يختنق
ثمة ممر مجهول إلى حنجرته !!

يجب أن نقيده كالخروف
كقيصرٍ صغير
أن نطعنه بعشر زنود واثقة
ونشدَّ اللحم على الجانبين
حتى ينبثق الدم
وتخرجُ الكلمات القروية كلُّها من الأعماق .

وجه بين حذائين

القلوب الوحيدة تُقْذَفُ من النوافذ
النهودُ المهجورة تقذف من الحافلات
والطاولةُ الأرملة
تمدُّ رأسها من النافذة وتبكي .
* * *
كلماتٌ أردّدها كالمجنون
في المقاهي والحوانيت
تحت النجوم وتحت بصاقِ الملايين
دون أن يفهمني أحد
لا طفل ولا طائر
لا وحش ولا إنسان
من الصباح إلى المساء وذقني ترتجف
من الصباح إلى المساء وأنا أصرخ :
لقد ضاع زمان النبوغ
والانزلاق على السلالم الطويله
القملُ على الأزهار
القملُ على حطام الطائرات .
* * *

يخيّل لي أنني أتهاوى على الأرصفه
سأموت عند المنعطفِ ذات ليله
وأصابعي تتلوّى على الحجارة كديدان التفاح
دون أن ينظر إلي أحد .
انني أرى نهايتي
ألمح خنجراً ما في الظلام مصوباً إلى قلبي
عربةً مطفأه
تقلُّ طاولتي وأوراقي إلى عرض الصحراء .
ستهبُّ ريحٌ قوية آنذاك
تداعبُ أظافري القصيرة
وتكنِّسُ قصائدي في الشوارع كقشورِ الخضراوات .

* * *

ومن أنينها العميق
أسمعُ الضرباتِ الأخيرة لشعبي
أسمع موسيقى الأبواب المخلّعة
وهي تغلق بالحراب
بالأصابع المجلّدة على أطراف الشوارب .
سأتأملُ القدم الغائصة في الوحل
وهي تقلبُ وجهي على الجانبين
لتعرف من أنا ؟
من هذا الغريب الميت في شوارعنا .

* * *

وعندما تهدأ رئتاي

وتغمضان كعينين جميلتين
وما من جديلةٍ تبعثرها الريح
أو عجوز تلمُّ أطرافي عن التراب
سأبكي بمرارة
وأعضُّ الأرض التي أهانتني
سأغرس أسناني حتى اللثّة
في السهول التي شرّدتني
وأتذكرُ الأمشاطَ الحمراء
والنهود المتشابكة كالأغصان في المنفى
وأمي التي تنتظر أوبتي من النافذة
كأنني ذبابةٌ أو فراشه .

* * *

سأمرّر يدي على خطوط الحافلات
على الأرصفة التي تسكعتُ عليها
والأبواب الصدئة التي اتكأتُ عليها
وأسمعُ قلبي وهو يهتفُ من أعماق الأرض المذنبة :
أنتقم لبأسك وكفاحك .
تذكَّر دموعك في باحة المدرسه
وأصابعك التي اهترأتْ على قبضات الحقائب .
تذكرْ شقيقاتكِ النحيلات
وآذانهنَّ المثقوبة بالخيطان
ومتْ هكذا بين البحر والصحراء
أيها الفلاحُ الذي له عجرفةُ الملوك .

* * *

يخيلُ لي أنني أكثرُ الأموات كلاماً
لقد جئتُ متأخراً إلى هذا العالم
كزائر غريب بعد منتصف الليل
كان يجب أن أُخْلَقَ مع أولئك الرومانتيكيين القدامى
ذوي اللحى المتهدّلة
والياقات التي يأكلها العثُّ .
أن أعيش في تلك الأيام الغابره
سمكةً أو قاتلاً أو فراشه
أقطنُ في غرفةٍ من القرميد الأحمر
عند أولئك المرابياتِ الشقراوات
جواريرها من الأزهار
وجدرانها من مناقير البلابل وجماجم الأطفال
أحزمُ كتبي وأدواتي كالقمح خلف ظهري
وهراوة في حزامي
وأمضي داخلَ الغابات الخضراء
في الضباب والأوحال والمستنقعات
أحتسي الخمر
وآكل الحشائش والطيور النائمه
وأُقْذَفُ مع زجاجتي ومحبرتي كل ليلةٍ خارج الحانات .

هياج الفأر

ليكنْ وجهي أصفر كوجوه الموتى
فوقَ ظهري شجرةٌ من الأصابع
شجرةٌ من النار .
هذه شهوتي
سأبعثرها بقدمي
وأتصرفُ بفيضها
كما يتصرف المنتصرُ بأسلابه وأسراه .
لا مدفعَ ينتظرني
ولا امرأةٌ تبتسمُ لي عند الصباح
ماذا أعملُ أيام الحرب ؟
أيام الرَّخاء ؟
قيظٌ وفتوَّه
وأنهارٌ من الدم والشيب بين فخذي
لا أداعبُ أحداً ولا أقبل أحداً
سيفان مغروسان في الفراش
وأصابعُ مضمومةٌ كالقلنسوة أمام عينيَّ .

* * *

آه كم أودّ
أن آكلَ النساء بالملاعق
أن أقضمَ أكتافهنّ كالفهد
الزوجاتِ الوحيدات
الزوجاتِ السمراوات
حاملاتِ الحليب والخضار
حاملاتِ الأطفال والسنانير .

* * *

أنا سيدُ الأحلام
وزعيم الأرائكِ الفارغه
أحلم بأصدقاء من الوحل
بأمطارٍ من النار
بجبل هائلٍ من النار فوق ظهري
تجلسُ على سفوحه كلُّ نساء الشرقِ الجميلات
ذواتِ الآباط الحليقه
والغدائر الممزوجة بالعطر والتوابل .
أحلم بامرأةٍ صغيرةٍ كالإصبع
هناك في البراري القرمزيه
حيث الأزهارُ ميته
والعصافيرُ تلمع كالأظافرِ على الأشجار .

الى عتبة بيت مجهول

نامي تحت الأعلام الممزَّقه
أيتها الحمامةُ المنسيه
الوحلُ يتهادى كالأمير
يتألّقُ على سرجه الذهبي
والشتاءُ الأخير
ينحني كالمتسول على أقدامك يا بردى .

* * *

اذن سنموتُ على أرض أخرى
ولن تلمحوا دموعنا وأسمالنا ؟ ؟

* * *

أيتها العتبه
يا امرأةً متدليةً في الشارع . .
في الليل
حيث يجري عبيرك الأصمّ
وتتساقط دموعك الرماديه
أترنَّح أمامك كالسكيّر
أرنو بحسرةٍ إلى الثلوج العاصفه

والنيران التي تضيء لحمك المهاجر .

* * *

أيتها العتبةُ المستديرةُ كعين النسر
وأنا أكشطُ وحلَ الأيام المريبه
تبدين لي برتقالية وحزينة
وذات نكهة
شبيهةٍ بنكهةِ الحقول المزدحمة بالأشلاء
وفي ضوء القمر
أراك متصلِّبة وناعمه
وذات عنق ملائكي
يرسل أنغامه الآسنةَ طوال الليل .
والرجالُ المشوَّهون
ذوو القبعات الكئيبه
يقرعون جلدك الأسمر المضيء
باحثين عن الوطن
وبراعمِ القمح المجندلة في الغبار .

* * *

سأضعُ خدَّي على رخامك البارد
وأداعبُ أصابعك المقهورة طوال الليل
لأسمعَ خطوات الشتاء الحزينه
وخفقاتِ النهود الرثّة أمام المرآة .
سأبكي أمام صدرك النحيل
واضعاً يدي في جيوبي

ولفافتي تضيء العالم .
سألثمُ المقاعد الفارغه
والمحابرَ المقلوبة حول جسدك الصغير
أيتها الحبيبة الشماليه
كوني أكثر انحناءً
أمام تراجع الأبطال . . يا ساقطه .

* * *

غريبةٌ أنتِ ومستلقيةٌ بهدوء عند أقدامنا
ولكنك ذليلةٌ ومفعمةٌ بالغدر
على لحمك الشفّاف
نلمح أحواض الزهور وعرباتِ الأسرى
أيتها المنطويةُ على نفسها كعازف الناي
لا نريدُ قمحاً ولا رايات
نريدُ فقط أن نموتَ في قرانا البعيده
أن تبعثرنا الريح فوق قرانا البعيده
كالرسائل الممزقه .

* * *

يا عتبتي السمراء المشوّهه
لقد ماتوا جميعاً أهلي وأحبابي
ماتوا على مداخل القرى
وأصابعهم مغروسةٌ كالشوك في الريح .

* * *

لكنني سأعود ذات ليله

ومن غلاصمي
يفور دمُ النرجس والياسمين
لأنعقَ كالغراب بين نهديك الرماد بين
بين نهديك المقطوعين خارج الوطن
وأرسلَ نظراتي عبر الغرفة
وعبر جسدك المغطَّى بالحساء والشاي
سأدوسُ بقدمي رنينك المتواصل
وأثداءك المبعثرة على القمَّه .

* * *

لن أقرع الباب أبداً
سأصغي للريح . .
وهي تحملُ نجوى السفن وبكاء العصافير
وهي تحملُ رائحتكم الحبيبه .
لأرى وسادتي
وهي تنزف دمها كالطفل
والعيونَ الزرق الحافيه
تبكي مع عيون أخرى
في قاع الفراش
في قاع الوطن .

* * *

سأهجُركِ أبداً
كما تُهْجَرُ الجاريةُ في أسفل الوادي
سأمرُّ عليك بعد أعوام

زاحفاً من وراء الغابات
مبقَّعاً حتى فمي بالماء والجنون
لأنقش اسمك على حديد المدافع .

* * *

اقتربي مني يا صغيرتي
بلا هتاف أو رايات مخضَّبه
سأجتاز القمَّة حافياً
إنني مرهقٌ وخجول
وأصابعي منَّكسة في المقاهي .
بلادي صغيرةٌ وجائعه
وفمي مسيَّجٌ بالصهيل
أكتب إليها ولا أراها !!
يا صغيرتي . . ليكن جفاؤك عالياً كالنجوم
نحن رصاصُ الانحدار
والمحارمُ الوحيدةُ التي تلتقطُ دموعَ العالم .

النار والجليد

خذ لفافة وصفْ لي الحرب
خذ رغيفاً وصفْ لي قدميّ .

* * *

أيتها الدموعُ المسترسلة على الكتف
سأصف لك قوافل الريح والرصاص
لي براءةُ الحجل ومكرُ الجزّار
ولكنني ظمآن
أكادُ أسقطُ في كل لحظه
انني أبتسم
وفوق ظهري سنمٌ من الدموع .

* * *

أيها الغبار الملكي
ترجَّل عن دفاتري الكئيبه
واسمع يا غبار :
أكره الخبز كما أكره السُّم
أكره الماء كما أكره الطاعون
ولكنني ظمآنُ وروحي تشتعل . .

ظمآنُ
وروحي معقوفةٌ كالصنبور !!

* * *

يا إلهي . . يا وردة الجليد والغبار !
ثمة جوعٌ منسيٌّ في أفواهنا
ثمة أثداء منسيَّةٌ في صدورنا .
أكره البغايا كما أكره السل
أكره العذارى كما أكره الطاعون
ولكنني أقعي ساعات طويلة
تحت المطر وخلف المداخن
علَّني ألمح رجلاً يقترب من زوجته
أو طفلة تحكُّ خصرها أمام المرآة .

* * *

أفكر أحياناً بالنصر والهزيمه
بالأبطال العظام
وهم يرفعونَ سراويلهم وراء الأسيجه
وهم يتثاءبون في دورات المياه !!
ما الفرقُ بين زهرةٍ على المائده
وزهرةٍ على القبر ؟
بين الخبز والتنك ؟
بين النهدِ والمطرقه ؟
بين أن يموتَ الانسانُ على رأس حمله
أو يموت وهو يتبرَّزُ متثائباً في إحدى الخرائب ؟ ؟ .

* * *

يا إلهي . . أغصانُ الكَرَزِ تطول
ترسل دمهاالعاري في القاطرات
وعيونُ الماعز الخضراء ، تبكي في ضوء القمر .
صيفٌ هنا وشتاءٌ هناك
والطيورُ الملطَّخة بالدم
تتكئُ على بعضها فوق الجثثِ والأظافرِ المدمّاه
ولا نعرف ماذا نعمل
أنحبُّ أم ننام ؟ ؟
أم نضعُ المرايا على مكامن الأبطال ؟ ؟

الدموع

تحت مطرِ الربيع الحار
أنتقل من مدينة إلى مدينه
وحقائبي مليئةٌ بالجراح والهزائم .
*   *   *
تحت مطرِ الربيع الحار
أسيرُ يا حبيبتي
وصدرك الشبيهُ بشجرةِ التفاح العاريه
يظلّلني كدخانِ القطارات .
لقد ودَّعت الكثيرين
ودَّعت بلادي
وسهولها المحترقة في الليل
هجرتُ رفاقي
والدم ينزف من صدورهم وأنوفهم
ولم أتنهّدْ
كنت أغرِّدُ كاليمامةِ فوق الجبال
أتثاءبُ في مآتم الشهداء
وأحدّق في أثداء الأمهاتِ الثكالى .
*   *   *

أيتها الطفلةُ المدببة كالرمح
لن أنسى ما حييت
وجهك المغطّى بالدموع
يومَ افترقنا على ناصية الشارع
وأوراق الخريف تتساقطُ على معطفك الصغير
ولم تنظري إليَ !!
كنتِ تلتفتين إلى الوراء
عيناك مليئتان بالدموع
وشعرك مسترسلٌ كشعر الفرسان المقهورين .

* * *

هكذا أودّك يا حبيبتي
زهرةً برية أو يمامةً في عنقِ الريح
ولكنني يائسٌ حتى الموت
أتقهقهرُ بلا روية على تلال الحبر
وأهدابك الجميله
تنحني على صفحاتي كعبيد في المراكب .
ولا كلمة للطفلة الغريبه
للعيون المتدفقة كالريح .
إنني أرى كل شيء
الأشرعةَ والرعد
القمرَ والريح والدماء
ونوافذَ السجون المطفأة عند الغروب
أرى كل شيء

إلا جديلتيك الحبيبتين .

*   *   *

أود أن أهيم فوق جسدك الصغير

وأسحقه كالورده

أن أرفعه بيدي كبندقية صغيرة فوق التلال

فاهدئي بجواري

أيتها الطفلة الغائبه

الفراش باردٌ ومظلم

ونهداكِ عصفوران من الجمر !!

أربع عيون مغمضة

هل اشتهيتَ امرأةً زرقاء
زرقاء كالريح ؟ ؟
هل تفرّست في أصابعها النحيله ؟
وشعرها المزيّن
بالأسلاك والمطر المهجور ؟ ؟
هل تفرّست في لحمها الخائن
وصدرِها المحشوّ بالأقمشة والخطّافات ؟ ؟
إنه لحمٌ عاديٌ ورقيع
كالذي نضربه بالسوط
ونأكله أيام الرعب والمجاعات !!

* * *

المرأة التي أحلم بها
لا تأكلُ ولا تشربُ ولا تنام
انها ترتعشُ فقط
ترتمي بين ذراعي وتستقيم
كسيف في آخر اهتزازه .

* * *

آه . . أين هؤلاء النسوة الرخيصات
من صبايانا القاسياتِ الخجولات
حيث لحمهنّ قاتمٌ ومريح
كسريرٍ من الدمع والمطر
حيث القشُّ والندى والسّماق
يفورُ من حلماتهنّ
كما يفور الدمُ من الوريد الى الوريد .

* * *

المرأة هناك
شعرها يطول كالعشب
يزهرُ ويتجعد
يذوي ويصفرّ
ويرخي بذوره على الكتفين
ويسقطُ بين يديك كالدمع .

* * *

النهدُ هناك
مجهول وغائم كالأحراش
ينفتح أمامك . . كغيمه .
كغيمة يخترقها عصفور .
أينما ذهبت في الفضاء الواسع
كرومٌ وينابيع وأمطار
حقولٌ ونسيم وشرف
أما هنا

فللمرأة رائحةُ الدم وعبير المقصله
النهدُ هناك صغيرٌ كالزهره
والنهدُ هنا كبيرٌ كالرأس .

* * *

كن وحيداً في الريف
بين القمر والأكواخ
وخذْ فتاتك الخجولة وراء الغدير
تحت شجره
أو غرّافٍ تعشّشُ فيه النجوم والعصافير .
هناك تنفضُ عن نفسها الغبار
تغسلُ وجهها وساقيها بالراحتين
تمدُّ لك فراشاً من العشب والخَرَزِ وصُرَرِ الطعام
وتنبضُ بين ذراعيك حتى الصباح
دون أن تلتقي عيناك بعينيها !!
قد تنال منها حتى أحشاءها
دون أن تلتقي عيناك بعينيها !!

بكاء الثعبان

عندما نستيقظُ ولا نجد من نحبُّ
ونفكر بالأيام الطويله
التي قضيناها في الحنين والتسكع
وقذف الجوارب المبللة في الزوايا . .
لا نفكرّ بالخدود الناعمه
وأوراق الشجر في الغابات
ولكننا نفكرّ بالوحل والدم
بالأسنان النخره
والفطائر المقذوفةِ عن صهوات الجياد

* * *

في الصباح الباكر
حيث الأرض الغائمةُ والسماء الصفراء
عندما نستيقظ
ولا نجد غير الأرصفة الساطعة والبصاق الجاف
حيث الطيورُ الهزيله
تنطلق في الفضاء الأربد
والعمش يغطي عيونها الصغيرة البرّاقه

وما من وردةٍ على الجليد
أو طائرٍ من الصحراء . . .
لا نفكر بالحقد والأسلاب المبعثره
ولكننا نفكرُ بالريح
بجماجم الأزهار
والقبورِ التي تنفتحُ فجأةً كالنوافذ .

* * *

في الصباح الباكر
حيث الغددُ خارجةً من الفم
وأسنانُ الشتاء الناعمه
تقضم أطراف الغيوم كديدان القز
وما من وردةٍ على الجليد
أو رسالةٍ من الصحراء
والأفق جبالٌ من الشعر والصابون والدم
ليس لنا
إلا احتضان القصائد
وضمّها إلى صدورنا كالأطفال .

* * *

لقد هدتنا الأيام يا صغيرتي
بغلايين معبّأةٍ حتى الأنف
نبدأُ أيامنا
بغلايين استنفد منها حتى الخشب
تنتهي أيامنا .

إلى ماسح الأحذية في الفيضانات
إلى المحطاتِ البعيدة في الزمهرير
أسرع أسرع . . .
المطر ينهمر ، والطيور هزيلةٌ كالعيدان
أسرع أسرع . .
الثلج ينهمرُ ، والصحراء البعيده
تنتظر مورّدة الخدين في المنزل .

* * *

نحن الأطفال الكبار
قارعو النهود بالسلاميّات
عندما نستيقظُ ولا نجدُ من نحبّ
ونتذكرُ الحواجب الصغيره
والنهود الملطَّخة بالحبر في الشمال
ليس لنا إلا النواح الحزين
القبض على القصائد . . . وخنقها كالعصافير
القبض على الرَّحم وشدّه كحلقةِ الباب

* * *

على الطفلِ الضاحك
والطفل الحزين
أن ينهض مبكراً كالفراشة
أن يقعي حزيناً على حافة السرير
بخدوده الموردة وأنفه المغطَّى بالحليب
ويدعو إلى الله أن يعيد الأيام الخوالي

أن يعيدَ الطاولات القديمه
والأصابع الأولى .

* * *

نحن الغرباء
حاملو الحقائب والأوراق المخضّبه
لن نعرفَ الشفقةَ إذا سيطرنا
لن نعرفَ الآلهة إذا شبعنا
ونحن نتثاءبُ
نحرك عظامَ القصائد
ونحن نضحك
نحرّك دموعنا بالدبابيس وناكشاتِ الأسنان .

سماء الحبر الجرداء

ثلاثة رماحٍ تحت المطر . .
ثلاثةُ رماح في قلبي . .
هذي هي أغنياتي الأخيرة
هذا هو نشيدُ الانكسار .

* * *

يا طيوري الزرقاء المهاجره
إنك باردةٌ كالصقيع
تذكّرينني بالليل والأثداء المحتقنةِ في الخريف
بنوافذ القرى المطفأة . .
وبكاء الجنود في المدن الغريبه .

* * *

لقد انتهيت
الدخان يتصاعدُ من قلبي .
يا سماءَ الحبر الجرداء
أمامن غيمةٍ عابرة ؟ ؟
أما من عزالٍ صغيرٍ على سفوح الألم ؟
أنام على الشوك ، وينامون على الحرير

أكتبُ عن المرأةِ والنجومِ والشهوة
وأعشقُ فضلاتِ الشوارع
لقد سئمتُكِ يا بيروت
يا سرطاناً من الحرير
لا المرأة ولا الحريه
لا الشرفُ ولا المال
يزيلُ هذا اليأس من قلبي
دعيني أحتضر فوق الجبال
دعيني أرفرفُ كالنسر بين الأقدام .

* * *

وأنتم يا أعدائي وأحبابي
يا من تقرؤنني فوق السروج والصهوات
يا من تقتاتون على حزني كالكلاب الضارية
سأقذفُ هذا القلم إلى الريح
سأدفنه كالطائر
بين الثلوج البيضاء
وأمضي على فرسٍ من الحبر
ولن أعود . . .

في يوم غائم

لا أريدُ أن أشكر
ولا أريدُ أن أبتسم
سأضربُ المائدة بسوطي
وأصفع الأبواب خلفي بجنون .
أريد أن أغنّي وأهاجر
أن أنهب وآكل وأثور
هذا من حقي
لقد ولدتُ حراً كالآخرين
بأصابعَ كاملةٍ ، وأضلاعَ كامله
ولكنني لن أموت
دون أن أغرق العالم بدموعي
وأقذف السُّفُن بقدمي كالحصى .

* * *

ولدتُ عارياً ، وشبَبْتُ عارياً
كالرمح
كالانسان البدائي
سأنزعُ جلود الآخرين وأرتديها

سأنزع جلود السحب والأزهار والعصافير
وأرتديها
محتمياً بالضباب والأنين
بالأعلام الممزَّقة ، والأثداء الملفوفة بالجوارب
إذا كان لا يريدُ أن يرأفَ بي
أن يشبعني التبغ والنساء
وجَلدَ الخيول في المنحدرات
لماذا خلقني ؟
وهل كنتُ أوقظُهُ بسبَّابتي كي يخلقني ؟

* * *

كل امرأةٍ في الطريق هي لي
كل نهدٍ وكل سرير
هو لي . . لعائلتي ، لرفاقي الجائعين
طالما لنا شفاهٌ وأصابع كالآخرين
ودماء فوارة كالآخرين
يجب أن نأكلَ ونحبَّ ونهجر
ونقذف فضلات الأثداء خلف ظهورنا .

* * *

ليكفَّ عن تعذيبنا كالصراصير
لينزع رحمته عن أكتافنا
كما تنزعُ الأوسمةُ عن الخائن
ساعة أستلقي وحيداً في ليالي الشتاء
في ليالي الصيف

غائصاً في فراشي النتن
وقدماي بارزتانِ كنابَيْ الفيل
وأفكِّر بالملايين المعذَّبه
بالزلازل والطغيان
بالأزهار المسلوقه
وخشخشةِ رسائلِ الغرام في الصحارى
ساعة أمدُ رأسي من النافذه
وألمح المطر ، والنهود التي يغطيها العشب
والشعراء الموتى مبعثرين على الثلوج البيضاء
أتمنى أن أمسكَ هذه الأرض من جلدها
وأقذفها كالهرة من النافذة .

* * *

ولكنني وأنا أحتضر
وأنا أسبحُ في قبري كالمحراث
سأموتُ وأنا أتثاءب
وأنا أشتم
وأنا أهرِّج
وأنا أبكي . . .

النسور العالية تفترق بغضب

لأن ما كُتِبَ قد كُتِب
وما يجبُ أن يقالَ قد قيل
أنت للشارع
وأنت للنار
يا أشعارَ المنفى يا أجراسَ العار
إن لك رائحةَ الثياب العتيقه
ورائحةَ الضمادات المنزوعةِ بغضب
أين عرقُ الأصابع ولزوجةُ الصيف ؟
أين الغضبُ والجنون
وتلك الضربات القاتلةُ في الصدغين ؟
أأنتِ جراحي وآلامي ؟
أأنتِ عربات الريح . . وأسنانُ المطر ؟
إنكِ لستِ إلاّ بضع اقّاتٍ
من الحبر والكسل والفوضى
أقذفكِ في وجه الرمال السافية كورقِ اللعب
ولكنك خاسرةٌ أبداً !!

* * *

أيتها النسورُ المهلهلة
هل أطليكِ بالمراهم ؟
كانت حروفك جميلة ونضرة
تستيقظُ منذ الصباح
تضرب أصابعي بمناقيرها كالعصافير
تلهثُ على السطور المنحنيةِ ككلاب الصيد .
وها هي الآن
هزيلة وناعسة
كعيونٍ تغطّيها مئاتُ الحواجب .

* * *

سيدي الشعر . .
هذه الآلام . . هذه الدموعُ اليابسه
والتي يمكن تحطيمها كالدُّحل على الأرصفه
هذه الدموع المحفوظة من شتاءٍ إلى شتاء
ومن خريفٍ إلى خريف
كخواتمِ العشاق الموتى . .
ليست هي ما أريد
لأنها دموعٌ كاذبة
دموعٌ مدراره
لصقناها بقوة الرصاص على خدودنا
إليَّ أيتها الكلمات الدَّميمه
فلن نلفظَ أنفاسنا تحت النجوم
ولن تكونَ دموعنا سماداً لأزهار الآخرين

سنقوم برحلةٍ ملكيةٍ إلى الشرفه
سأطلقكِ عالياً في الفضاء
كما تطلقُ الغجريةُ زغاريدها في الغابات .

* * *

خبئي جراحك
بين القوادم وتحت عضلةِ الذيل
وحلّقي بغضب
كغيومٍ لا أرجلَ لها
كغيومٍ تشمئزُّ منها البحار .

* * *

ثم اسقطي بهدوء . . كالمناديلِ الحريرية
كأنك في سباتٍ عميق
ولتكن أرجلك حافيةً ومهملة
كأرجلِ البدو
مقلوبة إلى أعلى كطفل ضُرِبَ على يده .

الفرح ليس مهنتي



من العتبة إلى السماء

الآن
والمطرُ الحزين
يغمرُ وجهي الحزين
أحلم بسلّمٍ من الغبار
من الظهورِ المحدودبه
والراحاتِ المضغوطةِ على الركب
لأصعدَ إلى أعالي السماء
وأعرف
أين تذهبُ آهاتنا وصلواتنا ؟
آه يا حبيبتي
لابد أن تكون
كل الآهاتِ والصلوات
كل التنهدات والاستغاثات
المنطلقة
من ملايين الأفواه والصدور
وعبر آلاف السنين والقرون
متجمعةً في مكانٍ ما من السماء . . . كالغيوم

ولربما
كانت كلماتي الآن
قربَ كلماتِ المسيح
فلننتظر بكاء السماء
يا حبيبتي

حلم

منذ أن خُلقَ البردُ والأبواب المغلقه
وأنا أمدّ يدي كالأعمى
بحثاً عن جدار
أو امرأةٍ تؤويني
ولكن ماذا تفعل الغزالةُ العمياء
بالنبع الجاري ؟
والبلبلُ الأسير
بالأفقِ الذي يلامسُ قضبانه ؟

في عصر الذرةِ والعقولِ الالكترونيه
في زمنِ العطر والغناء والأضواءِ الخافته
كنتُ أحدّثها عن حداءِ البدو
والسفر إلى الصحراء
على ظهورِ الجمال
ونهداها يصغيان إليّ
كما يصغي الأطفال الصغار
لحديثٍ ممتعٍ حول الموقد

كنا نحلم بالصحراء
كما يحلم الراهبُ بالمضاجعه
واليتيمُ بالمزمار
وكنت أقول لها وأنا أرسل
نظراتي إلى الأفق البعيد .
هناك نتكئُ على الرمال الزرقاء
وننام صامتَين حتى الصباح
لا لأن الكلماتِ قليله
ولكن لأن الفراشاتِ المتعبه
تنامُ على شفاهنا .
غداً يا حبيبتي غداً
نستيقظ مبكرين
مع الملاحين وأشرعة البحر
ونرتفعُ مع الريح كالطيور
كالدماءِ عند الغضب
ونهوي على الصحراء
كما يهوي الفمُ على الفم

ونمنا متعانقين طوال الليل
وأيدينا على حقائبنا
وفي الصباح أقْلَعْنا عن السفر
لأن الصحراء كانت في قلبينا .

الغجري المعلّب

بدون النظر إلى ساعة الحائط
أو مفكرةِ الجيب
أعرف مواعيد صراخي .
وأنا هائمٌ في الطرقات
أصافح هذا وأودِّعُ ذاك
أنظر خلسةً إلى الشرفاتِ العاليه
إلى الأماكن التي ستبلغها أظافري وأسناني
في الثوراتِ المقبله
فأنا لم أجعْ صدفه
ولم أتشرّد ترفاً أو اعتباطاً
« ما من سنبلةٍ في التاريخ
إلا وعليها قطرةٌ من لُعابي » .

أعرفُ أن مستقبلي ظلام
وأنيابي شموع
أعرف أن حد الرغيف
سيغدو بصلابة الخنجر

وأن نهرَ الجائعين سوفَ يهدرُ ذات يوم
بأشرعتهِ الداميه
وفرائصه الغبراء
فأنا نبيٌّ لا ينقصني إلا اللحية والعكاز والصحراء
ولكنني سأظلُّ شاكي السلاح
في « قادسية العجين »
في « واترلو الحساء » التي يخوضها العالم
هكذا خلقني الله
سفينةً وعاصفه
غابةً وحطابا
زنجياً بمختلف الألوان كالشفق ، كالربيع
في دمي رقصة الفالس
وفي عظامي عويلُ كربلاء
وما من قوةٍ في العالم
ترغمني على محبةِ ما لا أحبّ
وكراهية ما لا أكره
مادام هناك
تبغٌ وثقابٌ وشوارع . . .

خريف الأقنعة

أيها الماره
إخلوا الشوارعَ من العذارى
والنساء المحجبات . . .
سأخرجُ من بيتي عارياً
وأعودُ إلى غابتي .

محال . . محال
أن أتخيَّلُ نفسي
إلا نهراً في صحراء
أو سفينةً في بحر
أو . . قرداً في غابه
يقطفُ الثمار الفجَّه
ويلقي بها على رؤوس الماره
وهو يقفزُ ضاحكاً مصفقاً
من غصنٍ إلى غصن .

أنا لا أحمل هويةً في جيبي

ولا موعداً في ذاكرتي
أنا لم أجلسْ في مقهى
ولم أتسكعْ على رصيف
أنا طفل
ها أنا أمدُّ جسدي بصعوبه
لأدفن أسناني اللبنية في شقوق الجدران
أنا شيخ
ها ظهري ينحني
والمارة يأخذون بيدي
أنا أمير
ها سيفي يتدلّى
وجوادي يصهلُ على التلال
أنا متسوِّل
ها أنا أشحذ أسناني على الأرصفه
وألحقُ المارةَ من شارع إلى شارع
أنا بطل . . أين شعبي ؟
أنا خائن . . أين مشنقتي ؟
أنا حذاء . . أين طريقي ؟

سلمية

سلمية : الدمعةُ التي ذرفها الرومان
على أوَّلِ أسير فكَّ قيوده بأسنانه
ومات حنيناً إليها .
سلمية . . الطفلةُ التي تعثَّرَتْ بطرف أوروبا
وهي تلهو بأقراطها الفاطميه
وشعرها الذهبي
وظلَّتْ جاثيةً وباكيةً منذ ذلك الحين :
دميتُها في البحر
وأصابعها في الصحراء .

يحدُّها من الشمال الرعب
ومن الجنوب الحزن
ومن الشرق الغبار
ومن الغرب . . الأطلالُ والغربان
فصولُها متقابلةٌ أبداً
كعيون حزينةٍ في قطار .
نوافذها مفتوحةٌ أبداً

كأفواهٍ تنادي . . أفواه تلبي النداء
في كل حفنةٍ من ترابها
جناحُ فراشة أو قيدُ أسير
حرفٌ للمتنبي أو سوط للحجاج
أسنانُ خليفة ، أو دمعةُ يتيم
زهورها لا تتفتَّحُ في الرمال
لأن الأشرعةَ مطويةٌ في براعمها
لسنابلها أطواقٌ من النمل
ولكنها لا تعرفُ الجوع أبداً
لأن أطفالها بعددِ غيومها
لكلِّ مصباح فراشه
ولكل خروفٍ جَرَس
ولكلِّ عجوز موقدٌ وعباءة
ولكنها حزينةٌ أبداً
لأن طيورها بلا مأوى

كلما هبَّ النسيم في الليل
ارتجفت ستائرها كالعيون المطروفه
كلما مرَّ قطارٌ في الليل
اهتزتْ بيوتها الحزينةُ المطفأه
كسلسلةٍ من الحقائب المعلقة في الريح
والنجومُ أصابع مفتوحة لالتقاطها
مفتوحة ـ منذ الأبد ـ لالتقاطها .

الحصار

دموعي زرقاء
من كثرةِ ما نظرتُ إلى السماء وبكيت
دموعي صفراء
من طولِ ما حلمتُ بالسنابلِ الذهبيةِ
وبكيت

فليذهبْ القادةُ إلى الحروب
والعشاقُ إلى الغابات
والعلماءُ إلى المختبرات
أما أنا
فسأبحث عن مسبحةٍ وكرسيٍّ عتيق . . .
لأعودَ كما كنت ،
حاجباً قديماً على باب الحزن
ما دامت كل الكتب والدساتير والأديان
تؤكدُ أنني لن أموت
إلا جائعاً أو سجيناً

المصحف الحجري

على هذه الأرصفةِ الحنونة كأمي
أضع يدي وأقسم بليالي الشتاء الطويله :
سأنتزعُ علم بلادي عن ساريته
وأخيط له أكماماً وأزرارا
وأرتديه كالقميص
إذا لم أعرفْ
في أيِّ خريفٍ تسقطُ أسمالي .
وإنني مع أول عاصفة تهبُّ على الوطن
سأصعد أحد التلال
القريبة من التاريخ
وأقذف سيفي إلى قبضةِ طارق
ورأسي إلى صدر الخنساء
وقلمي إلى أصابع المتنبي
وأجلس عارياً كالشجرة في الشتاء
حتى أعرف متى تنبتُ لنا
أهدابٌ جديدة ، ودموعٌ جديده
في الربيع ؟

وطني أيها الذئب الملوي كالشجرة إلى الوراء
إليك هذه «الصور الفوتوغرافية»
للمناسف والاهراءات
وهذه الطيور المغردة ، والأشرعة المسافره
على «طوابع البريد»
اليك هذه الجحافل المنتصره
والجياد الصاهلة على الزجاجِ المعشّق
ووبر السجاد
اليك هذه الأظافر المدَّخره
في نهاية الأصابعِ كأموال اليتامى
بها سأكشطُ خطواتي عن الأرصفه
سأبتر قدميّ من فوق الكاحلين
وألقي بهما في الأنهار
في صناديق البريد
وأظل أقفزُ كالجندب
حتى يعود عهد الفروسية
والانذار قبل الطعنه .

بدوي يبحث عن بلاد بدوية

أيها الفراشُ الباردُ والمظلم كالزقاق
آه كم أتمنى لو أشجّكَ بفأس
أين الشفاهُ التي قبلتها ؟
والنهودُ التي داعبتُها ؟
كأنَّ القدرَ يصوِّبُ مسدساً إلى ظهري
ويسلبني كلَّ شيء في وضح النهار .

آه كم أتمنى . . لو أستيقظُ ذات صباح
فأرى المقاهي والمدارس والجامعات
مستنقعاتٍ وطحالبَ ساكنه
خياماً تنبحُ حولها الكلاب
لأجدَ المدن والحدائق والبرلمانات
كثباناً رمليه
آباراً ينتشل الأعراب ماءهم منها بالدلاء .

آه كم أتمنى لو أكونُ في هذه اللحظه
محموماً في قرية بعيده

على سريرٍ غريب
وتحتَ سقفٍ غريب
وامرأة عجوز لم تقع عيناي عليها من قبل
تسألني ،
وهي تعصرُ منديلها المبلّل فوق جبيني :
من أي بلاد أنت يا بني ؟
فأجيبها والدموعُ تملأ عيني :
آه يا جدتي . . . .

أمير من المطر، وحاشية من الغبار

١ ـ الشبح الصغير

أنت يا من تداعبُ خيوط المطر
كالنسّاجِ الأعمى
وتتلّمسُ بقايا الجداول الزرقاء
كضريرٍ يتعرّف على ملامحِ أحفاده
من أنت ؟
أيتها الشوارع
أيتها الحانات
من هذا الشبحُ الراقدُ على الأرصفه
والنمل
يتجاذبُ مسبحته ومنديله
وخصلاتِ شعره ؟
ـ انه بردى
ـ بردى ؟
لا أذكر أخاً أو صديقاً بهذا الاسم
أهو صندوقٌ أم جدار ؟

ـ مولاي

انه بردى . . .

النهر الذي ترافقه الزهور العطشى

من نبعه إلى مصبّه

ـ ليراجعْني غداً

في مكتبي القائم بين الأرصفه

علّني أجد له ميتماً بحرياً

أو سحابةً شمطاء تتبناه

ـ مولاي

انه ليس متسولاً يا مولاي

انه بردى . . .

بردى الألثغُ الصغير

كَبُرَ وشبّ

واهترأتْ مريلتُهُ الخضراء على صدره

ولم يعدْ يغادرمجراه

حتى في الليالي المقمره

حتى في أيام العُطل والآحاد

انه يعتذر عن جريانه القديم . . .

يضمُّ راحتيه إلى صدره

ويفتحهما باكياً ، كالراهبة المغتصبه

من أجل سفينةٍ ورقيه

أو سنونو . . يرشف ماءه ويطير !

ـ ليكنْ

لقد وهبه الله
كل ما يحلم به نهرٌ صغير
من الطبقة المتوسطه
الوحل والبعوض والربيع
ولكنه أتى على كل شيء
في حقبةٍ واحده
أروع مطرٍ في التاريخ
أجمل سحب الشرق العاليه
بدّدها على الغرغرةِ وغسلِ الموتى
ليراجعُني غداً
في مكتبي القائم بين الرياح
وطلبُ الاسترحامَ
ملصوقٌ على ضفتيه
ان جلد النسر المعلَّقِ على الحائط
لا يثيرُ شفقتي
بل يذكّرني
بدمِ أشلائه وصرخات ضحاياه

٢ـ الشبح الكبير

وأنت يا جدتي الحزينه
ماذا تفعلين في مثل هذه الساعه
بملاء تك المرقعةِ وسالفيك الأشيبين ؟
هل أضعتِ مسبحتك
وأنت تنقلينها من جيبٍ إلى جيب ؟
أم طردك أحفادُك
وأنتِ متهمكةٌ في القيل والقالِ ومضغ المخللات ؟
أيتها الأرض
أيتها السماء
من هذه العجوز الجامدةُ عند المنعطف ؟
والبعوضُ يحوّم فوق رأسها
كأنه مصباحٌ أو مستنقع !!
إنها لا تسألُ ولا تجيب
وإنما تهزُّ رأسها يمنةً ويسره
وهي تعلكُ حجابها المبلّل بالدمع .
ـ انها دمشق
ـ دمشق ؟ لا أعرفُ أماً أو شقيقةً بهذا الاسم
أهي خزانةٌ أم مطرقةٌ أم مرآة ؟ ؟
ـ انها مدينتك يا مولاي
ـ مدينتي ؟ لا مدينة لي سوى جيوبي
ـ مدينتُك وطنك . .

- وطني ؟ لا وطن لي
سوى هذه البقع والخربشات على الخرائط
وهذا الدخانُ الذي أنفثه من
شفتي كل لحظة . .
- بلى يا مولاي
تذكر الحواري الضيقة وأشباح المقابر
لحم الجمل وأزهارَ اللوز
تذكَّر الصباحاتِ الباردة
والأيدي المحمرَّة من صفْعِ المساطر
وإبر الجدَّات المسنَّات .
- بلى . بلى
تذكرتُها
دمشق المناسفِ والاهراءات
دمشق البيضه المسلوقه
والرغيف المطوي «بعناية» في حقيبةِ المدرسه
دمشق الخيول الجامحه
والسفن التي تسد وجه الأفقَ
دمشق الغبار
والدراجة المسنودة على الحائط
دمشق النجوم والمشاعل المضاءة على ذرى الأورال
دمشق الليل . . والقنديل المطفأ بالشفتين
دمشق الحداء والخناجر الممسوحة برايات كسرى
دمشق التأتأه

والبصمات الممسوحة بالركب وقوائم الطاولات .
دمشق المنتصبة على شواطئ الأطلسي
دمشق المحدودبه أمام الصنبور
دمشق الوحل ، النجوم ، فقاقيع الحمى
أشلاء الثوار
اضربوها بالحجاره
دعوا الأطفال يتحلَّقون حولها
وألسنتهم ناتئةٌ من بين الأسنان
ليعلِّقوا في ملاءتها صفائحَ التنك
وهم يرقصون ضاحكين هازئين
عندما انتزعوني من سريري الغافي ،
وأنا أغطّ كفراشةٍ على زهرة
ورحتُ أنبض آلاف السنين
كحشرةٍ مقلوبةٍ على ظهرها
تشبثتُ بجدرانها
بحلقاتِ أبوابها
بلحى شيوخها وأثداءِ نسائها
وأنا أنظر إليها باكياً متوسلاً
كما كان العبدُ المطوق بالحراب
ينظر إلى أمه الطبيعه .
قلت لها عطشانُ يا دمشق
قالت : اشربْ دموعك
قلت لها : جوعانُ يا دمشق

قالت : كلْ حذائي .

ـ وماذا قلت لها

ـ لا شيء

أطرقتْ في الأرصفة وبكيت .

ـ والآن

ـ والآن قولوا لها ان الأغنيةَ التي غادرتْ حنجرتها

قبل آلاف السنين

قد بلغتْ حافةَ القيثاره

وأن الأصابعَ التي كانت تُبْتَر

مع الأغصان الزائده

عن أسوار الحصون والقلاع

تتجمّعُ الآن على هوامش الصفحات

تجمُّعَ البحارةِ على الشواطئ

قولوا لها كلّ شيء يا رجال

باسم الآباء والأجداد

باسم القطط والكلاب

ولكن ليس باسمي

سأظلُّ مع القضايا الخاسرة حتى الموت

سأظل مع الأغصان الجرداء حتى تزهر

مع دمشق القديمة كملامحي

مع العتبات الرطبه

والسعال المصطنع قبل دخول الأبواب

كيف أهجرها

وقدماي منغرستانِ في أرصفتها
كنابين في لثّة
كيف أنساها
وقد تركت آثارها على جلدي وصفحاتي
كما يترك التبغ آثاره على الاصبعين :
كما يطلُّ النسر على فراخه
كنت أطلُّ على أرصفتها كل صباح
ما من حصاةٍ في الطريق
إلا وقذفتها بقدمي
ما من صنبورٍ في حاراتها الضيقه
إلا وشربت منه بفمي
ما من حارسٍ ليليّ أو بائع صبار
في لياليها المقمره
إلا وسامرتُهُ وسامرني
ما من مزلاجٍ في أبوابها العتيقه
إلا وداعبته بجبهتي وأصابعي
ولكن ما من بابٍ مغلق
فتح ذات ليله
وقال أهلاً أيها الغريب
اضربوها بالسياط
اطردوها من الأبواب
والكتب والحانات والأعراس والمآتم
وأغلقوا في وجهها كل أبواب العالم

لتظلَّ وحيدة كالريح . . . كالله
ولكن
اسملوا عينيَّ قبل أن تفعلوا ذلك
إنني أحبُّها يا رجال
ولن أخونها
ولو ذرفت الكسور الدَّورية للدموع .

الظل والهجير

كلُّ حقولِ العالم
ضدّ شفتين صغيرتين
كل شوارع التاريخ
ضدّ قدمين حافيتين

حبيبتي
هم يسافرون ونحن ننتظر
هم يملكون المشانق
ونحن نملك الأعناق
هم يملكون اللآلئ
ونحن نملكُ النَّمَشَ والتواليل
هم يملكون الليل والفجر والعصر والنهار
ونحن نملك الجلد والعظام .

نزرعُ في الهجير ويأكلون في الظل
أسنانهم بيضاء كالأرز
وأسناننا موحشةٌ كالغابات

صدورهم ناعمةٌ كالحرير
وصدورنا غبراء كساحات الاعدام
ومع ذلك فنحن ملوكُ العالم :
بيوتهم مغمورةٌ بأوراق المصنفات
وبيوتنا مغمورة بأوراق الخريف
في جيوبهم عناوين الخونة واللصوص
وفي جيوبنا عناوين الرعد والأنهار
هم يملكون النوافذ
ونحن نملك الرياح
هم يملكون السفن
ونحن نملك الأمواج
هم يملكون الأوسمه
ونحن نملك الوحل
هم يملكون الأسوار والشرفات
ونحن نملك الحبالَ والخناجر
والآن ،
هيا لننامَ على الأرصفة يا حبيبتي .

خوف ساعي البريد

أيها السجناءُ في كل مكان
ابعثوا لي بكلِّ ما عندكم
من رعب وعويلٍ وضجر

أيها الصيادون على كل شاطئ
ابعثوا لي بكل ما لديكم
من شِباكٍ فارغةٍ ودوار بحر

أيها الفلاحون في كل أرض
ابعثوا لي بكل ما عندكم
من زهورٍ وخِرَقٍ باليه
بكل النهود التي مُزِّقت
والبطون التي بُقِرَتْ
والأظافر التي اقتُلِعَتْ
إلى عنواني . . في أي مقهى
في أيّ شارع في العالم
إنني أعدّ « ملفاً ضخماً »

عن العذاب البشري
لأرفعَهُ إلى الله
فور توقيعه بشفاهِ الجياع
وأهداب المنتظرين
ولكن يا أيها التعساءُ في كل مكان
جُلَّ ما أخشاه
أن يكون الله «أُميّاً»

أيها السائح

طفولتي بعيدة . . . وكهولتي بعيده . . .
وطني بعيد . . . ومنفاي بعيد
أيها السائح
أعطني منظارك المقرَّب
علَّني ألمح يداً أو محرمةً في هذا الكون تومئُ إليَّ
صورني وأنا أبكي
وأنا أقعي بأسمالي أمام عتبة الفندق
وأكتبْ على قفا الصورة :
هذا شاعرٌ من الشرق .

ضعْ منديلك الأبيضَ على الرصيف
واجلسْ إلى جانبي تحت هذا المطر الحنون
لأبوح لك بسر خطير :
اصرفْ ادلاّءك ومرشديك
والقِ إلى الوحل . . إلى النار
بكل ما كتبت من حواشٍ وانطباعات
إن أيَّ فلاح عجوز

يروي لك « بيتين من العتابا »
كل تاريخ الشرق
وهو يدرج لفافته أمام خيمته .

واجبات منزلية

وأنا في خريف العمر
والشيخوخةُ البيضاءُ بدأتْ تمسُ جبيني
كالياسمين الدمشقي عند كل منعطف
من يُوليني اهتمامه ؟
أديري قرص الهاتف يا حبيبتي
واطلبي ، مزيداً من الرعب والعذاب
لم أعد أبالي
مستقبلي في قبري
وجمهوري الوحيدُ هو ظلي
في الطريق اليه
لا
اطلبي لي كوفيةً وعقالاً
وصحراء لا حدود لها
لأعودَ إلى الماضي
وأحضر ملفَ دموعي ورقم خدي
لا
اعطيني هويتي ودفتر عناويني

وجواز سفري
سأصفّها حول جبيني
وأجلس متربعاً وسط المدينه
كزعيم إحدى القبائل المتوحشه
وأبادلها بالخرز والمرايا الملونه
لا اغرسي كلاّبةً في شفتي السفلى
وجرّيني كالجثه النافقه
إلى ضواحي المدينه
ودحرجيني في أحد الوديان .
وإذا ما لمحك علمُ بلادي المختال
فوق ساريته
اعبري بسرعه
كالمَدين أمام حانوت مُدينِه .

بعد تفكير طويل

انزعوا الأرصفه
لم تعدْ لي غايةٌ أسعى إليها
كل شوارع أوروبا
تسكعتُها في فراشي
أجملُ نساء التاريخ
ضاجعتهنَّ وأنا ساهمٌ في زوايا المقهى

قولوا لوطني الصغير والجارح كالنمر
انني أرفعُ سبابتي كتلميذ
طالباً الموت أو الرحيل
ولكن
لي بذمته بضعةُ أناشيدَ عتيقه
من أيام الطفوله
وأريدها الآن
لن أصعدَ قطاراً
ولن أقول وداعاً
ما لم يُعِدْها إلي حرفاً حرفاً

ونقطة نقطه
وإذا كان لا يريد أن يراني
أو يأنف من مجادلتي أمام الماره
فليخاطبْني من وراء جدار
ليضعها في صُرَّةٍ عتيقةٍ أمام عتبه
أو وراء شجرة ما
وأنا أهرعُ لالتقاطها كالكلب
ما دامت كلمة الحرية في لغتي
على هيئة كرسيٍّ صغيرٍ للاعدام .
قولوا لهذا التابوت الممدد حتى شواطئ الأطلسي
إنني لا أملكُ ثمن المنديل لأرثيه
من ساحات الرَّجم في مكه
إلى قاعاتِ الرقص في غرناطه
جراحٌ مكسورةٌ بشعر الصدر
وأوسمةٌ لم يبقَ منها سوى الخطافات
الصحارى خاليةٌ من الغربان
البساتينُ خاليةٌ من الزهور
السجون خالية من الاستغاثات
الأزقة خالية من الماره
لاشيء غير الغبار
يعلو ويهبط كثدي المصارع
فاهربي أيتها الغيوم
فأرصفةُ الوطن
لم تعد جديرةً حتى بالوحل .

كل العيون نحو الأفق

مذ كانت رائحةُ الخبز
شهيةً كالورد
كرائحة الأوطان على ثياب المسافرين
وأنا أسرِّحُ شعري كل صباح
وأرتدي أجمل ثيابي
وأهرع كالعاشقِ في موعده الأول
لانتظارها
لانتظار الثورة التي يبستْ
قدماي بإنتظارها

من أجلها
أحصي أسناني كالصيرفي
أداعبها كالعازفِ قبل فتح الستار
بمجرَّد أن أراها
وألمح سوطاً من سياطها
أو رصاصةً من رصاصاتها
سأضعُ يدي حول فمي

وأزغرد كالنساءِ المحترفات
سأرتمي على صدرها كالطفل المذعور
وأشكو لها
كم عذبني الجوع وأذلّني الإرهاب

وفي المساء
سآخذها إلى الحواري الضيقه
والريف المصدور
سأجلسُ وإياها تحت مصابيح الشارع
وأروي لها كل شيء
بفمي وأصابعي وعينيَ
حتى يدبَّ النعاس في أجفانها
وتغفو رويداً رويداً
كالجدَّةِ أمام الموقد
ولكن
إذا لم تأتِ
سأعضُّ شراييني كالمراهق
سأمدُّ عنقي على مداه
كشحرورٍ في ذروة صداحه
وأطلبُ من الله
أن يبيدَ هذه الأمه .

في الليل

هناك نحلٌ . . وهناك أزهار
ومع ذلك فالعلقمُ يملأ فمي .
هناك طُرَفٌ وأعراسٌ ومهرجون
ومع ذلك فالنحيبُ يملأ قلبي .

أيها الحارسُ العجوزُ يا جدّي
أعطني كلبك السلوقي لأتعقَّب حزني
أعرني مصباحك الكهربائي
لأبحث عن وطني .
من أزقة طويلة كسياط أجدادي
آتي إليك ،
والاستغاثاتُ مصطفَّةٌ في حنجرتي كالمجاذيف
لأشكوَ لك الغبارَ والجماهير
الليلَ والزهور والموسيقى
لأشكو لك ذلك الرصيف :
ما ان شرعت بقصتي
حتى انسل بين الأزقة كالأفعى

وتركني وحيداً . . . وقدماي
تهتزان في الهواء كقدميّ المشنوق
ولذا جئتك مرفرفاً بيدي كالخفاش
لا أعرف أين أمضي هذه الليله
وكل ليله
الأرصفةُ التي أعبرها
تلفظُ خطواتي كالدواء المرّ
الجدران التي ألمُسها
ترتعشُ تحت أصابعي كالشفاه قبل الزئير
أحسد المسمار
لأن هناك خشباً يضمُّهُ ويحميه
أغبطُ حتى الجثث الممزقة في الصحراء
لأن هناك غرباناً ترفرفُ حولها وتنعقُ لأجلها
آه يا جدي
لقد اشتقتُ للظلم للارهاب
للتعلّقِ بالأغصان بالشاحنات
للتمسّك بأيّ شيء
ولو بقضبان السجون

إنني لستُ ضائعاً فحسب
حتى لو هويتُ عن أريكتي في المقهى
لن أصل إلى سطح الأرض بآلاف السنين .

اليتيم

آه

الحلم . . .

الحلم . . .

عربتي الذهبية الصلبه

تحطمتْ ، وتفرَّقَ شملُ عجلاتها كالغجر

في كل مكان

حلمتُ ذات ليلة بالربيع

وعندما استيقظت

كانت الزهورتغطي وسادتي

وحلمتُ مرةً بالبحر

وفي الصباح

كان فراشي مليئاً بالأصداف وزعانف السمك

ولكن عندما حلمت بالحريه

كانتِ الحراب

تطوّقُ عنقي كهالةِ المصباح .

. . . فلن تجدوني بعد الآن

في المرافئ أو بين القطارات

ستجدونني هناك . . . في المكتبات العامه
نائماً على خرائط أوروبا
نومَ اليتيم على الرصيف
حيث فمي يلامس أكثر من نهر
ودموعي تسيل من قارةٍ إلى قارد .

الوشم

الآن
في الساعة الثالثة من القرن العشرين
حيث لا شيء
يفصل جثثَ الموتى عن أحذيةِ الماره
سوى الاسفلت
سأتكئ في عرضِ الشارع كشيوخ البدو
ولن أنهض
حتى تجمع كل قضبان السجون وإضبارات المشبوهين
في العالم
وتوضع أمامي
لألوكها كالجمل على قارعة الطريق . . .
حتى تفرَّ كلُّ هراواتِ الشرطةِ والمتظاهرين
من قبضاتِ أصحابها
وتعود أغصاناً مزهرة « مرة أخرى »
في غاباتها
أضحكُ في الظلام
أبكي في الظلام

أكتبُ في الظلام
حتى لم أعدْ أميِّز قلمي من أصابعي
كلما قُرِعَ بابٌ أو تحرَّكَتْ ستاره
سترتُ أوراقي بيدي
كبغيٍّ ساعةَ المداهمه

من أورثني هذا الهَلَع
هذا الدم المذعور كالفهد الجبليّ
ما ان أرى ورقةً رسميةً على عتبه
أو قبعةً من فرجة باب
حتى تصطكُّ عظامي ودموعي ببعضها
ويفرّ دمي مذعوراً في كل اتجاه
كأن مفرزةً أبديةً من شرطة السلالات
تطارده من شريان إلى شريان

آه يا حبيبتي
عبثاً أستردُ شجاعتي وبأسي
المأساةُ ليست هنا
في السوط أو المكتب أو صفارات الانذار
إنها هناك
في المهد . . . في الرَّحم
فأنا قطعاً
ما كنت مربوطاً إلى رحمي بحبل سرّه
بل بحبل مشنقه .

النخاس

الاسم : حشره
اللون : أصفر من الرعب
الجبين : في الوحل
مكان الاقامة : المقبرة أو سجلات الإحصاء
المهنة : نخاس
البضاعة : رمال ذهبية وسماء زرقاء
عواصف ثلجيه
وشواطئُ متعرِّجةٌ لا يحدُّها البصر
لارهاقِ الملاحين ومصمّمي الخرائط

عندي غبارٌ للقرى
رمدٌ للأطفال
وحولٌ للأزقة
وحجارةٌ لصنعِ التماثيل وقمعِ المظاهرات

عندي آباء للتذمر
أمهاتٌ للحنين

أرصفةٌ لبيع الزهور
وغاباتٌ لصنع السفنِ والقباقيبِ وسواري الأعلام

عندي ثلجٌ للعصافير
وخريفٌ للغابات
سعالٌ للأزقه
ونوافذُ عالية لمناداةِ الباعة ، للاستغاثات .
عندي كل شيء أيها السادة
نسور أعقاب سجاير
نشارة خشب
صفائح فارغه
وعندي . . . شعوب
شعوب هادئةٌ وساكنةٌ كالأدغال
يمكن استخدامها
في المقاهي والحروب وأزمات السير
أسرعوا أيها السادة
ها هو الليلُ يقترب
وعليَّ أن أنهي صفقتي
قبل غياب الشمس
أخرجوا محافظكم ولا تخيفنَّكم أسعاري :
كلُّ الفتوحات العربيه
مقابل « سرير »
كل نجوم الشرق

مقابل عود ثقاب
لأهتدي إلى أقرب حصاةٍ
أو مسمارٍ في هذا الوطن
أغرسه في صدري كمنقار البجعه
وأموت. .

الخوف

أمي . . .
يا ذات النهد الملون كالأكواخ الافريقيه
أسرعي لنجدتي
تعالي وخبئيني في جيبكِ الريفي العميق
مع الابرِ والخيطان والأزرار
فالموتُ يحيق بي من كل جانب
السماءُ تظلم
والريحُ تصفّرُ
والكلابُ السوداء
تنهشُ الكتب الدامية من حقائب الماره
وأخشى في هذه الأيام المكفهره
أن أستيقظ ذات صباح
فلا أجدُ طائراً على شجره
أو زهرةً في جديله
أو صديقاً في مقهى
أن أوثقَ ذات صباح
إلى المغسلة أو عمود المدفأه

ليدرزَني الرصاص
والفرجون في فمي .
أتوَّسل إليك أن تسرعي يا أمي
وأن تعرِّجي في طريقك
على الحصادين ومضارب البدو
وتسأليهم عن « حجاب » جلديّ
عن « عشبة » ما
تقيني هذا الخوف :
أدخلُ إلى المرحاض وأوراقي الثبوتيةُ بيدي
أخرج من المقهى وأنا أتلفَّتُ يمنةً ويسرة
حتى البرعم الصغير
يتلفت يمنة ويسرة قبل أن يتفتَّح

آه يا أمي
لو أن هتلر بقي رساماً
وماركس قضى في خناق الطفوله
لو أن لويس السادس عشر
كان أكثرَ فحولةً وبطشا
وماري أنطوانيت أقلَّ فتنة وكبرياء
لو كانت قلاع الباستيل على ذرى قاسيون
ووحل باريس على أرصفة دمشق
لو كان الشرق هشيماً
والريحُ أكثر قوةً وذكاء

عندما احترقت روما
آه يا أمي
لو كانت الحرية ثلجاً
لنمت طوال حياتي بلا مأوى

مسافر عربي في محطات الفضاء

أيها العلماءُ والفنّيون
أعطوني بطاقة سفر إلى السماء
فأنا موفدٌ من قبل بلادي الحزينه
باسم أراملها وشيوخها وأطفالها
كي تعطوني بطاقة مجانيةً إلى السماء
ففي راحتي بدل النقود . . . «دموع»

لا مكان لي ؟
ضعوني في مؤخرة العربه
على ظهرها
فأنا قروي ومعتادٌ على ذلك ،
لن أؤذي نجمه
ولن أسيءَ إلى سحابه
كل ما أريده هو الوصول
بأقصى سرعةٍ إلى السماء
لأضع السوطَ في قبضة الله
لعله يحرّضنا على الثوره .

إلى بدر شاكر السياب

يا زميل الحرمان والتسكع
حزني طويلٌ كشجر الحور
لأنني لست ممدّداً إلى جوارك
ولكنني قد أحلُّ ضيفاً عليك
في أية لحظه
موشحاً بكفني الأبيض كالنساء المغربيات

لا تضعْ سراجاً على قبرك
سأهتدي إليه
كما يهتدي السكّير إلى زجاجته
والرضيعُ إلى ثديه
«فعندما ترفعُ قبضتك في الليل
وتقرعُ هذا الباب أو ذاك
وأنت تحملُ دفتراًعتيقاً
نُزِعَ غلافهُ كجناح الطائر
وأنت تسترجعُ في ذاكرتك المتعبه
هذه الجملةَ أو تلك

لتقصَّها على أحبابك حول المصطلى
ثم تسمعُ صوتاً يصرخ من أعماق الليل :
لا أحدَ في البيت
لا أحدَ في الطريق
لا أحدَ في العالم
ثم تلوي عنقك وتمضي
بين وحولٍ آسنه
وأبواب أُغلقت بقوة
حتى تساقطَ الكلس عن جدرانها
وأنت واثقٌ أن المستقبل
يغص بآلاف الليالي الموحشه
والأصوات التي تصرخ
لا أحدَ في البيت
لا أحدَ في الطريق
لا أحدَ في العالم
هل تضعُ ملاءةً سوداء
على شاراتِ المرور وتناديها يا أمي
هل ترسم على عُلبِ التبغِ الفارغه
أشجاراً وأنهاراً وأطفالاً سعداء
وتناديها يا وطني
ولكنْ أيَّ وطنٍ هذا الذي
يجرفه الكناسون مع القمامات في آخر الليل ؟ »
تشبَّثْ بموتك أيها المغفل

دافعْ عنه بالحجارةِ والأسنان والمخالب
فما الذي تريد أن تراه ؟
كتُبك تباع على الأرصفه
وعكازُكَ أصبح بيد الوطن

أيها التَّعِسُ في حياته وفي موته
قبرُكَ البطيءُ كالسلحفاة
لن يبلغَ الجنّة أبداً
الجنَّةُ للعدّائين وراكبي الدراجات .

المعذبة في عصر وحشي

كالزنجي النائم ورمحه بيده
أمكث في هذه الأدغال الحجريه
بانتظار شيء ما
فهل أجدُ في غاباتِ روحك العذراء
غصناً متواضعاً
لطائر جريح اسمه . . . قلبي ؟ ؟
سأكسوك بالقُبَلِ كالأضرحه
كالشجرةِ في الربيع
وبين كل قبلة وقبلة
سأنظر شاكراً وممتنّاً إلى السماء
كعصفورٍ ظمآنَ يشربُ من آنيه .
سأدفنُ وجهي بين نهديك الحنونين
وأصرخُ كبدوي ينادي قبيلته

أيتها الحمامةُ التي تزورني
وجناحاهامعقودان كشريطةِ المدرسه
كفاك تحديقاً في راحتي

بحثاً عن خطوط العمر والحظّ والمستقبل
لقد امّحتْ كلُّها من حمل الحقائب
وشد القلوع في . . «الأحلام»
وعبثاً تتقصين أسرارحزني
من اضبارتي المدرسية
أو رفاقي في المقهى
فحزني لا حسبَ له ولا نسب
كالأرصفه
كجنين وُلِدَ في مبغى

رسالة إلى القرية

مع تغريدِ البلابل وزقزقة العصافير
أناشدُك الله يا أبي :
دعْ جمع الحطب والمعلومات عني
وتعالَ لَملمْ حطامي من الشوارع
قبل أن تطمَرني الريح
أو يبعثرني الكناسون
هذا القلم سيوردني حتفي
لم يتركْ سجناً إلا وقادني إليه
ولا رصيفاً إلا ومرَّغني عليه
وأنا أتبعه كالمأخوذ
كالسائر في حلمه

في المساء يا أبي
مساء دمشق البارد والموحش كأعماق المحيطات
حيث هذا يبحثُ عن حانه
وذاك عن مأوى
أبحث أنا عن « كلمة »

عن حرف أضعهُ إزاء حرف
مثلَ قِطٍ عجوز
يثبُ من جدار إلى جدار في قرية مهدمه
ويموء بحثاً عن قطته
ولكن . . أو تظنني سعيداً يا أبي ؟
أبداً
لقد حاولت مراراً وتكراراً
أن أنفضَ هذا القلم من الحبر
كما يُنْفَضُ الخنجر من الدَم
وأرحل عن هذه المدينه
ولو على صهوةِ جدار
ولكنني فشلت
ان قلمي يشمُّ رائحة الحبر
كما يشمُّ الذكر رائحة الأنثى
ما ان يرى صفحةً بيضاء
حتى يتوقَّف مرتعشاً
كاللص أمام نافذةٍ مفتوحة
أنام
ولا شيء غير جلدي على الفراش
جمجمتي في السجون
قدماي في الأزقة
يداي في الأعشاش
كسمكة «سانتياغو» الضخمه

لم يبقَ مني غير الأضلاع وتجاويف العيون
فاقتلعنيْ من ذاكرتك
وعدْ إلى محراثك وأغانيك الحزينه
لقد تورطتُ يا أبي
وغدا كلُّ شيء مستحيلاً
كوقفِ النزيف بالأصابع .

شتاء

كالذئاب في المواسم القاحله
كنا ننبتُ في كل مكان
نحبُّ المطر
ونعبدُ الخريف
حتى فكرنا ذات يوم
أن نبعث برسالة شكر إلى السماء
ونلصق عليها
بدل الطابع . . ورقة خريف
كنا نؤمن بأن الجبال زائله
والبحار زائله
والحضارات زائله
أما الحب فباق . .
وفجأة : افترقنا
هي تحبُّ الارائك الطويله
وأنا أحبُّ السفن الطويله
هي تعشق الهمس والتنهداتِ في المقاهي
وأنا أعشق القفز والصراخ في الشوارع

ومع ذلك . .
فذراعاي على امتداد الكون
بانتظارها . . .

الغابة

مغريةٌ كلماتُ الوداع
مغرية . . مغرية كزجاجة السُّم
في راحةِ القائد المنهزم
ولكنها قاضيةٌ يا حبيبتي
إنها تضربُ رأسي
كما تضربُ الحِمَمُ جدار البركان
أقول ذَهَبَتْ
فلتذهبْ
ليست أكثرَ خلوداً من المذابح والحضارات
ولكن
كلماحزمتُ أمتعتي وحاولت الفرار
يقبضُ عليَّ حبُّك كذراع الميت
كالستائرِ الغامضة في أفلام الرعب .

من أغلق كل هذه الأبواب والنوافذ
وترك دمي وحيداً في العراء
ينبح كجروٍ أحمرَ في أزقةِ العروق البشرية ؟

أنت .

من كسى جلدكِ بالقبلات

وزيَّنه كالستائر الأندلسية

بالشعرِ والدموعِ وطعناتِ السياط ؟

أنا .

أنا وأنت يا حبيبتي

حطَّابان مقروران في غابة بائسة

كل منهما يحمل فأساً قاطعه

كحد السيف

ويهوي عليها شجرة بعد شجرة

وغصناً بعد غصن

دون أن ندري

أن هذه الغابة هي . . «حبنا» .

الفائض البشري

أنا الذي لم أقتل حتى الآن
في الحروب أو الزلازلِ أو حوادثِ الطرق
ماذا أفعل بحياتي ؟
بتلك السنوات المتماوجةِ أمامي
كالبحر أمام البجعه ؟
بعد أن ذهبتْ زهرةُ كلماتي
على الرسائل وطلبات الاسترحام
ورُسم مستقبلي
كما تُرسم البطة على لوح المدرسه
هل أعبّرُ عن أحلامي
بالهمس واللمس كالمكفوف ؟
أم أتركها تسيل على جوانب رأسي
كصمغ الأشجار الاستوائيه ؟
أيتها النوافذ
قليلاً من هواء الغابات
انني أختنق
ورئتاي جاحظتان خارج صدري

كعَيْنَيْ اليتيم
وصوتي ضالٌ كالرعد
لا يعرف أجيالاً مقبلة ينشدها
ولا فماً قديماً يعود إليه .
أيها البناؤون ادعموني بحجر
إنني أتصدع
كالجدران التي خالطها الغشّ
أنهار
كالقمم الثلجيةِ تحت شمس الربيع
آه
لو يتمُ تبادلُ الأوطان
كالراقصاتِ في الملهى .

حتى الأغصان ترتجف

كالغربانِ المولية الأدبار
سأصرخ يا حبيبتي
إذا لم تعطيني سراجك في الليل
وذراعك في الشيخوخه
وسريرك في الزمهرير
ولقمتَكِ في المجاعات

سأحشو مسدسي بالدمع
وأملأ وطني بالصراخ
اذا لم تعطيني جناحاً وعاصفه
لأمضي
وعكازاً من السنونو
لأعود
حتى الأغصان العالية ترتجف
عندما أنظر إليها وأبكي

آه لو أن الأيام المتواليه
تنال من روحي وأصابعي وعيني
ما تناله السكين من الثمره
والخريفُ من الأغصان
لأمسي طفلاً صغيراً بطول المدفأه
لأحرق العالم
وأصنع من رماده
كفناً لدراجة صغيره أعرفها
مزماراً حزيناً لوطن قديم أعبده
ثلاثين عاماً
لم أهزّ دميه
لم ينهرني جدّ
لم أتشبثْ بملاءه
لم أبكِ في زقاق
ثلاثين عاماً
لم أرَ علم بلادي مبللاً بالمطر
وأنا أنفخُ راحتي في الزمهرير
وأغني : موطني . . . موطني . . .

بكاء السنونو

إلى : ن.ح

يا من طعنتماني في الظهر
وأنا مكبٌ على أوراقي
كالشيخ فوق سجادته
الذئبُ والأفعى لن يكونا أبداً
حمامتين تحت المطر
المطر لي
المطر والرعد والريح والشوارع
هي ملكي
ومعي وثيقةٌ من السماء بذلك
أحقاً سرتما تحت المطر
وعلى أرصفتي وفي شوارعي ؟
إذن لن أحبَّ المطر بعد اليوم
لا المطر ولا الريح ، ولا القمر ولا الصخور
سأحب شعبي . . .
يا شعبي احتضني
أنت الأبُ الحكيم
وأنا الطفلُ الضالّ

أنت السيلُ الجارف
وأنا الكوخ المتداعي
أعطني فرصة أخيرة وانتظر
سأحبُّ عمالك وفلاحيك
سأعتزُّ حتى ببغاياك وأوحالك
وأطلي بها جبيني كالهندي المحارب
سأقف جامداً كالتمثال عند تحية العلم
وأصرخ كالمجنون في المظاهرات
ولكن لا تقسُ عليَّ يا شعبي
هجرتُك لأنك هجرتني
تجاهلتُك لأنك تجاهلتني
ولكنني أقسم بكل جليلٍ ومحرّم
ما نسيتُك في يوم من الأيام
وأنا غارق في الهموم والنقاشات
عن السأم والأزياء الفاضحه
كنت أفكِّر بخرافك الهزيله
ومرضاك المكدسين في الممرات .
وأنا أشعل اللفائف للمدعوين
وأقهقه ساخراً في الحفلات
كنت أفكر بقراك الموحله
وعجائزك المترنحات على ضوء القناديل
هيّا . .
كلانا أساء للآخر
لنجرحْ أصابعنا كيفما اتفق

وليشربْ كلٌّ منا قطرةً من دم الآخر
ولنتآخى
لنخلط دموعنا وهمومنا كالنقود المسروقه
ولنمضِ وحيدين
ضدّ الزمن ضد العاصفة
والندوب تتحرك على جباهنا
كعقارب الساعات . . .

الغضبة

لا تصفعني أيها القدر
على وجهي أمتارٌ من الصفعات
ها أنا
والريح تعصف في الشوارع
أخرج من الكتب والحانات والقواميس
خروجَ الأسرى من الخنادق .

أيها العصرُ الحقير كالحشره
يا من أغريتني بالمروحةِ بدل العواصف
وبالثقاب بدل البراكين
لن أغفر لك أبداً
سأعود إلى قريتي ولو سيراً على الأقدام
لأنثر حولك الشائعات فور وصولي
وأرتمي على الأعشاب وضفاف السواقي
كالفارس بعد معركة منهكه
بل كما تعبر الكلابُ المدربة حلقاتِ النار
سأعبرُ هذه الأبواب والنوافذ

هذه الأكمام والياقات
محلقاً كالنسر
فوق خفر العذارى وآلام العمال
باسطاً جناحي كالسنونو عند الأصيل
بحثاً عن أرض عذراء
كلما لامسها كوخٌ أو قصر
أميرٌ أو متسول
وثبتْ جامحةً في الهواء
كالفرس الوحشية اذا مسَّها السرج .
أرض ،
لم توجد ولن توجدَ إلا في دفاتري .
حسناً أيها العصر
لقد هزمتني
ولكنني لا أجد في كل هذا الشرق
مكاناً مرتفعاً
أنصبُ عليه راية استسلامي .

ذكرى حادث أليم لم يقع

فيما كنتُ أتسكَّعُ تحتَ الأشجار المزهرة
مع مذكراتي وغليوني
كبطلٍ عجوزٍ يتريَّض في منفاه
لمحتُهم يهرولون في العواصف الثلجيه
نصفهم معاطف
ونصفهم عباءات
يرشقون الوحل بنعالهم كالرصاص
وكل منهم يشبِكُ أصابعه فوق رأسه
ويصرخ :
النجدة . . النجدة
أنا دفتر
أنا ثائر
أنا كاتب عدل
أنا هاتف
أنا ساعي بريد
وأنا أجثم على جدران المدينه
كسلَّم الحريق

وسيفي مغروس حتى قبضتهِ
في نخاع الباستيل .

مروحة السيوف

في المدن يستعملون المراوحَ والمرطبات
أما في الصحراء ، فماذا يفعلون
غير انتظار العاصفة ؟
ولكن أين العاصفة ؟
لا القلوعُ البيضاء تعرف
ولا الراياتُ الذابلةُ على التلال
أن العاصفةَ هناك
مترددةً وراء الأفق البعيد
كالبغيّ أمام عتبةِ الفندق
والنسرُ العجوز
آخرُ نسرٍ في التاريخ
ينتظرها وحيداً وصامتاً كالحوذي
امضِ إليها أيها النسر العجوز
وكفاك تذوقاً
لفضلاتِ السُّحُب والعواصف الغابره
كالطاهي القديم
فالعاصفةُ قد لا تنهي زينتها قبل أجيال

ولكن كيف يمضي إليها
ومنقاره مهترئٌ كإبهام الحذّاء
كيف يسرع
وهو يترنح كدراجةٍ تعبر النهر .

عاماً بعد عام
والريشُ الأبيض يتّسخُ على صدره
كفُوَط الخدم
جيلاً بعد جيل
والنسيماتُ الصغيرة تدفعه
من صخرةٍ إلى صخره .
ومن سهلٍ إلى آخر
وهو مشيحٌ عنها ، مستسلم لها
كبغيٍّ في معسكر
انه يحنُّ إلى معركةٍ أخيره
مع القدر
مع العاصفة
مع «ذبابة»
بهذه المخالب المتآكله
والمنقار الذي كاد يستقيم
من كثرة ما ضربه على الصخور
في ساعات الذكرى :
فيما مضى

كان يفتلُ جناحيه كالأبّ الشرقي
يفتحهما كالأكمام الريفية المطرزه
ويهيمُ فوق المدن والقارات
بينما السُّحُبُ والعصافير الصغيره
تركض وراءه لاهثةً
كالغوغاء في مواكب الملوك .
فيما مضى
فيما مضى
أما الآن
فلا شيء
غير الأسى والذكريات .

كنس الغبار بجناحيه المتعبين
وربضَ تحت العوسجِ الذابل
كقاطع الطريق
موقناً أن العاصفةَ ستأتي
وأن أسنانها الغازية
سوف تلمعُ عما قريب
كأضواء السُّفن ومشاعل الثورات
وقد صمَّم على المعركة
بكل هزاله وأنقاضه
حيث الصحراءُ مقفره
والمعركة بلا هتاف أو شهود

وطال انتظارُه في الهجير .
وفيما هو يكبو رويداً رويداً
كمسافر عجوز على طريق وعرة
ومخالبه تسيل كالحلوى الرخيصة على الرمال
مرَّت به نسمةٌ باردة كالينبوع
فتنهَّدَ منتشياً
كالمراهقِ وقد مسَّته امرأة
وتابع الرقاد من جديد . .
تحت شمسٍ لاهبة
وعزلةٍ طويلة كالدهر .
وفجأة أظلم الأفق
وتمايلت العوسجة
وارتفع الذيلُ المتسخ بالعرق والدم
وانطلق الذبابُ الدفينُ في الجراح
مدوّماً لا يلوي على شيء
فانتفض قلبه من الفرح
وأخذ يقفزُ هنا وهناك
كخروفٍ يسعى لملاقاة أمه
العائدة من المرعى
لقد أقبلت :
سريعة ومدوِّمة كراقصةٍ على الجليد
قطار أحول من الطعنات
ينشد كبد الأرض للمرة الأولى

فليستفدْ من كل حبة رمل
وضربةِ مخلب
وليخرجْ من المعركة منتفخاً
فالعاصفة كالحصباء . . كموسيقى النصر
تأتي مرَّةً واحدةً ولا تعود
والنسر بلا قمةٍ أو عاصفه
كالعروس بلا أقراط أو دموع .

فتح منقاره خلسةً كصيَّاد الفراشات
وتراجع بحذر واحترام
كتلميذ أمام أستاذه القديم
. . . وأنشبه في العاصفه
في الرمال . . في الدماء . . في المسارح
في القبلات المذعوره
والخواتم التي تحمل شعر السلاميات ،
في اللاشيء
وراح يدورُ كالمغزلِ وسط ريشه الممزَّق
وصيحاتُهُ المدوِّيةُ كطلقاتِ الرصاص
كتلةٌ من الدم والأبهه
تحاضر من وراء طاولة الصحراء
في فنّ العطش وتمزيق الأوصال
في الحلم الذي أتاه على طبقٍ من الهجير
خانقاً وحنوناً كالقبلات

وقد آن لأجملِ أسير في التاريخ
أن يزدردَ خرزه الأحمر خارَج الأقفاص
أن يضع السلالم على كتفَ العاصفه
ويقطف ثمار حزنه كالبستاني

ولكن العاصفة كانت تهزُّ كتفيها
كالراقصةِ الشرقيه
تتمنَّعُ عليه كالمومسِ المحترفه
أمام مراهقٍ غرّ
حتى إذا ما سنحتْ لها الفرصه
فتحتْ باب الأفق . .
وولَّتْ الأدبار
فجُنَّ جنونه
وراح يثبُ كالهرّ
كطفل مذعور يحاول عبثاً
بلوغ مطرقة الباب
وهو يرى كل شيء ينحني ويميل
الشمس والرمال والجراح
والأفق إلى جواره مجوّف ومقزز
كالرحم بعد الولادة
ولحق بها مرغياً مزبداً
كسكير يحاول اقتحام الحانه
بعد أن طرد منها مئات المرات

ولكن دون جدوى
لقد أسدلت العاصفة ستائرها
وأغلقت سجل الزوّار
وهنا بكى النسر العجوز
ورفع مخالبه كالأصابع المتضرعه
وراح ينتحب كالأطفال .
وبعد آلاف الأميال
وبعد كل ذلك الزهو والبطش الجارف
هَوَتِ العاصفةُ على شاطئ البحر
ووجهها ممزق كوجه الملاكم
لقد أقفر الصدر من النهود والأوسمه
وجُرِّدَتِ العروسُ من الخواتم والمرايا
واتكأتْ على الصخور
كسكّيرٍ أمام مغسله
لقد كان في أعماقها ألمٌ مميت
أظافرُ صغيرةٌ وصيحاتٌ حاده
أخذتْ تنبعُ كالنمل
من ثقوبِ الأنفِ والأذنينِ والبلعوم
لترقصَ كالغجر
على ظهرها المقوس والرهيب كالجسر

من أين ينبعُ هذا الألم ؟
هذه الطعناتُ المشتعلةُ كنيران الأعراس

من غطَّى كفلها البربري
بهذه الجراح الغزيرة والندية كأهدابِ العاشق ؟
وفيما هي تكبو رويداً رويداً
كمذنب يعترف بكل شيء
تذكَّرَتْ أن ثمَّةَ جداً قديماً
لكلِّ هذه الجراح والآلام
كان ينبشُ أعماقها كالكنز
ثمة شيء صغير كالبرغوث
قاومَ وناضلَ حتى الموت
ولابدَّ أن كلَّ هذه الآلام القاتله
وهذا الريش والصيحات المتراكمه
على فوهاتِ الجراحِ
من ذلك الشيءِ الصغير كالبرغوث
وفجأةً انطرحتِ العاصفه على قفاها
كخيمةٍ كبيرةٍ بحجم العالم
ثم تقلَّصَتْ بحجم المنديلِ وماتتْ
ودموعُها تسيلُ على هيئة نسر .

العصفور الأحدب



العصفور الأحدب ١



(قفص بشري مجهول في صحراء مجهولة . سماء شاحبة وغيوم رمادية . ساقية موشكة على الجفاف . أغطية خلقة ، صحون ، ملاعق ، ضمادات ملطخة بالدم . دورة مياه ، مغسلة ، سجناء يتكئون على وسائدهم القذرة باعياء . كهل ، قزم ، صانع أحذية عازب مصاب بالشذوذ الجنسي ، وعدد آخر من السجناء المجهولين ، معصبي الرؤوس ، والأطراف . بعضهم يقعي ، وبعضهم يمشي ، وبعضهم الآخر يغلي ضماداته وثيابه وسط بحيرة من الوحل .)

صوت : (خافت وحزين يأتي من النافذة الصغيرة العالية .)
تحت أقواسِ النصر ، رفعوا وشاحي كذيل النعجة
أمامَ لهب الشموع ، فتّشوا نهديّ كالبضائع
أخرجوا العروق
ونثروا بذور الحليب
ليست الشرطةُ أو رجالُ التأميم
ولكنها العصافير المغردة والعشاقُ المجهولون
لم أكن أحمل لهم لوماً أو فراقاً
ولكنني كنت أحمل لهم رائحة الشجر وبكاء
الأساطيل .

(صمت)

يا إخوتي .
أنتم هنا ، لأن الآخرين هناك
أنتم هنا ، لأن أطفالكم يأكلون الفراشاتِ النيئة

ويضربون البراعم بحدّ المساطر .
أنتم هنا ،
لأن الله لا يجلسُ تحت الياسمين وفي ثقوب
القيثارات
ولكن في ثقوب المدافع وعلى جراح السبايا
(صمت)

القزم : ما هذا ؟
صانع الأحذية : عاصفةٌ أو امرأة
الكهل : أياً كانت هويتُها ، عاصفةٌ أو امرأةٌ أو سحابةٌ ، لقد بثَّتْ همومها ومضت
القزم : وبقيت تلك الساقيةُ الخرساء
صانع الأحذية : إنها تزعجني ، تسير دون جلبةٍ كالأفعى .
الكهل : بل كالحرير .
صانع الأحذية : (بغضب) وهل تعرفها ؟
الكهل : كابنتي .
مجهول : وأنا أعرفها أيضاً . منذ عام ونصف وهي تحرمنا النوم والسهر . (بعصبية) لتتزوج نهراً وينتهي الأمر .
الكهل : إنها عانس .
العازب : أنا أتزوجها . أليس لها أثداء ؟
الكهل : بلى . أثداءٌ صغيرةٌ كزهر البيلسان ، ولكنها سقطتْ منذ أمدٍ بعيد . كلُّ غاباتِ العالم ترضع منها .
العازب : ألا تتهيَّج ؟
الكهل : طبعاً ، طبعاً تتهيج .
القزم : يا إلهي . يتكلَّمُ كأنه زوجها ، كأنه يجري معها في صحراءٍ واحدة .
الكهل : قلتُ تتهيج . ما من شيءٍ في العالم إلا ويتهيَّج . حتى الشعوب أو الملاعق ، يمكن أن تتهيج .
العازب : فعلاً إن أصابعي الآن في حالةِ سحاق .

صانع الأحذية : سأطمرُها بالتراب ذات يوم .

الكهل : ستبكي أنهارٌ كثيرةٌ في العالم .

صانع الأحذية : لا أنهارَ في العالم .

القزم : (غاضباً وواقفاً على قدميه) لا أنهار في العالم ! طبعاً ستقول ذلك طالما لم ترَ في حياتك كلها سوى المياه القذرة في الدلاء . هل تعتقد أن ما يجري في أنابيبكم ودوارق مستشفياتكم هو ماء ؟ أبداً . انه حثالة ، بل قمامة الينابيع في العالم . (يبصق) لقد شربتُ ذات يوم من صنبور ، كأنني شربت من وريدٍ مقطوع .

الحارس : (يدخل فجأة ويصرخ) من يشتمُ الدولة ؟

القزم : لا أحد . إننا نتحدث عن الينابيع .

(الحارس يخرج ويترك الباب مفتوحاً وهو يلوح بسوطه . تصفر على اثر ذلك ريح حزينة تحرك أسمال الأشباح ولحاهم المترامية على الركب والصدور الممزقة) .

الكهل : (يتنهد) إن لها رائحة الغابات .

صانع الأحذية : بل رائحة الشمس والضحايا .

العازب : بل رائحة الجزر والنهود التي تقطر ماء في الشباك .

القزم : يا إلهي ما هي ؟

الكهل : الريح .

القزم : لتذهبْ إلى الجحيم أنت وريحك هذه . إنها تلسعُني كالسوط !

الكهل : وما له السوط ؟ إنني أحبُّه كإبني .

القزم : (غاضباً وواقفاً مرة أخرى على قدميه) لقد عاد إلى تخريفه ، عاد مطهماً حتى الأذنين بورود الدَّجلِ وغار الأباطيل . والله وحده يعلمُ ماذا يعني وماذا يقول .

الكهل : أقول أحبُّه كإبني .

مجهول : شيء غريب .

الكهل : وما الغريبُ في الأمر ؟ بعضُهم يحبُّ النجوم ، وبعضهم يحبُّ الخوخ ، وأنا أحبُّ السياط .

القـزم : إنه يكذب . إنه يكذب . عندمـا أتوا به إلى هنا للمـرة الأولى مغسـولاً كـشـجرة بالدم ، باكـياً حـزيناً ولسـانه منبـثقٌ من فـمـهِ كاللفافة ، بماذا كان يفكر ؟ بماذا ؟

الجميع : بالدمار .

الكهل : بل بالسُّحُبِ الرائعة والأطفالِ الموتى بين الزهور .

القزم : إنك تكذب .

صانع الأحذية : ربما كان صحيحاً . أنا رأيتُ سحابةً ذات يوم .

القزم : ربما كانت سحابة غبار . في مدينة قذرة يرشونها بالماء ، كالخبز ، صباح مسـاء . ولربمـا كـان يفكر هو أيضاً بالسُّحُبِ الرائعـة . لأن السحب فعلاً رائعةٌ في القرى . ولكن ليس هنا ، ليس في هـذا القنَ البشـري ، في هذا المسلخ المحاصر بالدم والرياح عندما ضربوني للمرة الأولى ، أحسستُ بالنار تقدح من عيني ، أحسستُ بغيومٍ من نار تقف مسـتقيمةً على أرجلها الخلفية ، وتقرع نوافذي كـالمطر ، وأطفالي عراة ، عراةٌ بين الوحول لا بين الأزهار ـ أتسـمعون ، والبخار يتصاعدُ من أنوفهم كما يتصاعدُ من كلاب الزحافات .

الحارس : (يدخل فجأة ويصرخ مرة أخرى) من يشتمُ الدولة ؟

صانع الأحذية : لا أحد .

القـزم : وماذا في الأمر ؟ هو يتحدَّثُ عن الأزهار وأنا أتحدث عن الكلاب ، أو بالأحرى عن الأزهار والكلاب .

الكهل : وعن لهاث الأطفال .

القزم : نعم وعن لهاث الأطفال . هل يعنيك هذا الأمر ؟

الحارس : نعم يعنيني .

القـزم : (ساخراً) حسناً . لقد جرَّدتموني من قداحتي ولفائفي ، ولكن لا عليكم تجريدي من أطفالي . (صارخاً) لأنهم هنا ، تحت الضلوع ، تحت الضلوع أيها الحارسُ العظيم . لا يمكنُكم ذلك ، لا يمكنكم أبداً .

الحارس : بل يمكننا .

القزم : يمكنُكم . يمكنكم . ثم اللعنة عليك . خذهم . انهم ليسوا أكثرَ من

قطعٍ لا معنى لها من اللحم .

الكهل : إنّ قلبك من حجر .

القزم : ولماذا لا يكون من صوان أيضاً ، طالما لسانُهُ ازميلٌ وسيف ؟

العازب : سيفٌ ولحم . فكرة رائعة !

الحارس : ما هي ؟

العازب : الفكرة . السيف واللحم أيها السيِّدُ العظيم ، تصوّر سهلاً لا حدود له من الأطفال الموتى والمشوهين ، وأطواقُهم الزرقاء والحمراء تقطرُ دماً على التراب .

الحارس : دماً أحمرَ على التراب .

العازب : أو ، باختصار ، تصوروا كل أطفال الشرق مقطعي الأوصال والأنوف والأصابع ، معبئين في صناديق .

الحارس : أو في سفنٍ صغيرة .

العازب : ترفرف عليها أعلامٌ صغيرة .

الحارس : والدمُ يقطرُ على الأمواج .

العازب : ثم تحملهم عاصفةٌ هوجاء إلى كل أمهاتِ العالم .

الحارس : والدمُ يقطر على الغابات .

القزم : (بانفعال شديد) ما رأيك أيها الحارس العظيم ؟ بل ما رأي أسنانك الجاحظة أيها الحملُ الرضيعُ بحشائش من أهدابِ الأطفال ؟ بل بوسادةٍ من أصابعهم وعيونهم وشاماتِ أنوفهم ؟

الحارس : فكرة رائعة . سأنام كأهل الكهف .

القزم : إنني أُراهن على أنه لا تجري في دمك كرةٌ واحدة بيضاء .

الحارس : (يصفع القزم بالسوط على وجهه ويصرخ) اسمعوا من يتكلم ! الرجل الذي ضاجعَ عنزة بائسةً في أدق فترة من فترات النضال يتكلم الآن عن الشفقةِ والرحمة . ثم ألا تسمعون معي جَدياً بائساً يبكي وراء الأسوار ؟

القزم : (يحك خده الملتهب) آه انني قادرٌ على أكلهِ بحذائه .

الكهل : أيها الاخوان ، أيها الاخوان ، دعونا من الدم والماعز والخدود

الملتهبة . ولنتصور نوافير من الأطفالِ ، تتدفّقُ في أدغالٍ من الزّهر والأطفال ، حيث الحلماتُ الصغيرةُ تتدلى أمامهم كأقراط الموز .

الحارس : هراء . فكرة تستحقُّ الجلد حتى الموت . شجر وأطفال . يا للمهزلة .

الكهل : (متابعاً حديثه) تصوّروا فقط ، ورداً وأطفالاً وحلمات .

مجهول : تحت مطرٍ حزين .

العازب : أو مطرٍ من السيوف .

صانع الأحذية : يقطعُ جميع الألسنة وفي مقدمتِها لسانك .

مجهول : ولساني أنا أيضاً .

صانع الأحذية : آه ، كم هي أقدامُ الأطفال صغيرةٌ وبائسة ، إنها دائماً مجمّدة كأوراق الخريف .

القزم : بدأ يتحدث كشاعر .

صانع الأحذية : بل كحذّاء . لقد لمست من السيقان الرفيعة والأقدامِ المجلدة في الزمهرير أكثر مما لمستم جميعكم من سنابل .

العازب : أقدام ناعمة وملساء ؟

صانع الأحذية : كالماء تماماً .

الكهل : (ينهض فجأة على ركبتيه) آه ، لقد ذكرتموني بالماء . شيءٌ رائع أن يتذكر الانسان شيئاً نافعاً ، شيئاً صامتاً ومهذباً في هذا العصر اللعين . إنني ظمآن لدرجةِ الموت . (يشرب من المغسلة ويقف متنهداً أمام النافذة) .

صانع الأحذية : إنه يصلي .

مجهول : أو يبكي .

الكهل : (يهتف بغبطة) إنه قادمٌ . قادمٌ كالريح .

القزم : من هو ؟ الحارس ؟ إنه لم يختفِ بعد ؟

الكهل : لا ، طائر الخريف .

صانع الأحذية : ولكننا في الصيف ، أيها المسيحُ الحافي القدمين .

الكهل : أعرفُ ذلك ، ولكن هذا الطائر في مهمة .

مجهول : سياسية ؟

الكهل : لا لا . إنه يحملُ بين قوادمه رسالة . رسالة مكتوبة بالمطرِ إلى كل حقول العالم ، ينبئها بأن الخريف قادم .

القزم : ولكنني لا أرى شيئاً . هل جننت ؟

الكهل : بلى . انه هناك .

مجهول : هذا ليس طائراً . إنها نقطة صفراء بعيدة .

العازب : قد تكون فراشة .

الكهل : أو دمعة مكسوّة بالريش .

صانع الأحذية : ولكنها تطير . والدموعُ لا تطير .

الكهل : بلى . إنها تطير ، بل تتفجَّرُ وتطيرُ إذا كانت الأهدابُ طويلة وغاضبة .

مجهول : (بثقة) هذا الشيءُ ليس دمعةً أو فراشةً . إنها رصاصة .

القزم : هل أنت واثقٌ من ذلك ؟

مجهول : كثقتي بأننا أشدّ شقاء من الحيوانات الفقرية .

القزم : (مندفعاً بلهفة نحو النافذة) إذاً هي لي . لي أنا .

مجهول : بل لجبيني أنا .

صانع الأحذية : بل لجبيني أنا .

(يندفع الجميع نحو النافذة ويتسلقون قضبانها بشكل وحشي ، وكل منهم يريد أن يبرز جبينه من بين القضبان قبل الآخر) .

الكهل : لقد أفزعتموه أيها الوحوش . لقد ذهب طائري الجميل وولّى . وداعاً يا طائري الجميل ، وداعاً .

القزم : يا إلهي ، إنها حقاً لزريبة مجانين . لقد سخر منه ذلك الكهلُ اللعينُ وانتهى الأمر . إنه طائر ما . ذهب وولى .

الكهل : ويحك . أتقول عن ذلك الطائر الجميل ، ذي الجناحين الصغيرين ، والمنقار الحامل كلّ هموم العالم : طائر ما ؟

القزم : (صارخاً) بل نصف طائرٍ ما ! إنه ليس أكثر من كتلةٍ بذيئة من اللحم والريش ، عبرتْ حزينة أو ضاحكة وانتهى الأمر ، فهل تريد أن

تهشم رأسي بحجر من أجلها ؟ أنا انسان . انظر إلى بطاقتي الشخصية ، وإذا كنت لا تصدّق فإنني أؤكد لك بأن الكثيرين شاهدوني أهبط من الحافلة وأسير في الشارع ذات يوم ، ولم يقولوا عني حتى : انسان ما . لقد ضربوني على الكتفين وشدّوا شاربيّ كالعشب ، ولم يقولوا عني حتى : انسان ما . ثم تريد بعد ذلك أن تشركني في مناحةٍ من أجل طائر حقير مرّ أمام عشرةِ رجالٍ محطمين ومنبوذين في أقصى الصحارى شناعةً وذعراً ولا أحد لهم في العالم كلّه ، دون أن يلتفتَ إليهم ، أو يقول لهم حتى ولو مرحباً أيتها الطيور البشرية ، أيها الرفاق القدامى ؟

الكهل : بلى بلى . لقد حيّانا بطرف ذيله كأي طائر محترم ، وهذا أكثر ما يستطيعُ أن يفعله طائرٌ صغيرٌ في هذا العصر . ثم ألم تلحظْ كم كان مقهوراً وبائساً وهزيلاً ؟

العازب : لقد كان هزيلاً وشاحباً بالفعل ، وكأنه يمارسُ عادةً سريّةً بين الغيوم . اصغوا إليّ أيها الاخوان ، اصغوا إليّ . ما من أحدٍ منا ، بل ما من أحد في العالم ، يستطيع أن يعرف بماذا كان يفكر هذا الطائر آنذاك . قد تعرفُ بماذا يفكر الملك أو الصعلوك . العالمُ المكبُّ تحت الأضواء ، والقادةُ المكبُّون تحت السيوف المشهورة . ولكن لا يمكنك أبداً أن تدرك لماذا يحطُّ هذا العصفور هنا ولا يحطُّ هناك . لماذا يمرحُ ويغرِّدُ في هذه الغابة وينوح وينشج في غابة أخرى . ثم أنت أيها القزم ، أو أيّ واحد منا ، إذا ما كُسِرَتْ اصبعُهُ أو ذراعُهُ في حربٍ أو شجار ، سيسارع فوراً إلى تركيب ساق خشبية أو اصبعٍ معدنية بدلاً عنها ، أما ذلك الطائر المسكين فإذا ما نزعتَ منه ريشةً واحدةً فقط ، فإنه سيترنح ويهوي مفتوح الجناحين إلى الأبد .

القزم : ليهوِ إلى الجحيم .

الكهل : إنك جلاّد .

القزم : جلاد أو قسيس ، إنني لا شيء ، رجل عادي ، لاشيءَ يهمُّني أكثر مما يجب ، بل لاشيء يهمني على الاطلاق . لا الزنبقة الجميلةُ ولا

الرأسُ المشطورُ الى قسمين . وبعد الافراج عني ، سأحيا حياتي كما هي تماماً ، أفرحُ في الأعراس وأبكي في المآتم . متناولاً طعامي مع عائلتي ، ومستلقياً بعد ذلك فوق زوجتي أو فراشي كالقتيل . إن اصبعاً واحدةً لا يمكنها أيها الكهل الأحمق أن توقف اصبعين ، في هذا الحشد الهائل من الرصاص . وعليها أن تنحني أو تقصف ، أو تتوارى في قفازٍ ما .

الكهل : ولكنَّ الزنادَ لا يطلقه الزناد .

القزم : لا يهمني هذا أيضاً . وإنما الذي يهمني هو اصبعي شخصياً ، ولن أستعملها إلا لنكْشِ أنفي .

الكهل : استعملْها في نكشِ قبرك إذا شئت . إنك تتكلم كشخصٍ عادي ، عادي جداً ، يسير في الشارع على قدميه لا على رأسه ولا يلفتُ النظر على الاطلاق . ولكن يجبُ أن تعلم أن هناك أشخاصاً يسيرون في الشارع أيضاً على أقدامهم لا على رؤوسهم ، ولكنهم يبدون لك وكأنهم الوحيدون في العالم الذين يفعلون ذلك . بالطبع ان اصبعاً واحدةً لا يمكنها إيقاف ذبابة ، إذا كان ما يجري في عروقها دمُ ذباب لا دمُ نسور . أعطني خمس أصابع مطبقةً بإحكام على شيء ما بإيمان لأغير لك وجه الأرض كما تغيِّر قميصك القذر هذا .

القزم : إنك لمجنونٌ حتماً .

الكهل : بل أنت المجنون البائس والغبيّ ، لدرجة تجعل حتى الكلاب السوقية تشيح بناظريها عنك ، حتى ولو كنتَ في أبهى حللك . (صارخاً) كم هو عددُ الأصابع التي غيَّرَتْ وجه الأرض منذ دورانها للآن كما تعتقد ؟ إنني أؤكد لك لو قطعتها ووضعتها جميعاً في هذا الطشت لما ملأت نصفه . هل تعتقد أنه كان لبونابرت ست أصابع في يمناه ولاتيلا أو هتلر خمسون في يسراه ؟ أبداً . لقد كانت أيادي عادية جداً ، استعملت في نَكْشِ الأنف والشجار ورَبْطِ سيور الأحذية ، استُعْمِلَتْ أيضاً في قَذْف اللفائِف عند المنعطفات وقذف الأزهار للغواني .

مجهول : وقذف القنابل على الشعوب .

الكهل : استعملت في أشياء كثيرة لو أحصيت لك واحداً بالمائة منها لأصبح شعرك بلون الكلس .

القزم : لا يهمني إن أصبح شعري بلون الكلس أو بلون الاسمنت ، طالما هو شعري وملتصقٌ كعادته برأسي . ثم لا يعنيني أبداً ما قلته وما ستقوله . وهؤلاء الأشخاص لو لم نحطهم بتلك الهالة العجيبة من الاكبار والتملّقِ لما ظننتهم أكثر من بائعي جزر في مدنهم . ومع ذلك سأعتبر نفسي وكأن بي هوساً في هذه الشؤون وأسألك ماذا فعل بونابرت هذا ؟

الطالب : حرق موسكو .

الكهل : ولكن كل رمادها لم يكن كافياً لطمرِ ما تبقى من جيشه وطبوله وجرحاه .

الطالب : لقد ترك أعلامه على أنقاضِ الكنائس والتماثيل .

الكهل : وترك دمه وصئبانه على الثلوج .

مجهول : ولكنه أحرقها .

القزم : ليذهب إلى جهنم . وهتلر هذا ماذا فعل أيضاً ، هيا تضاربا بالصحون والطناجر من أجله .

الكهل : لقد هزّ العالم كالغصن .

الطالب : وهزته خليلته كالطفل ، وهو راقدٌ في حجرها ينتحب . عظام وشوارب يغطيها الغبار في قاع الرايخ . (صارخاً) في قاع الرايخ . ألا تفهمون ماذا تعني هذه الكلمات ؟ هناك حيث تُخْزَنُ المؤن ، وتتناكح الخادمات بين السلاطة الملطخة بالدم والخرائط المقضومة كالأظافر .

الكهل : هذا ليس مهماً . فالنتائج إما حسنة وإما سيئة . ولكن المهم أنهم قالوا شيئاً وفعلوا شيئاً .

مجهول : ولكنهم ماتوا .

الكهل : وما الغرابة في الأمر ؟ إن الله نفسه يموت في بعض الأحيان .

القزم : لا . لا أريد أبداً أن ينحرف الحديث إلى هذا المنزلق الخطير ،

حيث الوقوف على رأي أو نتيجة كالوقوف على رأس خنجر . إن الله موجود طالما لم أسِرْ في جنازته للآن . ولذلك أعود لأؤكد ، لك وللجميع ، بأنني لن أستعمل اصبعي إلا لنكش أنفي ، طالما أن الملايين لا يفعلون شيئاً خلاف ذلك . هيا بلِّغْ طائرك الجميل ذلك قبل أن يعود مكشراً كالذئب ليغرس مخالبه في اللحمة الحية لهذه الصخور (مشيراً إلى رفاقه) . ثم إنني أكاد أفقد عقلي . إنك تجرُّنا بقدرة قادر من عالم الطيور والأزهار إلى عالم الصراخ والدم ، ومن عالم الصراخ والدم إلى عالم الفتيات والغواني ، ومن أجل ماذا ؟ من أجل طائر ما . ليذهب طائرك الى الجحيم . هل نأكل فطائر من الريش في أيام المجاعات الكاسحة ؟ هل نسمع زقزقةً وتغريداً أيام الخراب والهزائم ؟ هيا أطلق رصاصة على غصن ما في حديقة ما ، لتجد طيورك الأليفة وقد كشَّرتْ كالذئاب ، تضرب عيون بعضها بالمناقير مختبئة وهي تنزف في المجاري وسراويل المارة .

الكهل : اسمع . اذا كنت تعتقد أن صراخك هذا يجعل منك رجلاً ما ، فأنت مخطئ . انك تشبه في هذه الناحية امرأةً شمطاء تحاول استعارة أنوثتها بنضج ثدييها ، حيث أقل مداعبة ستكشفها على حقيقتها وترغمها على النحيب والعويل في فراشها حتى تلفظ أنفاسها . اسمع . عندما اندلعتْ الحرب ماذا كنت تفعل ؟ بل ماذا فعلتم جميعاً ؟

القزم : ضحكتُ .

مجهول : بكيتُ .

صانع الأحذية : اختبأتُ في المطبخ والمخرز بيدي ولم أخرج حتى بدأت محاكمات نورمبيرغ .

الكهل : حسناً . أما الطيور فعلى الأقل كانت تصرخ وتتوسل على ذرى أغصانها ، لا في الأقبية والمطابخ حيث تختبئ القطط والأطفال .

القزم : حسناً . لقد كانت تصرخ وتتوسل من الفزع على كل حال .

الكهل : طبعاًمن الفزع ، طالما ان الفزع أصبح شيئاً مألوفاً كالزكام . ولكن البطولة انها أعلنت موقفها لا زقزقة وتغريداً بل صراخاً

وعويلاً ، لا في المجاري وسراويل المارة على ذرى الأغصان ، أغصانها ذاتها . ولذلك يجب أن نحترمها ، يجب أن نحترمها حتى عندما تهاجر تاركة صغارها بين الأقدام وسلاسل الدبابات . إن المرء ينسى كل شيء في تلك اللحظات .

مجهول : إنه رجل خطير ويمهّد للنسيان .

القزم : هذا هو بالضبط ما يدور في رأسي كالمروحة ، أو بالأحرى هذا ما أريد الوصول اليه أيها الكهل المجهول . إنك تمهِّدُ للنسيان ، ببساطة وبراعة ، كما تمهد ببضع كلمات ملفقة لاغراء قروية تحمل جرتها .

الكهل : أنتم مخطئون . انني لن أنسى ما حييت شيئاً عزيزاً عليّ ولو قتلت نفسي .

القزم : إنك بحاجة الى الحرية لتنقُضَ كل شيء .

غداً عندما تهرول في الساحة الرمادية
هابطاً الدرج دون غبار خلف القدمين
لأن الغبار راقدٌ في الأطعمة والجراح ـ ممتلئاً كالعش بزرق النجوم
ودمع الرفاق القدامى
رافعاً يديك لجلاديك
مستميحاً الأعذار
مفتّشاً عنها على ضوء اللفائف والمصابيح
كي تقبل السوط الفاني وتلحسه بشاربيك كالهر
مع انك واثقٌ تمام الثقة
بأنه مرتوٍ حتى آخر ذرةٍ فيه
بدمك ودم الرفاق القدامى
ستنسانا حينذاك كحلم
ستنسى الساقية والرياح
الملاعق الصدئة والأغطية الممزوجة خيطاً خيطاً بدم القروح وماء الأشرعة .

العازب : رائع أيها القزم .

القزم : (متابعاً كلامه) أنا مثلاً متَّهَمٌ بمضاجعة عنزة ، أما أنت فلا نعرف أبداً لماذا اعتقلوك . قد تكون قاتلاً أو شحروراً ، ولكننا لن نقبل أبداً أن تكون الجوهرة الوحيدة في هذا المستنقع . إن لهفتك على الساقية ، ودفاعك عن القاتل ، عن طائر الخريف ، واستبسالك الوحشي والمتقلّب في حرائق موسكو ودمار الرايخ في الوقت نفسه ، يجعلك شخصاً غير عادي ، وجودك بيننا كوجود ذكر واحد في حمَّام يعجُّ بالنساء .

العازب : سأضاجع ملعقةً هذه الليلة .

الكهل : (موجهاً كلامه للقزم) إنك جاهلٌ وأميَ حتى في حقدك .

القزم : (غاضباً) هيّا . اعطنا مراويل للدراسة وعلمنا أصول الحقد . إنك رجلٌ مقنَّع ، رجل ما ، يبكي ويضحك في آن واحد ، بل يصمتُ ويصرخ في آن واحد .

مجهول : شيء غريب فعلاً .

الكهل : (موجهاً كلامه للقزم) لا تغضبْ يا صديقي ، لا تغضب . انني أقدر ظروفك كرجل متهم بمضاجعة عنزة . ولكن ثق أيها الصديق الحبيب ، بل ثقوا جميعاً أيها الأصدقاء البائسون ، إنني كما أنا ، كما أبدو لكم تماماً ، وأعماقي واضحة كالنجوم في الليل .

القزم : بل كجثة في النهر .

الكهل : تماماً ، وأصر على كلمة تماماً لأنها على الأقل تنقذني من هذا الاصغاء الفاجع لذكرين من الحيوان يتصارعان دون شفقة تحت المطر من أجل وكر مسدود . والدليل على ذلك ، ماذا تشتهون الآن في هذه اللحظة بالذات ؟ ماذا ؟

القزم : أن أموت .

الطالب : العنب .

صانع الأحذية : أن أصنع خفاً من المطر لكلّ الحقول الحافية في العالم .

مجهول : أن أصمت بوضوح أشدّ .

العازب : أن أكتب رسالة غرام الى دجاجة .

الكهل : حسناً . والآن ، وقد عرفتُ ماذا تريدون ، وأرى أعماقكم بوضوح كما يرى القرصان جثة وطنه تحت المياه ، أقسم لكم جميعاً ، بالموت والعنب والحقول الصفراء ، إنني لا أشتهي في هذه اللحظة بالذات سوى أن أقبّل كل ما في العالم من تعساء ومشوّهين ومقهورين ، ولأمتْ بعد ذلك فوراً ، وقبل أن يجفّ لعابي عن قروحهم وشواربهم . (يبكي) .

القزم : يا إلهي . إنه يبكي . يبكي كطفل ضُرِبَ على مؤخرته . (يعانقه) .

صانع الأحذية : ليمسحْ أحدكم دموعه ، فأصابعي ناقصة . بل غير موجودة إطلاقاً منذ التحقيق الأخير .

الكهل : لا . لا . دعوها تسيل

دعوها تدخل في الجلد ومسام الجلد

كي لا أنسى الملاعق الصدئة وطيور الخريف

كي لا أنسى المناديل المعقودة والمحلولة مئات المرات

عن الندوب والجراح

لتمسح دمعة رجل مجهول

رجل بائس مجهول

يرفع اصبعه كخنجر ، بل كسنبلة أمام هذا الصحن القذر

ليؤكد لكم بأنه سيزرع بين أسنانكم

يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة

صراخاً مجهولاً

صراخاً وحشياً ، لا رحمة فيه ولا شفقة

سيوقظ العالم أجمع

بدءاً من هذه المغسلة وانتهاء بتلك العتبة .

(يبكي بصوت مسموع)

القزم : (يعانقه مرة أخرى ويربت على لحيته وشعره بحنان بالغ)

سيدي ، سيدي ، أيها الخريف المجهول ، يا من طعناك في القلب

وفي الأحشاء ، سامحنا . سامحنا وإلا طعنتنا في القلب وفي الأحشاء . إننا ننكر شكوكنا وهواجسنا منك ومن عينيك المليئتين بالدمع والأسنان ، ولكن انتهى كل شيء الآن . منذ لحظات فقط لم أكن غاضباً منك فحسب ، بل كنت أرقص غضباً وزفير أنفي يسلق بيضتين ، أما الآن فقد انتهى كل شيء ، أما الآن وأنا أرى هذه الدموع ، وهذه الشَّفَةَ المقصوفة كالغصن تحت ثقل الدموع ، فلا أستطيع ، لا أستطيع يا سيدي إلا أن أنحني أمامك وأطرح عليك صداقتي كالرداء . سألوّح لأجلك لكل طائر أو فراشة ، وسأطلق الرصاص على أية ريح أو صيف يهدّدُ ساقيتك بالرعب والجفاف .

الكهل : (يمسح دموعه بيد مرتجفة) ليذهب ما قلناه في الريح ، ولنعتبره عتاباً خاطفاً على ظهر سفينة تهم بالإقلاع ، ولنكرس جهودنا وأشواقنا منذ الآن وإلى الأبد من أجل الأشياء الحنونة والبائسة ، من أجل العشب والعصافير .

الحارس : (يدخل فجأة ويصرخ مرة أخرى) من يشتم الدولة ؟

مجهول : لا أحد .

القزم : لا شيء . نتشاجر من أجل العشب .

مجهول : من أجل سنونو .

القزم : (منفعلاً وبائساً) سنونو أو عشب ، ما الضير في ذلك ؟ لقد كفانا شجاراً من أجل الملاعق والمراحيض .

الكهل : نعم يا سيدي إننا نتشاجر من أجل أشياء أكثر رقَّةً وانسانية .

الحارس : لا أريد أن يُذْكَرَ اسمي أو اسم الدولة مع العشب والسنونو .

الكهل : تأكد من ذلك .

(ستار)

(يخيّم الظلام على القفص ، ويرقد الجميع تحت أغطيتهم متراكمين كالحشرات ، ولا يبقى مستيقظاً سوى صانع الأحذية والطالب المجهول ، وقد انتابهما أرق قاتل . يسمع في الخارج صوت الساقية الحزين ، وأصوات أخرى بعيدة وفاجعة لا تكاد تسمع عبر الصحراء المترامية الأطراف .)

صانع الأحذية : هل تعرف ماذا بقي في ذاكرتي اللعينة من كل ذلك الهراء اللعين عن الثلوج وبونابرت وحرائق موسكو ؟ بقي لماذا اشتهيت العنب في تلك اللحظة ؟ معظمهم اشتهى الحبس والموت والبكاء ، وأنت اشتهيت العنب . فماذا تقصد ، أرجوك ؟

الطالب : أقصد العنب فعلاً .

صانع الأحذية : العنب الذي يغفّ عليه الذباب في السحاحير ؟

الطالب : نعم .

صانع الأحذية : من المستحيل ، لابد وأن تعني شيئاً ما .

الطالب : إنني لا أعني شيئاً بالفعل .

صانع الأحذية : مستحيل . ألست مثقفاً ؟ اذاً لابد أن تكون قد عنيت شيئاً ما ، رائعاً أو منحطاً لا أعرف ، ولكنه شيءٌ ما . لا أنت فحسب ، بل كل أولئك الناعمين الودودين الذين يحملون أكفانهم بيد وأمشاطهم باليد الأخرى . صحيح انني لست مثقفاً ولكنني أدرك الأمور بطريقة ما . أتلمّسها بيدي كالدّب .

الطالب : قلت لك انني أقصد العنب ولا أقصد شيئاً آخر .

صانع الأحذية : ولكن لماذا ؟

الطالب : لأنه فأل المطر .

صانع الأحذية : وما علاقتك بالمطر ؟ هل أنت شجرة ؟

الطالب : لا أعرف بالضبط ماذا أكون ، لان الانسان في مثل هذه الأمكنة يطرح هويته على حافة العالم كما تطرح المستحمّة سروالها على حافة السرير . وأنتم تتحدثون ، بل وأنتم غارقون حتى آذانكم في عالم يسوده البارود والحقد والاصفرار . لمحت ورقة خضراء من النافذة . أنت تعرف ان هناك عريشة ما خلف هذه الجدران . شعرت أنها تومئ إليّ ، تصافحني ، تدغدغ قلبي كأمي . كدت أطير لأعضها بأسناني . شيء أخضر ، الا يهمك ؟ شيء صغير أخضر في هذه البراري المنسية . هل تعرف ماذا يعني ؟

صانع الأحذية : لا وربّ الكعبة .

الطالب : إنه فأل المطر . ونحن جافون كالخشب . هيا اقرع باصبعك على صدري ويرن كالأجراس . حتى شعر معصمي يابس كالهشيم .

صانع الأحذية : (يداعب معصمه) هراء !

الطالب : لا ، ليس هراء أيها الحذّاء البسيط : ولقد كتبتُ ذلك لأحد أصدقائي في المنفى ، مع ان السماء كانت تمطر عندما قلت له : ان شعر معصمي يابس كالهشيم ، فارسل لي سحابة من الأسنان المهاجرة . أو هل حدث ذات يوم أن قضمت قطرة مطر ؟ انها تماماً كحبة العنب ، تتحطّم بذورها بين أضراسك كبذور العنب ؟

صانع الأحذية : أولاً انك تمزح ، ثانياً ان العنب ينضجُ في الصيف لا في فصل لعين آخر .

الطالب : لا ، انني لا أمزح . (ينشج ببكاء خافت) والمطر يهطل في أي زمان ومكان عندما تكون الأرض جديرة به . انه يمامة مهاجرة ، بل طعنة رائعة الجناحين ، تحط على التيجان وحلقات الدروع ، لا على الأحذية والكواحل . في بدء التاريخ يا صاحبي يقال ان عورات العذارى الصغيرات كانت تغطى بأوراق العنب ، وحلماتهن الصغيرة تجفف كالزبيب على سطوح المنازل وفي مقصورات السفن ، وقد

ظلت مئات السنين تهتزُّ يميناً وشمالاً أمام الريح ، أمام أفواه الأسرى والخراف المسلوبة من أقاصي الدنيا . لقد قضيت طفولتي بين الينابيع ، بل في أعماق الينابيع ، ودفاتري منثورة على جانبيَ كالحراشف . ومن بعيد يلوح لك بيتك ملتهباً بنار الخريف ، تلك الخضرة الوحشية والزائلة كقشور الجرح . العصافير تغرد على ميازيب التنك ، وثياب اخوتك وأمك وجدتك تخفق على السطوح .

صانع الأحذية : قبل أن يعتقلوني ببضعة أيام اشتريت غسالة . غسالة كهربائية . ولكنهم حطموها ، بل مزّقوها كاللحم . (ترتجف ذقنه) انني أتذكرها بألم ممضّ ، بل كلما تذكرتها ، شعرت بأنني ضربت بفأس قاطعة على عظم ساقي .

الطالب : لاشيء أروعُ من أن ترى بيتك من بعيد ، وكأنك تستطيع حمله بكل سطوحه وطيوره وأشجاره بسلّة من الخيزران ، وأنت قادم اليه من بعيد وسط الموت والغبار .

صانع الأحذية : آه . لقد كسا الثلج الناعم شفتيك .

واستأصل البرد القارس جذور الخوخ والعرعار

وقام الملايين في الساحات المعتمة

يحكّون عوراتهم بالمزاليج والصحف الملفوفة كالأبواق .

قد يلوح لك بيتك من بعيد

ملتهباً بنار الخريف أو بنار الاشراق

ولكن في شتاء المدينة وصيف الأرياف

حيث لا شيء غير الظهور المحنية

لكشط الوحل ودفن الموتى

حيث السراويل الدبقة تُطوى مع ورق الريحان

لا أستطيع أن أفتل شاربي وأقول

« الرعب والجنس باطل وقبض الريح » .

للرجل حوضٌ كحوض المرأة

لا يبحث عن الزهرة الجميلة

وطائر الخريف عند الغروب
بل عن مكان يتبُّول فيه
مغموراً حتى شفته السفلى
بخضراواته وأباريقه وأحذية نسائه
وهو يرشح عرقاً كالفخار
صاعداً مرتفعات لا حصر لها
متأبطاً كتباً وقصاصات لا عدد لها
عن الغرغرة والزكام
والمضاجعة عند الغروب
عند الغروب أيها الثائر المجهول
قبل أن تقام المائدة وتغسل أقدام الأطفال
حيث المرأة تعبة
وفخذاها ترتعشان بين الملاعق وفتات الخبز .

الطالب : لقد هيَّجتني فعلاً . لماذا اعتقلوك أنت ؟

صانع الأحذية : لا أعلم .

الطالب : كيف لا تعلم ؟ أليس لك ذاكرة ؟

صانع الأحذية : طبعاً ، ولكنني لا أعلم . لا أعلم . وليضربني الله بمطرقة على رأسي ان كنت أعلم . كل ما هنالك انني أعمل كحذّاء ، حذّاء بسيط مجهول ، افتح حانوتي كالغابة في كل الفصول ، صغيراً دافئاً يكاد الهواء يخفق فيه كالقلب . ثم جاء فتيان ما ، بعمر أولادي ، وعلّقوا صوراً ما لأبطالٍ ما . فلم أمانع ثم جاء فتيان آخرون وعلقوا صوراً ما لأبطال ما . فلم أمانع ، بل كنت مستعداً لتعليق سراويلهم ، طالما ان ذلك لا يؤذيني ، وفي الوقت نفسه يخفي الشقوق الواسعة في باب حانوتي . وبعد ساعة ، أو ملايين الساعات ، وجدت نفسي غارقاً بالدم ـ والصراخ : وقِّع هنا ، لا هناك ، لا هنا . وأنا أصرخ وأبكي وأتوسل . حتى توقيعي في تلك اللحظة كان أشبه بفم صغير يبكي . وبعد ساعة ، أو ملايين الساعات ، وجدت نفسي غارقاً حتى

أذني في هذه الأحاديث السخيفة عن البطولة والعنب ، وبقية السخافات الأخرى التي تعرفها .

الطالب : وهل كنت تصرخ أثناء التحقيق ؟

صانع الأحذية : يا الهي ، وهل كنت أغني ؟

الطالب : عظيم .

صانع الأحذية : من هو العظيم ؟

الطالب : الصراخ .

صانع الأحذية : هل تحب الصراخ ؟

الطالب : إنني أعبده .

صانع الأحذية : ولا تعبد شيئاً آخر ؟

الطالب : ولا أعبد شيئاً آخر .

صانع الأحذية : إذاً أنت وطني ، من حملة الأكفان والأمشاط ؟

الطالب : سمني ما شئت ، ولكنك ستسمع قصتي ولو اضطررت الى قتلك .

صانع الأحذية : ولكن ، اسمع . . .

الطالب : لا لن أسمع ولن أصغي . كنت طفلاً حزيناً أيها الرجل . لا ضجة لصوتي ولا حشرجة لبكائي ، ولا لأي شيء يتصل بي . حتى ثيابي الجديدة في الأعياد والفصول المدرسية لم يكن ينبعث منها أي حفيف أو صدى ، حتى خيّل لي ذات يوم أن سقوط إبرة على الأرض يثير من الضجة والرنين أكثر مما يثيره سقوطي على غابة من الأجراس . وذات يوم وأنا راقد بين اخوتي ، على لهب القنديل حزيناً مهملاً ، قررت أن أصرخ .

صانع الأحذية : تصرخ وأهلك نيام ؟

الطالب : نعم وأهلي نيام .

صانع الأحذية : وكيف تم ذلك ؟

الطالب : رفست اللحاف عن صدري وصرخت . صرخت كذئب في القفار : أنا انسان . أنا انسان . يا أمي يا أبي يا وسادتي ، ألا تسمعونني ؟

صانع الأحذية : ولم يستيقظ أحد ؟

الطالب : استيقظت هرة ، كانت نائمة مع أختي الصغيرة . نظرت إليّ طويلاً بعينين نصف مغمضتين ثم تثاءبت وعادت إلى النوم . أما أنا فقد تابعت الصراخ بجنون وبدون وعي حتى أصبح وجهي بلون الدم ، متخيلاً الجثث المقبورة والقبضات النازفة على الجليد ، ما شاء لي التخيل ، حتى استيقظت أمي ، وكانت جميلة وعيناها أشبه بطائرين أزرقين حطّا لتوهما تحت الحواجب . استيقظت مذعورة ونصف عارية - كانت أمي جنسية جداً - وصفعتني بقوة على فمي . ولكنها عندما وجدت ان صراخي تضاعف مئات المرات ضمتني الى صدرها بحنان بالغ وهي تبكي وتتمتم : أيها الوحش الصغير البائس : ألا يمكنك الانتظار حتى الصباح ؟ فصرخت بجنون أشد : لا ، لا ، منذ الآن ، منذ هذه اللحظة ، يجب أن تلبسي سروالك الداخلي وتبلغي العالم أجمع انني انسان . انسان . وكنت أتلّمس بين الفينة والفينة وجهي وقدميّ وأنفي وشعري بهلع بالغ خوفاً من أن أفقد من جراء هذا الارتجاف العنيف أي شرط من شروط انسانيتي . ثم قبلتني على فمي المفتوح ، وهشّت الذباب ، عن عيون أخوتي باعياء قاتل كأنها بقايا عنب لا أكثر ، وزحفت الى فراشها متشبثة بأبي من رأسه حتى أخمص قدميه ، طارحة ساقيها على ساقيه وذراعيها على ذراعيه كغطاء لم يحكم اغلاقه بعد ، وراحا يرتجفان ويلهثان .

صانع الأحذية : كان يجب أن لا تضربك فحسب ، بل كان يجب أن لا تنفكّ عن ضربك حتى يسقط جلدك كله كورق الشجر .

الطالب : يا الهي ، لماذا ؟

صانع الأحذية : لأنك تتكلم عنها كداعرة . على كل حال تكلّم عنها بالطريقة التي تناسبك ، فأنا على كل حال لم أشاركك الهبوط من ذلك الفرج الغامض اللعين .

الطالب : حسناً . وبعد ذلك تابعت الصراخ ورفع الأيدي بمناسبة ودون مناسبة . صرت أتلاعب بوجهي كالعجين ، أبزغ كالوحش في كل مكان ، حاملاً دمي في جيوبي ، محملقاً في العناقيد اليابسة

والبراري المحشوة بالضبع والقمل ، مختبئاً في المقابر ، مرتفعاً وسط الغبار والحشائش . أصرخ وأصرخ حتى أصبح عنقي نحيلاً كالسلك . ثم جاءت الريح وانتهى كل شيء .

صانع الأحذية : ولم تستأنف الصراخ بعد ذلك ؟

الطالب : طبعاً طبعاً . في التحقيق . كنت أصرخ ورأسي بين الأقدام . كان بيتي بعيداً ومحطماً ، وحبيبتي لزجة كالدم ، وجديلتها مطروحة أبداً .

صانع الأحذية : على بساط البحث . . .

الطالب : على الخصر والكتفين ، أيها المغفل . أو قل سحابة مشنوقة فوق صحراء .

صانع الأحذية : وعنقها ، أحقاً من زجاج كما يقولون ؟

الطالب : بل من لحم ودم وأطواق . بل من لحم وجحيم ثم ربطوني من خصري وجرُّوني كالقارب عبر الأرصفة .

صانع الأحذية : ولم ينقذك أحد ؟

الطالب : أبداً أيها الصديق المجهول . لقد هتفت والموسى بيدي : يا أمي يا وطني يا قطتي . ولكن لا صوت ولا صدى . كانت الشوارع خالية ومتورمة ، والهراوات التي تحمل عرق الأصابع مطروحة هنا وهناك ، وفقاقيع الدم تنهمر كمطر أحمر مزيف على الصدور المهشَّمة والأصابع المقلوبة إلى أعلى .

صانع الأحذية : وكنت تصرخ كنسر .

الطالب : بل كقطة .

صانع الأحذية : من المستحيل . كنسر .

الطالب : يا الهي ، وما علاقتك أنت بالأمر ؟ كقطة أو كنسر ، المهم كشيء غير انساني .

صانع الأحذية : وحبيبتك ؟

الطالب : كانت تتوغل بين البنادق ، مستسلمة وممضوغة دون رحمة ، ولحمها الأبيض يهوي كالأشرعة على المناضد ، مكسواً حتى أظافره

بشعر الشوارب وفقاقيع الأفواه . (تدخل أثناء ذلك من النافذة امرأة شبيهة بالطائر ، ترفرف كحلم ، بثيابها الطويلة البيضاء ، وجدائلها محلولة تتطاير مع ثيابها) .

صانع الأحذية : (مشيراً باصبعه) يا إلهي ، انها امرأة .

الطالب : (متلفتاً حوله) من هي ؟ أين هي ؟

صانع الأحذية : امرأة . امرأة . ألا ترى ؟

الطالب : (واضعاً يده على فم صانع الأحذية) لا تصرخ لا تصرخ . لن يشاركنا أحدٌ فيها . انها لنا نحن الاثنين البائسين .

صانع الأحذية : ولكن قد تكون حبيبة أو أماً لأحد هؤلاء .

الطالب : لتكن حبيبة أخي .

صانع الأحذية : ولكن الريح عاتية وهي تطير . انظر ، انها تطير .

الطالب : سوف ينالها التعب وتحطُّ كالفراشة .

المرأة : لا ، لن ينالني التعب ، ولن ينالني أيٌّ منكما أيها الغريبان البائسان . ولن أحطَّ أبداً بخُفي الأحمر البديع هذا على هذا السهل الواسع من الدم والشوارب النتنة . انني أبدِّل أجنحتي كالجوارب . فهناك ، على شاطئ الساقية ، عربةٌ ملأى بالأجنحة الجديدة تتبعُني حيث أطير . عربة من العشب وجوادان من العشب وأعنَّةٌ من العشب .

الطالب : أيتها المرأة الجميلة ، نامي ليلةً واحدةً بين ذراعيّ ، وأكونُ لكِ العربة والجواد والعنان .

المرأة : لا ، لا انني على عجل ، وأصابعي متشابكة كعقارب الساعات . أمامي سهول لا حصر لها . أربعُ قاراتٍ أخرى ، سأطير اليها يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة . بكل ما فيها من رعب وسياط وجليد . لا ، لا تلمس نهدي ، انه من رماد . لا ، لا تلمس شعري ، انه رزمةٌ من شرايين الأطفال . الجيادُ تصهل وعيونها على وشك البكاء . سأطير إليها الآن . وداعاً ، وداعاً . وقبلاتي لكم ، لشواربكم النتنة وأعينكم الرمداء . وداعاً أيها الغرباء البائسون .

الطالب : (يندفع نحوها ممسكاً بقدميها منتحباً) .
المرأة : لا ، لا تلمس قدميّ أيها الغريب ، انهما طائران ميتان .
(ثم تختفي محلقة في الهواء) .
الطالب : (ممسكاً بقضبان النافذة ، يصرخ باكياً) أرجوك أيتها النافذة ، أرجوك يا قضبان الحديد ، دعيني أطر اليها . (يستيقظ الجميع على صوت البكاء) .
مجهول : ماذا يجري هناك ؟ هل انقلب هذا الوكر اللعين الى مقبرة ؟
الطالب : امرأة ، امرأة ، أيها التعساء .
العازب : إذاً قامت القيامة .
صانع الأحذية : نعم ، امرأة . أقبلت كحلم وطارت كحلم .
العازب : طارت ونحن نغطُّ في نومنا كالكلاب ؟ يا سلطان الكرى ، سأخلعك عن العرش هذه الليلة .
مجهول : لمَ لم توقظونا أيها الرفاق ؟
صانع الأحذية : كانت على عجل ، وخفُّها الأحمر لم يلمس هذه الأرض ثانية واحدة .
العازب : ربما كان ينتظرها أربعةٌ من السكارى على الأقل في احدى الحانات .
الطالب : بل أربع قارات من الرعب والجليد .
العازب : هل رأيتما نهديها ؟
الطالب : نعم ، لقد كانا كطفلين محروقين .
العازب : هل لمستما فخذيها ؟
الطالب : لا . لقد كانتا ملفوفتين بما يشبه القلوع البيضاء .
صانع الأحذية : أو أعلام الحرب الممزقة .
الكهل : (مستبشراً) اياكم والتحدث في هذا الأمر لأحد . لابد وأن تعود باكية في الشتاء . أو عارية في الصيف . حتى الطيور تتعرى من ريشها في الصيف .
الحارس : (يدخل فجأة وهو يبتسم) لهيب التعساء كالعاصفة . لتكن

ثيابكم نظيفة وجراحكم لائقة يا رجال . ولتفرك الأظافر والأسنان المقتلعة على حافة العتبة ، ولتعد إلى مكانها فوراً . لتكن آثار الكدمات نظيفة ولائقة أيضاً ، كآثار القبل ، فالريح جاهزة وسط الصحراء ـ لتحمل الطيور المنفية إلى أعشاشها .

العازب : إذاً إلى أقرب منفى أيتها الرياح .

الكهل : إذاً إلى أقرب زهرة أو ينبوع أيتها الرياح .

القزم : إذاً إلى لا مكان أيتها الرياح .

(ستار)





(فسحة كبيرة موحشة أمام منزل قروي متهدم . أرضها مغطاة بالغبار والقش وزرق الدجاج . نوافذ سوداء ، سماء شديدة الزرقة ، شجرة جرداء هادئة هدوء الموتى ، أطفال نصف عراة يلعبون في التراب والقش . يجلس تحت الشجرة وفوق قطع الحجارة : الجد ، الجدة ، المشوه ، الحبلى ، عدد من الفلاحين المجهولين رجالاً ونساء . وكلهم قذرون يغطيهم القش والغبار)

الجدة : إذاً قررتم الرحيل ؟

الجد : لابد من ذلك ، لابد من ذلك ؛ فالأشجار لا تجلس بمقهى وتنتظر . انها في العراء . في العراء ، الا تفهمين معنى أن تكون شجرة في العراء ؟

الجدة : ولكن المندوب الزراعي قادم هذا النهار .

الجد : (غاضباً) هذا النهار ؟ هذا النهار ؟ ثقي يا عجوزتي البلهاء ، ان هذا الطفل قد يصل إلى جبال الألب قبل أن يصل مندوبك الزراعي .

الطفل : نعم يا جدتي ، قد أصل إلى جبال الألب والعب بطابتي هناك قبل أن يصل مندوبك الزراعي .

الجدة : (بانفعال شديد) مندوبي الزراعي مندوبي الزراعي انكما تتكلمان كأنني عشيقته . اللعنة عليه ، انني لا أنتظره أكثر مما تنتظره أية نعجة أو ساقية .

الجد : انتظري ما شاء لك الانتظار ، بل انتظري حتى يورق عكازك هذا ويزهر كغصن الزيزفون ، ولكن يجب أن تعلمي سلفاً انه ما من أنس

ولا جن يُقبلُ على هذه القرية اللعينة ، وسيظل طريقها خاوياً الى الأبد ، كنهر لن تعبره سمكة أو سفينة مدى الحياة . لقد أطلق سراح القزم منذ سبعة شهور وهو مازال يخمخم في تلك المدينة اللعينة .

المشوه : لقد رأوه نائماً في برميل ذات ليلة .

فلاح مجهول : ورآه آخرون في مظاهرة .

الحبلى : ورآه آخرون أيضاً في المبغى .

المشوه : كما رأوه يضرب السيارات الجديدة بالحجارة ، ويدخل المقاهي فجأة كالقرصان ويصرخ : من يشتري حقلاً بعيداً بلفافة ؟

مجهول : كان رجلاً شريفاً ، ولكنه انحدر بشكل لا يحتمل . لقد حدثني سائق سيارة انه لا يضرب السيارات بالحجارة ويشترك في المظاهرات فحسب ، بل يقرع أبواب البيوت ليلاً كالمجنون ، حتى اذا ما خرج أصحابها يسألونه ماذا يريد ؟ ينتحب أمامهم ويقول : أريد أن أنام .

الجدة : لقد كان رجلاً شهماً وكفى ، فلا تتحدثوا عنه هكذا ، وقبور زوجته وأطفاله لم يجف طينها بعد .

الطفلة : (مشيرة باصبعها الى أخيها) لقد وضعت زهرة عليها هذا الصباح ، ولكن هذا الشقي كل يوم يتبوّل بجوارها .

الجدة : اللعنة عليكما ، أتستكثران عليه كتلتين من التراب ؟ هيا اغربا عن وجهي قبل أن أجعل من رأسيكما شيئاً يرن عليه عكازي حتى يوم القيامة . جيل الشؤم ، جيل الكارثة . (صارخة بزوجها) إلى أين تنقل هذه الأكياس اللعينة أيها العجوز ؟

الجد : لاشيء لاشيء . سنتصرف وكأننا سنرحل إلى الأبد ، وفي هذه اللحظة بالذات . مع انني واثق وثوقي بالله ، بانه اذا تحركت هذه الجبال تحركنا من هنا إلى الأبد . هيا يا صغاري القذرين ، ضعوا مناديلكم على رؤوسكم واعقدوها جيداً كالنساء الصغيرات ، فالشمس لاهبة ، والطريق تزفر كالأفعى .

الجدة : أتأخذون الأطفال معكم ؟

الجد : نعم .

الحبلى : إذاً لماذا لا تأخذونهم في أكياس ؟

الجد : فعلاً هذا ما أفكر فيه .

المشوه : ان منظرهم داخل أكياس ، أو أي شيء لعين آخر ، سيجعل الحجر يبكي ويلطم خديه .

مجهول : الحجر ، وليس البشر .

الحبلى : بل لماذا لا تأخذون أيضاً بعض التراب اليابس أو القش الجاف ، أو بعض السعال أيضاً في أكياس من الورق ، لعرضها هناك على الطاولات ؟ آه لم يعد هناك من كرامة . انكم تنقلون أسانا كما تنقل الريح أغنية . انظروا ، هاهو طفلي يسعل كشيخ في السبعين . (تنظف له أنفه بطرف فستانها) ان مُنَقّب آثار لا يجد فتحة أنفه .

الجدة : بل أصبح له ثلاثة ثقوب كما أظن .

الحبلى : آه انني لا أعرف ورب الكعبة كيف يتنفس ، ولماذا يتنفس ، بمثل هذه الكتلة الصغيرة من اللحم والغبار .

مجهول : ولماذا يتنفس ؟ ان الأطفال الحقيقيين شيء آخر ، يختلفون عن هؤلاء اختلاف الليل عن النهار ، لقد رأيت بعضهم ذات يوم في مدينة مجهولة ، يلعبون في حديقة ورود ، نظيفين وناعمين لدرجة أنك تشتهي أكلهم بالخبز .

الجد : (يصرخ) هيا ، هيا ؛ كلٌّ وكيسهُ على ظهره ، كل وطفله على ظهره .
غجرٌ في الصيف ، وغجر في الشتاء .
القيثارات محطَّمة ، والأوتار مجدولة كالثوم .
اصعدوا الهضاب ، واهبطوا الذرى .
لا حجل بين الصخور ، لا دمع بين العيون ، لا لحاء على الأغصان ، لا سراويل على اللجم .
أشعلوا النيران ،
واشووا عليها بعض البنفسج وبعض الأطفال .
أبواب المنازل تبكي ،

تصفّق للموت بالراحتين .
الأهداب الجميلة تغني ،
والدموع الرائعة تتأهب للانفجار .
هيا ، كل وكيسه على ظهره ،
كل وبيته على ظهره .
الأحلام خفيفة كالعصافير ،
والذكريات جميلة ورائعة كالفولاذ .
لابد أن نلتقي بنار أو عاصفة في الطريق .

الطفل : (فزعاً) قد نطير في الهواء .

الطفلة : ونسقط في بيوت الأغنياء .

الطفل : أو في البحر .

الطفلة : سيأكلنا البحر .

الطفل : سنمرّ من بين أسنانه كالأسماك الصغيرة .

الجد : ستأكلكم الأسماك الكبيرة .

الجدة : أسمعتم نهاية أحلامكم التعيسة هذه ؟ ستأكلكم الأسماك الكبيرة فور انزلاقكم اليها ، فإلى أين تذهبون في النهاية ؟

الطفل : نطير كالفقاقيع .

الطفلة : أو نرسو كاللآلئ .

فلاح مجهول : محتمل جداً . لقد قرأت في صحيفة مجهولة أن عشاقاً ما منذ آلاف السنين يرقدون بكامل ثيابهم وخواتمهم وتوترهم متعانقين حتى الآن في جوفه ، وأن ثمة خيولاً جامحة في قاع البحر ، جامحة وكأنها ضربت بالسوط هذه اللحظة .

الجد : (بعد أن يسعل) وسمعت أيضاً من رجل جريح ذات يوم أن اللآلئ ما هي في الحقيقة الا دموع أبطال مهزومين ، رفضوا أن يذرفوها الا وهم موتى . موتى ، أتسمعون ؟ (ثم يتهدج صوته من الانفعال الخانق) .

الجدة : يا إلهي ، كأنه اخترع البارود . انظروا اليه ، كيف يرقص من الانفعال . آه هل تعتقد يا كهلي الحبيب اننا أحياء لمجرد اننا نقطف

عنقوداً في الصباح ونغني أغنية حزينة في المساء ؟ اننا نجنح في الخيال أكثر مما يجب ، ودون أي شعور بالمسؤولية تجاه برعم واحد من حقولنا هذه . مع ان الذي له ذنب يصل حتى الأرض لايشك لحظة واحدة في ان مثل هذه الكتل الحمراء الملتهبة يمكن ان تكون براعم ما ، لانها ليست في الحقيقة الا شرذمة لينة من الدموع المكتسحة من وسطها ، تشبثت بطريقة ما بهذه الحقول الممزقة كما يتشبث المتسول بنوافذ القطارات . ان المندوب الزراعي قادم بين لحظة وأخرى ، ولا نعرف حتى الآن ماذا سنقول له ، اذ ليس المهم ان تقول لشخص معين : ان زوجتي تحتضر أو تموت ، بل المهم ان تجعله يمزق ثيابه طولاً وعرضاً بسبب ذلك .

الجد : سنقول له أشياء كثيرة ، كثيرة جداً بعدد النجوم .

الجدة : (ساخرة) بل بعدد ما في فمك من أسنان .

الجد : (يتلمس في فمه وفكيه) يا عجوزتي الطيبة ، سنقول له باختصار ان كل ما في القرية جاف وملتهب : الحقول والرجال والنساء والأغصان والخراف ؛ وان نسمة قوية واحدة قد تجرفنا جميعاً إلى قارة أخرى .

الحبلى : (مشيرة الى بطنها) أما أنا فان الرياح الخمسينية لا تجرفني خطوة واحدة .

المشوه : بل ستحلقين كمنطاد عندما يهجرك الجميع ، ولا يكون حولك غير الرياح والأبواب المخلعة .

الجد : (ساخراً) أو عندما تعلمين بأن زوجك غارق حتى عقاله بحب امرأة أخرى .

الحبلى : امرأة أخرى ؟ والخنفساء ذاتها تتردد أكثر من الف مرة قبل أن تحط على طرف اصبعه .

الجدة : بل أنا التي ستحلق كمنطاد ، ولو تشبث كل من في هذه القرية بفستاني هذا . انكم تتحدثون وكأن شعر فروجكم هي الحشائش الوحيدة والظامئة في هذا العالم ، والتي يجب أن تكون بخضرة السنابل ولو بقوة السوط . وحتى الآن لم أعرف ماذا ستقولون

لمندوبي الزراعي ـ حسناً لمندوبي الزراعي ، أيرضيكم هذا ؟ مع انني لا أصدق أبداً ان مندوباً حكومياً بذقن حليقة وسيقان رفيعة كسيقان الدجاج يمكن أن يأتي إلى قرية نائية كهذه . لقد انتصف النهار ، والطريق خاوية ؛ لا ظل ولا زوبعة غبار .

الجد : (بانفعال) زوبعة غبار ؟ أتظنينه سيأتي على فرس ؟

الجدة : (صارخة بأعلى صوتها) ولماذا لا يأتي على فرس ؟ هل تصاب مؤخرته بالصداع اذا ما امتطى سرجاً مفضضاً كهذا ؟ ان الملك نفسه يتمنى ان يمتطي سرجاً مفضضاً كهذا . (تتنهد) يا لكم من سخفاء . اعطني سرجاً مفضضاً كهذا ، وفرساً بعينين حزينتين ، لأغزو لك العالم قبل أن تلفظ هذه الكلمة لفظاً بشفتيك .

مجهول : يا جدتي العزيزة ، ان ما تقولانه ليس كلاماً لا معنى له ، انه كلام يجعل أياً منا يرفس العالم كله كفرس حقيقية . اننا ننتظر مندوباً زراعياً ، يستطلع تباشير الخراب عندنا ، ولا يهمنا أبداً إذا أتى على فرس أو جرادة . المهم أن يأتي وان يسأل وان نجيب .

الجدة : هل يلبس نظارة ؟

الجد : طبعاً .

الجدة : إذاً لا فائدة . هيا أطلقوا الرصاص على هذه الأرض ، وراقبوا فقاقيع الدم من نوافذ بيوتكم ومطابخكم .

مجهول : وما الضير في أن يلبس نظارة أو لا يلبس . انها ليست أكثر من قطعة زجاج . المهم أن يأتي ويسأل ونجيب .

الجدة : ولكن المهم أيضاً ان تجيبوه كرجال . كرجال فتلت شواربهم حتى الحواجب . وان تقبضوا على هذه التربة الجافة بقوة ، بقوة حتى يتفصّد الدم من أصابعكم ، وتقذفوها في وجهه ذرة ذرة .

الجد : نعم . نعم سنقذفها في وجهه ذرة ذرة .

الحبلى : وقولوا له ان اثلام القمح رفيعة وباهتة كآثار العجلات .

الجدة : بل كآثار السياط .

الجد : (وهو في ذروة انفعاله) نعم سأقول له ذلك ، سأقول .

الجدة : قولوا له أيضاً ، انني مثلاً كنت أستحمُ فيما مضى بين نباتات القطن نفسها دون أن تلمحني إلا الخراف .

غلام : ونحن يا جدتي .

الجدة : حسناً ، الأطفال والخراف .

الحبلى :لقد كان نهداها أكثر بياضاً من أزهار القطن .

الجدة : (بما يشبه الاعتزاز) لقد كانا شيئين أبيضين .

غلام : لقد رأيناك تتبوّلين أيضاً بين نباتات القطن .

الجدة : (قافزة من مكانها) وهل كنت تريدني أن أتبوّل على السطوح يا قليل الحياء ؟ (تصفعه بعكازها) جيل لعين ، لعين . انني لم أعد أجرؤ على النوم مع حفيدي في قارة واحدة في هذه الأيام .

الجد : (يضحك ويسعل وكأنه قد استثير) .

الجدة : يجب أن تبكي قبل أن تضحك أيها العجوز الخرف ، لأنك ورب السموات لم تعرف للآن ما يجب أن تقوله وما يجب أن لا تقوله .

الجد : بل أعرف ، أعرف .

الجدة : أرجو من الله أن تفعل ذلك ، ولكنني واثقة من ان شيئاً واحداً من هذا لن يحدث . ستقفُ أمامه كتمثال ، مقارناً بين حذائك وحذائه ، بين شعرك وشعره ، وأصابعك وأصابعه . لا كتمثال كما قلت ، بل كعصفورٍ عجوز موحل أمام مرآةٍ موحلة . واذا ما سقطتْ من حقيبته أية ورقة تافهة ستهرع اليها وتلتقطها كسلوقي أنجز مهمته . وأنت تسعل وترتجف وتنحني كقصبة في مهب الريح ، لا كحبيبي القديم . (تبكي بمرارة) لا كحبيبي الذي لم يكن لينحني لالتقاط ذراعه نفسها اذا ما بترها سيف ما .

الجد : لا ، لن أنحني كقصبة في مهب الريح ، ولن ألتقط ورقته التافهة كسلوقي ، بل سأظل منتصباً وشامخاً بجوارك كأنني متجمّد منذ ألف عام .

المشوه : نعرفك جيداً ، تقول ما لا تفعل وتفعل ما لا تقول .

مجهول : وها هو لونك أصبح بلون الشمع .

مجهول آخر : لقد التقط قشرة برتقال عن الأرض ومضغها متستراً بعباءته .
مجهول ثالث : ورأيته البارحة يجلس القرفصاء في احدى الخرائب .
الطفل : (مؤكداً ومفسراً) لقد اختطف فطيرتي وجلس يأكلها هناك .
الجد : لا لا ؛ كنت أتبوّل .
المشوه : كامرأة . (الجد يحاول شرح الأمور وهو يجهش بالبكاء فلا يصغي إليه أحد . يحط في تلك اللحظة طائر عجوز على شجرة جرداء) .
الجد : (للطائر) انهم لا يصغون إليّ يا طائري العجوز ، بل لا يريدون الاصغاء أبداً . قل لهم انك سنوات وسنوات كنت تلتهم بقايا فرائسي وأنت محلّق في كبد السماء . قل لهم بأنني لم أنحن في يوم من الأيام كقصبة في مهب الريح . قل لهم ان الحديد ينحني في هذه الأيام . (يبكي بمرارة والطائر يومئ برأسه) .
الجدة : (تندفع ملهوفة باتجاهه وتضمه الى صدرها) يا عجوزي الطيب الصغير ، ان لك رائحة العشب والأطفال . انك . .
الجد : لا ، لا . ابتعدي عني ، أنت والآخرون . لا أحد يحبني ، لا أحد يحبني سوى ذلك الطائر العجوز . انه لي ولن يقتله أحد . (يتحلق الأطفال حوله ، قافزين مهرجين) .
الجدة : (تهش عليهم بعكازها) هيا اغربوا عن وجهه ، أيتها العقارب الصغيرة . عندما كان يعود من الصيد في أنصاف الليالي ، والصقور الجارحة تتدلى من حزامه المهترئ هذا كالمفاتيح ، كنتم أنتم تشاركون القطط على طعامها في وضح النهار .
الطفل : سأقتل هذا الطائر .
الجد : (ملهوفاً) لا ، لا . لن يقتله أحد .
الجدة : طبعاً طبعاً لن يقتله أحد . وماذا أفعل اذاً بعكازي هذا ؟
الجد : انه تعب ولا يبصر غصناً آخر ينتقل اليه . انه يرافقني كل صباح الى الحقل . انني أراه ، أرفع رأسي وأراه ، بل أسمع حفيف جناحيه وأنا راقد كالذبابة في قاع العربة ؛ ولكن ما ان تتوقف أجراس الجياد عن

الرنين حتى يتوقف فجأة عن الطيران ، ولا يتقدم خطوة واحدة بعد ذلك ، وكأن الفضاء قد قُطِعَ بسكين . ثم يحطُّ على أي شيء ، أي شيء ، أتسمعين ؟ انه أرمد وعيناه كالجمر .

الطفل : لقد حطّ على رأسي البارحة . سأشويه على الموقد ذات يوم .

الجد : (صارخاً) لا ، لن تشويه على الموقد ذات يوم ؛ كأنك تشوي اصبعي بذلك .

الطفل : سأشويه نيئاً .

الجدة : (تضرب الطفل على قفاه) لا ، لن تشوي صديقاً قديماً لجدك .

الجد : أذكر أمه وأباه يا عجوزتي الصغيرة ، بل أذكره عندما خرج من عشه ليطير للمرة الأولى ؛ لقد كان مرتبكاً كتلميذ .

الجدة : له شقيق آخر ، كما حدثني ذات يوم ونحن راقدان على المصطبة .

الجد : نعم شقيق آخر ، ولكنه أكثر شقاء وعزلة من أي طائر آخر في العالم . انه يقضي بقية أيامه منعزلاً كالفيلسوف ، هناك هناك مرفرفاً وباكياً أبداً فوق معتقل بعيد مهجور .

الجدة : إذاً فطائرنا على الأقل فأل حسن . (غلام قادم بسرعة البرق يخبر الجميع وهو يلهث)

الغلام : لقد حضر المندوب .

الجميع : (وهم يقفزون عن الأرض ، مثيرين زوبعة من الغبار) وأين هو ؟

الغلام : لقد ذهب . حضر وذهب .

الجدة : (صارخة بأعلى صوتها) حضر وذهب ؟ وماذا فعل إذاً ، بحق الشياطين ؟

الغلام : لاشيء . لا شيء . مدّ رأسه من نافذة السيارة إلى أول حقل صادفه ، والتفت اليه كما يلتفت الى ساعته ، ثم قفل عائداً يتثاءب .

الجدة : يتثاءب ؟

الغلام ، نعم يتثاءب .

الجدة : ألم تستيقظي بعد أيتها الملائكة ؟ والآن ماذا نفعل ؟ تكلموا ، هل أكلت الفئران ألسنتكم ؟

الغلام : ولكن مندوباً صناعياً سيحضر بعد قليل .

الجدة : « مندوباً صناعياً » ؟ ولماذا مندوباً صناعياً ؟ هل سيقتلع فقرنا هذا بكماشته ؟

الغلام : لا أعلم ، لا أعلم . ولكن هاهو . ها هو قادم بسيارته . (يلتفت الجميع على صوت سيارة غبراء تقف بينهم وقد ترجل منها شاب في مقتبل العمر ، يحمل بيده رزمة من الأوراق) .

المندوب : (يصرخ بعجرفة وموتور السيارة مازال مدوياً وقاذفاً سحباً لا حصر لها من الدخان) كلكم جلوساً على الأرض ، الجميع على الأرض ، لا أحد يقف ؛ اجلس أيها الطفل ، اجلس أيها العجوز ؛ هيا ابعدوا هذه الدجاجات اللعينة من هنا . (ثم يقفز على مصطبة مهدمة ويأخذ بتقليب الأوراق بين يديه ، مصلحاً من وضع ربطة عنقه بين لحظة وأخرى) .

الجدة : لقد قفز كسنجاب . هيا اقرأها ، انها ليست أكثر من ورقة .

فلاح : بل ثلاث ورقات . انه يعدّها كالنقود .

المشوه : هيا اقرأها .

الحبلى : انه مازال منهمكاً بهذا الشيء المتصل بعنقه .

المندوب : (يصرخ) أيها الشعب الكريم .

الجميع : اننا لا نسمع شيئاً . اطفئ هذه السيارة ، لقد ملأتنا زئيراً ودخاناً .

المندوب : لا ، لا أحد يطفئها ؛ انني على عجل ، وتشغيلها مرة أخرى يحتاج الى معجزة .

الحبلى : إذاً هيا اقرأ ما بيدك بسرعة وباقتضاب ، قبل أن ألد لك غلاماً في شهره السابع . اننا نختنق .

المندوب : أيها الشعب الكريم . أيها الشعب الكريم .

الجدة : حسناً حسناً ، لقد سمعناك . أيها الشعب الكريم ، وبعد ذلك ؟

المندوب : (غاضباً ومزمجراً) أود أن أقول ، قبل كل شيء ، ان بلاء العالم ووباء البشرية كله منكنَّ أيتها العجائز القميئات الثرثارات . انني

أشتري سكوتكن بذهب العالم كله . هيا أغلقن تلك الغابة اللعينة من الأفواه .

الجدة : وهل أتيت من حاضنة أيها الغلام ؟ جيل الشؤم جيل الكارثة . هيا اقرأها ، تلك الورقات الثلاث لنرى أية أمطار سوف تنبثق عن الأرض والسماء بعد ذلك .

المندوب : أيها الشعب الكريم ، أيها الشعب الكريم :

لقد سمعنا من بعض الطلبة العائدين من العطل المدرسية ان بعض العجائز والكهول ساخطين هنا وهناك يتذمرون ويشيعون أن سلطتنا لا توليهم الاهتمام الكافي ولا تعرف شيئاً عن حقولهم اليابسة وطيورهم الجائعة . ان السلطة ، مع نفيها المطلق لمثل هذا الشعور الزريّ ، تعلن أن السماء وحدها تتكفل بمثل هذه المخلوقات التافهة ، لأن السلطة ليست زرافة لتمد رأسها من النافذة كلما سعل شيخ أو بكى طائر وهاجر آخر : لأن العشب والطيور أشياء تافهة يمكن ازالتها كشعر الذقن دون أن يحدث أي رد فعل في سياستنا العليا . ثم لا يحق ، من جهة أخرى ، لبضعة أشخاص طيبين أو مقهورين أن يتحدثوا في الأزقة وحول المواقد بما يشبه العويل والنواح ، من أجل سحابة لا تمطر أو ابن ذهب ولم يعد أو ساقية تهر كالكلب منذ أجيال . لا يحق لهم ذلك أبداً ، وخناجر أبنائهم تملأ المستودعات ،وقتلاهم مازالوا يقطرون دماً في ساحات المدارس .

ان غابات أخرى أشد فتنة واخضراراً تنبثق من جوف الأرض محمَّلة بأقصى ما يمكن من ذلك البنفسج الغابر والصقيع المعدني ، لتؤدي واجبها تجاهكم بنعومة الثلج ورقة العصفور ؛ وأن حقولاً شاسعة لا نهاية لها ستقلب بكل مافيها من أشجار ومواعيد وذكريات ، كما يقلب الحذاء على السندان ، لكي نؤمن لنسلكم ، المتعفن في المباغي والبراميل الصدئة ، الكتاب والمحبرة والمنديل .

ولكنكم ستقولون ، والدموع تغطي وجوهكم ، ان ذكرياتكم كلها محفورة على تلك الأشجار ، وأن هذه الأشجار سوف تبكي

وتضرب أغصانها على الأرض كالجبال ، وأن الأنهار ستسافر دون عودة حاملة على مياها الكئيبة أسماءكم وصرر طعامكم ورماد مواقدكم . لا ، لا ، أبداً أيها الشعب الكريم . ان هناك من يصطادها كالأرانب في الأدغال الموحشة ، اذ لم تعد هناك أبداً أنهار صافية تعكس أعضاءكم التناسلية وأنتم تشوون الذرة على ضفافها ؛ ولم تعد هناك قرى تضاء بالنجوم ، وتنام على أصوات الذئاب واليمام المهاجر ، بل هناك قرى فذة ومصقولة ، يمكن ضغطها في أية حقيبة سفر ووضعها أمام الحوانيت والمنعطفات ، دون أن تثير رفّة حاجب واحد من أولئك الذين يعبرون الدروب المقفرة وفي كواحلهم ترنُّ مزامير التاريخ . قرى جميلة وحاسرة الرأس ، تسهر وتستيقظ وتنام على صدى الأقدام الرائعة وهدير الشاحنات المعبأة حتى حوافها العليا بالمؤن وبكرات المصاعد .

ثم ان رجالنا ليسوا ممددين في أسرَّتهم الحريرية ، كما تتخيلون ، بل انهم يعيشون في رعب لو قيس برعبكم الخاطف هذا لاعتبرتم أسعد حيوانات الله على الأرض ؛ انه رعب ينفجر كحبة الكستناء في كل لحظة ، في المبغى والحانة ، من زجاجة العطر وآلة الحلاقة ؛ رعب لا يمكن مقارنته إلا ببركان عظيم من الدم الأحمر القاني ، يطلق شظاياه بكبرياء الملوك على الجباه والأصداغ المهشّمة بأطراف المساطر . بعضهم ينام وأسلاك الهاتف في أذنيه ،وبعضهم الآخر يرحل كالسحب في الصحراء ، الى أبعد القرى وأكثرها قذارة ووحلاً وفوضى ، ليواسي الأم الجريحة والأب المفجوع ، ولكن بفخر لن يحسه أبداً من يقضي طوال النهار أمام الذباب وكتل التمر . مسرعون ، مسرعون أبداً وزوجاتهم يرتعشن عراة أمام المرايا . ولذلك فثمة ابر ، ابر لا حصر لها ، بعدد كل ما في حقول العالم من سنابل وعذارى مهجورات ، تدرز الأعلام الخفاقة والقمصان التي تمتص رمل الصحارى وغبار المدن ، قاذفة بها في كل الاتجاهات كما تقذف قشور البذر من بين الأسنان .

ان التيار يجري ، وعلى القصبات الوحيدة والمهجورة أن تنحني ، لسلامة رأسها . وان أية ريح ستحمل لنا بعد الآن بكاء أو صراخاً ، أو مشوهاً ، أو عاهرة ، ستُصْفَع على وجهها .

انكم مطوقون بالرعب والمحبة ، واذا كنتم تحلمون بأسرار اضافية فلن تكون إلا من قبوركم ، لا تفريطاً بأرواحكم وأموالكم أيها الصامتون الحيارى ، وإنما اختصاراً لآلام التاريخ ، وتأدية الأمانة لأولئك الذين فتحوا العالم على مصراعيه ثم جلسوا يقطرون دماً بين السنابك والمخالب الغازية ، يحلمون وأيديهم على خدودهم بصوت الرباب ودخان المزابل . ابكوا ، ابكوا ماطاب لكم البكاء ؛ لا يهمنا أبداً اذا ما انتهى عهد الأغنية الحزينة وانقرض زمان الانتظار الممض بين الينابيع . لا يهمنا أبداً اذا كانت الأغصان خضراء أو صفراء ، بقدر ما يهمنا أن تكون أطراً صالحة لصور أبطالنا وشهدائنا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . (يهبط عن المصطبة وقد كساه العرق والانفعال) .

الجدة : هراء . كل ما قاله هراء .

الحبلى : لم أفهم شيئاً على الاطلاق .

مجهول : لقد فهمت بعض الشيء ، ان شهداءنا ليسوا بحاجة الى براويز لتخليد ذكراهم .

الجد : لان معظمهم يموت من الجوع والضجر .

الجدة : يمكنكم أن تجملوا كل ما قاله في شيء واحد : هراء . هراء .

الجد : والآن ماذا نفعل ؟

الجدة : سنفعل أي شيء ؛ سأثقب أسوارهم بعصاي هذه . (صارخة) أيها المندوب الصناعي ، انني أخاطبك ، ألا تسمع ؟

الحبلى : وماذا يفيدك هذا الصراخ ؟ انه لا يفقه شيئاً بأمورنا .

امرأة : لماذا لا يفقه ؟ لابد وأن يفقه ، هيا دعوه يرى بأم عينه بعض البراعم الذابلة .

المشوه : سيظنها بعض البراغي . (المندوب يحاول التملص من أسئلة

الفلاحين وأيديهم الممتدة حتى ذقنه ، فتسقط ورقة من أوراقه وتتهاوى على الغبار . ينظر اليها الجميع بهلع ويبتعدون عنها وقد انتابهم صمت عجيب ، بينما يهرع اليها الجد بحركة لا شعورية وينحني لالتقاطها ، ولكنه يتجمد في وضعه ذلك وعيناه مليئتان بالرعب والخجل) .

الجدة : يا اله السموات . لقد هرع لالتقاطها كما قلت .

فلاح : كسلوقي ، كسلوقي جَرِب .

المشوه : قلت لكم انه جبان ، يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول .

الطفل : لقد قلت لكم انه سرق فطيرتي وأكلها بعيداً بين الأطلال وأنا أضربه بالحجارة .

مجهول : وماذا في الأمر ؟ حتى لو سقطت تلك الورقة في حوض سيتعلم العجوز السباحة ويلتقطها ككلب الماء .

المندوب : يا الهي . ناولني تلك الورقة أيها العجوز ؛ هل هي عقرب ؟ انها ورقة .

(يلتقط الجد الورقة بحركة لا شعورية عن الأرض ويسلمها للمندوب ويفرك يديه بجانبها وهو يبتسم ويرتجف في آن واحد) .

الجميع : لقد انحنى كقصبة في مهب الريح .

المشوه : والتقطها كسلوقي جرب .

الجد : (مختنق الصدر) ولكنها ليست أكثر من ورقة . المندوب قال ذلك .

الجدة : ولماذا لم يلتقطها هو ؟

فلاح : (يتقدم نحو الجد رافعاً يده) بودي أن أصفعه على فمه هذا . (الطائر يصرخ) .

الجد : (وهو يرتجف ، متراجعاً الى الوراء) لم أكن أريد التقاطها . ولكنني فعلت ذلك . (يبكي بمرارة . تحدث خلال ذلك فوضى عنيفة على اثر ذهاب المندوب ، والناس بين متذمر وغاضب ولا مبال . يتسلل أثناء ذلك الجد ويختفي في أحد الأزقة ، بينما يصفق الطائر بجناحيه ويختفي أيضاً) .

المشوه : لقد هرب العجوز .

الطفل : قد يأخذ فطيرتي فهو يعرف أين أخبئها ؟

الطفلة : أو تسمي القطعة الممزوجة بالدبس القذر فطيرة ؟

الطفل : انها على كل حال أفضل من الخبز ؟ ولولاها لكنت أتعس طفل في العالم . (يركض مسرعاً وراء الجد وهو يلتقط الحجارة في طريقه) .

الجدة : والآن ماذا نفعل بعد أن انتهى كل شيء وديسَتْ كرامتنا بالأقدام ؟

المشوه : صحيح ، ماذا نفعل ؟

الجدة : لنرسل لهم شيئاً يرغمهم على التفكير بنا ومعاملتنا كبشر .

مجهول : لنرسل لهم رسالة .

الجدة : بل لنرسل لهم سنبلتين جافتين .

فلاح : ستتحطمان على الطريق يا جدتي .

الجدة : لا ، لن تتحطما .

فلاح : (صارخاً) يا جدتي العزيزة ، لا يمكنك مجابهة العالم بسنبلتين محطمتين .

الجدة : (تخبط على وركيها) اذاً ماذا نفعل ؟

الحبلى : ننتظر نسمة قوية واحدة . (الطفل يقبل مسرعاً وهو يلهث) .

الطفل : لقد انتحر جدي . لقد انتحر ، وفطيرتي مازالت كما هي .

(يصعق الجميع ويختنقون الواحد تلو الآخر . تهب رياح حزينة ولا يسمع سوى حفيف الأشجار اليابسة وعواء خافت من بعيد) .

الجدة : (أمام جثة زوجها ، تبكي ملوحة بمنديلها وتغني للرياح) .

لقد مات الكهل ورحل الطائر .

الكهلُ سيدفن باحترام ،

ولكن ماذا سيحدث للطائر ؟

سأطوي فراشي وفراشه إلى الأبد

وأظل قرب الجدران المهدمه

في المطر وفي الزمهرير

في الليالي المقمرة والليالي العاصفه ،

ناقلة عيني كالحدأه
بين الموقد والثياب المحفوظه للذكرى ،
منتظرة ان يعود مرة واحدة بعد الآن
مُعَبَّأً حتى ذقنه بالدم وريش الصقور .
(تتلمس ثوبها وهي تبكي) :
سأعلّق هذا الثوب المشجَّر بمسمار
ولن أرتديه الى الأبد .
لقد ابتاعه لي ، من أكثر الأسواق ضجة وزحاما ؛ فيما مضى ، فيما مضى ،
وكان الناس يلوحون لنا سعيدين مبتسمين
وفرسنا تنقرُ البلاط بحوافرها
كأنها تريد ثوباً أو لجاماً لمهرها البعيد .
سأظل قرب الموقد
اغزل الصوف لكهلي الحبيب .
لقد انحنى :
ولكن كملكٍ يلتقط تاجه ،
كرجل أطلق عليه الرصاص من الخلف .

(ستار)

العصفور الأحدب ٣



(يصبح الكهل الغريب ، الذي كان معتقلاً في القفص وسط الصحراء ، أميراً وحاكماً مطلقاً على رعاياه .ويصبح العازب ، المصاب بالشذوذ الجنسي وزميله في القفص ، قديساً وناسكاً يشار اليه بالبنان .
قصر من الرخام تحيط به الأشجار الوارفة ، يقف عند كل ركن من أركانه عسس مسلح . نافذة عالية تطل على ساحة رمادية كبيرة . يقف فيها عدد من الغوغاء وكل منهم يحمل في يده صرة قذرة وسنبلة صفراء ، أفواههم مفتوحة وعيونهم محدقة بالنافذة ـ حيث يطل الأمير وحاشيته بين لحظة وأخرى من هناك . كلاب صيد تمرح في الحديقة وخادم عجوز يقذف لها قطع اللحم ويضحك) .

أصوات : نريد مطراً أيها الأمير الشاب
ولكن للأبقار الشاحبة ، والسنابل التي تفرقع كالأصابع .
الأمير : لتمطر السماء .
مرافق الأمير : ولكن السماء لا تمطر يا سيدي .
الأمير : قلت لتمطر السماء .
الحاشية : ولكنها لا تمطر يا سيدي .
الأمير : أطلقوا عليها الرصاص .
مرافق الأمير : ولكن الغيوم بعيدة .
الأمير : ضعوا سلالم واصعدوا عليها ، هزوها كالعرائش ، واتركوا شعبي يلتقط مطره من بين قدمي .
مرافق الأمير : مولاي ، ذلك مستحيل ، والوضع خطير وجامح . ألا تسمع ؟
أصوات : جاءتنا رسائل مطوّلة من القرى

رسائل دون مغلفات منقولة من يد إلى يد
كالأعلام المخفية
كالأعلام المنقولة من يد الى يد
في نهاية المعارك الخاسرة ،
رسائل تتحدث عن الأشواق والتحيات
عن المواقد المطفأة
والذئاب التي تنهش الوديان كاللحم .

الأمير : (لمرافقه) قل لهم ان يأكلوا طيورهم أو أطفالهم .

أصوات : أعراف الديوك ذابلة
وأصابع الأطفال يابسة كالعيدان .
الحقول تبكي
ورماد الأزهار ملفوف كالملح بأطراف الفساطين .

الحاشية : مولاي ، ألا تسمع ما يقولون ؟ ماذا نعمل يا مولاي ؟

الأمير : أطلقوا عليهم الرصاص .

مرافق الأمير : ولكن الأرض عطشى للمطر ، لا للدم .

الأمير : (غاضباً) الأرض العطشى تشرب كل شيء ، تشرب حتى دم الطفل ، عندما تكون شقوقها تتسع لحجم الطفل . عندما كنت أجتاز الصحراء ، وحيداً وقذراً في طريقي إليكم ، لم آكل عشباً يابساً فحسب ، بل أكلت طيوراً حية أنهت تغريدها في أحشائي .

الحاشية : مولاي ، ماذا تقول ؟

الأمير : أقول أكلت رملاً في الصحراء ، وسحقته بين أضراسي في السجون ، كي أضمن قوة المسير ، والانحدار اليكم ، الى الوطن .

القزم : (صارخاً من الساحة) لقد عرفناك أيها الكهل المجهول ، ولذا جئنا إليك وقلوبنا مفتوحة على مصاريعها . أنت يا من ذرفت دموع الثكالى من أجل طائر مضى ، ورفست أغطيتك طوال الليل من أجل «ساقية تنام في العراء . وها أنت الآن بذات العيون والشفاه والأيدي ، تقف خلف الجدران المحصنة لتنفث حقدك علينا كالينبوع .

الأمير : اخرسه . اخرسهم بطريقة ما . لقد نفد صبري ، كما نفد تبغي منذ لحظات ، وضيفنا الجليل آت بين لحظة وأخرى .

مرافق الأمير : (للجماهير) عودوا الى منازلكم أيها البائسون ، فالأمير غاضب ، ووجهه طافح بالشؤم ، لانكم تخاطبونه كأصدقاء قدامى ، وهو لم يسمع بكم من قبل . هيا أسرعوا الى بيوتكم . الريح تعصف ، والسوط يأخذ مجده في الأيام العاصفة .

القزم : بلى ، انه يعرفنا . يعرفني أنا على الأقل . هيا قل له : الرجل الذي كان متهماً بمضاجعة عنزة وبرئ من التهمة ، والذي جادلك بعنف عن هتلر وحرائق موسكو دون أن يعرف شيئاً عنهما ، يريد أنْ يراك . قل له : الرجل الذي لوح لك بقمبازه على طريق المعتقل حتى غابت سيارتك في الزحام والدموع تملأ عينيه ، يريد أن يراك . لا وطن له ولا مأوى ، ولذلك يريد أن يراك .

مرافق الأمير : لا فائدة ، لقد ضاع كل شيء . تواروا عن الأنظار ، تواروا جميعكم قبل أن يحصدكم رصاص الزوايا . البارحة ، البارحة فقط اعتقل رجالنا حذّاء يهتف للمطر والحب ، حذّاء شامخاً كالآلة ، يرفع سنابله المحطمة في أكثر الدروب وعورة وخطراً وأطفاله يهرولون أمامه كأمير في رحلة صيد . وقال أيضاً انه يعرف أميرنا ، ولكنه كان كاذباً ، فجلد هو وزوجته في عرض الشارع ، والقيا متعانقين في السجون البعيدة ، ولحمهما مخطط كغطاء الطاولات .

القزم : ولكن مهما كانت الأخطار تحدق بنا لن نرحل ما لم نعرف بوضوح ودون مواربة اذا كان أي أثر للصداقة قد بقي في هذا العالم أم لا . كنت أستيقظ في أعماق الليل لأغطي له قدميه القذرتين ، أحكّ ما لم تطله أصابعه بأصابعي ، وأجلس القرفصاء وأغلي له ثيابه كامرأة .

الأمير : ماذا تفعلون أيها الحرس ؟ هيا ، ليمثل أحد هؤلاء الدهماء أمامي فوراً والا انفجرت كالبركان .

الحاشية : ولكنهم قذرون ورائحتهم ترغم جيشاً على التقهقر .

الأمير : (بغضب) وهل سوف أعانقهم ؟

مرافق الأمير : سمعاً وطاعة يا مولاي . (يطل من النافذة على الساحة ويشير الى القزم كي يمثل في حضرة الأمير) تعال أيها القزم البائس ، أيها المرحوم سلفاً . الأمير غاضب ، وهو بانتظارك كالبركان .

القزم : قل له إنني قادم كالسيل . (يصعد السلالم بسرعة البرق ، ويندفع نحو الأمير بغبطة بالغة) يا صديقي العزيز . يا حبيب الطيور والسواقي . من كان يظن أننا سنلتقي بعد كل ذلك العذاب والرعب والأنوف المحطمة ؟ هنا ، في هذه الرياض الفاتنة والقاعات المدججة بالسلاح . (يحاول معانقته) .

الأمير : (يتحاشى ذلك بامتعاض) اسمع أيها الرجل ، أو أيها الشيء اللعين الدامس : قبل أن تبذر عواطفك سدى ، أريد أن أوضح لك أمراً ما . انني لا أنكر معرفتي بوجهك النتن هذا ، ولكن كمعرفتي بصحن قديم ، لا أكثر .

القزم : يا الهي ماذا يقول ؟ (موجهاً كلامه للحاشية) .

الخادم : يقول ما يقول .

الأمير : نعم أقول ما أقول . قد يضطر أعظم الأباطرة شأواً وسطوة أن يحني عنقه لحلاق مجهول .

القزم : ماذا تقول يا رجل ؟ كأنني أراك تنتحب على صدري .

الأمير : قل (يا سيدي) .

القزم : انك تمزح . أنت صديقي . صديقي الوحيد كما أعرف ، فالآخرون يبصقون عليَ في الطرقات ، ويلقون عليَ الأقذار من النوافذ . لقد ماتت زوجتي وأطفالي ولا أعرف كيف . . .

الأمير : (غاضباً وملوِّحاً بسوطه) وهل تريد مني أن أخرج لك حورية من جيبي ؟ انني لا أمزح ولا وقت لديَ للمزاح . ثم طالما لا أرض لك ولا مزرعة ، ولا زوجة ولا خروف حتى ، فلماذا تستقتل من أجل صديق ؟

القزم : يجب ان يكون لي شيء ما .

الأمير : حسناً ، صادق قدمي هذه . انك جبان ومنحط . تطالب بالمطر

والحب وكأن عطر ياقتك يفوح من الجهات الأربع . ان المطر والحب ليسا في أدراجي لأعطيك حفنة منهما . هيا اغرب عن وجهي قبل أن أملأ هذه البالوعة أكثر من مرة بدمك اللعين .

القزم : (متراجعاً الى الوراء ومودعاً بلباقة مبالغ بها)

هنيئاً لك بالسوط والحزام اللماع
ولتعد أشواقك الغابرة
عبر العاصفة وخلال النسيم
كي تستقر في القلب الجميل الخفاق
كي تستقر في اللاشيء
قلب الأسد الهارب والعرين المباح
لتعد مرفرفة فوق تلك الخوذ الفضية
والأصابع المسحوقة تحت العجلات
مصحوبة بهذه السحابة الرائعة من الحزن
فالعنب الأحمر لا يسيل على شفاه القطافين
ولكن على حديد المقاعد وعورات البغايا
حيث الجلود المسلوخة برفق
تنتظر نسيماً عابراً
ينثر عليه رمادك ورماد الآخرين
كما تنثر المساحيق على الوجوه .

الأمير : (يسفعه بالسوط على وجهه) اية وجوه يا هذا

الوجوه الباسمة في الغابات
الوجوه المحتقنة فوق فوهات المناصل
والمطروحة أبداً قرب فطائر الأطفال
الوجوه التي أضحت غابات من الشعر والدم .

الحاشية : ولكننا لم نفقه شيئاً مما يقوله ذلك الغراب .

القزم : طبعاً لن تفقهوا شيئاً ، لأنكم حشرات ، حشرات مدفونة في عدد لا يحصى من القمصان والسراويل ، لا ترون الفقر إلا من خلال المدافع

أو مرايا التاكسي .

الأمير : إنك جبان ومكابر . اصغ الى تلك الهتافات المدوية . فهي خير فلينة تسد بها فمك اللعين هذا .

القزم : لا أسمع ولا أستطيع أن أسمع يا صديقي . داخل القضبان أو خارجها لا فرق يا صديقي . . .

الخادم : انه لا يقول « سيدي » مطلقاً .

الأمير : ولماذا لا تستطيع ؟ أخبرني لأقذف لك بقدمي تعويضاً مغرياً عن ذلك .

القزم : (منفعلاً وباكياً) لقد حطمتني يا رجل ، ونثرت الملح القاتل في أكثر جراحي عمقاً وكبرياء . لا أستطيع ، لا أستطيع أن أصغي إلى شرذمة العصافير المرذولة تغني ، طالما هناك عصافير حمراء وخضراء تمزقها القنابل وهي على أهبة التحليق ، وأرانب بيضاء وزرقاء تصرخ فجأة على حواف الينابيع ، وعذارى نحيلات وسعيدات ، ينتظرن عشاقهن عند المنعطفات ، يحضرن الكلمة الجميلة والنظرة الساحرة ، ليقلنها بين لحظة وأخرى ، وعشاقهن ممزقو الرؤوس في الدهاليز وتحت الأضواء البربرية . (مشيراً الى رفاقه في الساحة) لقد جاؤوا اليك من قرى بعيدة لا يعلم الا الله أين تقع ، بالسنابل المحطمة ، لا لتعيدها خضراء أو حمراء ، ولكن لتقول لهم فقط : حسناً أيها الرفاق القدامى ، عودوا الى منازلكم ، لقد رأيتها .

الأمير : لا تحدثني كقيصر وذبابة في آن واحد . أعرفك تماماً كما أعرف نفسي . عندما كان الوطن يحتضر ويثب كالجرادة في حلبات الموت ، عندما كان شبابنا الوسيمون يمتطون طائراتهم الى مصيرهم المجهول ، كنت أنت تمتطي عنزة في أحد المراعي .هيا احمل متاعك وامض حيث تشاء أو لا تشاء وبلغ تحياتي الى عنزتك وذيلها الذي مازال يقطر دماً كالصنبور على صخرة الوطن . هيا لا تلتفت وراءك ، فالرياح تقذف غزلانها الجميلة كاللفائف . أسرع ،

أسرع . انك لست أكثرمن أعرج حقير في سباق للدراجات .

القـزم : أيها . . . أيها الأمير ، تعرف أنني لم أضاجع تلك العنزة ، واذا ماتت فلأنها هرمة ، أو لأنها قرفت من هذا العالم ، ولذلك لن أحمل متاعي وأرحل ، ما لم تقل لي بطريقة ما . . وداعاً أيها الصديق القديم .

الأمير : لا وقت لديّ .

القـزم : ولكنها كلمة واحدة . كلمة صغيرة كنملة . أتخاف منها أيها السفاح ؟

الأمير : (صارخاً بجنون) لست خائفاً أيها الوغد . ان كل كلمات العالم لا تملأ غمداً فارغاً أو كوباً على طاولة . ولكن لا وقت لديّ . (يقبض على القزم من سترته ويصرخ) اسمع ، كم عندك من أطفال .

القزم : لا شيء .

الأمير : كم كان عندك فيما مضى ؟

القزم : بعدد ماعلى طاولتك من دبابيس .

الأمير : لنفترض عشرة ، عشرة دبابيس ، لأنك حتماً من فصيلة الأرانب ، يكفي أن تطعمهم بعض الحساء والدقيق حتى يملأوا العالم شكراً وامتناناً . أما أنا فعندي في هذه الرزمة البسيطة من المصنفات مئات ، بل آلاف الأطفال . التاريخ طفل ، والوطن طفل ، والمستقبل طفل ، وعليّ أن أرضعهم الخشب والحليب والدم والعرق والرصاص والسحابة دفعة واحدة ، والا صرخوا جميعاً كأحقر الجراء الضارية .

القزم : انك تتلون كالحرباء .

الأمير : بل كالشفق .

القزم : ولكن ما قاسيناه وما قاسته نساؤنا . . .

الأمير : (مقاطعاً بانفعال مدمر) لتذهب الى جهنم ! اعرف سلفاً ما سوف تقوله عن الرقاد تحت السلالم والارتجاج في الحافلات والمصاعد الخانقة ، وان عذاراكن الجميلات جئن الى المدن ببراءة الفراشات ، ثم عدن قذرات مهملات يرتقن بكاراتهن كالجوارب . ليذهبن الى الجحيم

أيضاً! كن يتلذذن بذلك حتماً . أما أنا فأقول لك ان الرذاذ الذي تطاير من شفتيّ أيام الذعر والكفاح المرير ، كاف لري نصف مزارعكم .

القزم : (بانفعال أشد) ولكن من أجل ماذا كان ذلك الصراخ والعذاب ؟

الأمير : (مندهشاً) من أجل . . . من أجل الشعب ؟

القزم : وهل نحن من الأبقار ؟

الأمير : أيها الحرس . أعيدوه الى القفص القديم . ان لسانه أطول من سوطي هذا .

الخادم : ويمكن قتله مع شاربيه ، ولكن الى أسفل . كلهم أذلاء وقذرون .

القزم : (مكباً على قدمي الأمير) لا لا . أرجوك أيها الصديق القديم ، سأقول لك « يا سيدي » حتى الموت . سأحمل أمتعتي وأمضي إلى الأبد ، ولكن لا تعدني اليه .

الأمير : إذاً هيا إلى براميلك الصدئة أيها السلوقي اللعين . (القزم يحمل صرته ويهبط الدرج مضطرباً الى أقصى الحدود ، ويختبئ بين زملائه في الساحة هائجاً منتحباً) .

مرافق الأمير : ما تفعله خطير يا سيدي . يجب ألا تنسى ان قشوراً كثيرة من لحمك وشرفك مازالت طافية في بواليع السجون ، وان الشعب هو الذي لملم الكثير منها وأعادها كأوراق الورد لتكون له أباً وأماً ، لا ذئباً وجلاداً .

الأمير : قل ما تشاء يا مرافقي الطيب الحنون ، لأنك صديقي الوحيد في هذا العالم ، وسيكون أي سوء يصيبك بمثابة كارثة موجهة من السماء إلى قلبي . ولكن اسمع يا صديقي العزيز . أحب الشعب ، أحب هؤلاء الفلاحين ، أحب أسماءهم في الكتب ، ووجوههم في المجلات الملونة ، حيث ذرات الجبن تلمع تحت شواربهم كالثلج . حيث هم وحيدون وصامتون وناعمون على الورق . أما وجهاً لوجه تسمع زفيرهم وتلعثمهم ، وتتأمل على مسافة سنتمترات فقط دماملهم وأسنانهم وأقذارهم المتراكمة كلحاء الشجر ، فهذا ما يجعلني أنفر منهم ومن العالم أجمع ، كما ينفر الطائر من الرصاصة .

مرافق الأمير : ولكن أنت منهم يا مولاي . من صفوة الشارع وصلب الدهماء .

الأمير : نعم نعم أنا منهم ، ولكن دمي لا يجري إلا في الذرى العليا من الشرايين .

مرافق الأمير : ولكن هذا خطأ كبير .

الأمير : (باكياً وصارخاً) لتذهب الى الجحيم ! على الأقل أنا أخطئ أو أصيب ، أما أنت فماذا تفعل ؟ سوى أنك لا تخطئ ولا تصيب ، بل تدور حولي في الليل والنهار ، مشجعاً ومنبهاً ومحذراً ، كأنني أحبو على قدميَ بين أطلال ملأى بالعقارب . اني لا أحبو على قدمي ، بل أقف مستقيماً على رؤوس الأصابع لأشرف من هنا ، من هذه النافذة على . . .

مرافق الأمير : أعظم انحدار في التاريخ . وداعاً (يخرج المرافق ويصفع الباب حوله) .

الأمير : (باستهزاء) وداعاً ؟ وداعاً ! الآن أستطيع على الأقل أن أحلم وأصرخ وأبكي كما أريد ، فأنا حر ووحيد ، حر وشاهق كالجبل ، قادر على اشعال الجليد واطفاء النجوم ، بل قادر على ارضاع جرائي الضارية حتى الاختناق ، لا بتلك الخزعبلات والتنهدات ، ولكن بهذا السوط ـ كل شراييني بقسوته ومرونته . (ساخراً) يحدثني عن الشعب ذلك المرافق التعيس ، وكأنني أعيش فوق السحب . لقد رأيتهم على أطراف الحقول والذباب يحوم فوق فؤوسهم . ورأيتهم في السجون البعيدة يصلون كالرهبان من أجل الوطن ، ويتشاجرون بالسلاسل من أجل قطعة مخللات .

الخادم : (يدخل فجأة) لقد انتحر مرافقك يا مولاي .

الأمير : (بدهشة) انتحر ؟ وضيفنا العظيم آتٍ بين لحظة وأخرى ؟

الخادم : مولاي ان منظره لرهيب ، انه مكبٌّ على الطاولة هناك وكأنه يشرب من المحبرة .

الأمير : عله أطلق على نفسه الرصاص ؟

الخادم : لا يا مولاي ، لقد غرس خنجراً ما في أحشائه . وهو مازال ممسكاً

بالقبضة وكأنه مُصِرٌّ على موته . سيدي ، ألا تلقي نظرة على جثمانه قبل الدفن ؟

الأمير : لا وقت لدي . أرسل لي جثته مع البريد غداً .

الخادم : لقد كان صديقاً مخلصاً لك يا مولاي .

الأمير : كان صديقاً مخلصاً ومات ، ماذا أفعل له ؟

الخادم : (مرتبكاً) لا شيء ، كنت أظن ان بامكانك أن تفعل له شيئاً .

الأمير : انني أسمعُ وقع حوافر في الشوارع . لابد أن قديسنا العظيم قد أتى . أسرع أيها اللعين ، واقرع الأجراس . كن جرساً واقرع نفسك أيها الخادم . قل للآخرين أن يطلقوا المدافع وأسراب الحمام . أريد جموعاً لا نهاية لها ، تهتف لضيفنا العظيم وأطواق الزهر في أعناقها . أسرع أسرع . فور ان اطفئ لفافتي هذه ، يجب أن يشتعل شعبي حماساً وضجة .

الخادم : سمعاً وطاعة يا مولاي . (ينصرف) .

أصوات : يحيا الحب والمطر .

الأمير : أيها الحراس ، يا عمالقة المطبخ ، أبيدوهم كالحشرات ، كلوهم مع صررهم اذا لزم الأمر ، ألا تسمعون ؟

الحرس : (يهرعون اليه) اننا نسمع يا سيدي .

الأمير : تدبروا أمرهم بطريقة ما . هشّوا عليهم بالسياط في الوقت الحاضر .

حارس : ولكن الظلمة كثيفة والريح لا تطاق .

الأمير : ولكننا في وضح النهار أيها المجنون .

حارس : أعرف يا مولاي ، ولكن الظلمة كثيفة وكل شيء غائم وداكن .

الأمير : أضيئوا المصابيح على ظهورهم واجلدوها ، اشعلوا النيران في أفواههم وأرغموها . (صهيل الجياد يرتفع ووقع الحوافر يشتد في الخارج) .

أصوات : لا تفكر كثيراً أيها الأمير الشاب
لا تضربنا بالسياط

انفخ علينا فقط لتسقط جلودنا كدهان الطاولات
أو ارسلنا في عربات مطفأة الى السجون
حتى العصافير هناك تحلّق وأعشاشها في أعناقها
حتى الرفاق الصغار يمرحون عند الأصيل
وأكفانهم ملفوفة مع ورق الزكام
أو اضربنا ، اضربنا
حتى تنكسر القصبة ويسيل الدم على الراحتين
فجلودنا القديمة معبَّأة في جيوبنا
وأهدابنا الرائعة أكواخ للعصافير .

الأمير : يا عمالقة المطبخ ، قولوا لهم ليذهبوا الى الجحيم ! المهم أن يبقى الوطن .

أصوات : نعم ، ولكن كسمكة لم يبق منها غير الحسك .

الأمير : (مشيراً بوسطه الى الفضاء والشوارع) بل بقيت أشياء كثيرة لا تحصى .

أصوات : نعم ، بقي الموت والسل عند الغروب
بقيت رفات القمر وغضاريف النجوم
بقيت دورات المياه ، الأزرار المفضضة ، أنابيب الغسالات
بقيت الأجراس وحلقات الأبواب
ولكن لا أحد يقرع ولا أحد يجيب .

(يدخل الى مكتب الأمير الضيف العظيم ، وهو العازب المصاب بالشذوذ الجنسي الذي كان معتقلاً مع الأمير) .

الأمير : لتزهر أغصان العالم فوراً ولتنفض عبيرها على هذه اللحية المباركة ، لك حبي العظيم أيها القديس الرائع . ان جسدي المتواضع والمنهك من حمل أثقال المجد ، ليخجل أن ينحني مرة واحدة لأجلك .

القديس : لقد قطعت فترة تعبّدي وزهدي من الحياة الدنيا ، وجئت اليك مهنئاً ومباركاً يا أميرنا العظيم . لا من أجل النكتة اللطيفة وقضم الفاكهة حول الموائد ، ولكن من أجل الفضيلة والشرف يا مولاي .

أصوات : وأخيراً التقت الذئاب وتشابكت أنيابها المخضبة بدم الضحايا والغلمان البائسين ، هناك خلف الستائر ، فارحل يا مطر ولا تعد الينا .

القديس : ماذا يقولون يا بنيّ ؟ انني لا أفقه شيئاً ؟

الأمير : انهم هائجون من الفرح ، مجندلون على الأرصفة من نورك المتدفق كالشلال . اجلس هنا حيث الصيحات الرائعة تأتيك مع الرياح . حيث رذاذك ينطلق الى صدر الخطيئة كالرصاص .

أصوات : أيها الأميرالشاب التفت الينا

نساؤنا ينتظرن فوق التلال

وأثداؤهن ترنُّ كثمر الخشخاش في الريح .

القديس : يا للفحشاء .

أصوات : لا نريد مطراً أو حباً

ولكن سيوفاً مسلولة لقتلنا أو وداعنا

ولكن قل فقط : وداعاً أيها الرفاق القدامى .

القديس : وزعوا عليهم بركاتي .

أصوات : لقد رأينا الخاتم بيده واللآلئ على سيفه

ذلك القديس العظيم

ولم يشهرهُ لتحيتنا ، بل إلى صدورنا .

القديس : للمرة العاشرة أقول لا أفقه شيئاً يا بنيّ . (حجر يحطم النافذة) . يا اله السموات . (يتمتم بالصلاة) .

الأمير : (مرتبكاً) مولاي ، الجماهير بركان ثائر . ولكنني قادر على اغلاقه كالزجاجة . ولكن ساعة تشاء . لقد فتحوا فجوة في النافذة ، كي نسمع سوية ، أنا وأنت ، أناشيد الحب والولاء . اصغ يا قديسنا العظيم . ضع راحتك تحت هذه اللحية المباركة واصغ . ان زفير أنوفهم يرغم كل قطارات العالم على التراجع . (يطل الأمير من النافذة ويخاطب الجماهير) ، آه لقد حطمتم النوافذ المحصّنة يا أحبائي . ان ليل الوطن بارد طويل ولسوف تلسع الريح الغاضبة ظهر قديسنا العظيم .

أصوات : انك تحطّم قلوبنا كالزجاج يا مولاي .
ان تلسع الريح ظهر قديسنا العظيم أو لا تلسعه .
فانها فائضة عن ظهورنا .
لقد قصّت علينا الجدات المسنّات
تحت ضوء القناديل ونيران الأكواخ
ان على الظهور الملسوعة
يجلس الوطن ويبني عشّه كاليمامة .
اننا نعتذر
والريح تعتذر
والسنابل المحلّبة تعتذر
ترسل تحياتها الى المعاطف الثمينة وأغطية المدافع .
اننا نسمع ما يقال وما لا يقال
يخبرنا الجنون بذلك
يخبرنا المرض في المستنقعات
والسعال الآتي مع الرياح .
ان أعناقنا لن تنحني الآن لدفن موتانا
واذا لم نصرخ فقد صرخت عنا خرافنا .

الأمير : اقطعوا أعناقهم أيها الحرس ، واتركوا صراخهم يسيل مع الدم على الكتفين .

أصوات : اقطعها متى تريد . انها ممرات للحزن ، للقبلات المردودة على أعقابها .

القزم : (مندفعاً الى الأمام ومخاطباً الأمير بيأس وانفعال زائدين) . عاملنا كأحذية ، كمسامير ، ولكن لا كلا شيء . الشرف والحرية يقضيان بذلك . نُصُبهما المحدودبة والمكشّرة عن أضراسها المعدنية في الساحات تنبئنا بذلك .

الأمير : (صارخاً بالقزم) انني لا أسمح أبداً . (حجارة تقذف على النوافذ) .

القزم : (للأمير) أعرف ماذا ستقول أيها الجبان ، يا ذا الرأسين اللعينين . اعرف انك ستقول بانك لن تسمح لرجل امتطى عنزة بعمر والدته في أحلك الساعات التي مر بها الوطن ، ان يحدثك عن الشرف والحرية . لنفترض انني امتطيتُ عنزة هرمة ان لم تمت هذا الشتاء ماتت في الشتاء القادم ، ولكنك أنت تمتطي شعباً بكامله . شعباً لن يموت هذا الشتاء أو الشتاء القادم ، بل سيظل يتناسل كالذباب ، ضارباً عرض الحائط بكل قواعد القذارة والطيران ، ليحط على أزهار لن نتنشق رائحتها أبداً ، على أفواه لن نسمع صراخها أبداً . فالصراخ راسبٌ في الأحذية وقاع الشرايين . أيها الغريب الذي عاملته كطفلي ، يا من ودعته ودمعه يتحدر على وجهه كالشلال ، ان الوطن والحرية ليسا سوطاً وقفازاً وبصاقاً حول الشفتين . انهما . . .

الأمير : أطلقوا الرصاص قبل أن يقول ما هما . (القزم يهوي على الأرض مخضباً بدمه) .

الخادم : سيقولها آخرون يا مولاي .

(ستار)

العصفور الأحدب ٤



(قاعة محكمة منخفضة السقف جداً ومظلمة جداً . القاضي يجلس خلف طاولة مرتفعة تأخذ حيزاً كبيراً من ساحة القاعة ، وقد تدلت السياط المجدولة من زواياها . حاجب مدجج بالسلاح على يمين القاضي . المتهم يقف بعيداً كالجرذ في الجانب الآخر من القاعة ، وخلفه صورة جمجمة وعصفور معلقة على الحائط . هو نفسه صانع الأحذية الذي كان معتقلاً في الصحراء)

القاضي : ليس من أغرب الأمور ، بل من أكثرها شناعة واستهتاراً بالمثل والتقاليد ، أن يخرج صانع أحذية قذر ، لم ير في حياته سحابة أو عصفوراً ، من حانوته ويتجول حافياً مع زوجته وأطفاله على الزجاج المحطم ، مطالباً بالمطر والحب . أحبَّك الجحيم ! هيا تقدم .

المتهم : لقد تقدمت مافيه الكفاية يا سيدي .

القاضي : قلت تقدم ، ولا تجعل الانكسار والمذلة شعارك الخالد منذ الان .

المتهم : سيدي ، يكاد أنفي يلامس حذاءك .

الحاجب : وماذا في الأمر ؟ انه أنظف من كل أنوف العالم ، انه الممثل الشخصي لمولانا الأمير .

المتهم : أعرف ذلك ولكن . . .

الحاجب : ولكن ماذا ؟ (يصفعه على وجهه) .

المتهم : لكن لا شيء . أرجوكم ، أو بالأحرى أرجوكما ، سأتقدّم في الاتجاه الذي تريده العدالة والتاريخ ، والمسافة التي ترضي سيدي الحاجب . سأقف على الطاولة اذا اقتضى الأمر . ولكن مهما كان وضعي قميئاً ومنحطاً ، لا أحب أن أخاطب حذاء ما .

الحاجب : انني لا أطلب منك التقدم كي أهيم على صدرك وأنتحب ، ولا

لكي أتأمل هذه الأسنان الجاحظة والمهيأة كالبنادق لقضم أي شيء ، أي شيء حتى هذه العنق (مشيراً الى عنق القاضي) أليس كذلك ؟

المتهم : (بصوت خافت) هذه العنق أو غيرها ، عندما أرى طفلي يفكر في كثير من الأحيان بالتهام شقيقته الرضيعة وهي نائمة .

الحاجب : نحن هنا في محكمة وليس في مطعم .

المتهم : أعرف ذلك يا سيدي .

القاضي : (بعد أن يلتفت الى الحاجب) قد تعرف انك في محكمة وليس في مطعم ، ولكنك لن تعرف أبداً أن حياتك كلها مسطّرة في هذا الملف ، وان عدالتنا لا تجلس على السطوح حتى تتكهّن بنتائجها كما يلوح في عينيك . انها تختفي وتبرز ساعة تشاء ، ولكن فيما يضمن مصلحة الدولة وسلامة المواطنين .

المتهم : أعرف يا سيدي ان ملفي كبير كبير ، وان عدالتكم ، بل وكل عدالة في العالم ، تختفي وتبرز كمخالب القط ساعة تشاء . ولكن ما أعرفه أيضاً انه مهما تكن تلك المخالب صلبة وحادة فانها مقوّسة ، ولذلك من المستحيل ان تسير بشكل مستقيم . ثم لا أظن ، من جهة أخرى ، ان هذا الشيء الموضوع قرب ابريق الماء (مشيراً الى الملف) هو حياتي ، أو حياة مسمار صغير في حانوتي .

القاضي : لقد كتبه رجال مختصّون وعادلون ، وأي شك في هاتين النقطتين هو كالشك في حرارة النار وبرودة الصقيع .

المتهم : كما تريد يا سيدي ، ولكن . . .

القاضي : ولكن ماذا ؟

الحاجب : (للقاضي) لا تصرخ كثيراً : لقد ثقبت أذني . (للمتهم) هيا ، ولكن ماذا ؟

المتهم : لاشيء . ولكنني عندما فكرت منذ لحظة بأن كل ما قاسيته وسأقاسيه من مرض وحزن وزواج وولادة ، مختصر بهذا الشكل ـ كحاشية في دفتر بقال ـ شعرت بأن الحياة ليست غير محتملة فحسب ، بل ان مجرد التفكير بها أكثر قسوة من سقوط سيف

مشهور على رأس القلب . وان كل ما أحس به ولا أحس لامعنى له على الاطلاق . قل ما تريد وسأجبك كما تريد . اذ الاختصاص والعدالة شيئان هائلان أحني لهما كل ما تبقى من الأشياء المنتصبة في جسدي المتواضع هذا .

الحاجب : وهذا ما نريده بالضبط ، لان هذه المحاكمة ليست وسيلة لنكء الجراح والتدقيق بالنظارات في شؤون الحزن والزواج والولادة ، بقدر ما هي طمر خارق وفذّ لكل هذه الأمور ، ولتكون من جهة أخرى ضماداً تاريخياً لكل الجراح التي فُتِحَتْ بالأصابع ، في قلب الوطن ، باسم الحرية والجنس والمداعبات السرية ، وبقية تلك السخافات التي تكرع منها قبضاتكم كما يكرع البطّ في الماء .

المتهم : أرجوك أن تقرأ الوقائع .

القاضي : ولم العجلة ؟ هل نحن في قطار ؟

المتهم : لأنني لا أعرفها .

الحاجب : تعرفها أو لا تعرفها ، ستحاكم بموجبها . اقرأ أيها القاضي .

القاضي : سأقرأها فوراً يا سيدي .

الحاجب : اقرأ المقدمة فقط ،واترك التفاصيل للتاريخ .

القاضي : نعم للتاريخ يا سيدي . (القاضي يزم شفتيه على لفافته ، ويتشبث بالملف كأنه يقود سيارة) .

منذ الف عام ، أوبعد الف عام ، لا نذكر ، في الربيع أو الخريف ، لا نذكر ، شوهد المتهم بصحبة امرأة حنطية اللون ممزقة الثياب مع عدد من الأطفال ، يسيرون الهوينى تحت الغمام الشفاف بطريقة لا تتفق أبداً مع ما يتطلبه هذا الوطن من صلابة ومجد ، ويحمل كل منهم سنبلة جافة كالخشب ، باحترام بالغ وحنان لا يوصف ، كما يحمل الكهنة شموعهم في المعابد ، يتعانقون ويهتفون علناً في الشوارع المقفرة وأمام النوافذ المغلقة : «يحيا المطر والحب» . كما كان المتهم والمتهمة يقبّل واحدهما الآخر علانية كلما مرت سحابة من بعيد ، دون أي شعور بالخجل

والمسؤولية تجاه رغبتنا في المحافظة على سرية النصوص وعظمة الشرائع . . .

المتهم : (مقاطعاً) سيدي ، سيدي ، وما الجريمة في ان يحمل عاشقان ما سنبلتين محطمتين ؟ ما الجريمة في ذلك ؟ هل تريد منهما أن يحملا مسدسين ليكونا مواطنين شريفين نبيلين .

الحاجب : قاطعني مرة أخرى لأنهي هذا القرار بدمك . تابع أيها القاضي .

القاضي : وعندما اقترب أحد رجالنا من المتهم للاستفسار منه عن سر هذا التصرف المرعب ، زجره بقسوة وضربته المرأة العاشقة بسنبلتها ضرباً مبرحاً على فمه ويديه ، مما سبب له رضوضاً عميقة وواضحة الى أقصى الحدود . وبدلاً من أن يلتقطاه عن الأرض ويضمّاه الى صدرهما بحنان ، التقطا سنابل القمح المضرجة بدمه وراحا يطيران طيراناً تحت أوراق الخريف . ولكن عندما استيقظ المجني عليه لحق بهما فوراً والدم ينزف من فمه وأصابعه ، وطلب بطاقاتهم الشخصية والتوقيع على مذكرات بالقبض عليهم ، فرفضوا . بل وسخروا منه وهو في قمة آلامه وانفعالاته ، حتى ان أحد الأطفال تناول الورقة منه وهزها طويلاً بيده ثم جعلكها ووضعها في فمه وهو يضحك واللعاب يقطر من طوقه الأزرق الجميل ، يضحك ويضحك وينظر الى عيني الحارس الغاضبتين القانونيتين ، حينذاك لم يجد بدأ من تأدية واجبه فأطلق الرصاص على الطفل .وهنا جُنّ جنون الوالدين ،وأخذا يزعقان ويشتمان ، وينثران التراب على رأسيهما ، بينما الطفل القتيل لم يتحرك . بل بقي مكباً على وجهه ، وساقاه منفرجتان ، وكأنه سيمتطي دراجته الصغيرة بعد لحظة .

ولذلك ، ونتيجة لهذه الجريمة الخطيرة ، قررنا أنا وحاجبي ، بناء على السلطة الممنوحة لنا من مولانا الأمير ، توقيف المدعى عليه في سجن الحرية المركزي ، ومنع المحاكمة عن الخريف لأنه هجر الوطن سحابة اثر سحابة بعد وقوع الحادث . ثم فرض الاقامة الجبرية على الأم في صحراء من الرمال ، مع مصادرة كافة أمشاطها

وأقراطها وأدوات زينتها ، ومنعها منعاً باتاً من الحنين الى زوجها وأطفالها قبل انتهاء التحقيق ، ثم تحريم اللعب على الطفلين الباقيين ، وحجز كل منهما في قفص صغير للأرانب في صحراء أخرى ، مع مصادرة كافة لعبهما وأطواقهما الجديدة والقديمة ، حتى يصدر أمر معاكس لذلك . قرار قطعي غير قابل للنقض أو الطعن .

الحاجب : ولو نهض جميع مؤرخي القانون وأطفال العالم عراة من قبورهم (فترة صمت) .

المتهم : (يمسح العرق عن وجهه) سيدي ، سيدي ، لا أعرف فعلاً بأي لغة أهنئك . ان الانسانية كلها ، التاريخ بمجمله ، ملخص في بضعة سطور . كان يجب أن لا تلقى والنوافذ مفتوحة هكذا .

القاضي : انني لست بحاجة الى مديح ، فرسائل الاعجاب تملأ أدراجي ، ولن يتغيّر موقفي من جريمتك النكراء ولو أمطرتني مدائحك كالسهام .

المتهم : معاذ الله يا سيدي ؛ ولكنها المفاجأة ، الدهشة العظيمة لرؤية العالم مقذوفاً بكل وميضه الجاهلي ككرة القدم الى الوراء ، ممزقاً شبكة المرمى ، مطيحاً بالقسم الأعظم من المتفرجين . انها القناعة المطلقة بما تقول وما لا تقول ، هي التي جعلتني أحلم الآن بالموت تحت المطر ، بقوارب مهشمة يسيل على صواريها المتأرجحة دم العصافير ودم الأطفال . الطعنة العميقة خارج الجلد هي التي جعلتني أتوجس وأنهار ، غارساً أصابعي حتى نهايتها في هذه الأرض التي أنجبتك صدفة كالينبوع ، كالطوفان . آه ، النجدة النجدة . يا طفلي الصغير الحبيب ، انني أختنق . (يتكوم على قدم القاضي وينتحب) .

القاضي : قف بعيداً ، هناك . لسنا بحاجة الى مزيد من الدموع .

الحاجب : عندنا مستودعات منها . تابع أيها القاضي .

القاضي : نعم يا سيدي .

هناك تماثيل من البرونز لجبناء ولصوص ، نصب تذكارية

لبغايا ، أسوار من اللؤلؤ والياسمين لجواسيس يحملون وطنهم في محافظهم ، فرسان بعمر الورود دخلوا روما وخرجوا منها وأحشاؤهم معلقةمن أطراف سيوفهم ، في طريقهم الى المنفى ، ورجال تافهين دخلوا دورات المياه وخرجوا منها في طريقهم الى العرش .

ولذلك فنحن لا نريد أن نسبح في الأخطاء مرة أخرى . سنمخر عباب العالم وسكين التصفية بين أسناننا ، وعلى السفن أن تبحر في أقصى الظلمات وأحلكها على حرائق المسافرين ونيران الحبال وزوارق النجاة ، اذا كان الوطن محاصراً في جزيرة ما . ان الأطفال والعصافير والفراشات والأحلام الصغيرة ، لا يحق لها شرف ان تكون حتى نقطاً أو فواصل في صفحات التاريخ ، وعلى حناجر البلابل ذاتها ان تسحق سحقاً اذا كانت أغنيات المستقبل شؤماً في آذان الريح .

ما هي قيمة طفل بحجم العلبة ، بالنسبة لتلك الأساطيل المهشمة ، والمضخّات التي تستخلص حتى القطرة الأخيرة من فم الجذور وتقشّف الينابيع ؟

ما قيمة بكاء فلاح مجهول ، أو قلق عاشقة مجهولة في مقهى مجهول ، بالنسبة لضحكات الأبناء العائدين من النصر ؟

ستقول لي : ولكن القسوة يا سيدي ليست في ان ترى شعباً غارقاً بالدم ، أو حضارة موشكة على السقوط وابطها بمتناول يدك ، ولا تفعل شيئاً ، بل في ان ترى فراشة صغيرة تتزحلق منذ الظهيرة على الزجاج وتلبط الهواء بفخذيها الرفيعتين دون جدوى ، وتراها في منتصف الليل وهي مازالت تتزحلق على الزجاج وتلبط الهواء بفخذيها الرفيعتين وهي تلهث دون جدوى ، ولا تفعل شيئاً . ولكنني سأجيبك على كل ذلك بأنه هراء . الطفولة بذرة الصراخ والريح موطن ومناخ ، أما الورود والفراشات والأحلام الصغيرة ، لا كرمز بل كورود وفراشات وأحلام صغيرة ، فهي شبح سري يهددنا من أعمق أعماق جذورنا .

هل يتحدث العشاق في المقاهي عن الدمامل المتفسخة في المستشفيات ، وارتجاف العمال في المجارير ؟ أبداً ، انهم يتحدثون عن الورود والأحلام الصغيرة ، حيث يرقد الصراخ المستقبل ورعب الناشئة ، عندما تهرم المرأة التي أحبوها وتتجعد النهود والأصابع التي داعبوها ، ويغطي غبار الحروب جدران المقاهي ، وأكوابها المتقابلة على أطراف المناضد .

هيا ، ليلتق العبيد والفولاذ في مكان ما ، كذئبين كاسرين في غابة مزهرة أو شارع يغمره الوحل ، هذا مسدسي جاهز لرصاصة الخلاص .

هيا . انني لا أعلم كيف تتم مثل هذه الأمور ، ولكنها تتم وليس من اختصاصي أن أعرف كيف . كل ما يهمني هو أنني ألبس قميصاً نظيفاً كل يوم ، وآكل ثلاث وجبات كل يوم ، وأضاجع زوجتي ساعة أشاء وأنا أفكّر بترقيتي المحددة بتاريخ محدود . ولكن من يجوع ؟ من يعرى ؟ من يضاجع عنزة ؟ هذا ليس من اختصاصي . ان الأشياء أجنحة تضرب بعضها بعضاً وتنزف ، تختلط وتهدر كالماء ، ونحن ندور فوقها كالنواعير ، والآن ماذا تريد بعد ذلك كله ؟

المتهم : أريد طفلي يا سيدي .

الحاجب : (صارخاً) لقد أغلقنا هذا الموضوع .

المتهم : ولكن هذا لا يجوز يا سيدي ؛ كأنك تغلق بذلك فمي على كتلة من النار . ان الطفل لم يبرح ذاكرتي .

الحاجب : (ملتفتاً الى القاضي) سيدي لم أعد أطيق الانتظار . (ملتفتاً الى المتهم) أو تسمي تلك القطعة البذيئة من اللحم طفلاً ؟ لا يزن ثلاث أقاتٍ بعد رضاعته .

المتهم : ولكنه طفلي . ولم أنجبه بمخابرة هاتفية .

القاضي : حسناً ، حسناً . ما لون عينيه ؟

المتهم : زرقاوان .

القاضي : بل سوداوان .

المتهم : ولكنهما زرقاوان ، كل جيراننا يعرفون انهما زرقاوان .

القاضي : ولكن ما هو مكتوب أمامي يؤكد انهما سوداوان .

المتهم : اذاً سوداوان .

القاضي : لا تغضب ، انه القانون .

الحاجب : لقد بدأ المهر يحني عنقه .

القاضي : يشمشم الأرض ويرفس .

الحاجب : يكفي . تابع .

القاضي : ما عمره ؟

المتهم : ثلاث سنوات .

القاضي : ولكن ما هو مكتوب أمامي يؤكد أن عمره سنتان .

المتهم : ولكن عمره ثلاث سنوات يا سيدي .

القاضي : قلت سنتين ولن أضيف ساعة واحدة بعد ذلك .

المتهم : ولكنني أعرف عمر العصافير التي غردت ساعة ولادته .

القاضي : مستحيل . انه القانون .

المتهم : سيدي . ليجلس القانون في حجري ويلفّ ساقاً على ساق . قد تكون له علاقة بالسياسة ، بالاقتصاد ، بالرشاشات ؛ ولكن ما علاقته بطفل صغير ، أو بعمره ولون عينيه ؟ سيدي ، حدثني مرة أخرى عن القانون وسأطير من النافذة . (بصوت خافت وحزين ، وهو يكاد يبكي) سيدي أؤكد لك ، أؤكد لك يا سيدي ، انك لم ترَ في حياتك كلها ثوباً صغيراً معلقاً الى الحائط دون أصابع صغيرة خارج أكمامه ، دون حلوى في جيوبه .

القاضي : وهل تريد أن تعلقه ميتاً على الحائط ؟ لقد قُتل خطأ وانتهى الأمر .

المتهم : سيدي ، وما الفرق في ان يموت خطأ أو يموت على الآلة الحاسبة ؟

الحاجب : هل تريد أن تتحدث عن دوافع الجريمة ، والا انفجرت بك وبالعالم أجمع ؟

المتهم : طبعاً طبعاً ، سأتحدث عن دوافع الجريمة . انني أعتذر . لقد كان

موضوع الطفل جانبياً بالفعل ، لأنني قطفته عن شجرة ، أو كبست زراً على بطن أمه فأنجبته .انني أعتذر مرة أخرى ، ولكنني حائر كيف أبدأ ، لأن ما حدث شيء فظيع ، فظيع جداً ، وعليّ أن أتحمل نصف النتائج على الأقل : والا ما معنى تحية العلم في الزمهرير ، ما معنى كل الجماجم التي دحرجت عبر التاريخ من أجل العدالة والمساواة ؟

الحاجب : سيدي ، هل تسمح لي بأن أدحرجه قليلاً أمام هذه المنصة ؟

القاضي : لا ، ليس الآن .

الحاجب : (يبكي) أرجوك يا سيدي .

القاضي : ليس الآن ، ليس الآن . لقد انتصف النهار ونحن ما زلنا نقفز كالجراد على أبواب الحادث . هيا تكلم أيها المتهم .

المتهم : اذن لن تسمح له بدحرجتي أمام هذه المنصة ؟ شكراً يا سيدي ، شكراً .

القاضي : هيا ، تكلم في صميم الموضوع ، في صميمه تماماً .

المتهم : ولكن طفلي قتل مع جدته أمام قصر الأمير ودفن في ذات اللحظة .

الحاجب : (صارخاً ومزمجراً) وهذه الصفحات هل أدفنها في أحد الأدراج ؟ يجب أن تحاكم بموجبها .

المتهم : ولكن لا صحة لها .

الحاجب : لا يهمني . لقد دوّنها رجال مختصون يتقاضون راتباً من الدولة ، ووضعوا لها تاريخاً وحاشية ورقماً متسلسلاً ، وشطبها بعد كل ذلك كشطب وجهي بسكين .

المتهم : إذاً أريد شهودي .

القاضي : من هم شهودك ؟

المتهم : حبيبتي وأطفالي وأوراق الخريف . (تهب رياح قوية في تلك اللحظة تقلب الأوراق عن المنضدة ، وتضرب الستائر يميناً وشمالاً) .

القاضي : وهل يأتي الخريف ؟

المتهم : نعم يا سيدي .
القاضي : (فزعاً) هل أنت جاد أيها السيد ؟
المتهم : نعم يا سيدي . **(الريح تشتد وتعصف بقوة)** .
القاضي : (بذعر) كيف ومتى ؟ أخبرني بذلك ، أرجوك .
المتهم : سيأتي من النافذة ، أو المحبرة ، حزيناً يشهر سيفه .
القاضي : يا الهي !
المتهم : ساخطاً ومقهوراً ، وكل حضارات العالم ملصوقة على وجهه كالتواليل . **(تظلم السماء فجأة وتكفهر ، وتبدو زوابع الغبار من الخارج وكأنها تريد أن تلتهم وتدمر كل شيء .)**
القاضي : يا الهي !
المتهم : ستستيقظ ذات صباحِ لتجد كل شيء أصفر وشاحباً عينيك وأوراقك
زوجتك وأطفالك وأسنانك ومدافعك
وكأن كل مرارة في العالم قد انفجرتْ
وسالت على مبعدة أمتار من مكانها .
القاضي : (بهلع كبير) أيها الحاجب ، ناد الشهود . ناد الشهود .
الحاجب : تعالي أيتها المرأة . (المرأة تجيب) .
تعالوا أيها الأطفال . (الأطفال يجيبون) .
تعال أيها الخريف (صدى) .
تعال أيها الخريف (صدى) .
تعال أيها الخريف (صدى) .
سيدي ، الخريف لا يجيب .
القاضي : (باطمئنان ممزوج بالشعر) أسمعت ؟ أسمعت ؟ انه لن يأتي .
المتهم : انه يتحفز يا سيدي .

(تدخل زوجة المتهم ، وهي امرأة جميلة حنطية اللون ممزقة الثياب وقد تدلّى نصف ثدييها الى الخارج ، فزعة ملهوفة ، يجرها حارسان عملاقان ويطرحانها متهالكة وسط المحكمة ، وبجانبها حارس جريح)

القاضي : (مغطياً وجهه بيديه) ماهذا ؟هل أنت على شاطئ البحر ؟
الزوجة : (تحاول ستر عريها) انني . . انني . .
المتهم : لا ترتبكي يا يمامتي . قفي كما أنت .
القاضي : لا يجوز . لا يجوز .
المتهم : (صارخاً) ولماذا لا يجوز ؟ هل تتهيَّج العدالة ؟
الجريح : انها تبدو كقديسة بالنسبة لما كانت عليه عندما وقع الحادث يا سيدي .
المتهم : يا للشهامة . انني واثق من أنه لا يعرف الفرق بين جبل عرفات وجبل طارق .
الزوجة : بل أنا واثقة من أنه لا يعرف كم ثدياً لأمه .
الجريح : سيدي ، هذا نموذج بسيط لما قاسيته منهما عندما وقع الحادث .
الزوجة : (للقاضي) ليتك كنت هناك يا سيدي .
المتهم : أي معنى أنك لن تكون في أي مكان .
الجريح : انهما يكذبان . ليتني أستطيع أن أريك آثار لكماتهما عندما وقع الحادث . لقد حطّما كبريائي بفأس ، ولطخا معطفي الجديد هذا بلطخ لن تزول الا بدمهما .

الزوجة : ودم الطفلين الباقيين ، أليس كذلك ؟ (تبكي)

الجريح : هذا أتركه لعدالة المحكمة .

المتهم : يا يمامتي الغالية . انك تحتضرين .

الحاجب : لا احتضار أثناء المحاكمة . بل الاحتضار حتى أعود . (يخرج) .

الزوجة : (للقاضي) سيدي ، انه يطالب بدمنا لازالة تلك اللطخ عن وشاحه الجميل هذا ؛ ولكنني أؤكد له انه ما من مصبغة بشرية في العالم يمكنها أن تزيل ما على وشاحه الجميل من أدران . ليس دمنا فحسب ، بل دماء الملايين . أما دم الطفلين الصغيرين ، بل دم كل أطفال العالم ، فلن يكفي حتى الياقة أو الأزرار . (توجه كلامها للجريح) انني أقطف لك نهدي بأسناني ، وأقدمه لك هدية وتعويضاً عن ذلك الحادث الرهيب . (متهكمة) عندما وقع الحادث... عندما وقع الحادث ... منذ أول الجلسة وأنت تقول وتتلعثم : عندما وقع الحادث... عندما وقع الحادث . . (صارخة) هيا انطق هذه الجوهرة .

القاضي : (صارخاً أيضاً) ان ما تقوله صحيح ، فأنا شخصياً أصبح عندي شبقٌ قضائي لمعرفة هذا الحادث .

الجريح : لقد شتماني وضرباني بسنبلة .

القاضي : ماذا قلت ؟ شتماك وضرباك بسنبلة ؟

الجريح : (يبكي) بل بسنبلتين يا سيدي .

القاضي : وأنت بوشاحك الجميل هذا ؟

الجريح : وهل كنت أقوم بواجبي عارياً يا سيدي ؟

القاضي : هيا ، تكلم في الموضوع مباشرة . يا للعار !

الجريح : (وهو يمسح دموعه بكمه) سيدي ، ان الدنيا كلها غائمة في رأسي ، بل كل شيء غائم ولعين . كنت أقوم بواجبي في شارع مقفر ، عندما سمعتهما يهتفان للمطر والحب . وكل ما فعلته عند ذلك أنني زمجرت قليلاً وطلبت بطاقاتهم الشخصية ، فرفضا . أما الطفل فقدم لي طابته . سيدي ان ما حدث شيء لا يحتمل ، وغوصي في الموضوع أكثر من ذلك يعني دماري دماراً كاملاً كفنان وانسان

متصوف مجهول . أطلقت الرصاص على الطفل دون أن أسيء بكلمة واحدة الى والديه . فهشماني على اثر ذلك بالسنابل . (يبكي ويتابع كلامه) سيدي ، لي رجاء واحد فقط : لقد ذكر في افادتي الأولى ان الحادث وقع في الخريف . انني أريده أن يكون في الربيع .

الزوجة : سيدي ، انه ليس كاذباً فحسب بل هو عالم ذري في هذا الميدان .

الجريح : (يبكي) سيدي ، انظر ، يريدان ان يضرباني . انني لن أقبل هذه الاهانات تحت قوس المحكمة .

القاضي : لا تبتئس يا بنيّ ، فكرامتك ستُرَدُّ اليك وكأنها محفوظة في مصرف .

المتهم : (صارخاً بجنون) سيدي لم أعد أطيق هذه المهزلة ، بل لم أعد أطيق واحدا من عشرة منها . أريد أطفالي شهوداً ، الآن ، وقبل أن أزدرد لعابي .

القاضي : ليدخل الأطفال . (يدخل حارس مدجج بالسلاح ، يحمل قفصين في كل منهما طفل ، ويضعهما عند قدمي القاضي) .

الزوجة : رباه انظر . (مخاطبة لا أحد) انظروا ، لم يلتفتا إليّ . انهما لم يتعرفا عليّ .

المتهم : قد يظنانك القاضي نفسه ، أو قد يظنان القاضي ابريقاً أو منشفة .

الزوجة : يا الهي ! أُنظر ، لقد شابت أصداغهما الصغيرة وتجعّد أنفاهما كالكهول .

القاضي : سكوت . (يوجه حديثه للطفلين وهما داخل الأقفاص) أأنتما شاهدان أم متهمان ؟

الطفلان : أخرجنا من أقفاصنا لنقول لك .

القاضي : ولماذا ؟ حتى تجعلا هذه المحكمة كغرفة استقبال بعد ذهاب الضيوف ؟ أخرجهما أيها الحارس . (يخرج الطفلان من قفصيهما ، وقد غطاهما الشيب وكستهما الأقذار) .

الزوجة : رباه ، لقد شابا كأسرى العصور الحجرية . انظر . برعمان صغيران يغطيهما الشيب . (تنتحب) .

المتهم : يا طفليَّ القذرين ، انكما أشبه بقطعتين قذرتين من الثلج الشاحب ، بل كآثار كعبين صغيرين على طريق يغطيه الثلج الشاحب .

القاضي : (للطفلين) والآن أأنتما شاهدان أم متهمان ؟

الطفلان : لانعرف يا سيدي .

القاضي : وماذا تعرفان إذاً ، هيا تكلما .

الطفلان : لا نستطيع يا سيدي . شفاهنا يابسة كالتنك .

القاضي : وماذا أفعل لكما ؟

الطفلان : قطرة حليب لكل منا ، بل نصف قطرة ونغرد لك كالطيور .

القاضي : أريد اعترافاً لا تغريداً . (يتناول الحارس ابريق الماء عن الطاولة بصوت مسموع) .

المتهم : يا الهي ! لقد طارت الرحمة كقبعة في الريح .

الطفل : أيها الحاجب . سأعطيك دميتي ولكن أعطني قطرة ماء .

الطفلة : سأعطيك شريطتي ، ومشطي الصغير ،ولكن أعطني قطرة ماء .

الزوجة : لقد انتهى العالم .

الجريح : ان هذا الطفل يتكلم وكأنه . . .

الطفل : لا لست ليبرالياً ، يا سيدي ، ولكنهم يقدمون لنا الطعام والماء بأغطية الزجاجات .

الطفلة : (تخرج عدداً من الأغطية من جيوبها) لقد جمعت منها كثيراً . سألعب بها في الزقاق عندما يطلق سراحي . (تبكي) .

المتهم : يا طفلتي الصغيرة ، اذا كان مشطك الصغير هذا يؤثر في شعر الماعز ، فلن يؤثر في مثل هؤلاء . انك لست كفراشة بل كنصف فراشة ، لم تنمي اصبعاً واحدة منذ أجيال .

الطفلة : لا أريد أن أنمو يا أبي .

المتهم : ولماذا يا ابنتي ؟

الطفلة : لقد رأيت أكثر مما يحتمل من الحياة . انني أرتجف يا أبي . أعطني شيئاً لأتدثر به .

المتهم : وبماذا أدثرك يا طفلتي ، وليس لدي حتى نصف محرمة ؟
الطفلة : ولا تستطيع أن تطعمني ؟
المتهم : لا أستطيع يا ابنتي .
الطفلة : اذاً سأهجرك يا أبي .
المتم : كما تشائين يا ابنتي .
القاضي : أبعدوا هذه الطفلة ، وليتقدم الطفل . (الطفل يتقدم ببطء واعياء) .
المتهم : يا طفلي الصغير الحبيب .
الطفل : أرجوك يا أبي ، أريد أن أنهي محاكمتي بهدوء .
المتهم : آه يا طفلي الصغير البائس .
الطفل : لا شيء تتحدث عنه يا أبي .
المتهم : ولماذا يا بنيّ ؟ والحياة أمامك تصطخب كالأمواج .
الطفل : سأنتحر هذه الليلة .
الطفلة : نعم ، لقد عضّ شريانه ليلة أمس ، ولكنه بكى من الألم وملأ قفصه صراخاً .
القاضي : لا تصغ اليه أيها الطفل . أتسمع ؟ أنا القاضي وليس هو .
الطفل : ولكنه أبي .
القاضي : انني أرفع لك قبعتي احتراماً وتبجيلاً ، وماذا في الأمر ؟
الطفل : لاشيء . انني أعتذر .
الزوجة : يا الهي ! انه لا ينظر اليّ . انه كوحش صغير في الصحراء .
القاضي : (للطفل) هل أنت مريض ؟
الطفل : لا .
القاضي : هل أنت معافى ؟
الطفل : لا .
القاضي : هل أنت حزين ؟
الطفل : لا .
القاضي : هل أنت سعيد ؟

الطفل : لا .
القاضي : هل تكره أباك وأمك ؟
الطفل : لا .
القاضي : هل تحبهما ؟
الطفل : لا .
القاضي : هل تريد أن تخرج وتلهو مع رفاقك الصغار في الشارع ؟
الطفل : (يندفع صارخاً ومنتحباً ويقبل قدمي القاضي) نعم يا سيدي . انني أقبِّل قدميك ، ولكن لا تعدني اليه . سأعطيك طابتي وطوقي هذا ، ولكن لا تعدني اليه . (يظل الطفل مكباً على قدمي القاضي) .
القاضي : انهض وأقسم على الكتاب المقدس أنك تقول الحق .
الطفل : (ينهض ويضع يده على المحبرة) .
القاضي : (صارخاً) يا لك من أبله وماكر . لقد أدركت نواياك . هذه محبرة وليست كتاباً مقدساً . ألا تعرفها ؟
المتهم : أرجوك ، لا تزجره يا سيدي : انه ليس الا طفلاً صغيراً ولا يعرف شيئاً ؛ قضى كل حياته في المعتقلات . حتى لو سألته عن ثدي أمه هذا لن يعرفه ، سيظنُّه دمَّلة أو نتوءاً من اللحم .
الحاجب : (يدخل فجأة ويخاطب القاضي وهو يقضم تفاحة حمراء بأسنانه) اقرأ قرار المحكمة أيها القاضي .
القاضي : (بعد أن يأخذ وضعية القاضي) باسم الشعب :

نظراً للافادات والوقائع الدامغة في الجريمة النكراء موضوع الدعوى ، وبعد الاستماع الى كافة الشهود والمحامين ، وتمحيص مختلف الاضبارات والاستمارات ، وبناء على اعتراف المتهمين جميعاً اعترافات صريحة واضحة لا لبس فيهاولا ابهام ، قررت المحكمة اعدام المتهمين شنقاً تحت شجرة خريف جرداء في ليلة عاصفة . أما الطفلان الصغيران ، فسيعدمان نظراً لصغر سنهما ببندقيتين صغيرتين .

الحاجب : ليؤخذ المتهمان الرئيسيان ، ولتدخل فرقة الرمي الوطنية .

(تقفر القاعة من الجميع ، ويبقى الطفلان كدمعتين صغيرتين في صحراء العالم . ينظر واحدهما للآخر ، وهما متشابكا الأيدي . ثم تظلم القاعة فجأة ، وتهب رياح قوية تحطم زجاج النوافذ وتلقي بشظاياها على الصخور ، بينما تتأرجح الستائر وتتألق بألوان نارية داكنة . ويسود القاعة جو لا يحتمل من الرعب والغبار والأعشاب اليابسة) .

(تدخل فرقة الرمي وتشكل نصف دائرة حول الطفلين الفزعين ، بعد ان يحزما جيداً الى خشبتين متجاورتين ، وقد أخفى كل منهما طابته خلف ظهره ، وهو ينظر برعب حقيقي الى فوهات البنادق وفجأة تدوي طلقات الرصاص وتهتز أركان الغرفة هزاً بكل ما فيها . تخرج فرقة الرمي ، ويبقى الطفلان مضرجين بالدم ، وقد تدلى رأس كل منهما على صدره . وتدحرجت طابته بهدوء على الأرض . ثم تهب ريح قوية أخرى محملة بالغبار والأشواك وأوراق الصحف ، يرفرف خلالها عصفوران غريبان ثم يحط كل منهما على خشبة) .

الريح : في الشرق أو في الغرب
في زمن المصاعد الجامحه
أو الخيول المكبّة على قوائمها
في الليل أو في النهار
قبل تناول الافطار وبعد تناول المسكّنات

بين عظام القراصنة
والعيون المفقوءة بين الرمال
ستنبت أزهار صغيرة كأسنان الأطفال
أزهارمقسومة الظهر
تحمل فوق عبيرها المتواري
حضارات بائسة وقتلة ممزقين بالأظافر
كما تُحمل الطابة فوق الماء
ماءٌ مشردٌ وحزين
سنحفر مصبّه في أعمق أعماق الأرض
لا بالسبابات ورؤوس المظلات
ولكن بالأهداب وأطراف السلاسل . .

عصفور : اذا نبتتْ زهور ما . . .
العصفور الآخر : قد لا تنبت زهور ما .

(ستار)

المهرّج

(مسرحية في ثلاثة فصول)



الفصل الأول



صباحُ شتائيٌ مبكّر في حي شعبي قديم . يتناهى من بعيد صياح ديكة وصرير عجلات تقترب مع قرع طبل وصناجات رقص وكل الضجة التي تسبق فرقة مسرحية متجولة تضم شرذمة من أدعياء الفن ، سدّت في وجوههم أبواب الحياة فقرعوا باب الفن حتى « خلعوه » وهم في سبيل جمع المال لا يتورعون عن تشويه أرقى النصوص المسرحية ومسخ أبرز الشخصيات التاريخية وكل ما من شأنه تملّق الجمهور وتلبية رغباته الأنيقة المرتجلة . ويدير الفرقة قارع طبل نصف أمي يستخدم في تقديم البرامج ميكروفوناً يتدلى منه شريط كهربائي مقطوع كتأكيد غير مباشر على عدم ارتباط الفرقة بأية غاية سوى إضحاك الجمهور ، أما أسلوبه فهو أشبه بأسلوب المذيع المحترف وهو ينقل مباراة رياضية أو حفلاً خطابياً من خارج الاستديو . منذ أن تسمع ضجة الفرقة تنفتح الأبواب ويتوافد سكان الحي وهم بين النوم واليقظة فهذا بثياب النوم وذاك يجفف وجهه بمنشفة وآخر لم ينه ارتشاف الشاي على المائدة وتظهر البهجة على الوجوه عندماتظهر العربة الملونة بما تكدس عليها من ثياب التمثيل وكراسي الزبائن وكأنها شجرة ميلاد متحركة ، وعلى متنها راحت الممثلة الأولى والوحيدة في الغرفة ترقص وتتمايل .

قارع الطبل : أيها الزبائن الكرام . . أيها الجمهور الكريم

زبون : السلام عليكم .

قارع الطبل : وعليكم السلام (مستأنفاً خطابه) لقد كان المسرح . .

زبون : صباح الخير .

قارع الطبل : صباح النور . . . . أهلاً وسهلاً (مستأنفاً) لقد ظل المسرح

(يقاطعه مدرّس لغة عربية عجوز نكدالخلقة والوجه وفد لتوه ليجلس في المقهى المجاور لمكان التمثيل ومعه رزمة من الدفاتر) .

المدرس : فنٌّ منذ الصباح الباكر ؟

قارع الطبل : وماذا تريد منذ الصباح الباكر فولٌ بالزيت حمص بالبصل ؟

الممثل الأول : جاهل !

قارع الطبل : متخلّف (مستأنفاً خطابه للزبائن وقد أخذ عددهم يزداد) لقد ظل المسرح لسنوات طويلة عجاف على هامش الحياة . . على هامش الشعب . . إلى أن قُدّر .

صاحب المقهى : انكم تسدون باب المقهى .

قارع الطبل : بل نرفع من مستواه .

صاحب المقهى : سأرفع عليكم دعوى . . بمجرد أن تفتح المحكمة .

الممثل الأول : جاهل !

قارع الطبل : متخلف (مستأنفاً خطابه) الى أن قُدّر لنفر من الشباب المتمرس بالفن ، المخلص لقضيته ومبادئه أن يعيد للمسرح (مرحباً بزبون جديد) أهلاً وسهلاً . . كرسيّ للأخ كرسي للأستاذ .

الممثل الثاني : حاضر (يقدم له كرسياً من العربة ، وهو عمله الدائم قبل بدء التمثيل) .

قارع الطبل : أن يعيد للمسرح مكانته ويرد له اعتباره من أجل الشعب ومصالح الشعب .

الممثل الأول : اذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلابد أن يستجيب القدر

الممثل الثاني : ولابد لليل أن ينجلي

ولابد للقيد أن ينكسر (تصفيق)

صاحب المقهى : اذهبوا الى مكان آخر (يبعد كراسي الفرقة اذهبوا الى ساحة ثانية .

قارع الطبل : دع هذه الكراسي مكانها .
الممثل ١ : إنها كراسي الشعب .
الممثل ٢ : نشرِّفك اذ نمثل الروائع أمام مقهاك التعس هذا .
صاحب المقهى : اذهبوا قبل أن تثور ثائرتي .
الزبائن : دعونا نسمع . لا نرى شيئاً . دعونا نفهم .
قارع الطبل : نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا .
صاحب المقهى : (يخلع حذاءه مهدداً) ستخرج بهذا الحذاء .
الممثل الثاني : حذار إنه مدير الفرقة .
صاحب المقهى : (ساخراً) كان حمالاً يحمل الصناديق وغيرها .
قارع الطبل : أما الآن فأنا حامل مسؤولية .
الممثل الأول : حامل حضارة .
زبون : دعهم ، من تظن نفسك ؟
زبون : إنهم فنانون .
صاحب المقهى : بل دجالون كلما استخدمت أحداً لمساعدتي في المقهى لعبوا برأسه وأخذوه ممثلاً . هذا كان في الوجاق ، وذاك يقدّم النراجيل وهذا .
الممثل الثاني : نحن أحرار .
الممثل ١ : كنا ضالين ووجدنا طريقنا .
صاحب المقهى : هنيئاً لكم بهذا الطنبر (يدخل الى مقهاه) .
الممثل ١ : جاهل .
قارع الطبل (مستأنفاً الخطاب) وأهمية هذه الظاهرة أن القائمون عليها .
المدرس : (محتجاً) إن القائمين . . القائمين عليها . . وليس القائمون .
قارع الطبل : (منصاعاً تحاشياً لاصطدام جديد) إن القائمين عليها رفضوا بهرج الدنيا وزخرف الحياة وتعلقوا بأهداب الفن .
صاحب المقهى : لم تكن ساعة خير بالتأكيد .
زبون : اسكت .
قارع الطبل : اخرس (مستأنفاً) فليس عندهم ستائر وتذاكر وشباك

تذاكر . ليس عندهم إلا الشعب والايمان بالشعب .

زبون : « مصفقاً » واحد قهوة .

قارع الطبل : واحد قهوة للأستاذ (مستأنفاً) وبدلاً من ان يذهب الشعب الى المسرح جعلوا المسرح يذهب الى الشعب (تصفيق) فنحن . .

الممثل ١ : فنحن لم نشيد مسرحاً ؟ مكان ثابت . لأن هذا المكان أو هذه الأرض قد تستغل في زراعة حقل أو إقامة مصنع . . (تصفيق) كما اننا

الممثل ٢ : كما اننا لم نستخدم الستائر لأن هذه الستائر قد يستفاد منها في تضميد الجراح وستر العراة وتكفين الشهداء .

قارع الطبل : فإلى جيوبكم أيها الاخوان المواطنون وتمتَّعوا معنا بالقول الجميل والفن الأصيل الفن الذي يخدم الشعب .

الممثل ١ : وأهداف الشعب .

الممثل ٢ : عاش الشعب (تصفيق) .

قارع الطبل : لأننا كفنانين نعرف ماذا يريد فعلاً هذا الشعب (تصفيق)

زبون : (مصفقاً لغاية أخرى) أركيله .

زبون : طاولة زهر .

قارع الطبل : (مزدرداً لعابه) يريد ثقافة حية ومسرحيات تعالج همومه ومشكلاته (تصفيق وورود زبائن جدد) أهلاً وسهلاً . . كراسي للاخوان . بسرعة بسرعة (مستأنفاً) ويسرُّنا بهذه المناسبة أن نبدأ برنامجنا لهذا اليوم بواحد من أعظم كتَّاب المسرح في العالم . ألا وهو شكسبير وبمسرحية من أعظم المسرحيات في العالم الا وهي مسرحية عطيل (تصفيق) وسوف تشاهدون هذه المسرحية بحلة جديدة مشعة وأسلوب لم يطرق من قبل أبداً كل ذلك بفضل نخبة من الشباب المتمرد الطليعي الثائر (الممثلون ينحنون للجمهور) .

صاحب المقهى : انهم قمامة .

قارع الطبل : اخرس (مستأنفاً) وسيقوم بدور عطيل ممثل شاب قفز (يقفز

من بين أكوام الثياب على العربة الممثل الأول في الغرفة وينحني للجمهور) اسمه بسرعة وأصبح خلال شهور من ألمع نجوم المسرح . أما دور ديدمونه فستؤديه ممثلة نابغة رضعت الفن منذ نعومة أظفارها (تقفز الممثلة الأولى وهي ترضع مصاصة أطفال في فمها وتحيي الجمهور) أما الديكور ورسم الشخصيات فسوف يقوم بها جميعاً الفنان العظيم (يقفز الرسام وهو يحمل سطلاً وفرشاة ينحني للجمهور ويبدأ بطلي الممثلين) الذي بدأ حياته رساماً كلاسيكياً ثم انتقل من المدرسة الكلاسيكية الى التعبيرية فالواقعية فالتجريدية وهكذا الى ان أصبح أعظم طرّاش في البلد يتهافت عليه البناؤون في كل مكان . . أيها الأخوة . . (تصفيق) أيها الأخوة المواطنون . . وبما أننا في عصر السرعة ووقتنا من ذهب .

زبون : يشخر بصوت مسموع .

زبون : يسحب نفساً مدوياً من نارجيلته .

قارع الطبل : (متجاهلاً هذا الجواب ـ الصفعة ـ ولأن وقتنا من ذهب فلن نقدم المسرحية بكاملها ، بل سنكتفي بفصل واحد منها ، وهو الفصل المتعلق بالغيرة (الممثلون يصفقون) لأن الغيرة أيها الأخوة من أهم الأخطار التي تواجه أمتنا في الظروف المصيرية الراهنة (الممثلون يصفقون) فإلى مشهد الغيرة الخالد . في مسرحية عطيل الخالدة (الجمهور والممثلون يصفقون بينما ينزوي قارع الطبل ويفسح مجالاً للتمثيل . . صمت ونحنحات وأصوات نراجيل ثم يسلط الضوء على الممثل الأول في دور عطيل وقد أخذ يشد من قامته ويتشنج محاولاً بطريقة مضحكة ومبتذلة تقمص شخصية عطيل كقائد يسير بغطرسة وتوتر وكأنه بلا مفاصل . . وسيطلق عليه من الآن وصاعداً اسم المهرج) .

المهرج : أيها الليل . . أيها النهار ، اشهدوا على حبي لـ.يدمونه .

المدرس : (محتجاً) اشهدا . . اشهدا . .

المهرج : أيها الليل أيها النهار ، أيها العصر أيها المساء اشهدا على حبي .

المدرس : (محتجاً) اشهدوا . . اشهدوا . .
المهرج : (منفعلاً) أيها الليل ، أيها النهار . أيها العصر ، أيها المساء اشهدا ، اشهدوا على حبي لديدمونه . ساعدوني على تحمّل فراقها وأنا ماض الى المعركة . . كاسيو كاسيو .
الممثل الأول : (يظهر بشخصية كاسيو) أمر مولاي .
المهرج : ساعدني يا صديقي أنجدني ببعض الشعر . . ببعض الصلوات التي لم ترتل الا للملائكة لأرتلها على مسامع ديدمونة تلك الزهرة العطرة والحمامة الوديعة والفراشة التي لم تعرف نابولي .
الممثل الثاني : (هامساً من زاوية ما) البندقية .
المهرج : البندقية مثيلاً لها في الحب والاخلاص والوفاء .
الممثل الأول : إنك تبالغ في ثقتك بها يا مولاي ولا ترى أبعد من أنفك .
المهرج : (يمسك أنفه) أنفي ؟
الممثل الأول : نعم يا مولاي . فديدمونه ليست مخلصة لك كما تتوهم .
المهرج : ماذا تعني يا عزيزي كاسيو .
الممثل الأول : أعني انها تحب شخصاً آخر .
المهرج : من ؟ أبوها ؟
الممثل الأول : لا .
المهرج : أمها ؟
الممثل الأول : لا .
المهرج : (بعصبية) أخوها عبدها كلبها من تحب اذن ؟
الممثل الأول : شخصاً آخر لا يمت اليها بصلة الا بشفتيه وذراعيه و . .
المهرج : (يصفعه) كاذب . كاذب . الرعد يبرهن على قدوم الشتاء . والليل يبرهن على غياب الشمس فبرهن على خيانتها يا وجه النحس (الجمهور يضحك) .
الممثل الأول : (يخرج من عبه منديلاً) هذا هو البرهان .
المهرج : (يخطف المنديل ويشمه ككلاب الأثر) منديلها . منديل ديدمونه . أين وجدته ؟ أين عثرت عليه ؟ تكلم .

الممثل الأول : مولاي . .

المهرج : تكلم وإلا طار رأسك الى روما .

الممثل الأول : في منزل عشيقها . كانت زوجتي تقوم على خدمة المنزل وترتيبه بعد معركة ضارية في السرير على مايبدو . فعثرت عليه .

المهرج : (شاهراً خنجره) ما اسمه ؟ ما اسم هذا المرحوم سلفاً ؟

الممثل الأول : مولاي . ليس من طبعي اثارة المتاعب للآخرين .

المهرج : تكلم وإلا مددت يدي الى حلقك كالقابلة وانتزعت الاعتراف كاملاً . من هو ؟ ما اسمه ؟

الممثل الأول : اسأل ديدمونه . فعندها الخبر اليقين (ينزوي جانباً) .

المهرج : ديدمونه . . ديدمونه .

الممثلة : (تظهر ملبية النداء وهي بثياب عصرية ، تعلك لباناً وتؤرجح حقيبتها ـ الجمهور يصفق لها فتبسم له ثم تنصرف لأداء دورها) هل تناديني يا مولاي ؟

المهرج : أين كنت حتى الآن ؟

الممثلة : (مترددة) كنت . .

الزبائن : بالسينما . . عند الخياطة . . عند الكوافير .

الممثلة : (للجمهور) وحمّى .

المهرج : (للجمهور أيضاً) رجاء يا اخوان (للمثلة) حديث مع الجمهور أين كنت أين ؟

الممثلة : في الحديقة . هل تريد شيئاً مني ؟

المهرج : (يفتعل العطاس) مصاب بزكام . . أعطني منديلك .

الممثلة : (تبحث في حقيبتها) أين اختفى ؟

المهرج : (يعطس) بسرعة . . بسرعة ألا ترين أنفي كالمزراب .

الممثلة : استعمل كلينكس (تقدم له منديل ورق) .

المهرج : (يلقيه أرضاً) أريد المنديل . . المنديل المطرز بالورود والرياحين . منديل عرسنا يا ديدمونه .

الممثلة : لا أعرف أين اختفى . ربما سقط مني في الحديقة .

المهرج : في الحديقة أم في سرير عشيقك يا خائنة (يصفعها) .

الممثلة : عطيل !

المهرج : (يكرر الصفعة) يا عاهرة .

الممثلة : (وهي تتراجع مذعورة أمام أصابعه الممدودة لخنقها) مولاي . ضع عقلك في رأسك .

المهرج : سأضعك في القبر يا عاهرة يا خائنة يا عميلة (ترتمي بين ذراعيه مدّعية الموت فيصفق الجمهور ويصفّر طرباً وانسجاماً بينما يدخل الممثل الثاني بلباس جندي محارب ومن الخارج يتناهى وقع حوافر وصهيل جياد وقعقعة سيوف) .

الممثل الثاني : مولولاً . الأعداء على أبواب البندقية . والجيش بانتظارك .

المهرج : (نائحاً مولولاً) اخرج . اغرب عن وجهي أيها الوغد . لا أريد أن أحارب . لا أريد أن أكافح بعد الآن . . سأهيم على وجهي في الفلوات (يتلمس طريقه كالأعمى وهو ينوح وسط تصفيق الجمهور وصيحات اعجابه) .

قارع الطبل : (مستغلاً حماس الجمهور لهذه الفترة من البرنامج) وهكذا أيها الأخوة رأيتم بأم أعينكم ما تفعله الغيرة في النفوس وما تلحقه من ضعف وخدر في الهمم والعزائم .

المهرج : (فوق جثة ديدمونه) آه يا حبيبتي . . ويا قرة عيني .

قارع الطبل : فبينما كان عطيل . . هذا البطل المغربي الشجاع يستعد للذهاب الى الحرب ، والنضال ضد الاستعمار ، لم يجد أعداء هذه الأمة سوى هذا الأسلوب الرخيص ، أسلوب الغيرة لصرفه عن واجبه (وهو يشير الى المهرج الذي حمل الجثة بين يديه وخرج بها مولولاً) انظروا الى هذا المغربي الشجاع ، هذا الفارس الذي كيف انقلب من قائد صنديد لا يهاب الموت الى انسان مسحوق لا يقوى على شيء .

زبون : عاش نضال الشعب المغربي البطل .

أصوات : عاش . عاش . عاش .

قارع الطبل : ولكن من المسؤول أيها الأخوة عن هذه .
زبون : عاش الشهيد المهدي بن بركة .
أصوات : عاش . عاش . عاش (تصفيق) .
قارع الطبل : ولكن من المسؤول عن هذا المصير المؤلم الذي لقيه هذا البطل المغربي الشجاع ؟ من دمر حياته وحرمه من بيته وزوجته وطمأنينته ؟
زبون : شكسبير . . شكسبير .
زبون : يسقط الكاتب الاستعماري شكسبير .
أصوات : يسقط . يسقط . يسقط .
قارع الطبل : نعم أيها الأخوة . انه شكسبير . هو المسؤول عن هذه المأساة التي حلت ببطلنا العربي الخالد عطيل . ولكن . ولكن علينا ان نسأل من يقف وراء شكسبير هذا ؟ من القوى التي تسانده وتقف وراءه ؟
صوت : بريطانيا . . بريطانيا .
أصوات : تسقط بريطانيا . . تسقط . . تسقط . . تسقط .
قارع الطبل : نعم بريطانيا أيها الأخوة . . ولكن علينا أن نسأل أيضاً من يقف وراء بريطانيا ؟
أصوات : أميركا . . أميركا .
قارع الطبل : (وسط التصفيق والتهليل) نعم أميركا أيها الأخوة . القواعد الذرية ، طائرات الفانتوم .
صوت : يسقط حلف الأطلسي .
أصوات : يسقط . يسقط . يسقط .
قارع الطبل : وهكذا كنتم أيها الأخوة المواطنون مع فصل أليم . . من فصول الاستعمار . . فصل ظهرت فيه . .
صوت : هتاف لا علاقة له بالموضوع .
أصوات : يسقط . . يسقط . . يسقط .
قارع الطبل : (مستأنفاً) ظهرت فيه النوايا الاستعمارية في أبشع صورها

وأحطَّ أهدافها (تصفيق) ولكن . . ولكن أيها الأخوة . . هل علينا لأن نستسلم أن نيأس . . ؟ أبداً أيها الاخوة . لن نستسلم ولن نيأس مادام تاريخنا غنياً بالبطولات والمكارم زاخراً بالقيم والمعاني ويسرُّ فرقة المسرح الجوال المناضلة والمنافحة من أجل أهدافه وأمانيه أن تقدم لجمهورها الواعي المثقف صفحة حية من تاريخنا المجيد . . فعطيل ليس البطل الوحيد في تاريخنا . . فحيثما قلّبنا صفحات ذلك التاريخ . .نجد البطولات تزحم البطولات ، والقائد يزحم القائد . فمن أين نبدأ أيها الأخوة ؟ من أين ننهلُ . . والله لا أعرف . . أبو عبيدة الجراح . . خالد بن الوليد .

زبون : الحجاج .

زبون : أبو جعفر المنصور .

قارع الطبل : أبو جعفر المنصور ، أبو ذر . . أبو تمام .

أصوات : هارون الرشيد . . هارون الرشيد (تصفيق) .

قارع الطبل : نعم أيها الأخوة هارون الرشيد ، هو خير من يمثل العدالة العربية والشهامة العربية في أزهى حللها وأجمل مشاعرها . . فإلى العدالة العربية والشهامة العربية أيها الأخوة المواطنون . . الى (بصوت مرتفع متحمس) هارون الرشيد (ينسحب عن المسرح ليخليه للمهرج وقد ظهر بقناع يمثل هارون الرشيد فيتعالى التصفيق والضحك والصفير . ثم يجلس الى طاولة عامرة بأصناف الطعام فيبدأ بالتهامها بشراهة تدعو للمزيد من الضحك) إن سعادته كما ترون ينكبُّ على طعامه باهتمام بالغ كما هي عادته كلما كان على وشك النظر في قضايا الشعب قضايا الجياع والمظلومين (ينسحب قارع الطبل نهائياً ويرين الصمت استعداداً للمشهد الجديد) .

الممثل الثاني : (بلباس خادم عباسي) مولاي . في الباب اعرابي يطلب المثول بين يديك ، فهل أقول له لبيك ؟

المهرج : (وفمه مملوء بالطعام حتى نهاية هذا المشهد) إليّ به في الحال .

الممثل الثاني : أيها البدويُّ تعال .

الممثل الثالث : (متقمصاً شخصية اعرابي فقير يدخل ويرتمي عند قدمي المهرج) مولاي . ليس لي إلاّك يرأف بحالي . ويردّ لي ما ضاع من مالي .

المهرج : قصتك باختصار وبالتفصيل .

الممثل الثاني : فسعادته لا يحب الثرثرة والتطويل (المهرج يومئ برأسه ايماءات مضحكة) .

الممثل الثالث : مولاي . كنت لسنوات خلت ، فتى عربياً غض الإهاب ، موفور الصحة لا أدخل من شباك أو باب وعندي . .

المهرج : وبعد ؟

الممثل الثالث : وعندي مال وجواري ، ونوق تسرح في الوهاد والبراري . .

المهرج : وبعد ، وبعد ؟

الممثل الثالث : أناخ الدهر علي بكلكله ، فحرمني من مشربه ومأكله ، حتى صرت من الضعف والهزال ، أمرق والله من ثقوب المنخل والغربال .

المهرج : وبعد ، وبعد ، وبعد ؟ (الجمهور يضحك) .

الممثل الثالث : حط بي الزمان عند تاجر كالثعبان .

المهرج : والتتمة ؟

الممثل الثالث : رجل بلا ذمة ، بلع أجرتي ، وأهان كرامتي ، وشردني ما بين الموصل والبصرة لا أملك والله إلا عكازاً وصرّه .

المهرج : وخلاصة الكلام ؟

الممثل الثالث : علي وعلى عائلتي السلام . فعندي تسعة أطفال وزوجة لسانها متران ، وهم ينتظرون اشارة من يدك الكريمة ترد حقنا وكفاف يومنا ، وإلا صرنا للكلاب وليمة .

المهرج : (متنفساً الصعداء) أعطوه ألف دينار .

الممثل الثالث : شكراً يا مولاي .

المهرج : واقطعوا رأسه لانه ثرثار (تصفيق) .

الممثل الثالث : (فزعاً) مولاي (يظهر السياف ويقبض على المظلوم

ويسوقه أمامه وهو يصرخ) الرحمة . . الرحمة (يغيبان ثم تنطلق صرخة مروعة يعقبها تصفيق وصفير وتهليل من الجمهور) .

المهرج : (يصفق منتشياً) والآن إليّ في الحال براقصة ذات غنج ودلال (تدخل على الفور الممثلة بثياب جارية وترقص أمام المهرج على الأنغام التي يعزفها أحد الممثلين وهو يغني أغنية شعبية غرامية سرعان ما يشارك الجمهور في ترديدها والتصفيق لها طرباً واستحساناً) .

قارع الطبل : وهكذا أيها الأخوة كنتم مع العدالة العربية والكرم العربي في أبهى صورة وأروع شكل مع صورة مشرقة من تاريخنا حيث أخذ الحق مجراه فوراً دون مناقشات ومداولات قد تستمر الشهور والسنوات . رأساً أنصف المظلوم وعوقب الظالم ، بأسلوب كله خفة ومجد ومكارم (يختفي الممثلون ويرتفع تصفيق الجمهور) .

زبون : واحد شاي .

قارع الطبل : ولكن أيها الأخوة .

زبون : (ينقر على نارجيلته) نارة . نارة .

قارع الطبل : ولكن أيها الأخوة المواطنون . هل استمرت الأمور على هذه الحال ؟ أبداً أيها الأخوة ، فما ان مات هارون الرشيد وتولى الخلافة ابنه الأمين ذو النزعة العربية الصادقة والروح القومية الخالصة ، حتى جن جنون الاستعمار الفارسي . وراح يتهمه بالشوفينية ويحرّض عليه الأتباع والقبائل . مستفزاً أخاه المأمون . منتصراً له . لماذا أيها الأخوة ؟ لمجرد أن امه فارسية . وسرعان ما دب الخلاف واندلعت الحرب ، وسالت الدماء وحل الفقر والجوع والخراب . والاستعمار الفارسي موغل في تآمره ، ناشط في كيده لهذا الشعب ، لهذه الأمة .

زبون : تسقط الرجعية الايرانية .

أصوات : تسقط . تسقط . تسقط .

قارع الطبل : ولكن أيها الأخوة . .

زبون : عاش الدكتور .

أصوات : عاش . عاش . عاش .

قارع الطبل : ولكن خاب ظن الاستعمار ، فهذه الأمة كلما كبت نهضت ، وكلما تعثرت استقامت . فما هي إلا سنوات ، حتى عاد الاستقرار من جديد يعم الأرض العربية والحضارة العربية بفضل ما تنجبه البطون الحوامل من قادة وفرسان بطولاتهم على كل شفة ولسان . فمن منا لا يفخر بالغافقي ، وعقبة وطارق . . انهم . .

زبون : وصقر قريش ، صقر قريش (تصفيق طويل) .

أصوات : صقر قريش . . صقر قريش .

قارع الطبل : نعم أيها الأخوة ، وصقر قريش أيضاً واحد من هؤلاء الأبطال . هؤلاء الفرسان الذين أسسوا الدولة العباسية .

المدرس : الأموية . . الأموية .

قارع الطبل : الدولة الأموية في بغداد .

المدرس : في الأندلس ، في الأندلس .

قارع الطبل : في بغداد ، في الأندلس ، في كل مكان (تصفيق) وصقر قريش أيها الأخوة ، خير ما نختتم به برامجنا المسرحية لهذا اليوم (تصفيق) حتى نستعيد ثقتنا بأنفسنا ، بماضينا ، بمستقبلنا ، فالى البطولة العربية والى الشجاعة العربية في أروع صورها وأبهى حللها . .الى صقر قريش (ينزوي جانباً وسط التصفيق والتهليل ، ويظهر المهرج منتحلاً شخصية صقر قريش انتحالاً مروعاً . الكوفية والعقال فوق البنطلون ويبالغ في التقطيب والتشنج ليؤدي دور القائد الحازم كما يفهم الحزم بحيث يبدو كيوسف وهبي في فيلم كرسي الاعتراف فيضج الجمهور بالصفير والضحك) .

المهرج : يا غلام .

الممثل الثاني : أمر مولاي .

زبون : (محتجاً) صقر قريش بالبنطلون ؟ يا لها من مهزلة .

قارع الطبل : رجاء يا اخوان .

المهرج : (كاتماً غيظه) يا غلام .

زبون : انها مهزلة . . وبنطلون شارلستون أيضاً .

المهرج : (متحدياً) بالبنطلون ، وبالشورت أيضاً . أنا حر أفعل ما أشاء
(يضع قبعة شابو على رأسه فوق العقال فيضحك الجمهور لمنظره)
هه . أيعجبك هذا (مستأنفاً التمثيل) يا غلام .

الممثل الثاني : نعم . نعم يا مولاي .

زبون : وصقر قريش كان أرمداً ؟

المهرج : وهل أنت طبيب ؟

زبون : هذا معروف .

المهرج : (يضع نظارات شمسية على عينيه فيتضاعف ضحك الجمهور)
تفضل (للممثل الثاني) هل من أحد سأل عنا ؟

المدرس : (محتجاً) هل من أحد . . أحد .

المهرج : هل من أحد سأل عنا ؟

الممثل الثاني : رسول من شارلمان .

المهرج : من شارلمان ؟ ليدخل (يجلس خلف طاولة مكتب ويلف ساقاً
على ساق ويتصفح جريدة يتظاهر بأنه يعبئ مركزه) .

(يدخل الرسول حاملاً رسالة على شكل اسطوانة كبيرة من الورق) السلام
عليك يا أمير المؤمنين .

المهرج : (يخطف الرسالة بنزق ويلقي عليها نظرة ثم يصرخ) هدنة شهر ؟
يطلب هدنة شهر ؟ يا للوقاحة (يتمشى متصنعاً الغضب والاهتمام) .

رسول شارلمان : إنه يرجوك ويلحف بالرجاء يا مولاي .

المهرج : حتى لو قبّل حذائي هذا (يضحك الجمهور عندما يرى حذاءه
المثقوب) لن ينال يوماً واحداً .

رسول شارلمان : شهر واحد فقط ؟

المهرج : قد أمدّد الشهر الى شهرين والسنة الى سنتين ، ولكنني لن أمدّد
الهدنة يوماً واحداً . وسأهاجمه كالغضنفر ما بين أيلول وسبتمبر .

زبون : (مندهشاً) ولكنه نفس الشهر .

المهرج : اخرس .

رسول شارلمان : سوف يصعق لهذا الجواب .

المهرج : لينفلق . ليضرب رأسه بالحائط (متفجعاً) لأنني لن أنسى أبداً ما فعله بلواعج روحي ، عندما حرمني تلك الجارية التي فتنت قلبي وسلبت لبي . الجارية كهرمان . ولكنه تزوجها وأنجب منها .
المهرج : (باكياً) آه منها . بسببها لا أنام الليل والنهار ، كأن في قلبي فلفل وبهار .
المدرس : (محتجاً) فلفلاً . فلفلاً . انها اسم .
المهرج : اخرس .
رسول شارلمان : ولكنه يجهل ذلك يا مولاي .
المهرج : يجب أن يعرف . عليه أن يعرف . هو وكل قادة الأمم والبلدان ، انني في حبها هيمان (شاهراً سيفه) ومن أجلها سأخوض حرباً تحرق الأخضر واليابس ومعركة أين منها الغبراء أو داحس .
رسول شارلمان : حكم العقل يا مولاي .
المهرج : لن أحكّم الا هذا السيف (يحاول إرعاب محدثه) أكتب أيها الكاتب (الممثل الثالث يستعد للكتابة) اكتب : أيها الكلب الحقير شارلمان . .
رسول شارلمان : مولاي .
الممثل الثاني : لا يجوز .
المهرج : اخرس . اخرسا (للجمهور الضاحك) اخرسوا . نعم انه كلب حقير ومتآمر اكتب : طالما الموضوع معلقاً بيننا .
المدرس : (محتجاً) غلط ، غلط . طالما أن الموضوع معلقٌ .
المهرج : اخرس . طالما الموضوع معلق .
المدرس : غلط ، غلط . طالما لا تدخل على الاسم . لا تدخل .
المهرج : (متحدياً) بل تدخل .
المدرس : (ينهض عن كرسيه ويتقدم متحدياً أيضاً) لا يمكن أن تدخل لا يمكن .
المهرج : واذا دخلت ماذا يحدث ؟
المدرس : تنهار قواعد اللغة .

المهرج : (يهجم عليه) الى جهنم وبئس المصير وهل هي قواعد صواريخ (يضحك الجمهور بحماس) .

المدرس : لا يمكن أن تدخل مستحيل . أوقفوا التمثيل . طالما لا تدخل على الاسم .

المهرج : بل ستدخل رغماً عن أنفك «يقبض على عنقه» هل هي أختك ، أمك . . ما علاقتك بها ؟

المدرس : النجدة . . النجدة (الجمهور يضحك) .

المهرج : هناك أناس يدخلون السجون والمستشفيات كل يوم وكل دقيقة ، فهل تهتز منك شعرة ؟ طبعاً لن تهتز . أما من أجل . .

المدرس : ما علاقة هذا بهذا . . النجدة . .أغيثوني .

المهرج : ومن أجل ادخال كلمة على كلمة تقيم الدنيا وتقعدها . أيها المحنط . . أيها المومياء .

المدرس : إنك تسيء إلى اللغة تنصب الفاعل وترفع المفعول وهذا آه . .

المهرج : سأنصب مشنقتك (يرفعه عالياً) سأرفعك أنت ولغتك وقواعدها المبجّلة الى ما فوق رأسي وأخبطك على الأرض .

المدرس : لا لا . . النجدة . النجدة أغيثوني (المهرج يلقي به بعيداً ويتركه يتأوه ويتوجع مولياً الأدبار ثم ينفض يديه منتصراً ويعود للتمثيل بينما يصفق له الجمهور بحرارة) .

زبون : عاش البطل الخالد صقر قريش .

أصوات : عاش . عاش . عاش .

المهرج : «متابعاً إملاء الرسالة» تابع أيها الغلام . وبخصوص الجارية كهرمان فإني أعلمك دون لبس أو ابهام بأنني «بنبرة رجل عاشق» قد أتخلى عن مملكتي بأسرها ولن أتخلى عن قلامة ظفر من أظافرها . وإنني . .

زبون : هذا تزوير .

زبون : صقر قريش لا يهتم بالنساء .

زبون : لم يكن يهتم أبداً .

المهرج : لانه غبي . أما أنا فسأهتم « متابعاً الإملاء بنبرة عاشقة » وقد أتخلى عن عروبتي . .

زبون : هذا تزوير .

زبون : لا يجوز .

زبون : مستحيل .

المهرج : إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها . . من له اعتراض فليتقدم « متابعاً الاملاء وسيفه بيده »وقد أتخلى عن روحي وحياتي .

زبون : هذا ليس صقر قريش .

زبون : انظروا كيف يتلوّى كالمخنث .

المهرج : سأمشي كما أريد . هه « يمشي متمايلاً كالراقصة فيزداد ضحك الجمهور » هل يعجبك هذا ؟

زبائن : (وسط التصفير وصيحات الاستنكار) هذا تزوير للتاريخ .

زبائن : للحقائق . . .

زَبائنَ : القائد لا يتمايل .

زبائن : لا يتخلّع .

المهرج : اخرسوا . سأمشي على رأسي هه . « يقلب في الهواء » سأرقص سأقفز سأغني كالمجانين « ينفذ هذه التهديدات فوراً » وسأخطئ في اللغة كما أريد ومن لا يعجبه فليأخذ نقوده ويسهر في المجمع اللغوي « يتابع الرقص ويغني أغنية شعبية معاصرة فينسجم معه القسم الأكبر من الجمهور ويشاركه الغناء والدبكة بينما ينسحب القلة منهم » .

زبون : هذا مهرج . وليس صقر قريش .

المهرج : نعم مهرج . هل هو أفضل من شارلي شابلن ولوريل وهاردي ؟ « يستأنف الرقص والفرقعة بأصابعه وسط حلقة من الجمهور المنسجم مع الموقف » .

زبون : « وهو ينسحب » أؤكد أن صقر قريش يتململ الآن في قبره « يرن الهاتف في المقهى عدة مرات . صاحب المقهى يرفع السماعة والضجة مستمرة » .

صاحب المقهى : الو . . الو . «للجمهور» دعونا نفهم . الو . . نعم (للجمهور) اسكتوا دعوني أفهم (تخف الضجة قليلاً) نعم نعم . . من أنت ؟

صوت من السماعة (يدوي كالرعد) صقر قريش .

(يتجمد الجميع في أماكنهم ويرين صمت مخيف . أما المهرج فقد كسا وجهه الشحوب وهو يرى صاحب المقهى يمد له سماعة الهاتف دون أن يقوى على الكلام .)

المهرج : (متلعثماً) يريدني أنا ؟

صاحب المقهى : (يزدرد لعابه ولا يستطيع الجواب . وبينما يقبض المهرج على السماعة بيد مرتجفة . . يأخذ الجمهور بالتراجع نحو المخارج استعداداً للهرب) .

المهرج : الو . . (صمت) نعم .

(تنطلق من سماعة الهاتف شتيمة (تفو) كطلقة مدفع خلال كاتم للصوت بحيث يجفل المهرج ويمسح عن وجهه رذاذاً وهمياً كما يجفل الجمهور أيضاً) .

المهرج : نعم . نعم . كيف أحضر ؟ بأية وسيلة . . من أين تتكلم .

صوت السماعة : من المقبرة . . من الماضي . . من التاريخ (يدوي الرعد في الخارج ويتسربل الجمهور الهارب مع الممثلين بخطوط متقاطعة من البرق وكأنها حبال من التاريخ بينما يترنّح المهرج مستغيثاً) .

المهرج : ماء . . جفّ حلقي . . كرسي . . شلّتْ قدمي لا تتركوني النجدة . . النجدة (تطوقه خطوط البرق بحيث يصبح كالسمكة داخل الشبكة وتظلم الدنيا) .

(ستار)

الفصل الثاني



فجوة هائلة في التاريخ الموغل في القدم حتى العصر الأموي تعبق منها رائحة الجلال والموت . يتصدّرها مجلس صقر قريش المنعقد لأمر طارئ ، ويضم بالإضافة اليه صديقيه المخلصين عبيد الله وأبو خالد ، ثيابهم البيضاء النظيفة تضاعف من تقطيب الوجوه الملتحية السمراء . أما صقر قريش فعيناه تشعان أكثر من سيفه ودرعه غضباً ونقمة على المهرج المستكين في تابوته خائفاً متضرعاً من هول الموقف ومرارة الاستجواب .

صقر : إذن هكذا كنت أصرّف شؤون الدولة ؟ بالصراخ والشتائم أحكمت قبضتي على عنق أوربا حتى جحظت عيونها من محاجرها .

المهرج : الرحمة يا مولاي .

صقر : لو أن مهرجاً من أحفاد الفرس ، من أحفاد الرومان ، فعل ما فعلت ، وقال ما قلت لما اهتزّ خيط في كفني هذا . أما وانك من لحمي ودمي . حفيد من أحفادي فهذا والله أمر لن أنساه مادام لي شاربٌ تحت أنفي وعقال فوق رأسي (يجلس حانقاً وكأن جسمه ناء بغضبه) .

عبيد الله : (ينهض شاهراً سيفه) أيها المهرج الصغير .

أبو خالد : (يقلد زميله) أيها القنفذ البشري .

عبيد الله : في أية مباءة وضعت شرفك عندما تقمّصت أشجع الرجال وأصلبهم عوداً نائحاً متيّماً كالعشاق ؟

أبو خالد : وعلى أي رف ركنت تاريخك عندما نقلت عن لسانه كلمات وأقوالاً لا يفوه بها إلا الندماء والمهرجون ؟

المهرج : سيدي . . مولاي

عبيد الله : هل تعرف حسبه ونسبه ؟

المهرج : لا

أبو خالد : وهل تعرف خاله وأفعاله ؟

المهرج : لا .

عبيد الله : وهل تعلم كيف وصل الى سدّة الحكم ؟

المهرج : دخل الكلية العسكرية وعمل انقلاباً .

عبيد الله : لا .

المهرج : بالطرق البرلمانية .

عبيد الله : لا لا لا . وصلها في قبر مكشوف عمقه عمق الفرات وطوله طول ضفتيه . كان في العشرين من عمره أرمد العينين حافي القدمين عندما تحدّى بغداد بأسرها . . بكل سيوفها ورماحها وطغيانها (مستفهماً) وهل تعلم من كان يحكم العراق آنذاك ؟ هل تعلم ؟

المهرج : عبد السلام عارف .

عبيد الله : لا .

المهرج : عبد الرحمن عارف .

صقر : (وكأنه يسمع إسم كوكب جديد) من ؟

عبيد الله : لا لا . أبو جعفر المنصور أيها الأبله ولا أظنك تجهل ما يعنيه هذا الاسم . ومع ذلك تحداه وفك حصاره... واخترق الأدغال والكهوف والأنهار... ليبني مملكته بيتاً بيتاً كما تبني الحمامة عشها في الأبراج...

أبو خالد : تصوّر فتى في العشرين من عمره يقف على شواطئ الأندلس وحيداً شريداً ليس في فمه كسرة خبز يتبلغها . وبعد عشر سنين . . كان في فمه مصير العالم (مشيراً بسيفه) هذا هو أميرنا .

عبيد الله : هذا هو قائدنا .

المجلس : هذا هو صقر قريش .

المهرج : (يرتمي مذعوراً على قدمي صقر قريش) الرحمة . . الرحمة يا مولاي .

صقر : (يركله كحصاة) انهض .

المهرج : لم أكن أعلم . لم أكن أدري .

صقر : قلت انهض . لأول مرة أرى جبيناً عربياً بين الأحذية .

المهرج : ولكنه حذاء صقر قريش .

صقر : ليكن حذاء الآلهه .

عبيد الله : انهض قبل أن تصاب الأرض بالعدوى .

المهرج : (ينهض مطوقاً بحلقة من السيوف) مولاي . . هذا عنقي المسكين بين سيوفكم القاطعة . أريحوني منه . اختصروا آلامي وأريحوني .

صقر : إذا كنت جباناً على هذه الصورة ، فلماذا تتحرش بالأسود .

أبو خالد : واذا كنت ذليلاً لهذه الدرجة فلماذا تحاول القفز نحو النجوم .

صقر : دعوه . أتمنى لو وقعت عيني على كلب نافق ولم تقع عليه .

عبيد الله : (ساخراً) ثم ماهذا الشارب الرفيع كذنب الفأر

أبو خالد : (يشده من ربطة عنقه) وهذا الرسن الطويل كرسن الحمار (ضحك وتقهقهات) .

المهرج : مولاي . . انني مجرد ممثل بسيط أردد ما يملى علي .

صقر : كالببغاء ؟

المهرج : نعم كالببغاء .

صقر : من المسؤول اذن عن هذه الافتراءات والأكاذيب ؟

المهرج : المؤلفون ؟ الكتاب ؟

صقر : الكتاب ؟ ومن هؤلاء الكتاب ، لأية قبيلة ينتمون .

المهرج : أنا أعلم ؟ شباب لا أراك الله يا مولاي . يطلقون اللحى والسوالف ، ويتحدثون في المقاهي عن الضياع والتمزق .

صقر : (مستغرباً) ضياع ؟ تمزق ؟

أبو خالد : ماذا يعني هذا ؟

المهرج : متاعب العصر . تعقيدات الحضارة .
صقر : (وقد راح يجنح عن الموضوع الرئيسي) هل عندكم حضارة أيها المهرج .
المهرج : حضارة مخيفة .
عبيد الله : (وقد انتقلت اليه عدوى الاهتمام) كحضارة الروم .
المهرج : أدوه .
أبو خالد : كحضارة الفرس .
المهرج : أي روم وأي فرس . ان الحضارة التي ننعم بها يا أجدادي تفوق أي تصور وأي خيال (الأجداد يتحلقون حوله باهتمام وقد بلعوا المطعم)
صقر : هات حدثنا .
عبيد الله : لا تثر فضولنا .
المهرج : لقد تغير كل شيء وتطور كل شيء . الطعام الشراب ، اللباس ، الكلام ، الحرب ، العلم ، الأدب ، كل شيء ، كل شيء ، تغيّر وتبدل (وكأنه يبوح بسر) عندنا تكنولوجيا .
صقر : تكنولوجيا ؟
الأجداد : (يهمهمون مع حركات واشارات بالأيدي والعيون)
صقر : وماذا أيضاً ؟
المهرج : (يشعل سيكارة فيسعل الأجداد ويتحاشون الدخان بأيديهم) أشياء لا تصدق .
أبو خالد : ما هذا الذي تنفخه ؟
صقر : أهو من الحضارة ؟
المهرج : هذا اختراع بسيط لتخفيف الهموم
عبيد الله : هل سمعت يا أبا خالد
صقر : دعونا نفهم وماذا عندكم أيضاً ؟
المهرج : (وقد اشتعل حماساً بعد أن حرفهم عن الموضوع الرئيسي نهائياً) عندنا عصّارات جزر ماكنات حلاقة طاولات فورمايكا . غسالات فريسكو قداحات غاز ، مراوح توشيبا ، طناجر بريستو ،

ساعات أوميغا ، أقلام شيفرز (يفتح التابوت ويعرض عليهم بعض النماذج الملونة الباهرة للأنظار ، يتكومون حوله غير مصدقين) .

صقر : مخترعات عجيبة .

أبو خالد : أشياء لا تصدق .

المهرج : وعندنا كلونيا ، قمصان نايلون ، بنطلونات شارلستون .

صقر : هل تنعمون أنتم أحفادنا العرب بكل هذه النّعم .

المهرج : طبعاً طبعاً . وعندنا أيضاً بفتيك ، روستو ، همبرغر شاتوبريان ، بوظه توتي فروتي ، شوكالامو . . عندنا سيارات تسير . . طيارات تطير . .عندنا صحف مجلات (يعطيهم رزمة من الصحف والمجلات فيختطف كل واحد جريدة أو مجلة ويغرق فيها) خذوا يا أجدادي خذوا . . واطّلعوا على ما تشاؤون من أنباء الحضارة والتقدم في بلادنا . (يجهز نفسه بهذه المناسبة وكأنه سيرحل) .

صقر : نزول أول انسان على سطح القمر .

عبيد الله : اكتشاف دواء للصرع . .

أبو خالد : الفريق العربي يهزم الفريق التركي بكرة القدم .

صقر : أنباء لا تصدق . . أنباء لا تصدق

عبيد الله : البطل المصري يهزم البطل الانكليزي في المصارعة

أبو خالد : البطل التونسي يهزم البطل الفرنسي في الجمباز

صقر : انه حفيدي

عبيد الله : عازف سوري يفوز بالجائزة العالمية للموسيقى

صقر : انه حفيدي

أبو خالد : حسناء لبنانية تصبح ملكة جمال الكون .

صقر : انها حفيدتي . . انهم أحفادي (يعانق المهرج) شكراً يا بني . . شكراً لقد أثلجت صدري بهذه الأنباء .

المهرج : وعندنا أيضاً أبطال في الملاكمة والباسكيت والبينغ بونغ والشطرنج . . في كل شيء ، في كل شيء . .

أبو خالد : الآن اطمأن قلبي

عبيد الله : وعادت ثقتي بأحفادي

صقر : بوركتم من شعب

المهرج : وعندنا أجمل الألبسة ، وأطيب المأكولات ، وأحدث الحوانيت والفيلات . وقد جئتكم ببعض الهدايا .

صقر : لا لا . وإلا أغمي عليّ . أنباؤك أجمل الهدايا .

المهرج : للذكرى . . للذكرى فقط (يقدم له نظارات شمسية ويثبتها على عينيه)

صقر : (مختالاً بالنظارات) يا الله . . الدنيا سوداء . . سوداء من بعيد .

المهرج : (يقدم ربطة عنق لعبيد الله ومظلة لأبي خالد) للذكرى . . للذكرى فقط .

عبيد الله : (مختالاً بربطة العنق) ما أروعها انظر أبا خالد

أبو خالد : (مختالاً بالمظلة) يا الله . . خيمة ، والله خيمة تحمل باليد .

صقر : اختراعات لا تصدق .

المهرج : وعندنا أيضاً كلينكس . . وعندنا كوتكس .

صقر : يكفي ، يكفي يا بنيّ ان النماذج التي رأيناها والأنباء التي قرأناها تجعلني أكثر زهواً من الطاووس . شكراً أيها الأحفاد .

عبيد الله : أحفاد رائعون

صقر : لا ريب في ان هذه اللحظة من اللحظات المجيدة في تاريخنا

أبو خالد : ولا غرو في ان هذا اليوم سيخلده التاريخ كيوم القادسية .

عبيد الله : ولا مشاحة في أن شهداءنا يبتسمون الآن مطمئنين في قبورهم

المهرج : (بعد أن أصبح مستعداً للرحيل) أفهم من هذا أن ما بيننا من سوء تفاهم قد انتهى

صقر : لقد غفرنا لك وسامحناك

أبو خالد : يا رسول أمتنا من القرن العشرين

المهرج : أجدادي الكرام . انني أنتهزّ هذه المناسبة الخالدة لأعبّر لكم عن عميق شكري وامتناني للحفاوة البالغة التي لقيتها من لدنكم ، ولتفهُّمِكم العميق لظروفي كممثل (يتصنع البكاء) وانني اذ أرحل

عنكم في هذه اللحظة أعاهدكم عهداً قوياً متيناً بأنني سأنقل لأحفادكم في القرن العشرين أجمل تحياتكم وأحرّ أشواقكم . . الوداع يا أجدادي (يعانقهم فرداً فرداً ويتمدد في تابوته ويغلقه بسرعة حيث يحمله أربعة من الأعراب ويخرجون به) .

صقر : الوداع يا حفيدي

عبيد الله : طيّب الله ذكراك

أبو خالد : ترفقوا به . . وسيروا بهدوء .

(يجلس صقر وأبو خالد وعبيد الله في وجوم لهذا الفراق بينما تسمع في الخارج الزغاريد وقرعات الطبول ترافق النعش وتخفت رويداً رويداً مع موسيقى جنائزية)

صقر : كأنه حلم .

عبيد الله : حفيدٌ رائع .

أبو خالد : حفيد مثقف .

صقر : يخيل لي اننا تسرّعنا .

عبيد الله : بماذا ؟

صقر : برحيله .

أبو خالد : فعلاً . لم يكن يضيرنا لو مكث بيننا ليلة أخرى

عبيد الله : أو ليلتين .

صقر : إنني أفكر في أبعد من ذلك (نظرات اهتمام) أفكّر في بقائه بيننا الى الأبد . رجل في مثل موهبته وذاكرته ومعلوماته يجب أن نستفيد منه (ينادي) أيها الخادم . .

الخادم : أمر مولاي

صقر : الحق بحفيدنا الراحل . . وعدْ به في الحال

(الخادم يخرج مسرعاً)

صوت الخادم : أوقفوه . . أعيدوه . .

أبو خالد : فكرة وجيهة

عبيد الله : ولكن أتراه يوافق ؟

صقر : ولم لا ؟ اذا كان ودوداً لأجداده فخوراً بتاريخه . .عليه بالموافقة .
(بحماس مفاجئ كله نشوة) يجب أن نستغله من رأسه حتى أخمص قدميه .
عبيد الله : في أي مجال يا مولاي
أبو خالد : مجالاتنا لا تحصى
صقر : راودتني هذه الفكرة وأنا أودعه . . وأنا أشعر بدموعي تختلط بدموعه .
عبيد الله : دمٌ واحدٌ يجري في عروقنا جميعاً .
أبو خالد : لنعينه مديراً للمقابر العربية ، فروحُهُ المرحة ستبعث فيها الحياة .
صقر : لا لا . حرام أن نبدِّدَ مواهبه في المقابر
عبيد الله : مدير تشريفات . فان فنه وحسن تصرفه وبداهة خاطره تنسجم تمام الانسجام مع هذا المنصب .
صقر : لا لا . مؤهلاتُهُ ليست محصورة في لباسه . انها هنا (يعني في رأسه) وعلينا أن نستغلَّ حتى آخر قطرة ما هو موجود هنا .
أبو خالد : خطرتْ لي فكرة . فكرة جهنمية يا مولاي . مادام حفيدنا ممثلاً بالفطرة بالسليقة . . فلماذا لا نبعث به الى احدى الولايات ليكون ممثلاً لك فيها .
صقر : تقصد والياً ؟
أبو خالد : نعم والياً . انه ثروة من الثقافة والكلام المنمق .
عبيد الله : فكرة جديرة بالتمحيص .
صقر : (موافقاً بحرارة) بل جديرة بالتنفيذ . سأعينه والياً في الحال (ينادي) أعيدوه أوقفوه . . أعيدوه (تقترب ضجة الجنازة العائدة من زغاريد وقرع طبول) سيكون قدوة في الادارة والتنظيم .
عبيد الله : فكرة جليلة .
أبو خالد : انها فكرتي .
(يدخل حاملو التابوت يضعونه على الأرض وينصرفون بينما يتساءل المهرج قبل أن يخرج منه)

المهرج : ما الخبر ؟ لماذا أعادوني ؟
أبو خالد : أخبار سارة .
عبيد الله : مفاجأة .
المهرج : ماذا تخبئون لي أيها الأجداد .
صقر : (يعانقه) مفاجأة لن تخطر لك على بال (مناديا ً) أيها الخادم
الخادم : نعم مولاي
صقر : جهز لنا المائدة . . كما لو كنت تجهز جيشاً للحرب . . فحفيدُنا جائع .
المهرج : (بغير حماس لبقائه) ولكنه قد يتأخر بي الوقت ولا أرتاح للسفر ليلاً في تابوت .
صقر : ومن قال لك سترحل
عبيد الله : لن ترحل في الوقت الحاضر
أبو خالد : قل وداعاً للقرن العشرين
المهرج : لن أرحل ؟ وماذا أفعل هنا . . انني
صقر : تفضلوا . . تفضلوا (يجلسون الى الخوان وقد أخذ الخادم يجلب الطعام) اسمع أيها الحفيد العزيز نظراً لما تتمتع به من حصانة ومنطق وسعة اطلاع ومواهب ونظراً لافتقارنا الشديد الى الرجال الأكفاء من أمثالك فقد قررنا تعيينك والياً على احدى الولايات العربية
المهرج : (وقد هزته المفاجأة) والياً ؟
صقر : نعم كالحجاج وابن العاص . . وسواهما
المهرج : ولكنني يا مولاي
أبو خالد : لا تحاول الاعتذار
عبيد الله : لن نقبل أعذاراً
المهرج : لا أعرف بأي لسان أشكركم . انني أقبل بكل تأكيد فأنا خُلقتُ على كل حال لتحمل المسؤوليات والمخاطر الجسام . ولكنني أتساءل عما اذا كنت جديراً بهذه الثقة .
صقر : ومن هو أجدر منك بهذا المنصب ؟

أبو خالد : من يبزك ثقافة واطلاعاً

المهرج : فعلاً معي ثلاث شهادات . وأتقن ثلاث لغات (يتحدث بضع جمل من كل من اللغة الفرنسية والانكليزية والصينية)

صقر : رائع . . رائع

عبيد الله : مدهش

أبو خالد : انها فكرتي .

صقر : والآن إلى الطعام

عبيد الله : كان يجب أن نشرب نخبه

صقر : ما دامت المشروبات محرَّمة علينا فليس عندنا ما نشربه سوى دموع الفرح

المهرج : بعد أن ملأتم قلبي بالفرح فإملاء المعدة بالطعام يصبح أمراً ثانوياً . ولكنني أحبّ أن أسأل

عبيد الله : صاحب طرفة أيضاً

أبو خالد : والطُرفُ من مستلزمات الوالي (يضحكون)

المهرج : ومع ذلك أحبُّ أن أسأل أية ولاية سأتولاها ؟

صقر : الولاية التي تريد

أبو خالد : قل أريد هذه أو تلك وتُفتَحُ لك الأبواب على مصاريعها

المهرج : آمل أن تكون معتدلة المناخ فصحَّتي كما ترون يامولاي

صقر : طبعاً طبعاً (يتوقف عن مضغ الطعام ويفكر) سأضع كل شيء في اعتباري . . أية ولاية . . أية ولاية . . الأندلس . . سأعينك والياً على الأندلس .

المهرج : (تتجمد اللقمة في فمه وكأنه قضم لسانه) الأندلس ؟

صقر : نعم الأندلس . . أعزَ الولايات على قلبي

المهرج : ولكن

أبو خالد : اختيار موفق

عبيد الله : ولاية حقيقية

المهرج : ولكن الأندلس رحمها الله يا مولاي

صقر : ماذا تقصد برحمها الله ؟
المهرج : أقصد ذهبت منذ مئات السنين
(الثلاثة ينظرون الى بعضهم سوف ينفجرون ضاحكين)
صقر : طُرفه . . يا لها من طرفه
عبيد الله : (وهو لا يكاد يمسك نفسه عن الضحك) يا بني اذا كان من وردٍ أحمر مازال يتفتَّح في سهول الأندلس . . فلأنه مرويٌّ بدمائنا .
المهرج : على كل حال . . آسف . .
صقر : لا داعي للأسف . . لا داعي للاعتذار فهمت قصدك . . (للآخرين) فهمت قصده الأندلس كبيرة عليه . . ويريد ولاية أصغر .
أبو خالد : هذا واضح .
عبيد الله : عندنا ولايات من جميع الأحجام والأوزان .
صقر : الخريطة أيها الخادم . . سأنتقي لك ولاية صغيرة في حجمها كبيرة في فعلها
الخادم : (يناوله الخريطة) تفضل يا مولاي .
صقر : (يمرر يده على الخريطة وهو يمضغ) وجدتها . . وجدتها ورب الكعبة . الاسكندرون . ما رأيك بها ؟
المهرج : (وكأنه قضم حجراً في الطعام) الاسكندرون ؟
صقر : انها والله أغلى عليّ من ولدي سليمان .
عبيد الله : مناخٌ لا أحلى ولا أجمل .
أبو خالد : وشعبٌ لا أعرق ولا أنبل .
صقر : (يضع يده على صدره) بشهادتي .
المهرج : ولكن الاسكندرون هي الأخرى .
صقر : (متأهباً للضحك ظناً منه والآخران انه مزاح في مزاح) ماذا رحمها الله ؟
المهرج : منذ عشرات السنين ـ احتلّها الأتراك .
(وينفجر الثلاثة ضاحكين مرة أخرى)
صقر : طرفة . . طرفة ثانية يا أبا خالد . الأتراك الذين كنت آنف من محاربتهم بسيف من تنك

أبو خالد : وأي طرفة ؟

عبيد الله : لم يقلها أبو النواس

المهرج : (بعد ضحكة مرتبكة صفراء) انكم لا تفهمون قصدي . . ذهبتْ هي . .الأخرى

صقر : (وهو يغالب ضحكه) فهمت . فهمت الأندلس كبيره . . والاسكندرون صغيره

أبو خالد : وتريد ولاية وسطاً

عبيد الله : بين بين .

المهرج : إما لا تفهمون . . أو تتجاهلون . . الموضوع

صقر : (وقد بدأت تعود اليه جدّيته) يجب أن ننتهي من هذا الموضوع بسرعة . لقد لهونا ما فيه الكفاية (يبحث في الخريطة) وجدتها . لا هي في أقصى الجنوب كالأندلس ولا في أقصى الشمال كالاسكندرون . بينهما تماماً فلسطين لقد انتهينا (يطوي الخريطة)

المهرج : (وكأنه وجد عقرباً في لقمته) فلسطين

صقر : أجمل بلاد الدنيا قاطبه

عبيد الله : لا حُجَّة لك عليها

المهرج : ولكن

أبو خالد : لا تكن مغناجاً

المهرج : افهموني

صقر : أووه . ماذا تريد أن أعيّنَك ؟ أميراً للمؤمنين

المهرج : لا لا لا . المشكلة ان فلسطين هي الأخرى

صقر : (غاضباً) لم أعد أطيق مزاحك . ثلاث ولايات معجونة ذرة ذرة بدمائنا ودموعنا ، لن أقبل أن تكون موضوعاً للتفكُّه .

المهرج : لست مازحاً يا مولاي . ثم ما جئت من القرن العشرين حتى العصر الأموي لأطلق الفكاهات (الثلاثة يشهرون سيوفهم) .

عبيد الله : انك تلعب بالنار

صقر : حذار والا فالملائكة لن تشفع لك عندي

أبو خالد : فلسطين . . مهبط الرسل والأنبياء . .

المهرج : نعم . نعم . . فلسطين مهبط الرسل والأنبياء . . أصبحت مهبط الفانتوم والمظليين . التهمها اليهود منذ عشرين سنة .

صقر : اليهود !

أبو خالد : قمامة التاريخ .

عبيد الله : حثالة الفتوحات .

صقر : مستحيل . قد تطرد النجوم من السماء . ولكن العرب لا يطردون من ديارهم . قد تفر الأظافر من أصابعها ولكن العربي لا يفر من وطنه . . الأندلس . . الأندلس الحمراء كدمي . . كيف ضاعت ؟

المهرج : لا أعرف . لم أكن مولوداً بعد .

صقر : ليتك لم تولد أبداً .

أبو خالد : والاسكندرون . .الاسكندرون الطفلة برياحها وصخورها وأمواجها . . كيف اندثرت ؟

المهرج : في أعقاب الحرب العالمية الأولى وبعد توقيع معاهدة سايكس بيكو راح الاستعمار الغاشم . .

صقر : وفلسطين . . فلسطين الملوّنة كأزهار الربيع . . كيف جفَّتْ وذبلت ؟

المهرج : في أعقاب الحرب العالمية الثانية وتوقيع وعد بلفور . . راح الاستعمار البغيض . .

صقر : يافا . .حيفا . . القدس بيت لحم . . من يقرع أبوابها ؟ من يعبر دروبها

المهرج : الصهاينة (مطمئناً) ولكن وضعهم في الداخل متضعضع .

صقر : (ساخراً) وأنتم ؟

المهرج : (بحماسة) نحن نرصُّ الصفوف ونحشر الطاقات لزجها في المعركة .

صقر : أحقاً ؟

المهرج : طبعاً يا مولاي طبعاً . لقد تنبّه الرأي العام العالمي لخطورة هذه

القضية وأخذ ينظر إليها نظرة جدية ونحن بدورنا أقمنا الدنيا وأقعدناها وبرقيات التأييد تنهال علينا من كل حدب وصوب ، ومشاعر الاستنكار تعمُّ أرجاء العالم . . فهناك نقابة النجارين في غواتيمالا تعطف على قضيتنا ، واتحاد النحاس والألمنيوم في ساغالي ماغالي يؤيد نضالنا وكفاحنا .

صقر : ساغالي وماغالي ؟

المهرج : نعم . وجميعة مربيي الدواجن في الدانمارك تندّد بالمؤامرات الاستعمارية علينا .

عبيد الله : تنتظرون العون من الدجاج ؟

المهرج : لحظة . وثوار ايرلندا وبوليفيا وموزمبيق

أبو خالد : موزمبيق ؟

المهرج : نعم موزمبيق وانغولا وفييتنام ولاوس . . كلهم كلهم دون استثناء يؤيدوننا ويعطفون على نضالنا . . فماذا تريدون أكثرمن ذلك . .

صقر : انه مهرج .

عبيد الله : انه غراب .

أبو خالد : الموت للغراب . . (يشهر سيفه)

صقر : الموت . الموت . الموت ولكن أيُّ سيف عربي يقبل بهذه المهمة النتنة .

عبيد الله : لنجلده بالسياط .

صقر : لا . والسياط أيضاً لها كرامتها .

أبو خالد : لنسلخ جلده . . لنشوهِ على النار .

صقر : لا . لا سيظل هناك رماده . .

عبيد الله : ماذا سنفعل به اذن يا مولاي . .

صقر : دعوني أفكر . .دعوني أفكر بحق الصحابه . .

(يلقي بالنظارات على الأرض كما يلقي كل من عبيد الله وأبو خالد هديته) خذ هداياك النتنة ، واجمع حوائجك القذرة وانتظر العقاب (المهرج يلملم الهدايا ويضعها في التابوت ثم يتمدد فيه انتظاراً لما

يجد في الموقف) سأنفيه .

أبو خالد : نِعْمَ العقاب .

عبيد الله : بعيداً بعيداً حتى لا يبقى منه أثر .

صقر : سأنفيه إلى مكان لا ينبت فيه زرع ، ولا يسيل ضرع .

أبو خالد : إلى الربع الخالي .

صقر : لا . سيكون قريباً من بيت الله . سأنفيه الى سيناء

المهرج : (يقفز مذعوراً عند سماعه هذه الكلمة ويستغل انصراف الآخرين في مناقشة أمره ويتسلق عموداً متصلاً بالسقف) .

صقر : نعم إلى سيناء حيث لا ماء ولا شجر . . حتى يتشقَّق جلده وتتقرَّح أجفانه وتتساقط أسنانه . . ليكون عبرة لمن اعتبر . .هيا أيها الصعلوك (يبحث عنه فلا يجده ينظر الى العمود فتزداد دهشته) ماذا تفعل عندك أيها القرد ؟

المهرج : مولاي ، وسيناء هي الأخرى رحمها الله .

صقر : (صارخاً بأعلى صوته) اقتلوه .

أبو خالد : (وهو ينادي خارج المسرح) أيها العرب اقتلوه .

عبيد الله : ارجموه .

صقر : وسيناء أيضاً أيها البومة .

المهرج : سيناء ، وشرم الشيخ وجبل الشيخ و . . .

صقر : اذن نادِ على شيخ يقرأ الفاتحة على روحك (يدخل الأعراب هائجين مكبرين شاهرين سياطهم وسيوفهم ويحاولون جذبه عن العمود وهو يستغيث ويستنجد . فيتمكنون منه . .ويتكومون فوقه كالنمل شتماً وضرباً واستنكاراً) .

صوت : ارجموه .

صوت : اسحلوه .

صوت : اشنقوه .

صقر : انه غراب . .غراب . .

أبو خالد : ليس عربياً ، ولا أعجمياً .

عبيد الله : انه يهوذا .

أصوات : أرنا وجهك ويديك وعينيك وأذنيك (المهرج يتملص منهم بصعوبة ممزق الثياب معفَّر الوجه بالتراب والكدمات ، يلتقط حجراً ويقف قبالتهم مهدداً بمرارة ويأس وجنون)

المهرج : ابعدوا عني أيها الوحوش . انني عربيٌ من رأسي الى أخمص قدمي . رضعت حليباً عربياً وتنشّقت هواء عربياً ، وجلدت بسياط عربية . .

صقر : (وقد مست كلمات المهرج قلبه) لا يهمني أن أعرف حسبك ونسبك . . أريد أن أعرف كيف ضاعت فلسطين ؟

المهرج : ضاعت بالخطب ؟

صقر : الخطب ؟ وماذا تعني بالخطب

المهرج : (ينسى تعاسته على الفور ويتقمص شخصية خطيب معاصر) أيها الأخوة المواطنون . . أيها الشعب الكريم (ثم يقفز ويهلل ويصفق كواحد من الغوغاء ويغني) يا فلسطين جينالك وجينا وجينالك جينالك .

صقر : (وسط القهقهات رغم دقة الموقف) يكفي ، يكفي قبّحك الله . .

المهرج : هكذا ضاعت فلسطين . . يا أجدادي .

صقر : الأندلس . . الاسكندرون . فلسطين سيناء . . ماذا بقي من أمة العرب بحق السموات ؟

المهرج : بقيت جبالٌ من التخلف .

صقر : أزيلوها يا أحفادي أزيلوها . .

المهرج : ومن يزيلها يا مولاي . . الآلهة لا تزيلها

صقر : الشعب . أين الشعب ؟

المهرج : هذا هو شعبك يا صقر قريش (يُسلَّط ضوء أزرق حيث يشير المهرج الى احدى الزوايا الفارغة حيث يظهر شخص بائس من عامة الشعب في الوقت الحاضر وهو يحمل بضعة أرغفة ويسير ملتصقاً بالحائط) .

الشخص الأول : مشي الحيط الحيط وقول يا رب الستره (يختفي ويظهر شخص آخر يحمل سلّه) .

الشخص الثاني : مين ما أخذ أمي بقللو يا عمي .

الشخص الثالث : لا تنام بين القبور ولا تشوف منامات وحشه .

الشخص الرابع : العين ما بتقاوم مخرز . .

المهرج : (يختفي الضوء باختفاء الأشخاص) هذا هو شعبك . هؤلاء أحفادك يا صقر قريش .

صقر : لا أصدّق عيني ، لا أصدق أذني . .

أبو خالد : مستحيل . . مستحيل العربي أشجع انسان في التاريخ .

المهرج : كنا شجعاناً يا أجدادي . . شجعاناً وأبرياء ومغامرين . . ولكنهم جـردونا من كل شيء . . الشـجـاعـة . . الشـرف . . الكرامـة الكبرياء . . لقد حوّلونا الى أرانب .

صقر : أرانب ؟

المهرج : وصراصير أيضاً .

صقر : (بتعاطف واضح) من هم يا بنيّ . . من حوّلكم الى أرانب ؟ تكلم لا تخف . . نحن أجدادك . . لا تخف منا .

المهرج : (يهمس في أذن صقر قريش بعد تردد)

صقر : من ؟ الارهاب ؟

المهرج : (يكرر الهمس ثانية)

صقر : من ؟ المباحث ؟ ماذا تقصد ؟ بالمباحث ؟

المهرج : (هامساً للمرة الثالثة) الشرطة .

صقر : (ينفجر ضاحكاً) الشرطة (الجميع يضحكون ويرددون هذه الكلمة بسخرية واستخفاف)

المهرج : ايه . . لا تضحكوا يا أجدادي لانكم لا تعرفونهم

صقر : وكيف لا نعرفهم ؟ أليسوا أولئك الرجال البسطاء الذين يحملون الهراوات ، ويقبضون على اللصوص والأفاقين .

المهرج : بلى . . ولكنهم الآن يقبضون على كل شيء . . لقد تطوروا يا

أجدادي . . وجعلوا من الارهاب فناً قائماً بذاته . .كالنحت . . كالموسيقى . . ان عنتر بنفسه لو وقع بين أيديهم سوف يتحطم وينهار .

صقر : هراء . . العربي أشجع انسان في التاريخ . لو سلخوا جلده عن عظمه لن يجبن ولن ينهار .

أبو خالد : (مشيراً الى من حوله) لقد خاضوا حروباً بعدد ورق الشجر . وفي جلد أي منهم تجد من الطعنات أكثر مما تجد من الشعر والمسام . . ومع ذلك تراه دائماً ذلك الفارس الصنديد (ضحكات)

المهرج : الحرب على صهوات الجياد شيء وفي أقبية التحقيق شيء آخر (ضحكات)

صقر : مستحيل . . العربي أشجع انسان في العالم .

المهرج : هل تراهن ؟

صقر : على ماذا ؟

المهرج : تعطيني أشجع فارس بينكم . أشجعهم وأكثرهم احتمالاً وأريك بعينك كيف يتحطم وينهار . . بدقائق فقط . دقائق معدودات .

صقر : (مقهقهاً) خذ من تشاء . . كلهم صناديد .

(يتسابق العديد من الرجال لهذه المهمة باستخفاف)

اعرابي : أنا يا مولاي .

اعرابي : أنا أيها الأمير .

اعرابي : أنا لها .

دحام : (يظهر فارس عملاق مسلح بالسيف والدرع والخنجر ويتقدم الصفوف بعظمة واستخفاف) لا لا أنا . .

صقر : دحام .

أصوات : نعم دحام . . دحام .

المهرج : حسن أين هذا الدخام . .

دحام : (يقترب منه) معك له بضع دقائق فقط بل بضع سنوات (ينظر الى رفاقه غامزاً وساخراً) .

المهرج : سنرى بعد قليل (لصقر قريش) ويلزمني عدد آخر من الرجال في مثل قوته واحتماله ليساعدوني في مهمتي .

صقر : انتق من تريد كلهم فحول .

عبيد الله : صناديد لا يهابون الموت .

أبو خالد : جاهل .

اعرابي : أنا يا مولاي .

اعرابي : أنا . . أنا (المهرج ينتقي عدداً منهم ويعزلهم عن الجميع) .

صقر : يضيِّع وقتنا ووقته .

عبيد الله : لا يعرف من أي معدن هذا الدحام .

أبو خالد : سيعرف بعد قليل .

المهرج : حسناً ، حسناً (لمعاونيه) امسكوه جيداً من هنا ومن هنا (يتم تجريد دحام من كل أسلحته ويقبض عليه المعاونون باحكام دون أن تفارقه سخريته واستخفافه بالتجربة كلها . وفجأة تأتيه لطمة قوية من يد المهرج فيجفل وتصدر همهمات عن الآخرين تخلو من السخرية أو الضحك)

المهرج : اخرس بدون ضحك . اسمك .

دحام : دحام .

المهرج : (يصفعه) كذاب .

دحام :وهل أكذب في اسمي .

المهرج : طبعاً . أنت غامض ومشبوه .

دحام : غامض ومشبوه ؟

المهرج : (يصفعه) اخرس

دحام : . . .

المهرج : حقير (يصفعه ويركله) أين كنت البارحة ؟

دحام : في البيت .

المهرج : كذاب حقير (يصفعه بقوة) .

دحام : أقسم بشرفي كنت في البيت إسأل زوجتي .

المهرج : (ينهال عليه صفعاً وركلاً) ومتزوج أيضاً يا سافل يا منحط يا حقير . متزوج ؟

دحام : سبِّحْ بالرحمن يا رجل . سبِّحْ بالرحمن .

المهرج : (يضربه بلا شفقة حتى آخر المشهد) سأحطم هذا الرأس . . هذا الرأس سأحطمه .

دحام : (وقد أصيب بالذعر) مولاي . .

المهرج : اخرس . . متآمر .

دحام : متآمر ؟ على من متآمر ؟

المهرج : على الشعب على الجماهير (يصفعه ويرفسه) .

دحام : مولاي . . أيها الأمير . .

المهرج : متى دخلت في الحزب .

دحام : أي حزب ؟

المهرج : (يضربه بسوطه) الحزب . الحزب متى انتسبت اليه متى ؟

دحام : أي حزب دعني أفهم .

المهرج : الحزب الوطني (يصفعه) .

دحام : لا والله .

المهرج : الحزب التقدمي (يصفعه) .

دحام : لا وربي .

المهرج : اذن الحزب التقدمي الوطني (يجلده بدون شفقة)

دحام : لا والذي بسط الأرض ورفع . . آه . . آه

المهرج : (يعدد له كل أحزاب الوطن العربي خلال الضرب والرفس)

دحام : (وهو يتأوه) لا والذي رفع السموات .

المهرج : إذن الحزب الديغولي .

دحام : لا .

المهرج : حزب العمال (يدق رأسه بالأرض) حزب المحافظين

دحام : نعم . . نعم . . نعم

المهرج : (متنفساً الصعداء ومبلغاً من حوله) اعترف ، من حزب المحافظين

(للمهرج المولول) مَنْ معك في المؤامرة ؟

دحام : أية مؤامرة ؟

المهرج : «مستأنفاً الضرب» المؤامرة . . المؤامرة . اعترف

دحام : «مستنجداً» مولاي . . عبيد الله . . أبو خالد . . اغيثوني «الجميع صامتون ويقتربون بحركة لاشعورية من منافذ النجاة وقد سيطر عليهم رعب قاتل»

المهرج : هذه الشوارب سأقتلعها . هذه اللحية سأشمطها .

دحام : «قافزاً» آه لحيتي . . شواربي .

المهرج : أين تجتمعون ؟ في أي بيت . . تكلم اعترف .

دحام : سمَ بالله يا رجل . .

المهرج : حسناً . . هاتوا المنفاخ «المعاونون يلبون طلبه بخوف وسرعة . يتصرّف المهرج وكأنه وضع المنفاخ في مكان معين ويبدأ بالضغط على قبضة المنفاخ) اعترف . . اعترف يا كلب

دحام : (وهو يعوي من الألم) آه . . مؤخرتي . . استي . . مؤخرتي

المهرج : من معك في المؤامرة من ؟

دحام : لا أعلم . . لا أعرف . . آه . . آه

المهرج : (مشيراً إلى الآخرين) مَنْ من هؤلاء شريكك في المؤامرة ؟

دحام : لا أحد . . لا أحد . . آه . . آه . .

المهرج : من ؟ تكلم

دحام : (يشير إلى أحد الأعراب لانقاذ نفسه) هذا (يهرب الرجل الذي أشار اليه)

المهرج : ومن أيضاً

دحام : وهذا وذاك وذياك (يهرب الجميع لا يلوون على شيء بما فيهم عبيد الله وأبو خالد) باستثناء صقر قريش الذي أصبح كالتمثال .

المهرج : والآن . . وقع هنا . .

دحام : (وهو يبكي) سأوقع . . سأوقع (يمد يديه كالأعمى)

المهرج : وأقسم بأنك لن تدخل في حزب من الأحزاب

دحام : لن أدخل ولن أخرج . .

المهرج : (يركله ويصفعه الصفعات الأخيرة بينما دحام لا يعرف كيف ينتعل خفه) وانك لن تغادر البيت وستنام منذ غروب الشمس .

دحام : سأنام . . سأفيق . . سأقبّل يديك ورجليك وخفّيك (يرتمي على قدمي المهرج منتحباً مقبلاً بينما يرفسه هذا في قفاه بقوة)

المهرج : والآن اغرب عن وجهي يا جاسوس يا حقير

دحام : (وهو يبحث كالأعمى عن منفذ للخروج) بأمرك سيدي . . بأمرك مولاي آه رأسي . . آه ظهري . . آه استي . .

المهرج : (وهو يطرح السوط جانباً وينفض يديه كالمعلم بعد انتهاء الدرس مخاطباً صقر قريش) والآن قل لدحامك البطل أن يحارب . ضع في كل اصبع من أصابعه ، بل في كل سلامية من سلامياته . . سيفاً ورمحاً وترساً وادعه الى الحربً . . لن يحارب سيهزم أمام دجاجه .

صقر : (يبصق جانباً) اللعنة عليك . اللعنة عليكم . على حضاراتكم وبراداتكم وغسالتكم اللعنه . .اللعنه . . اللعنه (يدور كالمنذهل ويبحث عن شيء ما يستند رأسه اليه)

المهرج : «وهو يشعل سيكارة» هذه . . مسطرة . . مسطرة فقط .

صقر : أعطني من هذه التي تزيل الهموم

المهرج : (وهو يعطيه سيكارة ويشعلها له) مسطرة فقط يامولاي مما قاسينا ويقاسيه أحفادك منذ قرون .

صقر : (وكأنه يسأل الجدران) اليس عندكم كرامة ؟

المهرج : عندنا . . ولكنها ممنوعة . . كالمخدر كالهيروييين

صقر : (يتفل) ولا قطرة دم عربية ؟

المهرج : لا عربية ولا أعجمية . كل دمائنا ذهبت هدراً على هراوات الشرطة... ومواعيد الحيض . اذا لم يكن كل انسان ، فكل عائلة يا جدي عاني واحد من أفرادها... مثلما رأيت . الابن الأكبر ، أو الأصغر . الأم أو الجد أو الجدة . آلاف الشوارب العربية اقتلعت من

جذورها والقيت في سلال المهملات ، مئات اللحى الطاهرة مرّغت في الرغام... حتى الطيور في السماء لم تعد تميّز بين رؤوس الأغصان ورؤوس الحراب .

صقر : (بشفقة صميمية) يا للأحفاد التعساء

المهرج : لقد حوّلونا الى مائة مليون فأر أمام مصيدة كبيرة تمتد من الجاهلية حتى القرن العشرين . باسم فلسطين

صقر : (يكاد يبكي) يا للأحفاد المساكين

المهرج : نحن رجال في الهوية فقط أما في الداخل . في الأعماق فنحن فئران . . صراصير (يرمي هويته الشخصية على الأرض)

صقر : (بأمل حزين) ومع ذلك لابد من حل «منادياً» أبا خالد . .عبيد الله . .

المهرج : عبثاً تنادي أيها الأمير . . فالزهرة المقطوفة لن تعود إلى غصنها أبداً .

صقر : (مكرراً نداءه بين الحزم والاستجداء) لابد من حل . . لابد من حل . . أبا خالد عبيد الله أيها الفرسان . . أين أنتم يا أبناء ويا رفاقي (لا يجيبه سوى الصدى الحزين لندائه)

المهرج : عبثاً تنادي عبثاً تحاول يا مولاي . . الوحشية قابعة كصغار البيض في الأعماق ولاستئصالها ينبغي تحطيم كل شيء . .

صقر : ولكن من ينقذ الأحفاد غير الأجداد

المهرج : لا أحد . . لا أحد . . ولكن أي جد مغفل يفقد صوابه ويغامر ؟

صقر : أنا .

المهرج : (بهلع) أنت ؟

صقر : نعم أنا صقر قريش عبد الرحمن الداخل بسيفي هذا سأعيد للأرض العربية كرامتها .

المهرج : مولاي .

صقر : وللوجوه العابسة ابتسامتها ، وللسهول المقفره . . جداولها وأزهارها أنا أنا . . سأحرّر فلسطين (ينادي بحماس) أيها

السائس . . اسرج لي جواداً بسرعة الريح .

المهرج : (يحاول منعه من الخروج بكل وسيلة) لا لا . سوف تندم يا مولاي .

صقر : دعني . . أنت غراب . . أنت قطيع من الغربان .

المهرج : (وقد سمع صهيل الجواد في الخارج) ستندم يا مولاي .

صقر : (وهو يخرج شاهراً سيفه) اليك عني . أنا صقر قريش... فاتح الأندلس .

المهرج : (ينوح وقد سمع صهيل الجواد يمتزج بوقع الحوافر المبتعدة) .

الفصل الثالث

(مركز مراقبة على حدود الوطن العربي في الوقت الحاضر . صقر قريش موقوف في النظارة . المهرج يحمل معروضاً ويعاتبه من وراء القضبان) .

المهرج : حذَرتك سلفاً . سلفاً حذّرتك يا مولاي . فلم تأبه ولم ترعوِ (يقلده بمرارة) أيها السائس أسرج لي جواداً بسرعة الريح . سأحرر فلسطين . . تفضل حرّرها .

صقر : (بتفاؤل عجيب) طبعاً . سأحرّر فلسطين والأندلس والاسكندرون .

المهرج : (ساخراً) ولا تنس انطاكية والصومال وارتيريا وعربستان .

صقر : إن شاء الله . . إن شاء العلي القدير ، لن أبقي على شبر واحد محتل .

المهرج : مولاي . . هل أنت على ما يرام ؟

صقر : طبعاً . إن هي إلاّ اجراءات شكلية . . سؤال وجواب وأمضي حيث أشاء .

المهرج : ومن قال لك هذا الهراء .

صقر : أحفادي . الدّورية التي أوقفتني على الحدود .

المهرج : (نائحاً) سؤال وجواب . مولاي أنت لا تعرف ماذا يعني السؤال والجواب لديهم قد تموت وتتعفنّ هنا وراء هذه القضبان قبل أن ينتهي ذلك السؤال وذاك الجواب .

الشرطي : العهود التي تتحدث عنها زالت وانتهت . الآن عهد الكفاح عهد الحرية .

المهرج : عهد الحرية . . وأعظم قائد في تاريخ العرب يقف وراء القضبان كالقتلة والمهربين .

الشرطي : كل المواطنين سواسية أمام القانون .

المهرج : ولكن هناك استثناءات . هذا الرجل ليس كبقية الرجال . . لو ساعدته فقد يدوّن اسمك في التاريخ .

الشرطي : ما يهمني بالدرجة الأولى أن يدون اسمي في جدول الرواتب . مَنَعْتُ أشهر مطربة من متابعة السفر لأنها لم تحصل على تأشيرة دخول . .مع انها . . انك تسمع على كل حال .

صوت المطربة : سأرفع قضية الى جميع الجهات وإلى أعلى المستويات (تدخل)

الشرطي : أتمنى ذلك . علّهم يحسون بوجودي (وهو منصرف الى عمل من الأعمال)

المطربة : (تلتفت الى المهرج) شرطي . بماذا تتحدث الى شرطي ؟

المهرج : (يفاجأ بأنها ذات الممثلة التي لعبت أمامه دور ديدمونه في يوم من الأيام) ديدمونه .

المطربة : (وكأنها لا تعرفه) أهلاً .

المهرج : (مصدوماً) ما بك ؟ هل تشعرين بمغص ؟

المطربة : (متنهدة باستعلاء) أبداً انها متاعب الشهره . أصبحت فوق الريح .

المهرج : لماذا ؟ وهل تعملين مضيفه ؟

المطربة : إنني أشهرمطربة يا هذا . . ألا تشاهد التلفزيون وتقرأ الصحف ، وتسمع الاذاعات .

المهرج : من سوء حظي كنت مسافراً في الـ . . .

صوت المدير : ما هذه الفوضى على الحدود ،وهذه الأقذار أمام المركز .

الشرطي : (بارتباك) انتبهوا . جاء المدير يا سيدتي .

المطربة : لا تتملّقني ، ستنال عقابك .

المدير : (يدخل ومعه مجلة فنية) ألا يوجد نظام ؟ الا يوجد مكنسة بمجرد أن أغيب تدب الفوضى .

الشرطي : احترامي سيدي . .

المدير : (للمهرج) نعم ماذا تريد .

المهرج : جئت بخصوص .

المدير : (وقد انتبه لوجود المطربة وهي تدخّن بغيظ) يا لها من مفاجأة . أية ريح مباركة حطّت بك في مكتبي الموحش في أطراف الصحراء .

المطربة : وما الذي يأتي بي الى هنا . . أو هناك غير الفن .

المدير : وأنا الذي أنجزت أعمالاً يعجز عنها المارشالات هذا الاسبوع لأكون حراً هذا المساء وأسهر في الملهى الذي تعملين فيه .

المطربة : ولكن حفلتي لهذه الليلة قد تلغى .

المدير : لماذا ؟ هل من مناسبة دينية ؟

المطربة : بل لأنني منعت من متابعة السفر . لأنني لم أحصل على تلك الخربشة على جواز سفري .

المدير : وأيّ مغفل تعس منعك من الدخول

المطربة : هذا الماريشال .

الشرطي : سيدي المدير .

المدير : أيها الطبل الأجوف . . كيف تُقْدِم على فعلة شنيعة كهذه ؟

الشرطي : سيدي .

المدير : اخرس . ألا تقرأ الصحف ؟ ألا تشاهد التلفزيون ألا تسمع الاذاعة ؟ شرطي بماذا تتحدثين الى شرطي .

المطربة : (وهي تنظر الى ساعتها) وجمهوري كما تعرف لا يطيق الانتظار .

المدير : (وهو يؤشر على جواز سفرها) ستتابعين سفرك في الحال . . ولكن ليس قبل أن تتقبلي ضيافتنا (للشرطي) تحرَك (يشعل لها لفافتها) .

المطربة : شكراً

المدير : والآن ما أخبار الفن ؟

المطربة : باهظ الثمن أيها المدير . . ثياب وأحذية . أنت تعرف .

المهرج : سيدي . .

المدير : (يرمقه بنظرة جامدة) وما أخبار ميمي وفوفو

المطربة : فوق الريح .

المدير : عظيم . .عظيم .

المهرج : سيدي

المدير : (بغلظة) نعم . ماذا تريد ؟

المهرج : سيدي بعد الاطمئنان على أخبار ميمي وفوفو وسوسو . . أرجو منك التلطّف والنظر في مشكلة ذلك المسكين . . صقر قريش .

المدير : صقر من ؟

المهرج : صقر قريش . . عبد الرحمن الداخل

المدير : (متنفساً الصعداء ومنفجراً بالضحك) تقصد ذلك الأهبل الذي يدّعي انه

الشرطي : (عائداً مع زجاجتي مرطبات) ليس أهبلاً يا سيدي

المهرج : طبعاً

المدير : أهبل أو يدّعي الهبل . . فهو طريفٌ (للمطربه)
بل أطرف محتال رأيته في حياتي (للمطربه) ما رأيك ببعض التسلية .

المطربة : (على مضض) ولكن بسرعة . . فجمهوري كما تعرف .

المدير : أحضره أيها الشرطي .

المطربة : (تنظر ناحية النظارة) يا لها من لحية . . أنا أتبرع له بإجرة حلاقة

المدير : ربما كان من الخنافس (يتقدم صقر قريش برفقة الشرطي)

صقر : السلام عليكم يا أحفادي

المدير : لا يتكلم إلا الفصحى

المهرج : (يقوم بالتعريف) مولاي أقدّم لك

صقر : (مشيحاً ببصره وقد راعه منظر العري وهي تلف ساقاً على ساق)
أعوذ بالله أنت حفيدة خولة وزينب والخنساء . . أعوذ بالله . .
أعوذ بالله . .
(المدير والشرطي غارقان في الضحك)
المطربة : (تنهض مذعورة) يا ماما . .
المهرج : (يستوقفها) إنه فاتح الأندلس
المطربة : (تخرج خائفة) باي . . باي
المدير : باي . . باي
المهرج : لا تلمها يا مولاي . . البطل في نظرها . . هو الذي يفتح لها زجاجة وسكي . زجاجة شمبانيا وليس الأندلس .
المدير : طريف . . طريف . . لماذا لا يعمل في التمثيل ؟
المهرج : (يساعد صقر قريش على الجلوس) اجلس يا مولاي . . اجلس وستنفرج عما قريب إن شاء الله .
المدير : (وقد عادت اليه جديته) قف أين تظن نفسك يا هذا ؟
صقر : (يقف) في بلدي . . في وطني
الشرطي : ولا تعبث في لحيتك كلما أفحمك الجواب .
المدير : اسمك (يشير على الشرطي كي يسجل الافادة)
صقر : مرة ثانية ؟
المدير : مرة ثانية ،وثالثة ورابعة . . حتى تعترف صراحة من أنت ؟ وماذا جئت تفعل في بلادنا
صقر : أجبتك بوضوح من قبل
المدير : ما من شيء واضح . انك مجموعة طلاسم . قلت لك منذ اعتقالك . . هات شاهدين . . شاهدين فقط .
المهرج : ألا تكفي شهادتي ؟
المدير : لا . القانون صريح (يرن الهاتف يرفع السماعة) أي بطل هذا . . لا يعترف به اثنان من المحيط إلى الخليج (على الهاتف) ألو نعم . نعم مركز الحدود . ولا أية اشارة أم م . . (يغلق السماعة) شكراً .

لم يجدوا له أو لعائلته أي اشارة في دوائر النفوس استنفرنا عد مخاتير للبحث في هذه القضية دون جدوى .

الشرطي : مشبوه

المدير : وغامض . . (لصقر قريش) أعزب أم متزوج

صقر : متزوج و

المدير : وكم ولداً عندك

صقر : انهم كثيرون

المدير : (غاضباً) وكيف تعيلهم . ما هي ثروتك ؟ ماذا تملك ؟

صقر : أملك ايماني

المدير : (ساخراً) ايمانك ؟ وأين تودعه في أي بنك ؟

الشرطي : (منسجماً في السخرية) بنك انترا

المدير : اسكت (متابعاً الاستجواب) تقول انك مولود في عام ١١٣ هجرية . وهذا يعني ان عمرك الآن أكثر من الف ومائتي سنة . فأين كنت طوال هذه المدة ؟

صقر : في المقبرة

المدير : ولماذا خرجت منها ؟

صقر : لأحرر فلسطين فنحن لانقبل

المدير : لن نقبل ؟ من أنت ؟ باسم من تتكلم

صقر : باسم الموتى والشهداء باسم خالد وعمر . . والسلولي والحجاب ، والزمخشري وقنسرين وابن بخت ، وابن قطر .

المدير : ايه . أية أسماء أعجمية هذه (للشرطي) هل فهمت شيئاً .

الشرطي : ولا كلمة

المهرج : هذه أسماء أعجمية . أما سوسو وفيفي وومومو . فهي أسماء جاهلية .

المدير : اسمع يا هذا . . انني مريض . مصاب بالجلطة . . ولذلك فقد أموت في أية لحظة ، ولكنني سأحاول المستحيل . . لكي أظل حياً . . وأكشف سر هذا الرجل الغامض (لصقر) نعم أكمل .

صقر : باسمهم جميعاًجئت أسألكم كيف أضعتم فلسطين والأندلس واسكندرون ؟ وبأي وجه بعد ذلك تأكلون وتشربون وتمرحون ؟

المدير : هل انتهيت ؟

صقر : لا . لم أنته أيها الأحفاد العاقون . لقد تركنا لكم الراية العربية أنقى من ماء المزن . أنصع بياضاً من ممسحة للوحل . لماذا أيها الأحفاد العاقون لماذا ؟ (يدير وجهه ويمسح دموعه)

الشرطي : هل أسجل هذا الهراء

المدير : لا . انه دجال منافق

صقر : انني صقر قريش . .عبد الرحمن الداخل

المدير : ما أعرفه فقط ، انك داخل البلاد خلسة وليس في حوزتك أي اثبات للشخصية لا هوية ، ولا دفترخدمة ولا اخراج قيد ولا حتى دفتر صحة .

الشرطي : ولا شهادة سواقة .

المدير : وعلى رأسهم جميعاً . جواز سفر . أين جواز سفرك ؟

صقر : ولماذا جواز السفر ؟

المدير : على كل مواطن يرغب في الانتقال من بلد الى بلد ان يصطحب معه جواز سفر مثل هذا وهذا وهذا (يعرض عليه نماذج من جوازات السفر)

صقر : ومتى كان العربي بحاجة الى اذن حتى يتجول في أرض آبائه وأجداده

المدير : لقد انتهى عهد الفوضى والمحسوبية ، وجاء عهد القانون والنظام

الشرطي : والديمقراطية

المدير : والديموقراطية . إن الوحدة العربية لم تعد مجرد شعارات عاطفية بل أصبحت واقعاً منظماً فاعلاً متفاعلاً (يسعل) هذه الجلطة ستقتلني . فكيف تريد مني التسليم بماتدّعيه دون أي قرينة أو اثبات (صقر قريش يفتش عبه وجيوبه بحركة لاشعورية خائبة)

المهرج : وهل على النسر ان يحمل هوية بين جناحيه حتى يثبت انه نسر .

المدير : لا أعرف . لا أعرف . (لصقر قريش) من دفعك الى هذه المهمة .

الشرطي : مهمة تحرير فلسطين .

صقر : واجبي

المهرج : النخوة العربية هل نسيتها .

المدير : لأنني متمسك بنخوتي وعروبتي لا أرضي أحداً . ليس كل من ادّعى الوطنية هو وطني . معظم الذين نقبض عليهم على الحدود يتظاهرون بالوطنية . ولذلك من واجبي ان أدّقق في كل شخص يثير الريبة ، من هو ؟ من أين قادم ؟ الى أين ذاهب ولماذا ؟ وكيف ومتى ؟ فبلادنا كما تعرف تخوض معركة حياة أو موت .
ولذلك فما الذي يثبت لي أن حضرته ليس عميلاً أرسلته الامبريالية لتنفيذ مخططاتها ؟

صقر : عميل للغرباء . . ضد وطني وبلادي ؟ وأنا الذي شاب سيفي قبل شعري في الدفاع عن ترابها ومقدساتها .

المهرج : سيدي . . حكّم العقل يا سيدي . . انسان يتحدث بهذه العاطفة . . بهذه اللغة التي لا خطأ فيها ولا لحن يمكن أن يكون عميلاً أو خائناً .

المدير : هذا ليس دليلاً كافياً . غلوب باشا . أبو حنيك كان ينطق العربية بأحسن ما ينطقها الأدباء والمفوضون الفطاحل . . ومع ذلك ماذا أثبتت الأيام . أثبتت انه جاسوس .

الشرطي : حقير

المدير : وكذلك لورنس العرب وعشرات وعشرات غيرهم ممن يفدون الينا تحت اسم خبراء وعلماء . . وفنانين .

المهرج : يا لتقلبات الزمن . هل أصبح الذي يتكلم اللغة العربية الفصيحة عميلاً ، والذي يتكلم العامية وطنياً ؟

المدير : طبعاً . الوطني هو الذي يتحدث بلغة الشعب

الشرطي : بلغة الجماهير

المهرج : وهذا اللباس وهذه البشرة . . أي أوربي أو روسي له هذا اللون العربي الأصيل ؟

المدير : وهذا أيضاً ليس بالدليل الكافي . ربما اكتسب هذه السمرة من السباحة

الشرطي : أو ربما صبغوه قبل ارساله الينا

المهرج : انه ليس باباً أو خزانة حتى يصبغوه . انه صقر قريش عبد الرحمن الداخل (يرن الهاتف)

المدير : بل دجال منافق (يشير للشرطي) أعده الى النظارة .

صقر : (للمهرج) أعطني من هذه . . التي تخفف الهموم

المهرج : (يعطيه سيجارة) لقد وقعت يا صقر قريش . وجيمس بوند لن ينقذك من هذه الورطة .

صقر : مهما يكن إنهم أحفادي وأغفر لهم .

المهرج : ركبت رأسك قبل جوادك وجنت وفي اعتقادك أنك ستلقى الأمة العربية بأسرها تمتطي الخيول وهوادج الجمال بانتظارك . . وها أنت تعامل كمكنسة .

المدير : الو . . نعم . . نعم

صقر : مازلت متفائلاً . قد ينتابني الشوق والغضب والدهشة ، ولكن اليأس لن ينتابني أبداً (يربت على خد المهرج قبل أن يدخل النظارة ثم فجأة يصغي الجميع بانتباه للحديث الدائر على الهاتف) .

المدير : أظنه اما عميلاً خطيراً أو مهرباً أكثر خطورة وفي الحالتين (ممتقع الوجه وعيناه على صقر قريش مشيراً بيده) ماذا ؟ لا يمكن . مستحيل أن أخطئ الى هذا الحد . . أتحمّل المسؤولية . وهل أنا منجم حتى أتعرف على شخصية مندثرة منذ الف عام . . أمرك . . يا سيدي (يضع السماعة ويهرع الى صقر قريش متضرعاً) مولاي . . مولاي اغفر لي قسوتي وبلاهتي . . (راكعاً أمامه) مولاي صقر قريش . . في ثيابك رائحة الأندلس ، في عينيك أنوار غرناطة (أبواق سيارات وضجة في الخارج)

المهرج : وأخيراً . . وأخيراً يا مولاي (يتعانقان بحرارة وهما يسمعان الهتافات في الخارج)

أصوات : عاش . . صقر قريش . .

عاش . عاش . . عاش

المدير : (الشرطي) تحرّك . لا تقف كالأبله . . المدير العام في طريقه الينا **(يخرجان بينما يدخل عدد من الناس المتحمسين وهم نفس الأشخاص الذين رأيناهم كمتفرجين في الفصل الأول يتقدّمهم صحفيون ومصورون ويتكومون على صقر قريش يمطرونه بالأسئلة وهو يجفل أمام عدسات التصوير كالجواد البرّي وقد دخل قاعة العرض للمرة الأولى)**

صوت : مرحباً بجدنا الخالد

صوت : مرحباً بجدنا العظيم

الصحافي الأول : متى فتحت الأندلس

صقر : منذ الف عام . . أهلاً بأحفادي أهلاً

الصحافي الثاني : ماذا تحب من ألوان الطعام

الصحافي الأول : ماذ تحبّ من ألوان اللباس

صقر : لا أحبّ سوى بلادي . . وطني بلادي

الصحافي الثاني : ولأية غاية جئتم ؟

صقر : لتحرير فلسطين

الصحافي الأول : وأين تقيمون الآن

صقر : في النظارة . . لقد سمعت مؤخراً ان فلسطين قد ضاعت

الصحافي الثاني : ما رأيك بنزع السلاح

الصحافي الأول : ما رأيك بدخول الصين للأمم المتحدة

صقر : وقد آلمني أشد الألم . . بوركتم من شعب بوركتم من أمة . .

الصحافي الثاني : ما رأيك بالتجارب الذرية تحت الأرض

صقر : وقد آلمني أشد الألم

الصحافي الأول : والتجارب الذرية فوق الأرض

المهرج : ابعدوا عنه يا اخوان . .ابعدوا عنه يا شباب من له سؤال فليوجهه إلي . . أنا سكرتيره الصحفي

أصوات : عاش جدنا العظيم

أصوات : عاش عاش عاش

صقر : يا أحفادي وقرة عيني سمعت مؤخراً أن فلسطين قد ضاعت (يدخل المدير والشرطي ويشرعان في اخراج الموجودين)

المدير : من سمح لكم بالدخول

الشرطي : اخرجوا . . اخرجوا

صقر : (متابعاً خطابه) وقد شُرِّدَ أهلها ، وانتُهِكَتْ محرّماتها . . وقد آليت على نفسي

أصوات : عاشت فلسطين حرة مستقلة

أصوات : عاشت عاشت عاشت

صقر : وقد آليت على نفسي ألا آكل وألا أشرب

أصوات : الموت للخونة

صقر : فإلى السلاح أيها العرب

(يدخل في هذه الأثناء رجل هام يطلق عليه اسم «المسؤول» يقف له المدير والشرطي باحترام) .

المسؤول : من أبلغ الصحافة . . اطردوهم في الحال ، لا تبقوا على أحد .

الشرطي : بسرعة . . بسرعة . .

صقر : إلى المعركة

المسؤول : (يشير للشرطي كي يعيد صقر قريش للنظارة فينصاع في الحال) لا تدعوا أحداً يراه .

المدير : ولكن كيف خرج من المقبرة يا سيدي ؟

المسؤول : هذا دليل على ان الانسان العربي أقوى من الموت (لأحد المصورين الصحافيين) اخرج وإلا حطمتها على رأسك .

صقر : (والشرطي يدفعه داخل النظارة) أين سيفي ؟ أين درعي ؟

الشرطي : اننا نشحذه يا مولاي

(تدخل شخصية أجنبية يسارع المسؤول والمدير الى تحيتها باحترام بالغ . الشخصية تعلّق قبعتها في مشجب وتدخل الى غرفة جانبية) .

المدير : ماهذه الطلاسم يا سيدي . . من هذا الأجنبي وماذا جاء يفعل ؟
المسؤول : اجتماع هام . . ستعلم في الحال . . (الشرطي) لا نريد أية ضجة .

(يدخل الى الغرفة الجانبية أمامه كالحارس . يدخل المهرج حاملاً باقات من الزهور ، والفرح ما زال يغمره لتطورات الموقف لصالح صقر قريش)

المهرج : زهور وهتافات يا مولاي (يفاجأ بخلو المركز وبالصمت المطبق) أين الأمير ؟
الشرطي : (يعترضه) هس
المهرج : أين الأمير ؟ هل ذهب بدوني .
صقر : (من وراء القضبان) انني هنا
المهرج : (بغضب واستغراب) من أعادك الى النظارة ؟ ما هذه اللعبة ؟
الشرطي : الأوامر . . اخرج بسرعة . ولا كلمة . . اجتماع هام
المهرج : ما هذا الغموض . . ما هذه القبعة ؟
الشرطي : اجتماع هام مع مندوب عن الحكومة الاسبانية
المهرج : (هلعاً وقد لعب الفأر في عبّه) مولاي
الشرطي : (مشيراً الى باب الخروج) اذا سمحت وإلا أخرجتك بالقوة .
المهرج : (متوسلاً بحرارة) أرجوك . كلمة واحدة وأنصرف
الشرطي : (يوافق على مضض بعد أن قرع الجرس في الغرفة الجانبية فينصرف عنه الى الداخل) بسرعة قبل أن يراك أحد .
المهرج : (متضرعاً أمام الزنزانة) يجب أن تهرب يا مولاي
صقر : أهرب ؟ وهل جئت من قبري ، وقطعت الف عام من العصر الأموي حتى الآن لأهرب ؟
المهرج : ولكن الماء تجري من تحتك .
صقر : أين الماء ؟ لا أجد أي أثر لهذا الماء
المهرج : هنا تحت قدميك . تحت الأرض في كل مكان
صقر : (ساخراً) متشائم دائماً متشائم

المهرج : ستغرق يا مولاي وأنت لا تجيد السباحة . سيفك ودروعك الأندلسية ليست بالحراشف الملائمة لأمواج القرن العشرين .

صقر : إن تشاؤمك يعذبني أكثر من سجني . لقد تأكدوا من شخصيتي واعتذروا مني وارتموا على صدري وقبلوا يدي ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

الشرطي : (يخرج ويغلق الباب وقبل أن يغادر المسرح الى غرفة أخرى يقول) : بسرعة . . بسرعة . . سوف أفقد وظيفتي .

المهرج : لحظة فقط (لصقر قريش) انك لا تفهم . لا تفهم يا مولاي .

صقر : ألم تر الوجوه يغمرها الفرح ؟ ألم تسمع الهتافات تدوي في الشوارع . .

المهرج : ليس المهم ما يجري في الشوارع . بل ما يجري هنا في الغرف السرية (يشير الى غرفة الاجتماع) (يعود الشرطي حاملاً صينيه عليها مشروب) عليك أن تهرب . الشرطي مشغول كما ترى والقضبان ليست متينة .

صقر : لن أهرب لن أهرب . ما جئت لأهرب .

المهرج : مازلت مصراً على تحرير فلسطين .

صقر : طبعاً . إن هي الا اجراءات شكلية وأكون حراً كالصقر طليقاً كالريح فوق الرمال والمضارب العربية .

المهرج : دعك من الشعر الآن .

الشرطي : (يأتي غاضباً) ألا تفهم من كلمة واحدة

المهرج : كلمة أخيرة أرجوك (الشرطي يهرول بعد أن يسمع الجرس مرة أخرى) مولاي انك تحتفظ تحت عقالك الطاهر هذا بذكريات أكل الدهر عليها وشرب . أية مضارب وأية رمال تتحدث عنها . حتى لو قدّر لك أن تخرج حراً من هنا ،وهذا ما لن يحدث أبداً وترى ما خلف هذه الجدران من خوف وجوع ولا مبالاة . وما يتراكم في خنادق الحرب من الغبار وبول المارة . سوف تقبلني على خدي هذا احتراماً لتشاؤمي .

صقر : قد يتزعزع برج بابل من أساسه . . وتنهار جبال الكون من

جذورها . ولكن ثقتي بهذه الأمة لن تتزعزع . . وايماني بهولاء الأحفاد . . لن ينهار .

المهرج : حسناً . احتفظ بتفاؤلك كالسردين . فلن يطول بك الوقت حتى تنبعث منه رائحة أين منها رائحة المقابر . . رائحة المستنقعات . وداعاً يا جدي (يقبل يده الممدودة من خلال القضبان وهو يبكي)

صقر : (يلثم رأسه حزيناً) وداعاً يا غرابي الصغير

الشرطي : (بينما ينصرف المهرج ينفتح الباب ويظهرالشرطي) بسرعة . . بسرعة (لصقر قريش) جاءك الفرج

صقر : (متفائلاً) انتهت الاجراءات

الشرطي : انتهت المفاوضات

صقر : (يفرك يديه فرحاً) عظيم . . كنت واثقاً من هذه اللحظة .

(يخرج من غرفة الاجتماع الشخصي الأجنبي مقطباً ويسارع إلى ارتداء قبعته ، ويتبعه المسؤول أكثر تقطيباً)

كنت أعتقد أن هذا الاجتماع سيكون الأخير . . لابرام الاتفاق فقط

الاسباني : شقة الخلاف مازالت واسعة بيننا

لقد بيّنْتُ لكم بوضوح كل الأسباب التي تمنعنا من تقديم الكمية التي تطلبونها

المسؤول : وحكومتي لها أسبابها أيضاً . لن نتنازل عن بصلة واحدة . فصقر قريش مهما كان يظل بالنسبة لنا بطلاً قومياً .

الاسباني : ولكنه بالنسبة لنا فهو مجرم . مجرم حرب احتل بلادنا بالقوة . . وميثاق الأمم المتحدة صريح في هذا المعنى . .

المسؤول : نحن نحترم ميثاق الأمم المتحدة ونلتزم بميثاقها ولكن التزامنا نحو تاريخنا أقوى . ولذلك فلن نتنازل عن موقفنا مهما كانت العواقب .

الاسباني : لا تنس انه بإمكاننا ان نطالب بتسليمه لنا عن طريق الانتربول .

المسؤول : هذا تهديد لا يتّفق وأصول المفاوضات

الاسباني : انكم متصلبون جداً

المسؤول : هذا معروف عنا

الاسباني : (متردداً) سآخذ الموضوع على مسؤوليتي . سأرفع الكمّيّة الى ٢٥ الف طن .

المسؤول : ٣٠ الف طن لن ينقصوا طناًواحداً

الاسباني : لا لا هذا ابتزاز

المسؤول : سمّه ما شئت . لن نتنازل

الاسباني : ولكنكم تسيئون الى اقتصاد كم

المسؤول : الى الجحيم . لن يذهب صقر قريش رخيصاً ثلاثون الف طن كلمة أخيرة

الاسباني : سنعوّض لكم النقص في الموسم القادم

المسؤول : مستحيل . مستحيل . لا نستطيع أن نوزّع على قسم من الفلاحين دون الآخر . وإلا اتُهمْنا بالتحيّز وعدم الانصاف .

الاسباني : ولكن عندنا التزامات تجاه دول أخرى وانتاجنا لهذا الموسم لا يكفي الجميع .

المسؤول : ما يهمني بالدرجة الأولى هو مصلحة بلدي وشعبي

الاسباني : (يصحح مسودة الاتفاق بعد أن أسقط في يده) حسناً سآخذ الموضوع مرة أخرى على مسؤوليتي (يوقع)

المسؤول : (يوقع أيضاً) آسف لتصلبي ، ولكن لكي تعرفوا أنتم أو سواكم مع أي طرف تتفاوضون في المستقبل .

الاسباني : لابد لنا من تسلّمه ومحاكمته مهما كان الثمن

المسؤول : مبروك

الاسباني : (وهو يطوي الأوراق في حقيبته) كم سيفرح شعبي عندما يرى فاتح بلاده وغازيها قبل ألف عام مكبلاً وراء القضبان . . لحظة تاريخية لا تنسى . هل رجلنا جاهز ؟

المسؤول : بانتظاركم . وهل رجالكم جاهزون ؟

الاسباني : على أحرّ من الجمر (يدخل شخصان أجنبيان)

المسؤول : (للشرطي) سلّمهم الأمانة .
(بينما يسارع الشرطي لفتح النظارة يرافقه الاسباني والشخصان الآخران .
يخرج المدير مترنحاً شارداً من غرفة الاجتماع السابقة وبيده
زجاجة خمر فيبشّره المسؤول) اتفقنا
المدير : (دون أن يفارقه شروده) عظيم
المسؤول : ٣٠ الف طن
المدير : عظيم .
المسؤول : حاول أن يراوغ . . ولكنني كنت واضحاً وحازماً
المدير : عظيم . . عظيم . .
صقر : (وهو يغادر برفقة رجال الأمن الاسبان) أين سيفي ؟ أريد سيفي .
المدير : سنقشر به بصلاً (وينطرح مكباًعلى وجهه وهو يكاد يختنق من
الألم والعار) .

الأرجوحة



الفصل الأول



أيها الاسم الصغير كتابوت طفل !

يا من لصقتك على الجدران وثياب المسافرين ، ورافقتك على دراجتي حتى النافذة الأخيرة من الوطن ، دون رياح أو أزهار ، مخلفاً أسلابي على الورق المقوى ، تاركاً مبارزيك يلهثون حتى الشيخوخة بين شمس الأصيل وحديد المزلاج .

أيها الاسم المغدور ، والراقد على حرفه الأول كالغزالة ! يا بلسم الخراب ودم الطفلة المنتقاة بالأصابع ! اذهب بعيداً بعيداً كالجناح المكسور ، ملثماً أو حاسر الرأس ، فالخوذ الفضفاضة ملأى بالأحلام وقمل الأوسمة .

لأجلك أحني عنقي كالخيط أمام إبر المنفى ، وثيابك الممزقة في قاع الكمين . بك أرتفع وبك أهوي كرجل على حبال الأرجوحة . ولذلك ما قد تراه في القمة قد أراه في الحضيض . وما أراه في الحضيض قد تراه في القمة . هكذا أريدك أميراً عارياً ومذعوراً تحت ثلج الحرية ونار الاستقلال . مجتازاً جبال الألم ، مكباً على وجهك كالطفل أمام الطابة الهاربة .

امرأة من الشمال ، أو امرأة من الجنوب .

تسكع في بشمزين ، ولهاث في باريس .

نواح في هذه النافذة ، وزغاريد في تلك .

جنازات مسرعة تحت المطر ، وجنازات تنفجر بأزرارها عبر الصحراء ، ولكن أين المحطة الأخيرة ؟ أين الشجرة التي يقعي المسافر تحت ظلالها مع حقائبه وغلة سيوفه ؟

لاشيء . إننا ذئاب وحيدة وشاردة ، وستظل أسناننا تؤلم من أحببناهم بصمت واخلاص على مفارق الطرق وتحت شموع المقاهي حتى تنزف القطرة الأخيرة من دمائهم على طرف الحذاء . وعند ذلك ، نطالبهم بازالة تلك البقع بالدموع ومناديل الذكرى .

ولكن يا يمامتي الصغيرة عودي .

ولكن متى يعود المسافرون الصغار ؟ ومن أين تطلق صيحات العودة وتلقى سلاسل الإنقاذ ؟

* * *

خلف « الكازار » ، ذلك المناخ الالهي لضم الركب الصغيرة وعصر المناديل بالراحتين ، ذلك الذيل المصقول كرأس الحربة لنكء الجراح . كان النهر الأزرق الجميل يندفع كالعقرب الى الأمام بعد ان لدغ كل حقول الأرض في طريقه مشكلاً مع السحب الغاربة وحظوظ الفلاحين التعساء الشعرة الأخيرة من ذلك الذيل المترامي كقوس النصر ، كانساً الماء بيديه ، بعيداً بعيداً عن عنق اليمامة المحاصرة ، والزهرة التي تطوقها عشرة جيوش لقطفها وشمها حتى تدمع العينان .

كانا يحبان المطر والخريف . وهناك على الشرفة الجافة ، كتب رسالة إلى الله ، ولصق بها بدل الطابع ورقة خريف ، وهوى على مقعده .

* * *

لقد أدرك بعد فوات الأوان ان صراخه من الدور الرابع « عودي يا حبيبتي الصغيرة » في ذلك الصباح العاصف الكئيب ضرب من الجنون . وقد رآها تسير متمهلة على الرصيف المقابل ، وحقيبتها مضمومة كالطفل الميت الى صدرها ، منكسة رأسها الجميل كأنها تريد أن تقول للعالم أجمع : انظروا كم أنا حزينة أو كم هو عنقي جميل عندما يتقوس كعنق الزهرة أمام الريح !

وظل وجهه المكسو بالشعر ملتصقاً أطول فترة ممكنة بزجاج النافذة ، يتأمل آخر ذرة من حبيبته في الزحام . ولم يصدق أبداً أنها ذهبت الى الأبد لا

لشيء إلا لأنه لا يستطيع ان يضع لها اخلاصه على الطاولة كعلبة التبغ ، ويقول لها : هذا هو اخلاصي . ضعيه في حقيبتك الصغيرة مع أوراق الزكام يا ملاكي . أو بالأحرى لأنه لا يستطيع أن يغرس مقوداً في طاولته ويقول لها : هيا . . دعي مشطك الآن ، وأسرعي الى جانبي يا حبيبتي لنغزو العالم . وبعد ذلك تعودين الى تسريح شعرك الجميل .

ان فكرة رحيلها الى الأبد لا تحتمل الا اذا ضُرب الرأس على حافة السرير حتى يتناثر كالزجاج . انها حياته ، وفكرة مطاردتها في الشارع مستحيلة ، فهو من أجلها يقبع منذ أربعين يوماً داخل تسعة جدران . ومن أجلها يبحث عنه نصف مليون شرطي في الليل والنهار .

ومن أجلها تمتلئ عيناه بالدموع كلما أمطرت السماء أو رأى ذراعين متشابكتين تحت نور المصابيح .

إنها وطنه الصغير الضال .

من أجلها يحكّ ظهره عبر الطاولة ،و يكشط الوسخ المتجمع على جلده كالعجين .

إن ظهره يبكي في كثير من الأحيان حتى ليخيل اليه أن آلاف العيون الزرق تنتحب وتبكي تحت جلده الملطخ بالحبر . يبكي حتى عندما يكون في أروع ساعات المرح والعناق . . عندما يضمها بين ذراعيه ، ويلويها على الأريكة العتيقة كالغصن الطويل العاري .

ومع ذلك لم تقتنع أبداً انه يحبها ، وان حياته من دونها لا تساوي علبة ثقاب .

اسمها صغير كالفراشة ، قاتل كرأس أغبر . . « غيمة » يا نحلة الشؤم يا عسل المقابر !

لكِ نسغ العظام وقشدة السفر ، ولكن عودي يا يمامتي .

* * *

لقد كان قروياً حزيناً لا تزال رائحة العنب والتلال الجرداء متخمرة في شعره ، يشق طريقه كالمحراث الصغير بين النساء ويخلفهن وراء سريره

كالأثلام ، في كل المدن والأقبية والمكاتب التي عاش فيها كصحفي وكمتشرد . كان يعتقد ان الحب هو ذلك الارتجاف الذليل الخاطف في عروق الظهر ، تلك النار المندفعة كماء الجداول حول الرئتين وأمام مصب القلب ، حيث ينتهي كل شيء بمجرد تعقيم اليدين وترتيب الشعر أمام المرآة .

إلى أن جاءت «غيمة» ، وأحكمت اللجام الحريري بين القواطع ، وحكت بأظافرها الجميلة الصافية قشرة التابوت وبريق المرآة ، وأغلقت كل الشوارع ، ولملمت كل أوراق الخريف ووضعتها في أنبوب المدخنة للذكرى . أو بالأحرى عندما جاءت لتقلب كل شيء رأساً على عقب ، وتجعل الكتب والثياب والأوراق وكل ما تزدحم به غرفته الصغيرة أشبه بأسلاب حرب لا يعرف الى من تؤول في النهاية .

ولكنه يرددها كالكروان مئات المرات في اليوم : ان حياته من دونها لا تساوي أكثر من علبة ثقاب .

اتكأ بمرفقيه الهزيلين على الطاولة ، ودم الأسى يكاد يطفر من فمه وزوايا عينيه . . دم الطفولة والشرايين الغابرة . كان كل شيء حسناً عندما جاءته هذا الصباح نحيلة وشفافة حتى لتخالها ثوباً وردياً فقط ، أرسلتها الريح الى ذراعيه من دون مقابل أو تعويض . سألته عن مرضه (كان مريضاً باستمرار) وعما اذا كانت صفارات الانذار ونواح الأشجار المبللة لا تزال تثير رعبه . ثم قدمت له الصحف والتبغ وقطعة اللبان ،ودخلت الى دورة المياه وهي توبخه لأن أوساخ المطبخ مازالت في مكانها ، دون أن تترك له مجالاً ليبرر ويجيب . . وعندما عادت وهي تجفف يديها الصغيرتين البيضاوين بأحد قمصانه ، حاول تقبيلها على فمها ، ولكنها دفعته باسمة في صد ، وجلست بجواره تئن كأنها خارجة من المستشفى : آه . . دعني أرجوك .

ـ لماذا ؟

ـ انني متعبة . . وعلى عجل أيضاً . هل عندك بعض الطعام ؟

ـ نعم . . أوه . . يا حبيبتي . . اذن أنت جائعة ؟

ونهض ، وأحضر ما تبقى من عشاء البارحة في صحاف من الألمنيوم العتيق ، ووضعها أمامها على الطاولة المكسوة بالأقلام وأوراق الصحف .

وبينما كانت تمضغ لقمتها الثانية وجدته ساهماً لا يأكل معها ، فسألته وهي تمسح فمها بقطعة الخبز : لماذا لا تأكل ؟

ـ انني حزين . سأموت حتماً في هذين اليومين .

ـ بل ستعيش أكثر من برناردشو .

ـ أتمنى ذلك حتى أرعاك في شيخوختك يا ملاكي .

ـ حبيبي . . هل تشتري لي قيثارة ؟

فأجابها مندهشاً : قيثارة ؟!

ـ نعم قيثارة . ألم تسمع بشيء اسمه قيثارة قبل الآن ؟

فأجابها ضاحكاً : بلى بلى يا حبيبتي ولكن... سأحصي أوتارها كل يوم . واذا ما جاء صاحب البيت ليطالبني بالايجار سأقضي عليه...سأعزف له بنفسي .

وعندما رفع رأسه عن الصحف ورأى عينيها تتألقان كنقطتي الحبر ، أدرك انه أثارها وجرحها ، فارتبك ، وشعر أنه أتعس انسان في العالم لأنه لا يستطيع استرداد تلك الضحكة العابرة الى الأبد . وعندما حاول أن يعيد الى وجهه ملامحه الأولى فشل وظل ينظر اليها متلعثماً وشفته مزمومة ومرفوعة فوق حد الأسنان كأنه أصيب بالبله .

ـ نعم يا حبيبتي . . سأشتري لك تلك القيثارة .

ـ متى ؟

ـ لا أظنك تريدينها الآن وفي هذه الظروف . أنت تعرفين ان ما أملك من نقود لا يكفي لشراء طنبور عتيق .

ـ ولكني بحاجة ماسة اليها .

ـ حبيبتي . . هذه ساعتي وكتبي . لا بد من أنه يوجد أحد في العالم يهمه مثل هذه الأشياء .

ـ ولكن ثمنها لا يكفي .

ـ سأعطيك أقصى ما يمكنني الاستغناء عنه من ثمن الطعام والصحف ، ولكنك ستعزفين لي باستمرار يا حبيبتي . ستعزفين لي تلك القطعة التي بكينا عند سماعها في احدى ليالي الصيف . أتذكرين ؟

ـ ناولني قطعة أخرى من الخبز . هذا البيض مالح بشكل لا يحتمل .

ـ سأضع دفتري بين نهديك وأكتب حتى تصل الكلمات إلى ذروة جنونها .

ـ هذا البيض مالح أكثر مما يجب .

ـ سأحضر لك مزيداً من الماء . دائماً أنسى بعض الأشياء .

ونهض الى المطبخ ، وتناول قدحاً أو بالأحرى القدح الوحيد الذي تبقى بعد أن حطم الأقداح جميعاً في نوبات الغضب المتتالية ، ثم غسله من آثار القهوة الراسبة وملأه من الصنبور وهو يبتسم ساخراً من سذاجتها فشراء القيثارة ليس سوى وسيلة لاختبار حبه لها . وعاد الى الغرفة ، فلم يجدها . نظر الى الطاولة ملهوفاً حيث تضع حقيبتها عادة ، فلم يجدها . كانت ملعقتها مقلوبة وسط طبقها ، وباب الغرفة مفتوحاً نحو الريح .

ضرب قدح الماء كالطابة في الأرض ، وأسرع يعدو على الدرج بمنامته وشعره المشعث كالمجنون . ثم عاد مسرعاً إلى النافذة ، فرآها تسير ببطء على الرصيف المقابل ، تضم حقيبتها كطفل ميت على صدرها ، وكأنها تقول للعالم أجمع كم هي حزينة وكم هو عنقها جميل وهو مقوس كعنق الزهرة أمام الريح .

* * *

لماذا يا ربيبة الأرصفة ، يا رفيقة الرياح ؟!

اذهبي بعيداً حيث الرصاصة قرب الجناح المجاور .

سأبتاع لك تلك القيثارة ، ولكني لن أصغي الى الرنين المباح وذلك البكاء الرائع المنفي . سأضع سبابتي على صدغي ، وأصغي الى خطوة الهرة الجائعة وهي تلوح بعنانها دون سوط أو صحراء .

وضع جبينه على حافة النافذة ، وأخذ يفكر .

من المستحيل أن يبقى هكذا ولو جندلوه على مسافة مترين من القلب . انه كالخلد الذي صب الماء في وكره ، وعليه ان يقوم بعمل ما . حسناً . أسرع بارتداء ثيابه السود التي طالما رافقته في نكباته ، وأتمم تزريرها في نهاية الدرج .

صفعه ضوء الشتاء بقوة جعلت أهدابه ترفَ كالأجنحة الموشكة على الطيران ، واندفع كالسهم في الشوارع باتجاه لاشيء . كان شعر نقرته طويلاً كشعر المرأة ، فرفع ياقته حتى لا يلفت النظر ، واخترق الشارع العام دون أن يلتفت أحد .

شقّ طريقه بصعوبة خلال الجماهير المتراصة كالفاكهة داخل الصناديق ، وهي تهتف متثائبة وملتاعة تحت مطر أيار الحزين . كان ثمة أناس يصرخون بقلوب مجروحة ، في سبيل الحرية . . في سبيل الأشياء التي أحسوا فجأة وهم يسرحون شعورهم ويزررون معاطفهم بأنهم فقدوها إلى الأبد ، وان استعادتها أكثر صعوبة من استعادة زفير الأنف اللاهث . وكانت مكبرات الصوت تحثهم على الصمت . . على تقنين الصراخ والسير بهدوء على الأرصفة بينما أخذ بعض الصبية المراهقين والفتيات القميئات العوانس ، يربضون كالدجاج عند مفارق الطرق ، وأصابعهم المحمرة على قبضات الاعلام توحي بأن زمام الأمور قد ضاع ، وأن ضوء الربيع البعيد ينطفئ رويداً ، وأن عث الحرية المهملة يزحف رويداً رويداً على العصافير والمدافع واخضرار الكلمات النابتة كالعشب على سلاسل الدبابات .

لم ير وجهاً واحداً يعرفه . مجرد دوائر من الدموع وأقراط من المطر والشعر وحبوب الصيدليات والعذاب واللحم ، تحاول أن تلحس بألسنتها المرتجفة ولو قطرة واحدة من حلوى المروءة ومذاق الشرف . وان كان يعتقد في قرارة نفسه ان الهياج يفقد أكثر الوجوه ألفة ونعومة طابعها نهائياً ، ويجعلها مجرد رقعة من التبغ والرذاذ ، مجرد شفتين قاسيتين لا تتورعان عن اصدار الأوامر بنسف نصف جماهير الشارع من أجل نسمة أو نهد أو قبعة بلون معاصر أو من أجل لاشيء .

ان جماهير المستقبل الحزينة . . جماهير الذكريات والماضي الملقى كعربة هرمة خلف الجدران . اليها يتوجه خاشعاً ومكفراً ، ولها يزمّ شفتيه ككيس النقود وينفجر .

* * *

كان الشيء الوحيد الذي يحميه من الأنظار هو ياقته ، وهو جاد في البحث عن حبيبته ، وأراد في كثير من لحظات التعب واليأس ان يسأل أي شرطي أو بائع متجول في الطريق اذا كان قد رآها ، في الوقت الذي كان يرتعد هلعاً اذا ما مرّ قطّ في الشارع . وفجأة وجد نفسه يترنح ويتمايل وسط تظاهرة كبرى نبتت فجأة كزهرة في الصحراء . كانت أصواتهم ورائحة جلودهم المتسخة بالعرق وشحم السياط لا تحتمل . ولم يجد نفسه الا وهو يفتح فمه ويغلقه كأنه موشك على الاختناق .ومدّ يديه كالأعمى الى الأمام لينجو بنفسه عندما همس في اذنه صوت : ماذا تفعل هنا أيها المغفل ؟ ماذا تفعل ؟

وجمد في مكانه . اذن لقد كشف أمره . سيقع على الأرض لا محالة . انهم يدفعونه الى الشاحنة . إنه تحت الأضواء . . رهينة الليل والخواتم المتلألئة بالدم .

ـ قلت ماذا تفعل هنا أيها المغفل ؟

وعندما رفع رأسه وعرف صاحب الصوت كاد يبكي من الفرح :

ـ لا ترفع صوتك . أرجوك . ستنبههم إليّ .

ـ ما الذي أتى بك الى هنا ؟

ـ أبحث عن غيمة .

ـ اللعنة عليك وعليها ! وهل هذا وقت غرام كما ترى ؟ لا تلتفت إليّ . الأرض مزروعة زرعاً بمن تعرفهم جيداً .

ـ نهضت لأجلب لها الماء فهجرتني .

ـ قلت لك لا تنظر إلي عندما تتكلم . يا الهي . . هل طلعت لي باليانصيب ؟

ـ نعم نعم يجب ألا أنظر اليك ،ولكني مستعد لأن أدفع نصف حياتي مقابل أن أراها .

ـ وهم يدفعون نصف مليون لمن يأتي بك حياً أو ميتاً أو محتضراً .

ـ ولكنك تعرف ظروفي .

ـ لا . . لا أعرف شيئاً .كل ما أعرفه هو ما ان يرى أحدكم قطعة حبل صغيرة بين يديه حتى يبدأ بالقفز يميناً وشمالاً حتى يحطم جمجمته ، ويضع

يده على ضماده ويبدأ بالأنين والتأوه . هيا اغرب عن وجهي . لن أشفق عليك حتى ولو رأيتك تلتهم التراب من الجوع .

تذكر أمه ، تلك المجدلية الهائمة والمرفوضة عبر الحقول الصفراء ، عبر دخان الزبل والنيران الخابية في ليالي الشتاء .

كن كمايريدون يا بني .

إنها تغني للوطن على لهب المواقد ، تتعرف الى الأمجاد العظيمة من خلال السيوف وصور الغزاة والفاتحين من خلال الأوراق المستعملة في صرّ الفلفل والأصباغ . تدرك سحر ونبل الاحتراق وحبوب النعناع وسعال العساكر المتقاعدين أمام الحوانيت .

كن كما يريدون يا بني .

انحن .

إنك كالخيزران ، ستنتصب ذات يوم .

وامتلأت عيناه بالدموع . . دموع من المستحيل ان يلحظها رجل يحمل هراوة بيده أو ان يحسّ بحرارتها وخزيها وهي تتدحرج بين أهدابه الا أولئك الذين هجروا مراراً ودفعوا دفعاً عن صدور عشيقاتهم في لحظات العناق الأخيرة .

وهذه الأثقال يا أمي ، وهذه السلاسل التي تتأرجح كالجدائل على كتفي . اللزوجة الصاعقة ، والأنغام المسلوبة . لا يا أمي لا الركبة المنثنية ولا الغناء قرب الموقد يستطيعان أن يساويا بين الحجر والعصفور .

نعم سيبحث عنها . ولكن أين ؟

انها حتماً لم تعمل راقصة في ملهى ، ولم تصبح مدرسة . لابد من انها تسير في مكان ما في هذه اللحظة ، تسير أو تجلس أو تتثاءب ، ترى الغيوم نفسها وتسمع الصرخات ذاتها . هل يحدد اتجاهها بوساطة الشمس ؟ ولكن أين هي ؟ إنها في جهنم .

وعاد الى غرفته .

ريثما تعود أو لا تعود ، عليه أن يحرق أزهار البنفسج باللفائف ، أن يستلقي على سريره كجندي في خندق .

* * *

كان فهد التنبل أديباً مغموراً كالجذور في الربيع . ومن المستحيل أن يشع ويتألق في ذلك الفصل الضبابي العابر والمجرى الذي اتخذه لنفسه أكثر حساسية وانحداراً من لسان ممدود خارج الفم ، فكان أكثر ما يرعبه ويقض مضجعه أن يأتي اليوم الذي يضطر فيه الى ان يلعق آخر قطرات الشهرة وهو جاث على بطنه كالجمل .

ولذلك عاش طوال حياته شريفاً متوهجاً داخل مجراه . يكتنز كالسنبلة بالشعر والكلمات البدائية ، محاذراً أقصى ما يستطيع أن يجعل عنقه عالياً أو منخفضاً عن حدّ المنجل القاطع خوفاً من أن تتحول كلماته الى نوع من الدقيق البشري لأنه يعتقد بأن الأدب المطبوع أو الأدب الذي يمر بين حروف المطابع وبصمات الحمالين يفقد حنانه وطهارته كالغصن الذي يسحب من وكر ضيق .

ولذلك كان يحتفظ بكلماته في رأسه تحت جلدة الذقن وفي ينابيع الحنجرة لانها الشيء الوحيد الذي يروي من الداخل ، فالفن بشكل عام هو نتيجة تجارب سافلة خارج الجلد . . عصارة رؤوس طأطأت كثيراً بمحض ارادتها . كلمات لا يهم أبداً كيف وأين كتبت وانما المهم هو أين تختبئ وتلهث وتراوغ ، وفي أي الرغبات العصية يجب أن تهزه كالأغصان ، أن تجفف من حبرها كما يجفف الطفل من دم أمه ساعة ولادته . أما الصراخ ونمو الأطراف فهما محتاجان الى دم الأم والمرضعة قبل كل شيء . وكانت « غيمة » أمه ومرضعته وحبه ومرضه .

ولذلك كان من المستحيل على الفنان الحر أن ينمو ، ان يشق طريقه في هذه الحياة الى الوراء ، والشيء الوحيد الذي لا يمكن ان يقوم به بعد ذلك هو الانتماء أو الدخول الى مستشفى المجانين ، ولذلك كان فهد في حالة يرثى لها وهو يعود مسرعاً الى غرفته بانتظار حبيبته التي هجرته أثناء تناول الطعام لأنها الشيء الوحيد الذي يلمس ، والذي يحتاج نموه الى الحد الأدنى من الضغينة والارهاب . أما الكلمات والجوارير الملأى بالمخلفات وقصاصات الورق فهي التي تبتلع كل شيء : الحرية والعبودية ، الربيع والخريف ، النوم والسهاد ، لتقدم لك في النهاية ذلك المذاق الخادع المهين الذي لم يذق منه

الا ذلك الرجل الذي يجد أن الفستقة الأخيرة التي يمضغها هي فاسدة ، وأنها ليست عن طريق المصادفة كانت الفستقة الأخيرة وليست الأولى .

« غيمة » هي الشيء الوحيد الذي يلمس ويهتز ويهجر . . الشيء الوحيد الذي لا ينضب وسيظل يتدفق وينزف من دون أن تفقد معها ذلك الطعم العسلي المنتشر كالبرص فوق الشفة الناضجة وعظم اللثتين .

ان صراخ كل أدباء العالم ومفكريه عن الحزن والشهوة والعذاب الطويل لن يهزك أكثر مما تهزك أغنية حزينة تؤديها بغي وحيدة في الشارع . ريثما تعود عليه ان يفكر طويلاً وبحقد في تلك الأيام الصعبة التي اجتازها حافياً .

ريثما تعود ، عليه ان يضرب رأسه بالجدران .

* * *

زفر زفرة طويلة ، ونهض الى المطبخ .

كان جائعاً بالفعل لانه لم يذق طعاماً منذ مساء أمس . حضّر الشاي والزيت المالح . وكان مطبخه صغيراً كمعلف الفرس ، مزدحماً بأكياس الورق الصفراء والصحاف القذرة ، والماء يقطر بكآبة من فوهة الصنبور حيث كانت تقف غيمة دائماً تغسل له صحافه وملاعقه عند الظهيرة القاتلة . لبث فترة طويلة وهو يمضغ لقمة من البيض ، ينقلها بطرف لسانه من مكان إلى مكان دون أن تكون عنده أية رغبة في ابتلاعها ، فجوفه يلفظ أي شيء كفوهة البركان اذا لم تكن « غيمة » وراءه أو أمامه أو أي مكان آخر من الغرفة لينشق رائحتها كالأعمى .

جفف يديه وفمه ، واستلقى على بطنه فوق الفراش وهو يزفر من أنفه هواءً ساخناً كالنار . لم تكن عنده رغبة في ازاحة الستار والنظر الى الشوارع حيث كانت الجماهير تتبعثر كالنحل فوق الأغصان الحجرية الغافية وقطرات الماء الكبيرة تلمع على رؤوس الأشجار التي تهتز كسعف خضراء أطفأت مصابيحها رياح الربيع القارسة وتذكر ساعات الغروب الطويلة وغيمة تتشبث به بكلتا يديها كأنه هشيم في مهب الريح ، وكيف كانت تنفض شعرها وتزقزق حوله كالعصفور الدوري . انه محاصر أبداً .

انهما يعرفان كل بلاطة بل كل شجرة وحصاة وقشرة برتقال في شوارع المدينة ثم من لا يعرف غيمة وفهد الغريبين الرائعين العاشقين المعقوفين كذيل الفرس على حصباء الدهر ؟ الأصابع داخل الأصابع ، والعيون داخل العيون ،والعالم راية بلون العقيق ، يندفعان اليها دون هتاف أو تصفيق في سبيل الحب والكسل والأمور الأخرى تحت اللحاف .

شعر بغصة عميقة في حلقه ، وأراد أن يبكي ، ولكن محال ، منذ عشرات السنين وفي كل اللحظات المريرة والليالي التي قضاها جاثياً تحت السياط مقذوفاً كالجرذ داخل المعمعة وخارجها ، لم يكن يستطيع البكاء بل تظل عيناه محدقتين كعيني العاهرة ، ولذلك أغمضهما بهدوء على السحب الزرقاء البعيده وهي تتناثر هنا وهناك مصحوبة بذلك الخوار الحزين لأغصان عارية ومهانة وسط شارع طويل رصف حتى ميازيبه العليا بالبنفسج والأنوف المحمرة من الزمهرير ، وتراءت له غلالات النوم الزرقاء تتناثر على المقاعد منحسرة كالموج البعيد الخاوي عن نهود بحجم الفستق الصغير وقد نام الآباء والأمهات بحدقات مفتوحة خوفاً من انشقاق الجدار في الليل وفكّ الحصار المحكم عن النسوة اللواتي ربين كالحمام الزاجل بأطواق الفضة والخبز المبلول .

وفجأة التفت اليها ملهوفاً عبر دخان اللفافة حيث كانت تقف بين دفتي الباب جميلة ورائعة كرصاصة بين ميتين .

واندفعت نحوه حيث يقف لاهث الأنفاس وهي تتمتم باكية : أعبدك يا حبيبي . . أعبد يديك وصدرك وثيابك وصراخك . لقد أعادني المطر إليك يا حبيبي .

كان شعرها ناعماً طويلاً يغمره ويخيفه في ذات اللحظة ، ودموعها تسيل على أصابعه وتقطر وتقطر وهي تلعق أصابعه ووجهه وصدره وثيابه كما تلعق الهرة حليبها المسفوح تحت المنضدة ، وفجأة ترجل عن الصهوة العالية ، واحتضن وجهها الصغير بيديه ، وسألها فجأة وهو يحرك لسانه أمام شفتيه المرتجفتين المتوسلتين : أين كنت ؟ فدهشت وقطبت واتخذت ووجهها هيئة العصفور الذي كان يمضغ حبة من القمح فالتقطها منه فجأة عصفور آخر ، وراحت تنتحب وتبكي :

ـ لقد كنت مصممة على هجرك إلى الأبد ، ولكن المطر هو الذي أعادني إليك يا حبيبي . كنت أسير في الشوارع . . في الأزقة . . أمام الحوانيت والصيدليات ومخافر الأمن وأنا مطرقة الرأس ، سعيدة بأنني أحبك ، وسعيدة بأنني هجرتك . اخترت الجموع ، أغني تحت الهراوات . أصعد فوق زوابع الغبار والطاعون وأنا أفكر : لماذا هجرتني فيما مضى ؟ لماذا لماذا ؟ لماذا تركتني أهبط الدرج بطيئة ضائعة كأنني أهبطه على رأسي ، وخيانتك مغروسة في ظهري كالخنجر . كنت تسوي رباط عنقك وراء النافذة وأنت تضحك . رجل حقيقي ، وخنجر حقيقي في ظهري حاد ومغروس باحكام في مكان ما من الأمكنة التي طالما داعبتها بزنديك القويين حتى انني ما كنت لأتورع في تلك اللحظة عن أن أقول باكية لأي كان من المارة عاملاً كان أم متسولاً : انظر . . هذا خنجر غرسه لي حبيبي !

ثم نامت الغزالة البرية وعيناها مغمضتان أمام النبع . لقد مالت ورأسها تحت أوراكها كالجناح المكسور . حملها بين يديه ، ووضعها على السرير ، وغطاها حتى ذقنها باللحاف ، وراح يتأملها مفتوح الساقين وهي تضطرب وتتجمع على نفسها كشحرورة تريد أن تأخذ مكانها جيداً في عشها .

ثم جلس قبالتها على الأريكة يدخن بمودة وذعر وهو واثق تمام الثقة ان الحب مهما بلغ من العظمة والقدرة والخلود ليس أكثر من ملل أخلاقي ينتاب الذكر ويحرقه كالمحلول المركز في الأماكن الشفافة من القلب حيث يتجمع دخان المقهى وغبار الشارع . وتنفجر كلها بما يشبه انفجار البندقية في الرأس . كل ذلك تمّ في الداخل بعيداً وبعيداً جداً عن سمع جارك في المقهى أو زميلك في المكتب أو صديقك في المسرح ، ثم تتخذ هذه الآلام صفة الينابيع الحلزونية المنفصلة في صحراء العالم . كل منهما يدور حول نفسه والظمأ يسبق كل شيء . واذا صدف وأخطأ أحد هذه الينابيع مجراه وسال هنا وهناك ، تجمعت رمال الصحراء كلها بكل ما فيهامن بهيمية وحقد وعزلة لتشرب كل شيء كقطيع من المساجين التعساء يطلقون بعد تجويع عشرات السنين نحو قطعة من الجبن .

هكذا كانت « غيمة » في نظره : قطعة من الجبن المفعمة بالاغراء

والضعف أمام ذلك القطيع المتكدس من الرمال في فمي وعيني المتحفز في الفم والأظافر والأسنان فوق أغلاله في الأعماق .

كانت «غيمة» ترتفع في تلك اللحظة فوق غيوم أرجوانية من الألم الصافي الحزين وقد رفست اللحاف بعيداً عنها ، ونامت مفتوحة الساقين على جنبها الأيمن كأنها تمتطي دراجة ، وقد ترك مطاط سروالها البنفسجي الصغير آثاراً حمراء حول فخذها كالآثار التي تتركها السلاسل حول أعناق الكلاب بينما سالت بضع قطرات من لعابها على الوسادة . وكانت بذلك أشبه بثمرة التين التي تفرز عسلها من ثقبها المعرض للشمس ، فتمنى في تلك اللحظة ان يقضمها قضماً بلحمها ودموعها وسروالها لولا ان تجاربه السابقة علمته بأن كل مهرجي العالم لن يهدئوا أعصابها اذا ما أوقظت فجأة من دون أن تروي وطرها من النوم .

ولذلك راح يحلم بها مجدداً ، راقدة على صدره في مكان أخضر بعيد وهو يداعب شعرها وكميها المطرزين الجميلين ، عندما انفتحت الخزانة فجأة ، وأطل منها بدويّ يعقد طرف جلبابه في حزامه ، وراح يتقدم بسيقان مكسوة بشعر طويل كشعر الماعز ، مثيراً حول قدميه غباراً أصفر ورمالاً داكنة أخذت تغطي كل شيء : «غيمة» والمقاعد والمرآة والمغسلة وقضبان النوافذ ، ثم فتح البدويّ فمه كالكهف وتقدم وهوى ماداً يديه وأصابعه المتشنجة الى الأمام بينما أخذت الرياح المحملة بالرمال تصفع النوافذ وتهزها من مفاصلها في الخارج ، حيث سطوح وأسلاك هاتف ترن في الليل الحزين . لم يعد هناك سوى الرمل ، و «غيمة» تتنهد تحت الرمال الخانقة بينما تبعثر معطفها وقميصها كقشور البرتقال .

* * *

بعد الغزو المفاجئ لعرينه ، دوى الانفجار الثالث والرابع والأخير .

تلاشى البدويّ كالدخان .

كانت الخوذ الرصاصية تلمع تحت ضوء المصابيح والشارع يلتهب بالشظايا .

«لا شيء لا شيء . مخبول القى قنبلة في برميل القمامة» هكذا قال الموظف حاسماً الموضوع . وهو يتنكب بندقيته الصغيرة ويصعد من مؤخرة السيارة .

وانتصب البعض على عتبات المنازل وهم يفركون راحاتهم وينفثون البخار من أفواههم كالقاطرات ، وأخذت النوافذ تضاء تدريجياً كما يحدث في المسارح ، ملقية شعاعها الهزيل المرتبك على أشياء غامضة مبهمة . عيون زرق وخضر وسود أذبلها النعاس . ومع ذلك أعطاها قدرة خارقة على التحديق الى تلك القمامة المتفجرة في أواخر الحرب العالمية التالية . وكان الدخان لا يزال يتصاعد من قشور الفاكهة عندما تعثر أحدهم بجمجمة بين الأنقاض ، وصرخ مذعوراً :

ـ يا الهي . . رجل ميت !

وقال أحد الجيران : أظنه متسولاً .

فأجابه آخر : أو عابر سبيل .

وتثاءب الاثنان بينما قالت احدى النساء وهي ترفع ياقة زوجها : أو من السياسة .

ثم عادت من حيث أتت وكأنها قد أنهت مؤتمراً صحفياً لتوها بينما كان هناك جمهرة من الموظفين الرسميين ، يقيسون وينقبون بين فضلات الطعام باهتمام زائد كأن القتيل ترك مذكراته هناك .

حدث كل ذلك والعصافير النائمة على أشجار الشارع لم تتحرك بل خفقت بأجنحتها قليلاً وتابعت رقادها .

حدث كل ذلك والبناية التي يقطن فيها فهد هادئة هدوء الأموات . ستائرها مسدلة ، ونوافذها مغلقة كأنها في حالة عصيان ولكن يبدو أن احدى النسوة قد نهضت بقصد التبول فلمحت بعض الموظفين من نافذة المرحاض . وبعد ثلاث دقائق لا أكثر كانت حتى الهررة في تلك البناية قد استيقظت وماءت مستفهمة عن الحادث .

وتجمعوا كطرد النحل أمام غرفته المغلقة ، وفي عيونهم وأصواتهم سيماء الاستنطاق ونبرة التمحيص عن أسباب ودوافع ومرامي ذلك الحادث

المجهول من دون أن يكون عند أي واحد منهم استعداد لمدّ رأسه من النافذة من غير أن يكون عدد من الأذرع يتشبث بخصره وكتفيه .

كانت حياتهم وحياة الملايين ملغمة بالخوف ، وان أي مداعبة لطرف الزناد تكفي لتدمير كل شيء ، ولكن الفضول وحده هو الذي يجعل أي جثة مفترضة موضع جدل وبحث طويلين كأنها تفاحة غريبة وسط الشارع .

قال أحدهم وكأنه يفتتح مؤتمراً صحفياً : حادث اصطدام .

ـ أو سرقة .

ـ من يعلم ؟ قد يكون الاثنان معاً ، وقد يكون لاشيء ، ولكن أين الجثة ؟

وجاء صوت من بعيد : لابد ان القنبلة أتت من مكان مجاور .

واضطرب سكان البناية ، بل وهلعوا ، وراح الرجال ينظر بعضهم الى بعض كالمشدوهين ، وكل منهم ضمّ زوجته أو تشبث بكتفي طفله كمقود السيارة .

ـ الحمد لله ان جميع جيراننا من الأشراف .

ـ ولكن من يقطن في هذه الغرفة المنفردة ؟

ـ لا أعلم . انها دائماً مطفأة كغرفة التحميض .

ـ صحافي . . صحافي يعمل في الجرائد .

ـ قلما نراه ، بل إنني لم أره مرة واحدة يدخل أو يخرج منها . واذا ما صدف والتقى به أحدنا في الممر يخفض بصره بسرعة ويتعثر في مشيته كأن حبلاً يعترض طريقه .

ـ ربما كان أعرج .

ـ أو خجولاً .

وقالت زوجة صاحب البناية : المهم ان يكون شريفاً .

فقال صاحب البناية : أظنه شريفاً . ولكن ما يهمني ان يكون مواظباً على دفع ما عليه .

فأجابت زوجته : بل ما يهمني هو ان يكون شريفاً .

ـ هناك فتاة تزوره بين آونة وأخرى .

ـ قد تكون أخته أو خطيبته .

وهنا قالت زوجة صاحب البناية موجهة الكلام الى زوجها : يجب أن تستوضح عن الأمر وإلا قد تحدث فضيحة ، فأنا لا يهمني سوى الشرف .

وتأبطت ذراع زوجها ، وصعدا الدرج يتبعهما ما تبقى من زبدة العائلات .

كان الزوج الذي لا يهمه سوى الشرف والايجار يكاد ينام على الدرجات الأخيرة من السلم . وقد حاولت زوجته مراراً أن تتقدمه بمسافة طويلة حتى لا تتعثر بقرنيه الطويلين . كانت زوجة يهمها الشرف فقط . ورغم انه لم يرها أبداً طوال مدة اقامته في هذه الغرفة الا انه متأكد تمام التأكيد بأن المقذوف المنوي في بطنها والذي لا يمت الى زوجها بصلة كاف لانجاب أربعة فيالق بشرية على الأقل . انه يعرفهن جميعاً بواسطة الصوت وصرير قباقيبهن المبللة بالماء .

انه يعرفهم جميعاً رجالاً ونساء شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً : زوجة الطبيب وزوج القابلة ، خطيبة الطالب ، وخطيب الأرمل ، غابة من الأعضاء التناسلية الموغلة في بعضها ، جروح وحروق وعري كالنار رغم كل ما يحيطهم من مظاهر . ثياب نظيفة وأزرار مرفوة وعتبات .

ينقض فهد على ركبتيه وقد تخدرتا من طول الفترة التي قضاها جاثياً على حد العتبة ، مسترقاً السمع والنظر من شقوق الباب ، فهذا الذباب اللعين الذي صمم على أن ينقض على حواف الطعنة يمد قرونه في أعمق أعماقها ، كأن هذه الزوجة لا يمكنها ان تنام قبل أن تغلف قرنها بالملح ، وكأن العالم كان سيتمزق إرباً لو لم تنهض زوجة الطبيب لتتبول في الساعة الثانية بعد منتصف الليل . لقد سقطت الحصاة في البحيرة الهادئة ، وستكون الدوائر أكثر اتساعاً ووضوحاً في الصباح .

سيسألون عنه منذ أذان الفجر . سيراقبون حبيبته اذا ما عادت من خلال المماسح وهي تحمل له التبغ والصحف والخضراوات ،ولن يهدأ بال لاحداهن ما لم تر راية كبيرة تخفق على سطح البناية وعلى رأسها عقد الزواج .

لماذا يلومهم ؟ وغرفته كما تراءت له منذ اللحظة الأولى لا يقطنها منذ ان دهنت جدرانها الا ضحايا العادة السرية . . أولئك الذين يصاب أحدهم بالصرع اذا ما رأى حلمة عارية ولو في فم طفل يحتضر .

وتناسوه في الصباح .

وتناسوه في المساء .

وعاد الصمت الكئيب الذاوي يعيد الى الجدران العارية لون الأشباح وصليل الأظافر المسحوبة على المرآة .

لقد تكاثفت خيوط العنكبوت حول الشرنقة ، وستظل اللآلىء مدفونة بين الأرجل حتى يتعالى ذلك الهمس المراوغ بين شجيرات المقبرة البعيدة . . حتى يتعالى ذلك الصوت البعيد من صالونات الحلاقة وغرف التعذيب . . من آبار المراحيض والمراقص المشحونة بالاغماء لتعيد الى الانسان اسمه ولونه ورياحه عبر جواز السفر والياقة المنشاة . . عبر كل تلك الأرقام والعناوين المدسوسة في لفائف الطفل .

صوت له رنين القبقاب وصليل العظام المكسورة ، قد ينبت فجأة من الجدار ويدوي . . فم مفتوح يدوي ضد العالم ، لافظاً عطشه وأحشاءه للبنفسج الظامئ والنبع المراوغ .

ان تكون وحيداً في صحراء لهو شيء مقبول وطبيعي ، ولكن ان تكون وحيداً بين الملايين لهو الارهاب اللاذع الحقيقي . ولذلك كان شيئاً طبيعياً أن ينام ويستيقظ ، ويستيقظ وينام متجهماً كأكلة لحوم البشر ، مدغدغاً الزجاج الرقيق بيديه ، نائماً على زنده كالجارية ، ولكن الى متى ؟

وكانت كل الأشياء تسأل : إلى متى ؟ كلها تسقط وتتعرى في تلك الأمسيات العاصفة . منذ ملايين السنين والريح تهب من الشرق لاوية الرجال والنساء والأشجار والأطفال دون جدوى .

نظر الى وجهه في المرآة ، فوجده غريباً ومتهوراً الى أبعد الحدود وجد أنفه مدبباً كحيزوم السفينة ، طائر بحري بلا بحر . فراشة بلا مصباح أو مصباح بلا فراشة .

بينما الظلام أكثر عمقاً واتساعاً من تلك المقابر المنفوخة بالأشلاء ،

وقف باكياً وراء النافذة كضفدعة تنفث الماء الفائض من غلاصمها . لقد نبت الريش على جناح البجعة ، ولابد من أن تبحر ذات ليلة ، مخلفة البنفسج وكتل العلكة والأحلام الضائعة واللوحات المغروسة بدبابيس الشعر .

فراشة لا بجعة داخل العطر والوباء . افريقيا افريقيا . غريبان على ظهر سفينة غريبة . كان يؤكد لها باستمرار ويده تداعب ظهرها الرقيق العاري بان افريقيا هي البلد الوحيد الذي يحتضن مسافريه بلا حقائب .

هناك جثث الغزلان تحدق باسمة الى رماتها ، والأثداء السفيهة تقصف كالأغصان من فوق الصهوات والخراطيم .

هناك حيث يسيران معاً حافيين ووحيدين ، رائعين وغريبين حتى الشوكة الأخيرة في صحراء العالم .

ولكنها تغيرت في هذه الأيام . رحلت دون عودة . «غيمة» لا افريقيا هي افريقاه الوحيدة في هذا العالم .

تأتي مسرعة ، وتخرج مسرعة ، تاركة عود الثقاب قرب القلب . حتى قبلها أصبحت خاطفة كقبل الكاهن .

أيها الغريب . . ستموت غريباً . حتى الريح لن تغلق عينيك الحزينتين وأنت تتهادى على محفتك كملاكم فقد وعيه .

كان يختنق .

كان بحاجة الى فضاء واسع للسعال .

ولذلك قرر أن يواجه العالم منتصباً أو منحنياً . . لا فرق . . بكل رياحه وثلوجه وزمهريره بهذا القميص الرقيق وهذه الجوارب الرثة والياقة المرفوعة حتى الأذنين ، فأمره لابد من أن يكتشف بين لحظة وأخرى مهما تنكر وأحكم اغلاق النوافذ .

ارتدى ثيابه وهو يرتجف .

ربط سيور حذائه وهو يرتجف .

وهبط السلم العتيق كأي مستأجر حقيقي . وعندما وصل الى ناصية الشارع ، التفت الى غرفته بيأس كما يلتفت القرصان الى سفينته المحترقة ومضى .

الفصل الثاني



كانت الشوارع هي الشوارع ، والسيارات هي السيارات . . بعد كل الدماء التي سفحت ، والأرامل اللواتي ولولن . مازال كل شيء كما كان حتى ان فهد التنبل يستطيع أن يتعرف الى أعقاب لفائفه القديمة على الأرصفة .

شيء واحد لفت نظره . كانت معظم الأشياء مجعدة ومستكينة وتعلن دون لف أو دوران أن قدرتها على الانتفاخ قد زالت الى الأبد . حتى البغايا الصغيرات اللواتي كنّ مظهراً جانبياً من مظاهرة الانحلال والبذاءة ، أصبح وجودهن رمزاً ضرورياً للشك في انسانية المجتمع الذي ينتمون اليه ، وشاهداً على أن تحاشيهن في الظلمات وتحت المصابيح هو الذروة في الملل والانتحار الجنسي ، والحلقة الهامة المفقودة في سلسلة الانتحارات الأخرى . انهم يسيرون في الطرقات منفصلين يائسين ، منكمشين كالمطاط على بضاعتهم وخضراواتهم ، يتميزون غيظاً من دون سبب ، في كل مكان وزمان . حتى في الأفراح وفي المناسبات القومية الكبرى ، ليزدحمون ويصفقون ويهتفون ، ولكن سقوط قطرة مرطبات على قميص أحدهم يكفي لان تجعله أكثر شراسة من ابن عرس حتى ولو كانت السماء تمطر .

ولذلك كان يحبهم لأنهم تعساء ومنفيون ، وأحلامهم لا تتعدى الجوارب النظيفة والماء البارد قرب فطائر السلق . لقد تعودوا الهتاف والتجمع في الساحات كما يتعود الانسان التدخين أو التجمع في فراشه أيام الصقيع والزمهرير .

ان العجز الحيواني في التفوق وبلوغ المأرب أشبه بهررة ترى قطعة من اللحم النيء خلف زجاج النافذة . لا هي تستطيع اختراقها ، ولا هي تستطيع تجاهلها وانما تذهب وتجيء وتحوم وتموء بألسنتها الحمر الصغيرة حتى يدركها الاغماء وتدرك مرغمة على ان تلك القطعة الحمراء هي مجرد قطعة من اللحم .

وسمع مواءً حقيقياً لهرة قذرة أمام مبولة فندق ، وأصغى الى أنين الغربان وهي تحفحف بأجنحتها المنهارة على ميازيب التنك .

تأمل صنابير المياه الصامتة وآثار العكاكيز والأقدام الصغيرة في الوحل . وتخيل قطيعاً عبر الرمال السافية الروث القاتم يتأجج كجوز الهند تحت الياته المهزوزة ، قطيعاً جائعاً بلا أسنان ، يواجه ريح الشمال وريح الجنوب ، بسيقانه المرفوعة وأظلافه المشطورة الى قسمين ، مخلفاً صوفه الأغبر على الحراب وجذوع النخيل . وصل الى جسر فكتوريا .

. . هنا تنهد شعبي . هنا تتكئ المرافق الهزيلة وتنظر العيون الغريبة الى نهر مشهور غريب .

هنا كان يتكئ ويسير مع حبيبته تحت المطر ، يغسلهما غسلاً كالمصابيح والأشجار وأعمدة الهاتف .

« ـ هل تمطر السماء في افريقيا يا حبيبتي ؟ » .

« ـ حوالي نصف عام على الأقل » .

« اذن سنسير طويلاً يا حبيبتي . سنحمل جذورنا في حقائبنا ونمضي حتى نورق ذات يوم » .

لقد رحلت « غيمة » . رحلت ولا يعرف إلى أين . ان المرأة هي المكان الوحيد الذي يجعل من الجهات الأربع جهة واحدة لا يمكن تحديدها .

* * *

كان قد اجتاز مسافة طويلة على الرصيف المحاذي للنهر ، معطلاً أحلامه وأحلام الآخرين بزفيره المتواصل . ولذلك جلس على أحد المقاعد الفارغة باتجاه النهر ، وبنطاله يقطر بالماء الموحل . كانت الريح محملة

بالأمطار ورائحة الشؤم . وتذكر ليالي حيث تزدحم هذه الضفاف بالنساء المحجبات وقد جلسن على الياتهن الرجراجة بينما يقابلهن على الضفة الأخرى صف من المراهقين والبؤساء والمهجورين وقد استلقوا على بطونهم كجنود الحرب حتى لا يفوتهم منظر السراويل الفاقعة والأفخاذ المنتوفة بالملاقط عندما تنهض امرأة أو تجلس أخرى ، متألمين ومتلهفين ، عيونهم ملأى باليأس والقناعة بعدم جدوى كل شيء بينما تشع أمامهم عن الضفة الثانية الأقراط الذهبية والركب التي تسطع عن فتل الجوارب ورفع السراويل المنزلقة في أثناء الجلوس . . بينما طرابيش أزواجهن تلمع كالجلطات الدموية في ضوء القمر ، وأطفالهن ينتشرون على ركبهم وظهورهم كأغصان العليق دون أن يدرك أحد ، ما في حقل هذه الظروف الحالمة المخدرة ان من هذا الخليط العجيب . . من هذا اللحم والقماش والجوارب المفتولة ، ينبت أبطالنا كالفطر في كل عام .

وحثّ الخطى فجأة نحو قبر مظلم مهجور في وسط المدينة ، نحو المطبعة التي شهدت مجده الخاطف فيما مضى . كانت المدينة مغلقة بشكل عجيب في تلك الأيام لم يألفه متسكع واحد من قبل . صحيح ان المدينة كانت تغلق دائماً في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل الا انك كنت تتوقع باستمرار ان ينفتح باب أو نافذة ما ليلقى أحدهم شيئاً أو ليكلم جاراً . أما في هذه اللحظة فقد كانت الأبواب مغلقة اغلاقاً محكماً كأنها ضعفت بقوة حتى تساقط الكلس عن جدرانها لأنها لن تلقي شيئاً بعد الآن لأن كل شيء استهلك واستنفد ، وان أفضل شيء في هذا العصر هو ازاحة الستائر قليلاً والنظر قليلاً في الحالات القصوى لان ما قد يمكن ان يراه الانسان قد رؤي مئات المرات . ولذلك ان تكون خارج منزلك في مثل هذه الساعة ، فمعنى ذلك انك منفي أو هارب ، يشمئز منك حتى مطاردوك .

* * *

لم يجد صعوبة تذكر في دخوله الى المطبعة المختومة بالشمع الأحمر اذ كان يعرف الكثير من الأبواب الخلفية والسراديب الجانبية التي يستعملها

الحمالون وندل القهوة . وكان الموظف المنوط بالحراسة يقعي على كومة من الحروف المستهلكة والملمومة جانباً على الرصيف . . حروف قديمة فرزت من الحروف الجديدة كما يفرز القمح عن الزوان . ولذلك كانت تبدو وهي مكومة على الرصيف انها استنفدت فعلاً وما خلقها الله الا لتستنفد ، ويجلس عليها موظف أرهقه النعاس .

كان الدرج الذي يؤدي الى المطبعة متعرجاً ومظلماً كفوهة البئر ، ولكن نور الفجر الأحمر ينفذ من الكوى كالسهام مما يجعل المخارط وآلات التوضيب أشبه بمستودع كبير للأجنحة المحطمة .

تأمل الجدران والزوايا الملطخة وحثالة الدهان الأحمر في الزوايا . كان كل شيء على منضدة التصحيح : الشاي المتجمد في قاع الأقداح ،وبالات الورق جاثمة تخترقها رؤوس الحراب .

داعب الحروف الصامتة بيديه . . الحروف الرصاصية ، وهي مزدحمة كالبعوض على ألواح متسخة بالزيت والغبار . وعلى الأرض صفحات غير كاملة للطباعة تهتز بعد أن استعملت لمسح الأيدي فيما مضى .

اذن من هنا كانت تهب رياح الكذب . من هنا يتقد جليد الشهرة ونور النسيان . . سطوره المختارة ، عيونه المغرقة بالنعاس . . من فوق الدرج الكئيب الفارغ ، كانت تصعد رغبات الشعب وسطوره المختارة على الأكتاف . هنا كانت صدور العمال العارية تخفق وتهتز تحت السوط ونور الفجر ، وهم يصبون الفكر في الصناديق ، يفرشونه على الورق بالأصابع . غلمان وكهول يبحثون عن الكلمات الجريئة بالسبابات ، يذهبون ويجيئون طوال الليل والنهار من أجل رجل واحد لا يراهم ولا يرونه ، يقبع هناك في الدور السابع من بناية أخرى ، يشعل لفافته بذات «المئة» ليفكر في هموم الشعب . يلبس نظارات ذهبية الاطار ، يطعم عشرين عائلة ليرى بوضوح أشد أقصر الطرق لانقاذ الشعب . أين الشعب الآن في هذه اللحظة حيث الريح تصفر وتخترق بهذه المسننات والحروف الجاحظة حتى الأرصفة ؟

أين النظارات الذهبية والدخان المتصاعد في هذا الفجر الصامت الحزين ؟

أجمل الأصوات وأكثرها عنفاً وفروسية كانت تنفجر خلال صمت الصباح على شواطئ غرناطه وأمام الساحات المخضبة بالدم تحت قناطر روما .

أين الابهامات المشققة والآذان المملوءة ببرادة الحديد ؟ أين التلامذة الفينيقيون الذين تمزقوا ارباً بين القمع والهتافات ؟

إنهم راقدون في سفنهم الطويلة ، يفركون أعضاءهم التناسلية على الشراشف المغسولة بأيدي الشقيقات والأمهات .

قلّب الحروف بيديه ، ومسح أصابعه بالجدار كأنها تلوثت بالدم . ودار للمرة الأخيرة حول المطبعة ، وانبثق الى الخارج .

كانت الريح ما زالت تصفر ، ولكن المطر قد انقطع ، والموظف المنوط بالحراسة مازال ممسكاً بندقيته كأنها زنبقة وهو راقد على عمود المصباح بينما راح كلب ضخم يشم كومة الحروف المهملة . ثم ما لبث ان رفع قدمه بشكل أفقي كأنه يؤدي تحية ، وبال عليها ومضى يهرّ بغضب .

نظر الصحفي القديم الى ذيل الكلب وهو يختفي عند المنعطف ، ثم مرّ أمام الموظف النائم في معطفه ، وتأمل بندقيته المخيفة الفوهة ، وتمتم : لقد آن فطامك أيها الرصاص .

ومضى من حيث مضى الكلب . . الى أقرب مخفر .

* * *

اذا أردت أن تستثير فتاتك ، حوّم بشفتيك على وجهها . . حوّم طويلاً حتى ترتجف شفتها السفلى كورقة الريحان وتغور مخالبها في ثيابك ولحمك الى الأعماق . أما اذا أردت أن تستثير القدر فارتم عليه مباشرة كأنه سرير أو مقعد ، فسلامتك مضمونة كزر في عروته لأن القدر الشرقي ليس كأسد السيرك يهمهم ولا يفترس من طول المران وعذاب العادة بل لأنه قدر جبان . ولذلك لم يرتم فهد التنبل على قدره فحسب بل جلس بارتياح في أحضانه . ولولا سوء الفهم وسوء التأويل من قبل البوليس لصفق بيديه طالباً جريدة أو قدحاً من المثلجات يشربها نخب الفزع والتراجع لأنه

توصل الى نتيجة لا تقبل الجدل ،وهي أن العين بامكانها أن تجابه لا ميخرزاً واحداً فحسب بل عشرين مخرزاً اذا كانت العين لا يهمها على الاطلاق أن تبصر الأشياء المحيطة بها .

وكان على كل حال قد قرر منذ أن فكوا القيود عن يديه أن يجيبهم عن أي سؤال حول أي موضوع لولا ان أحدهم ألغى هذا القرار فجأة والقاه في سلة المهملات . . لولا ان هذا «الأهم» صفعه على وجهه . . على المناخ الوحيد لكبريائه ، فالأطراف البشرية الأخرى يمكن اخفاؤها بطريقة ما . أما الوجه فلا يمكن بأي حال من الأحوال اخفاؤه بقميص أو سروال . ولذلك عضّ على شفتيه ، ودفع دموعه الى حوصلة سرية في أعماقه كما يدفع القرد لقمته من فك الى آخر ، وصمم على المجابهة بعينين لا تعرفان الرحمة .

* * *

ليست هذه المرة الأولى التي يدخل فيها السجن لأسباب سياسية ، ولكنها المرة الأولى التي لم يستقبل فيها بتلك الهالة من التشفي التي كان يحلم بها حلم المتنبي بالحمى . لقد تجاهلوه . ادخلوه في مئات الأمكنة وأخرجوه منها دون أن ينظروا الى وجهه ودون أن يكلفوا أنفسهم مهمة التأكد من أن هذا الشيء المخفور هو انسان أم بالة من القطن . وكل ما كان يحسه هو أنهم يسلبونه شرفه ومبرر وجوده قطرة قطرة وهم منشغلون في موضوع آخر كالمرأة التي تحلب بقرتها وهي تتحدث مع جاراتها عن عزق الباذنجان .

يذكر الآن وهو يترنح في باحة السجن بانتظار تفتيش ثيابه انه لم يضرب في الوكر الذي أعلن استسلامه فيه ، ولم يصفع كما كان يتوقع بل انهم استقبلوه دون دهشة كأن ذلك شيئاً طبيعياً في ذلك الجمرك البشري . حتى ان الرئيس الذي فتح له باب الزنزانة قال له رأساً وكأنه يتم حديثاً سابقاً : «لا توجد أغطية كما لا يوجد طعام ، ولكن اذا شعرت بالجوع فكلْ قطعة من حذائك» .

فامتقع وجه فهد التنبل ، وجلس على شيء حاد كالخازوق . ربما كان أنفاً أو كوعاً ما بينما خاطبه صوت من الزوايا : «لا تبتئس يا أخ . لقد اقترح علينا يوم أمس أن نأكل قضبان النافذة» .

فرنّت كلمة « علينا » في أذنيه رنين الجرس الذي يبشر بأن ثمة قطيعاً كبيراً وراء الكبش . اذن هناك كثيرون في مكان ما . والتفت ليسأل الصوت الذي خاطبه واذا به يجد عدداً لا يحصى من الرؤوس تبرز من تحت الأغطية .

« ـ حسناً . اقترب يا أخ . كلنا أخوان دون شك . واذا لم نكن اخواناً في الوقت الحاضر فسنصبح كذلك فيما بعد . لا لا . تعال الى هنا » .

ثم أشعلت اللفائف ، ودوى صوت البابور ، وأعدت الفناجين ، وتحلقوا حوله كالراوي وقد أذهلتهم ثيابه المدنية الأنيقة وشعره المسترسل حتى شحمة الأذن بينما سأله أحدهم بامتعاض وهو لا يفتأ يصفع ذبابة تحوم حول وجهه : « لماذا أتوا بك الى هنا ؟ ما قصتك ؟ » .

« ـ معتقل سياسي » .

فهمهم الجميع ، وغيروا من أوضاع جلساتهم كأنه قال لهم « حدثت حرب عالمية » بينما قال أحدهم وهو في دورة المياه : « لعنة الله على السياسة! » .

« ـ وما قصتك أنت ؟ » .

فأجاب الذي ينكش رأس البابور دون أن يلتفت اليه : « نكح ولداً وسيخرج قريباً » .

فأجابه آخر : « الولد كان بالغاً والا لأنجب أكثر من ولد في هذا الوكر » .

« ـ هو الذي أغراني » .

« ـ لا لست بحاجة الى اغراء . موهبتك في هذه الأمور موهبة فنان حقيقي » .

وسأل الفهد عجوزاً يحاول قدر الامكان أن يجعل من صمته وشروده نقطة تحول تاريخية في الموضوع : « وأنت أيها العجوز ؟ » .

« ـ رفضت دفع النفقة لزوجتي ، وسأظل رافضاً حتى تركع عند قدمي . كرامتي قبل كل شيء » .

« ـ وهل طلقتها منذ زمن بعيد ؟ » .

« ـ نعم . منذ أن نبت قرني الأول (وأخذ يحك جبهته وهو يضحك مع

الآخرين) هجرتني مع أطفالي من أجل صعلوك كان يعاشرها وراء الستار في حانوت معلمه» .

وسأله أحدهم : «وكيف عرفت ذلك ؟» .

فأجابه بطريقة تدل على أنه روى هذه القصة مئات المرات : «حسناً يا أولاد الزنا . انكم تتلذذون بهذه الرواية ، ولم أتوقف عن روايتها لحظة واحدة . ومع ذلك سأقصها مرة أخرى من أجل ضيفنا الجديد لا من أجلكم ، ولكن بامكانكم أن تستمعوا اليها : كنت عائداً من عملي في وقت مبكر اذ أصابني مغص مفاجئ حتى خاف ربّ العمل ان ألد بين يديه ، وأمرني بالانصراف قبل الموعد بساعتين . وقبل أن أصل الى البيت خطر لي أن أمرّ على الحانوت . . .» .

فقاطعه أحدهم قائلاً : «لتشتري تنباك» .

« - ومن الصدف التي لا تصدق الا في الروايات هي ما ان ولجت باب الحانوت حتى رأيت زوجتي تخرج من وراء ستارة في الداخل وهي تسوي ملاءتها ، يتبعها صبي الحانوت وهو يدفع قميصه داخل سرواله الفضاض ، ويقول لها : انك لذيذة جداً في هذا المساء .وصرخت كمن وضع فلفلاً في مؤخرته : من هي اللذيذة يا ابن الداعرة . وصعق الاثنان» .

ثم تفل بعض التبغ من فمه فجاء بعضه على وجه فهد التنبل ، وتابع حديثه : «لا تتصوروا موقفي أيها الأصدقاء . فقدت صوابي وطار عقلي كالعصفور . ولم أتناول قطعة من ذات الكيلو أو الكيلوين بل تناولت الميزان برمته ، وأهويت به صارخاً : يا زانية يا أم الأطفال ! ولكن هل تصدقون بماذا أجابتني وهي مازالت ترفع ملاءتها : لا ترفع صوتك . لقد سمعك كل من في الشارع . سأروي لك كل شيء في البيت . فصرخت بها : لا منزل لك بعد اليوم يا داعرة ، فقالت باكية : ليأخذني الله الى جهنم اذا كان هناك ذرة مما تفكر فيه .كل ما هنالك أنها شعرت بوهن أثناء اعداد الطعام ، ولذلك حملت أنبوباً من الابر المقوية ، وذهبت الى صبي الحانوت كي يزرق لها ابرة كأنه طبيب أو صيدلي في احدى الصيدليات .

ثم أخذت تولول وتؤكد بأغلظ الايمان انه غرس الابرة في فخذها من

فوق الملاءة . وقد أكد الصبي ذلك ، وقال لاهثاً : نعم نعم من فوق الملاءة .
فقلت له : حسناً يا دكتور . انك لن تفلت من يدي على الأقل . أما أنت أيتها العنزة الجرباء هيا أمامي الى المنزل . وفعلاًراحت تتمايل أمامي مسرعة كالعنزة التي تركت تيسها وحده بالمرعى . وفي المنزل انقلب الموضوع رأساً على عقب ، وتركز كل هذا الموضوع العظيم المتشعب والمليء بالذيول والمفاجآت في شيء واحد بسيط . هي تقول انه ضرب الابرة من فوق الملاءة ، وأنا أقول من تحتها حتى جفَ حلقي ولم يعد صوتي يخرج الا بصعوبة . وفي الحقيقة أثرت بي دموعها كثيراً حتى خشيت أن أكون مبالغاً في تصوير الحادث وهي التي كانت رائحتها كالياسمين طوال حياتنا الزوجية ، غيورة علي وعلى أطفالي ومنزلي الى درجة لم تعرفها الغجريات ذاتهن ، ولكني صرخت فجأة : ولماذا كان يرفع سرواله ؟ فأجابت وهي تخبط على صدرها : انه ليس سرواله . إنه لأخيه الكبير . لأخيه الكبير يا ظالم يا عدو الله .

وارتمت على السرير بطريقة كأنها تقول : رجل يا محسنين لله .

فاندفعت اليها كالسنجاب لأنهي هذا الموضوع الوسخ . واحتضنتها من الخلف ، وأخذت أتنشق رائحة شعرها الأجعد القصير . كانت حارة وشهية تجعل أي تبرير لخيانتها السرية مقبولاً ومستساغاً كقطعة السكر ، ولكني ما ان هممت بتقبيلها أو ما يشبه ذلك حتى تذكرت ذلك الصعلوك ، فنهشتني الغيرة نهشاً وأنا أتخيله ملتصقاً بهاوراء الستارة ولذلك دفعت يدي بلا تردد تحت ثيابها . . » .

وهنا أشعل الجميع لفائفهم واقتربوا منه جيداً . ويبدو انه شعر باهتمامهم الشديد بهذه المرحلة التاريخية من الموضوع ، فأعاد مكرراً : «نعم . . دفعت يدي تحت ثيابها علّني أجد بعض الرطوبة أواللزوجة حتى أفصل في الموضوع نهائياً ، فطار صوابي اذ لم أجد سروالها اطلاقاً . . »

وهنا أشعل الجميع لفائف جديدة من الأعقاب الأولى بينما عيونهم محدقة الى شفتيه . وقد أردف بصوت غاضب : «نعم . . طار صوابي وقفزت من السرير وأنا أصرخ : طالقة طالقة طالقة . . » . ثم أردف

قائلاًوقد تهدج صوته : « وهكذا انهار كل شيء . لي ولد في الاصلاحية ، وآخر تخرج منها ، وبنت صغيرة تعيش عند عمتها ، ولا يستبعد أن تموت وهي تكنس لها فضلات زوارها يوماً بعد يوم ، ولكني سمعت أن أميراً عظيماً قد وقع في غرامها . يشتري لها كثيراً من المجوهرات والثياب ، ولكنها لا تزورني أبداً لأنها تخجل مني . لقد كانت طفلة حنونة ورائعة ، تحب الخوخ الأحمر كثيراً . أذكرها عندما كانت حبة واحدة تملأ فمها . . » .

وطفق يبكي ، عند ذلك نهض أحدهم ، وأسدل عليه غطاء أزرق ، ثم التفت الى فهد التنبل قائلاً : «انها قصة من اختراع بنات خياله ليس فيها أي ذرة من الحقيقة . ومع ذلك فهو يرددها كل يوم . لقد قبضوا عليه وهو يتلصلص على امرأة من نافذة الحمام . المرأة قبيحة جداً ، ومع ذلك كان يتلصلص عليها باستمرار الى ان قبضوا عليه » .

وتذكر فهد التنبل كيف تكوم بثيابه في احدى الزوايا ، وفتحتا أنفه قريبتان من أنف الرجل العجوز ، وقد انفصل عن ماضيه انفصال الرأس ، وراح يدخن بكثرة ، يمتص اللفائف امتصاص الحوذية والسكيرين حتى شعر بأن النيكوتين قد أخذ يرتفع في بلعومه ارتفاع الزئبق في الأنبوب .

ان ذكرياته عن الأيام المشمسة وصفير الغلمان في الشوارع والموسيقى الحزينة في آخر الليل بل ان مأساته الفكرية كلها لن تكون في الأيام القليلة القادمة الا جلبة بعوضة كسيحة بين هذه الرفوف المتراصة من العقبان الشاردة .

* * *

جثا على ركبتيه يتأمل خصل الشعر الكستنائي تنفثها ماكنة الحلاق من رأسه الى الأرض ، فشعر بأسى عميق عميق اذ كانت هواية « غيمة » المفضلة ان تعبث له بشعره وتغرس فيه أصابعها بعد أن ينتهي من تسريحه . ولذلك كان ينظر ضاحكاً الى خصل الشعر المقذوفة على البلاط وكأن أصابع « غيمة » بترت معها .

إنه يكره كثيراً أن يلمس أحد شعره لأنه ملك لأحبابه . فالشعر بالنسبة له ولأي شرقي خالي الوفاض كالغيوم بالنسبة الى السماء . . كالأوراق الخضر

بالنسبة الى الأغصان . ولذلك عندما قدمت له المرآة دفعها بعيداً بيده لأنه تكهن سلفاً بالهيئة المرعبة التي آل اليها . وحسماً لكل شعور بالتقزز والهستيريا ، انتصب على قدميه وسار بهدوء بين موظفين عملاقين الى غرفة صغيرة جداً يجلس في زاويتها موظف ما يجفف جوربيه على لهب المدفأة .

« ـ اسمك ؟ »

« ـ الفهد التنبل » .

« ـ عمرك ؟ » .

« ـ بين ٢٣ و ٢٤ » .

« ـ بالضبط »

« ـ لا أعرف » .

« ـ عملك ؟ » .

« ـ متشرد » .

« ـ مكان الاقامة ؟ » .

« ـ كما ترى » .

سار الموظف على كعبيه باتجاه الفهد ، وصفعه بقوة على وجهه . قائلاً : « اذهب وقل لذلك الموظف أن يأخذك الى الجحيم » .

« ـ نعم الى الجحيم . ألم تسمع ؟ » .

وصفعه مرة أخرى على وجهه ، ثم مضى الفهد الى موظف كان يتأمل وجهه في مرآة صغيرة وقد نفخ خديه كطفل في عيد الميلاد .

« ـ نعم . . ماذا تريد ؟ » .

« ـ يقول لك حضرة الموظف أن تأخذني الى الجحيم » .

« ـ حسناً » .

ومضى به الموظف الصغير وهو يشده من أذنه كالجرذ عبر ممرات وأبواب ودهاليز العودة منها أكثر صعوبة من العودة الى أيام الطفولة . والموظف ما انفك يضربه عند هذا الدهليز ، ويقرّعه عند ذاك : صحفي . . صحفي كلب . ماذا تكتب عن الكلاب ، وأهلك من صفوة الكلاب ؟ » .

« ـ انك تكاد تقتلع أذني » .

«ـ يا للرقة ! هل يؤلمك هذا الغضروف اللعين . اذاً كن على ثقة بأنك لن تخرج من هنا حتى تتلاشى آخر ذرة منه على ابهامي هذا » .

ثم فتح له كوة صغيرة ، ودفعه اليها مبشراً : « لا تظن أن هذا هو السجن . لا . انه محطة . محطة صغيرة سننقلك منها في أي لحظة عندما يصفر القطار » .

«ـ أي قطار ؟ » .

«ـ قطار صغير ذو شراع بحري ، ينقل الفراشات الى الحقول ، والأرز الى الطيور المحاصرة تحت الثلوج . قطار من الوحل والدم . . من العظام والغدد المسحوبة بأصابعي هذه . سيمر بك بعد ساعة أو ساعتين نافثاً دخانه الأسود في وجهك الذليل ، تنطلق منه بعد أجيال عبداً أسود بلون الليل ، تطلق سهامك المضيئة في الشوارع ، صارخاً عبر المكاتب وصالات الرقص : أنا الصحفي الشهير . . هل من مبارزة ؟ » .

ثم أدار المفتاح في قفله ثلاث مرات على الأقل ، وانصرف يقهقه .

* * *

وقف الفهد مذهولاً وسط الزنزانة ، زنزانة صغيرة وعارية عري البغايا ، تضجّ بأشباح الرؤوس الحليقة المرتطمة بجدرانها فيما مضى . وكان في جانبها الأيمن مصطبة منحدرة من الاسمنت ، فصعد اليها وتكوم على نفسه في الزوايا ثم وضع ذقنه بينه وبين ركبتيه كأنه يتحفز للوثوب على العالم .

وكانت ثمة أصوات بشرية في الخارج . أصوات هامسة تتدفق في أرض لا مبرر لوجودها أصلاً . لقد زار هذا المكان من قبل ، ويعرف ان هذا الوقت هو وقت تناول طعام العشاء ، الوقت الذي يقضم فيه الانسان خبزه بمرارة كأنه يقضم قلوب أطفاله . وتذكر الشوارع المزدحمة عند الغروب ، والجلوس المريح وراء زجاج المقهى . لم يكن جائعاً ، فأبعد صحنه جانباً ، وراح يتأمل السقف والأرض والجدران ، فلم يجد شيئاً سوى عرق الرؤوس وبعض الذكريات المحفورة بالأظافر وذبابة حمراء ترفرف حول المصباح الباهت وتحوم بأجنحتها المضحكة كأن ذكرها محاصر داخل الزجاج ، فاستمتع بمراقبتها بل وضع يده تحت ذقنه وراح يراقبها بذات البهجة التي

يراقب بها بدوية تحوم حول فارسها المقيد الأطراف ، ولكن استرخاء أجفانه جعله يسارع الى وضع حذائه تحت رأسه والاستسلام للنوم .

ولكنه استيقظ فجأة على صوت الموظف وقد فتح باب الزنزانة وصرخ به قائلاً : «لماذا لم تعمل في مدبغة . . في تنظيف الشوارع بدلاً من الكتابة ؟ لقد مات أبي ولم أشترك في جنازته لأن مطاردتك ومطاردة غيرك لم تسمح لي بذلك . انكم ضد الموت كما أنتم ضد الحياة . وعلينا أن نوازن بين هذين الهدفين كما توازن كرة على رأسك الأصلع هذا .حسناً . فشلتم في كل شيء ، أصبحتم أدباء . وكل ما تفعلونه هو ان تخربشون قليلاً وتقلبون الدنيا رأساً على عقب لدرجة ان يموت والد أحدنا ولا يستطيع أن يشترك بجنازته ، ثم نبحث عنكم في كل مكان ، وصوركم في أذهاننا تفوق الوصف . أحرار . عمالقة . يسيرون على ذرى الجبال وفي مقدمة الصفوف ، ولكننا أبداً لم نقبض على واحد منكم فوق قمة أو عبر شارع بل خلف صندوق أو تحت سرير» .

ثم نفث سحابة من الدخان الأزرق كأنه يريد أن يعيدها الى أنفه ، ثم تابع قائلاً : «زميل لك قدم لي صورة زوجته وهي نصف عارية من أجل لفافة . ولكن هل تعرف ماذا قلت له ؟ لقد قلت له أن يشعل اصبعه ويدخنها . وعندما كان يتبختر بقميصه النظيف وسرواله اللماع . أين كنت أنا أو مليون شخص على شاكلتي ؟ كنت أتنكب هراوتي الحديدية والريح تسلخ جلدي سلخاً وأنا أدور وأدور حول جدران السجن خوفاً من أن يهرب أرنب منكم . تصور رجلاً مثلي تصرف عليه الدولة أو بالأحرى صرفت ما يعادل وزنه ثلاث مرات كي يدور فقط حول جدران سجن في الريح خوفاً من أن يهرب أرنب منكم . نعم . . أقول أرنب وأنا أكز على أسناني لأنكم كلكم أرانب ، تربضون في الزوايا وتحت الأغطية وهدفكم الوحيد الغالي بعد كل الهتافات والخطابات سيجارة . ثم تنتحبون كالنساء من أجل المحافظة على شعركم كأنه لن ينبت أبداً . لقد رأيتك جاثياً تتأمل شعرك المسفوح على الأرض كطفل حطمت دميته أمام عينيه . لماذا يا كلب ؟» . ورفع قبعته ، وشد شعره بأصابعه صارخاً : «إنه ليس أكثر من شعر . شعر ينبت كالقمح في

كل لحظة . المدير نفسه حليق الرأس حتى ان شعرك هذا أطول من شعره . كشطه بالموس أمام أعين الملايين ، ولكنه مرح دائماً ويحتسي الخمر باستمرار . كان من المفروض أن يحضر هذا المساء ، ولكنه لم يحضر . من يجرؤ على سؤاله ؟ ربما حضر الآن بعد اغلاق الحانات . ربما انبثق من هذا الجدار فجأة ليحقق معك . كن حذراً معه . . حذراً جداً والا ستقضي بقية حياتك بلا أنف أو أذن أو أي شيء تطاله يد ممدودة من وراء الطاولة . إنه يمقت المسكنة في الوجه . يكره الرجال الذين لا يصرخون . يحب أن تبكي وتصرخ بكل طاقتك بمجرد ان ينظر اليك . انه يحب بكاء الرجال بصوت مرتفع . يحب العويل الطويل عبر القاعات الصامتة ، والأوراق المتناثرة هنا وهناك . ويأمرني دائماً بأن تفتح النوافذ كي تذهب فضلات الأصوات كما تذهب فضلات المقاهي والمطابخ . يبدو انك غير مكترث بما أقول ، بل وتكاد تنام . حسناً . هل ترى شاربك هذا ؟ سوف تتركه في أي وقت في اضبارتك وتعود وفمك ينزف دماً كعرف الديك . كاتب . كاتب وصحفي . حقيرون . مات أبي ولم أحضر جنازته لأني كنت أبحث عنك وعن أمثالك من الأرانب . . » .

وتمتم الفهد في سره : خير ما فعله أبوك انه مات بعد أن أنجبك الى هذه الحياة .

وبينما كان الموظف يهمّ بالخروج اصطدمت الذبابة بوجهه ، فثار ثورته القصوى ، وظل يثب ويقفز ويخبط على الجدران حتى جندلها . ثم مضى صافقاً الباب بقوة وهو يسوي قبعته على رأسه .

وعند ذلك شعر الفهد بأسى عميق لموت الذبابة ، وأطفأ المصباح .

الفصل الثالث



تأمل يده المتدلية في حجره بشعرها الأشقر الناعم وعروقها المنتهية في الأصابع انتهاء الأنهار في البحر ، فاشمأز منها كالحشرة . ثم ما لبث ان هزّ رأسه شفقة معللاً . لقد كانت يده على كل حال . إنه يتفرد بها على كل حال . اذْ ما من انسان في العالم له مثل هذه اليد بأصابعها وأظافرها وشعرها الأشقر الناعم . هذه اليد التي امتلأت بالمعول والقلم والنهود والدحل وتذاكر السينما وشعر الرفاق . إنها ذابلة كوردة في الصحراء ، فارغة ومغلقة كفم بلا أسنان ؛ وأقل حركة تسقطها على الأرض .

ترى هل يستطيع الكتابة بعد الآن ؟ إنه يشك في ذلك ، فملامح الاحتضار واضحة عليها ، وسمات الجنون والعزلة تبرقعها من جميع الجوانب .

ثم هذه القدم المفلطحة والتي كثيراً ما تشبهها « غيمة » بسفينة دمرتها العاصفة . إنها عالم قائم بذاته . تاريخ مفلطح ، لا رواة له ولا مستمعين . سفينة من اللحم . . بل من الحقد والتراجع . بها صعد السلالم وهبط في الآبار . تسلق أشجار المشمش الخضراء . ركض على الأرصفة وبين الحافلات . ثلاثون عاماً وسيور حذائه تقفز ذات اليمين وذات الشمال . . سياط بمستوى الأرض ، تجلد الأيام المقبلة والأيام المدبرة ، فوق وبر السجاد وحصى الاستعراضات المحصنة بالخيول . وهاهي الآن وحيدة بائسة قرب حذائها أشبه بحشرة خارج صدفتها .

إنه مجزء مبعثر كزجاج نافذة قذفت بحجر ، شامخ ومليء بالعهر والرضوخ ، يموت عطشاً كي يكون امرأة . . امرأة في كوخ . . ذبابة في ميدان . . حذاء برتقالة . . طفل أعمى . . قرد في غابة ، وليس رجلاً متسمراً بين أرض وسقف .

جميل ورائع بهذه البذلة المنتقاة والقمصان التي غسلت ونشرت مئات المرات أمام أعين المارة ، ولكنه بحاجة الى شيء آخر . . خارج الجلد . . شيء ضبابي مفعم بالثقل والطاعة ، لا يقفز ولا يهيم بل يلتصق ويتسمر من أجل الشكوى وهزّ الرأس كالجواد . . وردة من الجنون . . من الهستيريا . . تحفحف بأوراقها وتصغي . مكنسة تلمم قشها كالذيل وتقعي قبالته تماماً أمام الفم والحاجبين لتراقب الفهد المحطم وهو يزحف كدودة القز على ورق الصحف ودورات المياه في سبيل التخلص من المثالب والشعارات الطاعنة في السن .

ناكح ولد أو ناكح جدار ، رئيس شركة أو راعي غنم . . أي شيء يريد رفقته ، يتشمم رائحته ، ويقول له : كنت أحب وطني يا رجل . ليتهم يحققون معه الآن ! في هذه اللحظة وهو يحوم كالعقاب فوق الآلام المتفجرة كسدادة الفلين . لتلك الآلام الكثير من الأشياء والقصص التي يود قولها . . أشياء لاتخطر ببال رجل شرقي . لأنها ليست في الذاكرة بل حولها . . تدور حولها منذ أجيال كلاب محنية الخواطر ،عقبان ملتفة بأجنحتها ، تعرف أن طرائدها في نقطة ما ، وعليها أن تدور حولها وتدور حتى تنفجر الدائرة أو تتشقق أو تزول . . من المدرسة الى القمة الى ساحة الرمي . . شيء لا يحتمل . . شيء في حجم وطنه وبؤسه وجنسيته يود الاعتراف به طرفاً وشهيقاً وخبطاً على الطاولات . . الآن الآن وفي هذه اللحظة والا انفجرت الدائرة وولت الطرائد . . الآن . . كأن هذه الأشياء التي سيتحدث بها عن وطنه وبؤسه وجنسيته قد ينساها فجأة كما ينسى حادث اصطدام في الشارع .

ولكنهم لم يأخذوه الى التحقيق ولا الى الحمام ولا الى الاعدام ، ولم تهبط سلة من السقف ملأى بالأوراق والمهرجين . انه مازال وحيداً ، مترامي الأطراف في هذه المملكة العجيبة ، ولم يكن ليعكر عليه خلوته وأحلامه سوى

الشرطي الذي يضع له صحون الطعام ويعود بعد قليل لأخذها ثم الحلاق الذي يحلق له ذقنه تحت رقابة شديدة .

كانت حلاقة الذقن في الصباح الباكر وبتلك الموسى الصدئة والماء المثلج عملية استشهاد حقيقية . ولذلك كانت أسنانه تصطك بين يدي الحلاق وهو يطبق فكيه فوق بعضهما كأسد تنزع لبدته أمام عينيه دون أن تكون له القدرة حتى على الشعور بالتوجع ، أو الاشمئزاز .

وكان الحلاق كريهاً جداً وذا نفس شبيه بنفس الضبع ، وعينين مليئتين بالعروق الحمراء الملتهبة ، لا يعتذر ولا يرف له جفن . حتى ولو قطع أنفاً وأزاله مع الشعر والصابون لاعتبر ذلك من صميم اختصاصه ، ولذلك كانت الجراح تتلو الجراح في وجه الفهد وعنقه وتحت جلد الحنك المهدد . جراح دقيقة تظلّلها بقايا الشعر والصابون . ولم يكن ليغسل وجهه أبداً ، ولا يأكل ولا يتبرز ولا يتحرك . لقد قرر أن لا يقوم بأي مجهود يعيد الى ذاكرته تلك الحيوية التي يتمتع بها بضعة رجال صلفين يعدون على رؤوس الأصابع في العالم كله . الذاكرة الساطعة المستقلة . . كالمظروف الذي وضعوا فيه محتويات جيوبه .

وراح يضرب رأسه بالجدار . يتدحرج يميناً وشمالاً غارساً أظافره الطويلة في لحمه ، رافعاً ساقه الحافية في الفضاء ، مصغياً الى أظافره وهي تطوى وتتكسر على الاسمنت الأزرق العاري .

لقد انقلب فجأة الى فارس صغير من البلور ، تحطم وتناثر في الزنزانة ، ولم يبق منه الا السوط واللجام ، وتلك الرغبة المحمومة في الركض ، والقفز فوق العصيدة الجامدة وفضلات الموظفين المتدفقة في عروق الأرض . . عبر أسنان الموظف النخرة وأنين المرضى والمشوهين .

أبداً ترقد اليمامة على غصنها دون طبول وحاشية وجواربها تتأرجح على حافة المقعد ، وافريقيا تثب كقطة من برتقال بين الأقفاص النهرية والفؤوس المعبقة بلحم العمال والمهاجرين ، و « غيمة » مستقلة بكامل عريها وهياجها على سريرها العتيق مع زميلاتها العوانس ، مضفورة الشعر ، حزينة ، تضرب اللحاف بكفها الصغير ثم تنهض وشاماتها الكرزية بلون

رابطة نهديها الصغيرين ، وغضاريف أذنها تأخذ لون البنفسج من كثرة ما تلهث بالقلم المبلل في أثناء الدراسة . كانت ترقد في حجره وتقرأ . . تقرأ عن الفلسفة واللغات الحية . وكانت دراسته الوحيدة هي ان يحك لها أسفل قدميها حيث تثور وتقاوم وتنتفض وتضرب وجهه بود ثم ما تلبث ان تمسح مكان اللطمة بيدها وتقبلها . . ثم تقذف الكتاب ،وتشد ثوبها حتى الكواحل ، وتعض في الزوايا تقاوم خلف الطاولة وكتابها بيدها ثم تصفعه على خده وهي تزمجر ، ولكن ما ان يقابلها بتلك العينين الوحيدتين المقهورتين حتى تمسح مكان اللطمة بيدها وتقبله بشفتيها ، ويذهبان الى الفراش وهي مزمجرة وعاصية ثم لا تلبث ان تهدأ كعصفورة تحت عصفورها .

وطار صوابه عندما صرخ صوت ما واخترق أذنه كالسكين . .

صوت وحيد وشجي يؤكد لسامعه بأن للصمت ضريبة باهظة يجب أن تدفع في كل لحظة دون تردد أو مماطلة .

« ـ فهد التنبل » .

« ـ حاضر » .

« ـ هيا أمامي . وحذار أن تلتفت يميناً أو شمالاً . لا تأخذ شيئاً من أمتعتك . ستعود ، واذا كنت في وضع لا يسمح لك بأن تدرك بأنك ستعود فعلاً سنخبرك بذلك .

لا . . دع حذاءك أيضاً فما من ماسح أحذية ينتظرك في الخارج . لا تتظاهر بالفزع والبله . هذا لا يمنعني من ضربك حتى تدخل الغرفة التي سأقودك اليها . نعم . انها رحلة ممتعة تحت المصابيح . . رجل أمام رجل . . » .

وأدرك أنه في أعماق الليل . نبش من أعماق الليل بطريقة بربرية مبرراتها أكثر عنفاً من دقات قلبه . رجل يرتجف أمام رجل . شيء رائع . شيء رائع . كأن تقول قرد يرقص أمام صاحبه . حرس متلفعون بمعاطفهم يذهبون ويجيئون ،و الدهاليز المظلمة تنصرف بمشاتها كما تنصرف المضائق بقواربها . الأبواب تفتح بهدوء كأن الملائكة تفتحها وتغلقها . وفي الداخل يتبدل كل شيء ، وتنفض الأمور كالقنفذ في الداخل . شيء يجري في

الداخل له شرعيته ومبرراته . هاهو الماء يبلغ أرنبة الأنف ، الأقنية الرومانية جاهزة للابتلاع بالأقدام الحافية والقميص المهدي من الحبيبة . وفي الداخل سيطفو كل شيء فوق التموجات الزرقاء .

ثم دفع من ظهره ليخترق فوهة ما بصعوبة بالغة تسلخت على أثرها خواصره وتمزقت ثيابه ليجد نفسه في طريق تحفه الزهور ونوافير الماء حيث جلس عدد من المدنيين باسترخاء كامل يدخنون ويلعبون الورق . ولم يعيروه انتباهاً لا هو ولا الموظف المرافق له .

كل ما يعرفه أنه كان يتعثر ويرتطم وهو مسحوب من ياقته في الاتجاهات والممرات التي يجيدها المرافق ثم اختفت الزهور ونوافير المياه . فجأة أبنية متهدمة من اللبن وأكوام من الدواليب والأقذار والروائح الكريهة ونساء شمطاوات يغسلن ثيابهن في ضوء القمر بينما الكلاب تنبح وتعوي في مراقدها بينما راح عدد من الصبية القذرين المنبوشي الشعر ، يتأملونه وهم يمضغون عرائس الذرة .

وصرخ الموظف : «انها تنتظرنا هناك . . .» .

«ـ ما هي» .

«ـ السيارة» .

ثم راحت السيارة تترنح وتتمايل بهما في طرقات وعرة مليئة بالأوحال والقطط الميتة ، والسائق يغني ، ويشعل لفائفه ويغني ، الى أن توقف أمام بناء شامخ يحيط به الحرس المدججون بالسلاح . وترجل منها الفهد يصحبه الموظف المرافق الى الداخل ، وهولا يفتأ ينبه عليه : حذار أن تلتفت يميناً أو شمالاً . انظر أمامك فقط . حركة واحدة وأفرغ هذا المسدس في رأسك . كان مستعداً . يسير مغلق العينين طالما أنه سيستجوب بعد قليل ويفرغ ما في أحشائه من أجوبة تكاد تنبثق من بلعومه ، ولكنه لم يستطع . كان يرى من زوايا عينيه أشياء تقشعر لها الأبدان . . أغشية مخاطية حمراء وأعناق ملوية برؤوسها على الجدران ، والسنة حمراء ناتئة من بين الأسنان ، تفوق القدرة على النطق والحيوية التي تتمتع بها مثل هذه القطع من اللحم ، وأشباح أخرى تئن فوق الأغطية وتحت الأغطية التي ازدحمت بها الممرات والزوايا

ومواقف السيارات التي تثاءب سائقوها خلف مقاودهم ، ولكنهم جاهزون في أي لحظة للانطلاق ذهاباً واياباً . كان مرحاً في المقاهي . وسعيداً في باحة المدرسة وخجولاً في المبغى .

وكان الذباب يطن على شمع المحطات والأذرع الرفيعة المضمخة بالدم ، وضوء القمر يشع ويتقلص عبر الكوى والطاقات الفارغة المظلمة التي يقابل بعضهابعضاً .

انها مقبرة كبيرة خاشعة لبرودة الشتاء ، مجلدة ومهجورة تحت رحى الصلوات . العظام وحدها تتلألأ بما يسيل عليها أمام تلك الزمرة المنائية من الاتهام والبراءة ، من الخوف والظلمة . جنون مطبق أن يقول شيئاً وأن يتجاهل شيئاً ، ولكن عزاءه الوحيد أنه سيفرغ ما في أحشائه من أجوبة ونعوت وذكريات .

ثم دفع الى غرفة طويلة . . طويلة جداً ولكأنها نهاية العالم . وأغلق المرافق بابها بهدوء وخرج بعد أن أدى تحية نظامية للرجل الجالس في نهاية العالم .

وكان الموظف الكبير شاباً وسيماً أنيقاً لدرجة تجعل منه وسط هذا الخراب والفوضى شيئاً اسطورياً .

رفع رأسه عن أوراقه وسأله : «هل هناك ثألول في احدى يديك ؟» .

«ـ نعم يا سيدي . . ها هي» .

«ـ خذه أيها الحارس الى مكانه» .

وعندما أراد أن يفتح فمه مرة أخرى كان الموظف يغلق الباب بيده ويسحبه من ياقته باليد الأخرى .

وأعاده الى زنزانته من الطريق نفسها التي أتى منها . الطريق المزهرة والمتربة والمليئة بالدواليب والأطفال والنساء .

ولم يبق أكثر من ثلاث ساعات في غرفته حتى أعاده الى المحقق الجميل ذاته من الطريق المزهرة والمتربة نفسها والمليئة بالدواليب والأطفال والنساء ليسأله عما اذا الثالولة في يده اليمنى أم اليسرى . ثم أعاده الى زنزانته من ذات الطريق المزهرة المتربة والمليئة بالدواليب والأطفال والنساء . ولم يبق فيها

سوى ساعتين حتى أعاده من ذات الطريق المتربة ليسأله الموظف الأنيق عما اذا كان اسم أمه لطيفة أم لطفية حتى اختل توازنه وكاد يفقد عقله ،وأخذ يقضي ليله ونهاره وهو يحاول أن يتسلق الجدار كالعنكبوت ، ويهوى على رأسه وأضلاعه الى ان هدأ في احدى الليالي هدوء الموتى . اسمي بالتفصيل . . أليس كذلك ؟ هي جريمة قتل أم قصة غرامية ؟ كم ثالولة بيدي . . مائة مائتان . . مليون ثالولة . . ما علاقتكم أنتم . ثم وضع خده على الأرض وأخذ ينتحب . انه مسؤول فقط عن القسم الخارجي من الانسان .

ومرت الساعة تلو الساعة ، ولم يقرع زنزانته أحد . كان غيظه يستمر ، وتجاهله يستمر ، مما أسبغ عليه طابع الحيوان المفترس . سأعطيهم درساً في الرجولة أولئك المتسترين بالأقمشة . سأجعل كل محققي السجون يتركون أقلامهم أمامهم ويصغون إليّ بعيون مشدوهة . رجل مقابل رجل ، ولن يدع أي فكرة في العالم تعتريه وتسيطر عليه . سيتصرف بهذا الجزء اليسير من حياته كما يحلو له . سيدفع الفدية ، ولكن هو ينتصب على مقربة من ضحيته .

وعند الساعة الرابعة صباحاً والهدوء يشمل كل الزنازين والغرف ، سمع صرير المفتاح في باب زنزانته ، فارتعش قليلاً . وعندما انفتح الباب وانتصب بين درفتيه الطاعون مات من الارتعاش .

* * *

تقدم الفهد بشكل متعرج نحو المحقق وهو يعبث بأزراره وطرفي سترته كطفل في أقصى حالات الدلال . وكان المحقق متحجراً وراء طاولته ، عليها جهاز هاتف ومصنفات وحاملة أقلام ، وقد أدخل سبابته في حلقة صغيرة تنتهي بحمامة نحاسية منبسطة الجناحين ، وقد علقت القضبان على جانبين بواسطة حمالة خاصة كما تعلق الشوك والملاعق في المطبخ . وكان المحقق ذا عينين عسليتين وشارب أسود كثيف بلون الفحم وكأنه قد قبض على طائر سنونو في فمه منذ الصبا ولم يطلقه للآن .

ثم ارتفع الحاجبان قليلاً الى الأعلى ، وانبعث من الوكر المختبئ بين

جناحي السنونو صوت نسف كل الأوهام التي بناها الفهد عن قسوة الجلادين المعاصرين . صوت لا يصدر الا من تلك الأفواه التي اهترأت من ترديد الآيات البينات وتفسيرها للأطفال حول المدفأة : « فهد التنبل » .

« نعم يا سيدي » .

« ـ هل أنت خائف ؟ » .

« ـ جداً يا سيدي » .

« ـ اذن يجب أن لا تخف بعد الآن . تفضل . . » .

وقدم له سيجارة وأشعلها له كضيف حقيقي . وعندما نفث كل منهما دخانه في وجه الآخر ، عاد الصمت يخيم من جديد ، الا أن المحقق فتح فمه وتكلم هامساً كأنه يحاول أن يتكلم دون أن يمس هذا الصمت المحبب في دوائر الأمن بأذى .

« ـ الأوضاع الاقتصادية مضطربة » .

« ـ نعم مضطربة يا سيدي » .

« ـ انه الفزع » .

« ـ الفزع يا سيدي » .

« ـ يريد أن يسلبنا حريتنا واستقلالنا ، ولكننا لن نسمح له بذلك » .

ثم نظر الى الفهد بعينين شاكيتين كأنه يخفي الحرية والاستقلال في جيبه .

« ـ نعم نحن لن نسمح له يا سيدي » .

« ـ ولكن كيف . . » .

« ـ انني أحقق مع العشرات كل يوم . وكل واحد منهم يزيدني اقتناعاً بأنهم لو ولدوا خيولاً أو دواجن لكان خير خدمة يقدمونها لبلادهم . لقد قال لي أحدهم وهو مزارع من الشمال إنه يبيع كل استقلالات الدنيا ببيضة مسلوقة . يا للعار! » .

« ـ يا للعار! » .

ثم أشار بسبابته الى مكان معين وكأن هناك مئات الأشخاص في تلك النقطة بالذات :

«ـ كلهم أغبياء ، ولا يستحقون الا الحجز والتهام الفاصولياء حتى تورق في معدهم . عفواً اذا كنت أرفع صوتي . انني أعتذر .ولكن لا تتصور كم تهمني حرية بلدي واستقلالها . ولكني لا أستطيع أن أضمنها اذا ما أغلقت مكتبي في الثانية بعد الظهر وهرعت لتناول الطعام ومضاجعة زوجتي . يجب أن يكون هناك من يسهر عندما ينام الآخرون والا انفجر كل شيء . وانني أحاول قدر الامكان أن لا أضرب أحداً ، فالضرب للحيوانات كما تعرف ، ولكن بعضهم يضطرني الى أن آكله بأسناني . أحد المفكرين بعد أن تهيأت للتحقيق معه وكدت موشكاً على اطلاق سراحه واذ به يقول : اننا نحن المحققين نقع دائماً بأخطاء «ميتا . . ميتافيز . .» . اللعنة على هذا الاسم كيف يلفظ دفعة واحدة . لا أعرف» .

ثم قلب بعض الأوراق في مصنف جانبي ، ثم قرب إحدى صفحاته الى وجهه قائلاً : «ميتافيزيقي نعم ميتافيزيقي . وطبعاً لم أتحمل هذه الاهانة . وجلد كالكلب . ولا يزال رهن التحقيق للآن» .

«ـ انه يستحق يا سيدي لانه من المستحيل ان تخطئوا في شيء» .

ونظر بحركة لا شعورية الى السياط المعلقة في حمالاتها :

«ـ ماذا كنت تعمل غير الصحافة ؟» .

«ـ في الشعر» .

وقطب المحقق وجهه باهتمام كأنه قال له أنه يعمل في التشريح .

«ـ تكتب عن الجنس ؟» .

«ـ عن كل شيء يخطر في الذهن الانساني» .

وقال له مشجعاً : «لابأس . لابأس ان يكتب الانسان قليلاً من الشعر . لقد سمعت مرة شاعراً في أحد الموالد . وكان معه زميل آخر يدق على العود وآخر يرقص . وقد جمعوا كثيراً من المال ، وانصرفوا حتى ان والدتي رحمها الله نصحتني يومها أن أكون شاعراً . وعلى كل حال انها الظروف .كل يتجه وجهة معينة في الحياة . أين الآلة ؟» .

«ـ نعم ؟!» .

«ـ الآلة» .

« أية آلة يا سيدي ؟ » .

وخبط المحقق بيديه على الطاولة حتى قفز كل ما عليها في الهواء :
« الآلة . . الآلة التي كنت تستعملها في غرفتك » .

« انني لا أعرف عمّ تتحدث يا سيدي . أنا اسمي فهد التنبل قد يكون هناك شخص آخر » .

« ـ محتمل . . محتمل ، ولكن أمتأكد من أنك لا تعرف شيئاً عن الآلة ؟ » .

« نعم يا سيدي » .

« ـ وما هي آخر قصيدة كتبتها ؟ » .

وابتسم الفهد بحياء كأنه بال على نفسه : « ريح المنفى » .

« ـ وهل القلم الذي كتبت به تلك القصيدة موجود معك ؟ » .

« ـ نعم يا سيدي . هذا هو » .

وأخذ يشد القلم المستعصي في بطانته الممزقة بقوة وكأن قرادة التصقت بلحمه : « هذا هو يا سيدي » .

وتناول المحقق القلم ، ورفعه من طرفه في وجه الصحفي قائلاً بنعومة بالغة : « إنه قلم جميل . انه لك . أليس كذلك ؟ » .

ثم قال صارخاً كالرعد : « هل ترى هذا القلم ؟ انك تراه طبعاً لأنك لست أعمى . بامكاني أن أضعه مع محبرته في مؤخرتك اذا لم تقل لي أين الآلة » .

وصعق الفهد ، وأدرك ان الموضوع أخطر مما يتصور ، ثم ازدرد لعابه قائلاً : ولكن هل من الممكن أن توضح لي ما هي تلك الآلة التي تريدها أن تكون في غرفتي » .

« ـ لا تريد أن تعترف . . أليس كذلك ؟ »

« ـ معاذ الله يا سيدي ، ولكن المهم . . . » .

« ـ المهم أن أرى هذا الفم بلا أسنان . . وهذه الأسنان بلا لسان » .

وهوى على وجه الفهد بالمحبرة الزجاجية بينما تابع الفهد والدم يقطر من ذقنه : « ولكن أية آلة يا سيدي ؟ أريد لمحة عنها » .

ومدّ المحقق يده كالسيف وهوى بها على فهد التنبل بشكل أفقي ، فأصابته في عنقه ، هوى على أثرها على ركبتيه وهو يعوي كالذئب ، وتشبثت أسنانه بحد الطاولة الخشبي ، بل غرسها غرساً في الخشب الصقيل .

ونهض على ركبتيه مرة أخرى . كانت النافذة محطمة الزجاج وراء المحقق . ومن خلالها تئن الأسلاك الشائكة ومخافر الحراسة .

جبال نجوم قمر . جبال وطنه ، نجوم وطنه ، قمر وطنه ، كلها بعيدة ومراوغة بينما لاحت له شجرة جرداء تنحني وتنتصب مع الريح ، تخبط أغصانها خبطاً على التراب كأنها تبحث عن غرسة صغيرة فقدتها وهي نائمة :

« ـ أين الآلة ؟ » .

« ـ لا أعلم » .

« ـ أين الآلة ؟ » .

« ـ لا أعلم » .

« ـ أين الآلة ؟ » .

« ـ . . . . . . » .

وهوى على صدره ،وذراعه اليمنى ممدودة كقائد يهيب بفلوله ان تتقدم بعد ان صرعه العدو .

* * *

زرر المحقق سترته ، ووقف باحترام بالغ للشخص الذي دخل في تلك اللحظة . ويبدو انه كان المسؤول المباشر عن القسم الداخلي للسجن . كان نحيلاً جداً ، ويده اليمنى مقوسة تشكل مع ابهامها وسبابتها الملتصقتين باستمرار ما يشبه الملقط . وكانت عروقها خضراء حية لا تترك مجالاً للشك في أنها مروية بدم وحشي لا ينضب ، وسأل وهو يسحب كرسياً ويجلس عليه : « ألم يتكلم بعد ؟ » .

« ـ أبداً . . انه يتجاهلها تماماً » .

« ـ منذ متى أغمي عليه ؟ » .

« ـ منذ خمس دقائق تقريباً » .

«ـ من هشم حافة الطاولة بهذا الشكل ؟ يجب أن تنتبه لمفروشات المكتب» .

«ـ غافلني وعضّها بأسنانه» .

«ـ هم هم . انتبه انه خطر» .

«ـ بل جبان» .

«ـ ولكن ألا ترى الى هذه الندوب البيضاء في رأسه ؟ إن شعر الانسان كثيراً ما يخفي ماضيه» .

«ـ إنني أراها يا سيدي ، ولكنها كلها من الخلف كما تلاحظ . وهذا يعني أنه جبان وهارب باستمرار» .

«ـ ولكنه لم يصرخ أبداً» .

«ـ وهذا ما يحيرني» .

«ـ بل انظر اليه كيف هو منتفخ : إنه مليء بالصراخ» .

«ـ هل السيدة موجودة ؟» .

«ـ نعم إنها تشرب الشاي في غرفة الحرس» .

«ـ اذهب وأحضرها . ولا تنس ان تغسل يديك من الدم» .

وتثاءب الانسان البربري وهو يتأمل بقعة جامدة من النجيع تحت خد الفهد . ودخلت في هذه الأثناء امرأة شقراء ذات ثديين كبيرين جائعين ، فوقف لها المشرف العام مرحباً وباسماً ، وسألها وهو يقدم لهامقعده معتذراً عن صلابته التي لا تتناسب وهذه الطراوة الملتفة في هذه الملاءة : «هل هذا هو الرجل الذي كنت تراقبينه من نافذتك ؟» .

«ـ نعم . انه هو بعينه» .

ثم أشاحت بوجهها ، عنيفاً ، متصنعة الألم والشفقة لمنظر الدم المتجمد على فمه وذقنه ، وقالت وهي ما زالت تلوي عنقها باشمئزاز : «نعم . إنه هو بشحمه ولحمه . وكنت أحار في أمره اذ لا يغادر غرفته مطلقاً . أقول عنها غرفة تجاوزاً مع ان الحمير لا يمكن ان تمكث فيها يوماً واحداً دون أن تفقد وعيها . أربعة أشهر وهو يذهب ويجيء في تلك الغرفة . يجلس خلف الطاولة وكأنه لن ينهض حتى الشيخوخة . واذ به

ينهض فجأة ليحدق من النافذة من وراء ستارة خضراء ، فشككت بالأمر بعد أن اقتنعت انه ليس مريضاً ، ولكن شكي لم يتحول الى يقين الا عندما لاحظته مراراً وتكراراً منهمكاً في تلك الآلة الصغيرة ، يفكها ويركبها ويقذفها ثم يعود لالتقاطها مرة أخرى وهو يهز رأسه ، ثم يحضر شخص ما ليأخذها ويمضي » .

« ـ هل هي كبيرة ؟ » .

« ـ لا بحجم عصارة الليمون . ربما كانت أكبر ، ولكنني كنت أراها » .

وهنا قال المحقق الأول : « يجب أن لا تنسى يا سيدي المسافة التي تفصل غرفة السيدة عن غرفته » .

وسأل المشرف العام : « هل كان ينبعث منها صوت ؟ » .

« ـ لا أستطيع الجزم ، فضجة الشارع لا توفر لي تقدير ذلك » .

« ـ هل أنت متزوجة ؟ » .

« ـ نعم . . ولكن زوجي يعمل سائقاً في احدى شركات البترول . وقلما يحضر الى المنزل .واذا حضر فليبدل ثيابه ويعود الى الصحراء . ولذلك تراني ضجرة باستمرار الا ان مراقبة هذا الشخص روحت عني كثيراً . أوه لقد تأخرت . هل يمكنني أن أذهب ؟ » .

« ـ سأوصلك بسيارتي » .

« ـ شكراً ، ولكن اذا لم يكن هناك من مانع ، أريد أن أتصل باحدى شركات التاكسي » .

« ـ بل سأوصلك حتى فراشك يا سيدتي . لقد قدمت لنا ولوطننا خدمة لا تنسى » .

وراح يلهث وهو ينظر الى نهديها الأبيضين الشهيين .

ودخل المحقق السمين وهو يتذمر : « اللعنة عليه ! دمه لزج كالدبس . هل تعرفت عليه السيدة ؟ » .

أجاب المحقق النحيل : « فوراً » .

« ـ هل تريد أن تستأنف التحقيق معه شخصياً ؟ » .

« لا . . سأوصل السيدة الى منزلها . تولّ الموضوع أنت » .

«ـ الليلة ؟» .

«ـ كما تريد» .

«ـ أظنني سأتابع التحقيق معه عندما يصحو» .

وانتصبت المرأة وهي تقول : «أتمنى أن أرى ولو مرة كيف تحققون مع المجرمين» .

«ـ في مناسبة أخرى ان شاء الله . حذار يا سيدتي ان يتلوث حذاؤك بالدم» .

«ـ أوه . . شكراً . . كاد يتلوث» .

«ـ الى اللقاء» .

«ـ الى اللقاء» .

ومضت السيدة يتبعها المحقق النحيف الذي أخذ يحل ربطة عنقه كأنه يريد أن يخلع ثيابه منذ الآن . ثم دخل أحد الحراس وتعاون مع المحقق ، فحملا الفهد من تحت ابطه وجراه خارج الغرفة بينما راح آخر يمسح بقع النجيع بممسحة مبللة بالماء ، ثم أغلق النافذة ، وأطفأ المصباح وهو يغني أغنية ريفية حزينة .

الفصل الرابع



كانت فقاقيع الدم المتناثرة على شاربيه وفمه قد انفقأت وأصبحت فارغة كقشور التين . وبحث فهد التنبل عن ذراعه دون جدوى اذ كان لا يعرف إن كانت مطوية تحت عنقه أم انه نسيها في غرفة التحقيق ، ونظر بعينيه المتورمتين باتجاه الباب ، فرأى طعامه وملعقته ، فرفسهما بغضب . قلص ساقه كالصقر الذي ضرب فريسته في الهواء ، وأخذ يصغي باشمئزاز الى رنين الصحن وهو يصطدم بالجدران والى مرق الفاصولياء الذي سال قليلاً وتجمد في مكانه .

« ـ ألا يعجبك الطعام ؟ » .

« ـ يعجبني ، ولكني قلبته خطأ » .

« ـ اذن حذار مرة أخرى وإلا جعلتك تلعقه بلسانك » . ثم جاء ممرض هزيل قميء ، وسأله إن كان يشكو من شيء .

« ـ نعم . أريد غطاء أو قميصاً . بطني يكاد يتمزق من الوجع » .

« ـ هذا ليس من اختصاصي أنا ممرض ولست خياطاً » .

« ـ نعم هذا ليس من اختصاصك » .

« ـ هل تؤلمك بطنك فقط ؟ » .

« ـ بطني فقط » .

« ـ هل تريد أن أغسل لك جروحك بالكحول ؟ » .

« ـ لا شكراً . سأغسلهما بالماء صباحاً » .

وضحك الممرض ، وقال : « إنها الساعة الثانية عشرة أيها الكسول » .

«ـ اذن سأغسلها مساء» .

«ـ أأنت الصحفي الذي يهاجم الدولة في الجرائد ؟» .

«ـ نعم يا سيد» .

«ـ لماذا يا بني ؟» .

«ـ لا أعرف . كنت أريد أن أعيش» .

«ـ هل من خدمة أؤديها لك قبل أن أذهب ؟» .

«ـ نعم . . أن تسارع في الذهاب» .

وانتفض الممرض قائلاً : «الى جهنم . عندما يريد الانسان أن يكون انساناً بالفعل ، تلبطونه على خصيتيه . الى جهنم وبئس المصير . . » .

وقطع ثورته دخول المحقق النحيف بسروال نصف ازراره مفتوحة .

«ـ اذن تريد أن تتجاهل تلك الآلة ظناً منك بأن الصمت هو الوسيلة الوحيدة للخلاص ؟ انك مخطئ . وقبل أن أقول لك ما هو وجه الخطأ ، أريد أن أقدم لك هذه المفاجأة» .

وفتح الفهد عينيه بصعوبة ، وقال : «أية مفاجأة يا سيدي ؟» .

«ـ مفاجأة لن تحلم بها وأنت تقرأ الشعر المخنث لحبيبتك . إنها بصقة . خذها واذهب بها الى جهنم» .

ورفرف الفهد بجفنيه طويلاً حتى استطاع ان يغلقهما ويتفادى ذلك الرذاذ الذي خلفه فم المحقق . وراح يزفر ببطء ، ويخفي وجهه بيديه عندما رأى شرذمة من رجال الشرطة بما فيهم الذي مات والده ولم يشترك في عزائه قد عقدوا ما يشبه الطاولة المستديرة قرب رأسه وبدأوا يتحاورون :

«ـ انظروا الى الذي يكتب في الجرائد . لقد رفس طعامه قبل قليل» .

«ـ آه الفاصولياء تؤذي بطنه» .

«ـ يريد لحماً مفروماً . انظروا اليه . أدار رأسه كالجرو نحو الجدار . انه يخجل منا» .

«ـ لن يرضى عنا الا اذا أحضرنا له امرأة مع كل وجبة» .

«ـ كالتي رافقها سيدي المحقق» .

«ـ لا أظن . انه «شكر» كما يبدو» .

« ـ شكر » ؟! يا لك من حمار ! الأدباء يناموون مع أمهاتهم » .

ثم اقترب أحدهم من الفهد ، وحرك رأسه بواسطة عصا .

« ـ هيه . إنه نائم » .

« ـ لا أظن . مغمى عليه » .

« ـ الى جهنم » .

وخرجوا وهم يشدون أحزمتهم المنتهية بالمسدسات ، ويثرثرون في طريقهم الى مهاجعهم :

« ـ للمرة الرابعة يحققون معه ولا يتكلم . اشتركت أنا منذ لحظات في جلده حتى اخضر ذراعي ولم يتكلم عنها » .

« ـ من هي ؟ » .

« ـ الآلة » .

« ـ أية آلة ؟ »

« ـ يا لك من دب! الدائرة كلها مشغولة بتلك الآلة وأنت تسأل ماهي » .

« ـ هل أحرقتم جلده باللفائف ؟ » .

« ـ أقول لك . . لم نترك وسيلة إلا واستعملناها بكل اخلاص ولم نفلح . غرسنا الدبابيس تحت أظافره وأخذنا نضربها كالأوتار . أجلسناه عارياً على لهب البابور ، وفي الماء المثلج . ضربته بمطرقة على أضلاعه . وهززت رأسه بيدي كالطفل ولم يتعلم » .

« ـ ولم يعترف ؟ » .

« ـ ولا صوت حتى . وهذا أكثر ما أغاظ سيدي المحقق . إنه يكاد يجن .ولكنه كان يهمهم في بعض الأحيان بكلمات غاية في الغرابة . كلمات جعلت سادتي المحققين ينقلبون على أقفيتهم من الضحك حتى انهم سمحوا لنا نحن الأنفار ان نضحك معهم » .

« ـ عن الآلة ؟ » .

« ـ لا . . عن أشياء لا يقولها الا المجانين : لقد طار العصفور الأزرق . . لقد نامت الفراشة على حافة المصباح . . ولم تحترق لأن النار كانت خابية والريح تولول . . . » .

وانفجر الجميع بالضحك ، وتابع الشرطي : « كنت أضربه وأنا أضحك حتى أن المحقق أشار عليّ أن أرتاح قليلاً » .

« ـ هل الضرب ممتع ؟ » .

« ـ بل مسكر أيضاً وخاصة عندما لا تصرخ الضحية حيث يصبح عملك أشبه بنوع من البطولة الخارقة والمؤلمة . . أشبه بتحطم صخرة باصبعيك » .

« ـ ولكن معظمهم يصرخون منذ السوط الأول » .

« ـ بعضهم يصرخ ، وبعضهم لا يصرخ . لقد رأيتهم مرة من النافذة يجلدون عجوزاً مسناً . لم أسمع الصراخ لأن النافذة كانت مغلقة ، ولكني كنت ألمح على كل حال فم السجين وهو ينفتح وينغلق كفم الحوت » .

« ـ بل يجب ان تشارك في العملية شخصياً كي تحس بنشوتها . مراقبة الألم من وراء الزجاج شيء مضحك كالأطرش الذي يسمع موسيقى . يجب أن تكون في الداخل رافعاً مرفقك الى أقصى ما تستطيع محدقاً بعينيك في الجلد المخضب والأرجل المرفوعة كأرجل الماشية في الهواء . بعضهم يتبرز في سراويله ، وهؤلاء ندفعهم بالأقدام الى مكان آخر . وبعضهم يظل محدقاً اليك كأنك تضرب رجلاً سواه . مثل هذا المفكر اللعين . لقد أرهقني فعلاً . كانت عيناه زرقاوين جداً ، وأهدابهما تنفض الدموع بتثاقل وتعالٍ . ماذا تظنون أنني فعلت عند ذلك ؟ لقد جلدته على عينيه . . جلدته حتى اختفتا تحت الورم ، ولم أعد أفرق بين أنفه وعينه ، ولم يصرخ ابن الداعرة حتى انني اندفعت نحوه لأخنقه في احدى لحظات الانهيار اذ ما من شيء أكثر مدعاة للأسف والحزن من أن تجد أن معركتك بلا صدى وحيدة مكروهة . نعم اندفعت اليه لأخنقه كما أشار بذلك سيدي المحقق صارخاً : اخنقه يا عبد اخنقه . وعندما هممت بذلك ، صرخ في وجهي بأعلى صوته : اخرج من هنا قبل أن أملأ أحشاءك بارودا ، كأنه يعتبرني مسؤولاً عن صمت هذا المأفون ، كأنني أحتكر صراخه في جيبي . لقد عملت جهدي أيها الزملاء ، ولكن دون جدوى . السوط الذي استعملته هذا اليوم كان بحجم اصبعي هذا . لقد ذاب على جلده ، وعندما علقته بعد ذلك على حمالته كان رفيعاً كالسنبلة » . ثم أشعل لفافة وهو يرتجف وتابع قائلاً : « لا أبالغ اذا قلت لكم

انه لو جمعنا باستمرار قشور اللحم والسياط وكتل الدم المتجمدة المتدفقة من أفواه السجناء وملاقط الممرضين لكان عندنا جبل كامل من هذا ، ولكننا نمسح كل شيء حتى ليبدو كل شيء نظيفاً ولامعاً في الصباح كأنه صقل بورق الزجاج . سيدي المحقق يجب أن يراها لامعة في الصباح . لقد وجد ذات صباح بقعة صغيرة وسط الغرفة . فهاج وماج كالثور ، وصرخ : امسحها فوراً . . اكشطها بالمسدس . لتنزل اللعنة على رأسي اذا كنت أكذب . . لقد تكسرت أظافري وأنا أحاول ازالتها دون جدوى . وهل تعرفون ماذا كانت ؟ » .

« ـ ماذا كانت ؟ » .

« ـ ليست قطعة علك أو مربى العلب . لا أبداً . كانت دمعة . . دمعة سميكة معرقة بالدم ، متشبثة بالرخام كالحشرة . وكلما لمستها تقلصت باستغراب كأنها تريد أن تبقى للذكرى . وحتى أخفيها عن الأعين أخفيتها تحت ساق الطاولة » .

ثم سعل سعالاً خانقاً حتى خاله زملاؤه سيفارق الحياة .

* * *

بعد أن أستعمل كل ما في المنزل من بصل وتراب ، صحت أم الفهد وانتصبت طالبة ملاءتها . الآن فوراً وإلا أطاحت بجميع الرؤوس المحيطة بها . يجب القيام بمحاولة أخيرة ومجدية لردعهم عن الاستمرار في تعذيب ذلك الطفل الصغير الغالي لأنه يكتب ويقرأ بعض الأشياء التي لا تروق للآخرين .

كانت أم الفهد تعرج بكبرياء وسط العاصمة ، وحيدة ومتزنة وسط ذلك الخلل العظيم ، مؤمنة ان من زرع حصد ومن سار على الدرب وصل . ولذلك شدت حجابها باحكام على وجهها رمزاً للشرف والفضيلة ، وسفيرة حقيقية للريف المبتل بالقذى والهواجس في هذه المدينة البعيدة . ساهية بطبيعة تربتها وسلوكها وحشمة أجدادها عن نار الشهوة وحزام الغدر مع أن زوجها أوصاها بحرارة أن تحترس كثيراً من السيارات وسائقي السيارات ،

وأن لا تمشي في منتصف الطريق ، وأن تضرب ببابوجها أي شخص يحاول التحرش بها ومراودتها عن نفسها ، وأن لا تترك في الوقت نفسه فرصة تفوت دون أن تسأل عن ابنها الفهد ، ومن أين يأكل ومن يغسل له ثيابه وخاصة أولئك الذين يرتدون قبعات ويعلقون شيئاً ما على أكتافهم وصدورهم . لقد ألحّ عليها كثيراًوهو يناولها وعاء الاستفراغ محدقاً وجلاً الى الباص كأنه وحش قد يفترسه في أي لحظة بأن تشرح لهم الأمور بالتفصيل وتؤكد لهم بأن لا أحد لهم في هذا العالم سواه ، وأن أباه مريض ، وإلا لحضر شخصياً الى المدينة ووضع الأمور في نصابها ، ولكنه لا يستطيع الحضور لأنه يدوخ من السيارة حتى انه لم يجرؤ على الاقتراب منها لتوديعها ، بل تابع توصياته صارخاً والباص يزأر ويهتز بجميع ركابه : لا تسيري في منتصف الطريق وأغلقي الباب من الداخل حين تنامين .وإياك وأن تعودي إلا وطفلك معك وإلا سأذهب بنفسي ولو لفظت أنفاسي على رفراف السيارة لأقيم القيامة في دوائر الحكومة . أكدي لهم أن لا علاقة لنا ولابننا بتلك الآلة السخيفةالتي يبحثون عنها .

وبحثت من خلف حجابها الأسود عن رجل يفهم هذه الأمور ، عن شخص يلبس قبعة ويضع على صدره تلك الأشياء التي تلمع ، فلم تجد خيراً من شرطي كان يبدو في تلك اللحظة كأنه سيضع المسدس في أذنه وينتحر اذا لم تحدث معجزة تنظيم السير .

« ـ يا أفندي . . » .

« ـ . . . . . » .

« ـ يا أفندي . . هل تعرف أين سراي الحكومة ؟ » .

« ـ نعم أعرف » .

« ـ أين هي ؟ » .

« ـ من هي ؟ » .

« ـ سراي الحكومة » .

« ـ لا أعرف أو بالأحرى أعرف . انها في جهنم في مؤخرتي إن أردت جواباً حاسماً على ذلك » .

«ـ شكراً يا بني» .

وغصت بالبكاء ، ثم تمخطت ، وسارت بخطوات أكثر بطأ مما مضى . تتلفت يميناً وشمالاً كأنها تتوقع أن ترى ابنها يطل من أي نافذة أو باب . أشاروا لها أن تذهب الى هناك ، فذهبت الى هناك ، فوجدت نفسها أمام بناء كبير يدخل الناس فيه ويخرجون منه بكميات كبيرة ، فدخلت مع الداخلين وهي تحاول ان تلفت نظر الجميع الى انها دخلت ، ثم راحت تبحث بعينيها عن رجل يلبس قبعة ، فوجدته في نهاية الممر ، فخفت اليه وخاطبته بعد أن رفعت حجابها قليلاً : «هل هذه الدائرة للحكومة يا بني ؟» .

«ـ نعم يا خالتي . ماذا تريدين ؟» .

«ـ ابني . . . .» .

«ـ ما اسمه ؟» .

«ـ فهد . . فهد التنبل» .

«ـ اذهبي الى الطابق الثاني واسألي عن محمود أفندي السكرتير العام» .

وأشار اليها أن تغرب عن وجهه الى هناك وهو يحيي شخصاً قادماً ، فمشت بهدوء واتزان الى هناك حيث كان المصعد مفتوحاً والناس يدخلون اليه متمتمين معتذرين ، فترددت قليلاً في الدخول اليه كأنه مرحاض الى ان صرخ بها العامل المختص : «هيا يا خالتي . . هل تسيرين على بيض ؟» .

وأغلق باب المصعد ، وشعرت ببعض الزهو والوجل وهي ترتفع عن الأرض مثل هؤلاء الناس تماماً . وتوقف المصعد وخرجت مع الخارجين . وسألت أول شخص صادفته في طريقها : «من فضلك . . محمود أفندي» .

«ـ اسألي ذاك العجوز» .

«ـ من فضلك . . محمود أفندي» .

«ـ اسألي عنه في المكتب» .

ودخلت الى المكتب ، وسألت كل من في المكتب دون أن تعرف أين محمود أفندي .

«ـ محمود أفندي كان هنا . ولكنه الآن ليس هنا . اسألي عنه في الطابق الرابع» .

وصعدت بالمصعد الى الطابق الرابع ، فقالوا لها إنه في الطابق الأول . وهبطت الى الطابق الأول ، فقالوا لها إنه في الطابق الثالث . وصعدت الى الطابق الثالث وهي متأكدة أنها قطعت مرحلة طويلة من مهمتها ، وأن محمود أفندي لابد من أن يكون رجلاً مهماً طالما لا يثبت في مكان .

وكان الطابق الثالث فسيحاً نظيفاً ، أقل ضجة وأكثر رهبة ، تضجّ فيه أصوات الآلات الكاتبة والنداءات الطويلة الحاسمة ، فخفق قلبها ، وتأكدت انها وصلت الى المكان المطلوب . وسألت رجلاً جاوز الخمسين يؤكد لزميل له بأنه سيضع ساقه في مكان من أخت الوزير اذا لم يوقع له قرار تعويضه .

« ـ نعم ماذا تريدين ؟ » .

« ـ محمود أفندي » .

« ـ أي محمود أفندي ؟ » .

« ـ محمود أفندي الذي كان في الطابق الثاني منذ قليل وصعد الى هنا » .

« ـ محمود أفندي . . محمود أفندي . اسألي عنه في الداخل » .

ودخلت الى مكتب فسيح يضم ثلاثة كتبة على جانبيه وواحد في الصدر يبدو من سيمائه انه محمود أفندي .

« ـ حضرتك محمود أفندي ؟ » .

« ـ نعم . . ماذا تريدين ؟ » .

« ـ ابني . . أريد أن أعرف شيئاً عن مصير ابني الفهد » .

« ـ وهل يعمل هنا ؟ » .

« ـ نعم . . وهو معتقل من أجل السلامة العامة » .

« ـ يا خالتي هنا وزارة الزراعة » .

وعادت محطمة الى الفندق بعد أن سألت وتساءلت ألف مرة أين يقع ذلك الفندق محاولة قدر الامكان ان لا يمسها أحد ولا تمس أحداً من المارة من هؤلاء الوحوش ، ثم أغلقت باب غرفتها من الداخل ، ثم نزعت ثيابها وحذاءها ، وأكلت بيضتين مسلوقتين ، ونامت وفي قلبها جرح عميق .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت الى دائرة العدل كما نصحها نزلاء الفندق ، فراحت تعرج بهمة ونشاط كأنها ستجد العدل يلف ساقاً على ساق بانتظارها ، فصعدت بكل شوقها وآمالها الى الطابق الثالث ،وعادت الى الثاني ، وصعدت الى الخامس ، ثم عادت من جديد الى الشارع في طريقها الى الفندق بعد أن سألت وتساءلت ألف مرة أين يقع ذلك الفندق ، ثم أغلقت باب غرفتها من الداخل ونزعت ثيابها وحذاءها وأكلت بيضة واحدة فقط ، وأوت الى فراشها .

وفي الصباح ذهبت الى الدائرة المسؤولة فعلاً عن مصير ابنها بعد أن استنفدت كل حنانها وفضولها في الاستفسار عن المكان الحقيقي لاعتقال الأشخاص الغرباء بعضهم عاملها باحترام ، وبعضهم سخر منها ، وبعضهم حاول التلميح لمفاتنها ، فارتجفت أرنبة أنفها أكثر من مرة وهي تدق أرض العاصمة بينما وجهها صابر أليف . دخلت تترنح ، محتقنة بالغضب واليأس . لقد نفدت نقودها تقريباً ، واتسخ جورباها وملاءتها وهي تصعد وتهبط من دون جدوى . أين ابنها ؟ هل قتلوه ؟ هل يخبئونه في علبة ؟ ماذا فعلوا بذلك الطفل الأشقر المسكين وسألت أول شخص صادفته يجلس وراء طاولة وروحها في رأس أنفها : «أريد ابني . . .» .

«ـ أي ابن ؟» .

«ـ فهد التنبل . أريد أن أراه الآن بدلاً من أن أراك أنت . لقد نفدت نقودي وسرقوا ما تبقى منها في وزارة العدل ثم سخروا مني وقالوا ادفعي مالاً لأحدهم كي ينادي على ابنك في الشوارع . لا لست مختلة كما تظن وعندي من العقل ما يكفي لغمرك حتى أخمص قدميك . ومع ذلك أقبل قدميك يا سيدي وقل لي أين هو» .

ورفع الموظف رأسه بعد أن فرغ من كتابة شيء لا يمت الى الموضوع الراهن بصلة : «نعم والآن ماذا تريدين يا خالتي ؟» .

«ـ أريد ابني ابني . هل كنت أكلم الحيطان ؟» .

«ـ ما اسمه يا خالتي ؟» .

«ـ فهد التنبل» .

وراح الموظف يقلب بعض الأوراق وهو يردد كالآلة : «فهد التنبل . . فهد التنبل . . نعم هذا هو فهد التنبل . موقوف ٩/ ١٢/ ١٩٥٨ . التهمة لم تحدد بعد » .

«ـ حسناً . لا تظن أني سأنصرف بمجرد أن أخبرتني ان اسمه مكتوب في أوراقك . أين هو ؟ » .

«ـ ابنك موجود في مكان أمين ، ولكن لا يمكننا الافراج عنه . وعليه أن يتحمل نتائج عمله» .

«ـ وماذا عمل ؟» .

«ـ لقد كان يشتم الحكومة» .

«ـ يشتم الحكومة ؛ هه . ومن لا يشتم الحكومة ؟ سائق السيارة من ساعة انطلاقه من القرية حتى لحظة وصوله الى العاصمة وهو يشتم الحكومة . الركاب جميعهم فعلوا ذلك . وفي الفندق أيضاً اذا طنت ذبابة في أذن أحدهم يشتم الحكومة . فما الجديد الذي أتى به ولدي فهد ؟ أرجوك يا سيدي أن تأتيني به ، فليس لي في هذه الدنيا سواه .واذا عدت الى القرية ولم يكن معي سيصاب والده بالجنون . انه بكرنا . . » .

وصرخ بها المسؤول : « كفي عن البكاء يا امرأة . ابنك خطر . ولا يمكننا الافراج عنه في هذه الظروف . إنه أكبر داعية باسم الاقطاعيين » .

«ـ ابني يتعامل مع الاقطاعيين ؟ »! يا ويلك من الله . أنا التي تعرفه لا أنت . يخجل من النسيم . واذا رأى فراشة تموت بكى طوال الليل . إنه الوحيد في قريتنا الذي كانت لا تخافه عصافير الدوري بل تحط على رأسه وكتفيه ، وتمتص لعابه من بين شفتيه . لا . ابني ليس خطراً ، ويكره الاقطاعيين أكثر مما تتصور أنت يا من تعتقد نفسك عنوان الشرف والنزاهة لمجرد أنك ترتدي هذا البنطلون . أنا أعرف ابني . كان عمره تسع سنوات عندما قذف جواد الأمير بحجر ، وكان يقصد جمجمة الأمير بالطبع لأنه قذف له أجرته من فوق صهوة الجواد . كان بالطبع سيأخذها لو أعطاه اياها يداً بيد ، ولكن ان يقذفها له والسوط في يده فهذا ما لم يحتمله ولدي الصغير ، ولذلك قذف الأمير بحجر حتى صهل الجواد المغطى بالصوف والأجراس وظل

يضرب الأرض المتربة بحوافره حتى أدماها وكأنه يطلب من فارسه العودة والانتقام من الطفل وهل تظن أن الطفل هرب ؟ أبداً بل مكث واقفاً يلهث بأنفه الصغير أمام الأمير وسوطه وجواده . وكان قميصه الرقيق يخرج نتفاً على طرف السوط الذي انهال عليه فجأة . لقد ضربه حتى أدماه ، وأصبح جلده مقلماً كسترتك تلك . ولم يبك بل كان يثب في الهواء لالتقاط طرف السوط وعضه بأسنانه إن أمكن . وهل تظن أن أحداً من رفاقه الصغار والذين يتقلدون أعلى المناصب الآن ، فكر في انقاذه ؟ أبداً انما تركوا الطفل يتخبط في الغبار وسارعوا الى مساعدة الأمير في الترجل عن الجواد وقدموا له سوطه ممسوحاً تحت آباطهم من دم الطفل . . . » .

وأخرجت أم الفهد منديلاً بحجم الشرشف ، وأخذت تتمخط به وتبكي .

« ـ يا خالتي هذه أشياء قديمة لا علاقة لها بالموضوع . إن اضبارته تقشعر لها الأبدان » .

« ـ ماذا تقصد باضبارته يا ولد ؟! »

« ـ لا حول ولا قوة الا بالله . يا خالتي . . ولدك موقوف باسم القانون ، ولا يمكنني أن أفعل لك شيئاً سوى أن أردد أمامك : لا حول ولا قوة الا بالله » .

« ـ كيف لا يمكنك ذلك يا ولد ؟ ثم أي قانون هذا الذي يمنعني من رؤية ولدي حتى أصفعه بيدي ؟ الدنيا كلها تقول ان لا قانون هناك . اللحام والسائق والسنكري وراعي الغنم . . كلهم يقولون ان لا قانون هناك ، فبأي وجه تتبرع حضرتك وتؤكد وجوده ؟ » .

« ـ أرجوك يا خالتي وكفاك عطاساً في وجهي . عودي بعد أسبوع » .

« لن أتحرك من هنا » .

ونهض موظف آخر كان لايزال صامتاً وهو يعمل على آلته الكاتبة في الزاوية القصية ، واقترب منهما صارخاً بالموظف بطريقة معينة : « لماذا تعذب هذه العجوز يا رجل ؟ دعها ترى ابنها . لماذا لا ترسلها الى حيث تجده بانتظارها ؟ تعالي يا خالتي . . لا العفو . . » .

وسحب يده من بين شفتيها ، وأشار اليها أن تذهب حيث يقف شرطي الحراسة بعد أن غمزه بطريقة خاصة .

وراحت تبتهل وتعرج حتى وجدت نفسها في الشارع ، فصعقت ، وعادت مزمجرة لتدخل من حيث خرجت الا ان الباب كان قد أغلق ، والشرطي اختفى ، وعقلها قد طار . وعادت تمشي بهدوء وهي غير آسفة لأن الفرصة لم تتح لها لأن تقول للشرطي ولكل شرطة العالم : ليتهم وضعوا بعض التهذيب في رؤوسهم بدل تلك القبعات . ولكن لا جدوى بعد الآن ، فالتهذيب شيء عابر وقديم ، له دفء الملاءة وصقيع الكهوف . الوحل سيد المكان والزمان . وعليها أن تكون الدجاجة المقاتلة لاستعادة نطفتها الصغيرة الغابرة .

* * *

الفصل الخامس

تتكون المدينة التي تحدث فيها كل هذه الفوضى حرصاً على السلامة العامة ، من سلاسل طويلة من الأزقة العمودية ، وسلاسل أكثر طولا من الأزقة الأفقية ، ولذلك كانت تشبه الى حد كبير مسند الأرجل الذي يوضع تحت الطاولات . أما المآذن فكانت هي المسامير التي تدعم هذه الرؤيا والمعضلات البشرية ، وتثبتها باحكام منذ مئات السنين ، أما الحصى واللفت والأطفال والبوابيج فكانت أشبه بحشوة لهذه المدينة العظيمة كالحشوة التي تستعمل في السترات والمعاطف لتساعدها على توازن الكتفين والتمويه على السياح والمغتربين بتلك القامات المليئة بالفجوات وعقد النقص .

وتعيش المدينة منذ أمد طويل على الفطائر والقرآن الكريم ، سعيدة بصيفها المحرق وشتائها المرير الكاسح ، قانعة بمسابحها وكهولتها ودخان مطابخها . واذا صدف وهبّت إحدى نسمات البحر في يوم من الأيام ، أغلقت النوافذ العليا بالعصي ، واستلقى نصف مليون نسمة على الشراشف البيض المعطرة بالصابون ، ونصف مليون آخر على الأرصفة المبللة بالوحل .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبينما كان أصحاب الحوانيت يمسحون شواربهم من بقايا الجبن والمربيات بيد ويتلمسون مفاتيح حوانيتهم في جيوبهم باليد الأخرى ، وبينما كانت النساء الجميلات الصفراوات يجمعن الخرق المبللة بدماء الطمث من بين المقاعد لنقعها في

ماء الزهر او الماء المتدفق من أفواه الاسود الحجرية ، وبينما كان الحراس وسائقو عربات الخيل يتبادلون تحيات الصباح ويختفون داخل الأبواب المطرزة بالمسامير المعدنية ، وبينما كانت البغايا الرقيقات يدخن النراجيل تحت شجر النارنج او فوق السطوح المطلة على الأزقة ، وكل منهن تحتفظ بصورة عشيقها ذي الشوارب المعقوفة والسروال المطرز داخل اطار من التنك اللماع بينما نصف مليون يتثاءبون منذ السابعة ، متكئين على صرر زوجاتهم ويتحدثون عن أسعار الجبن والمربى والحروب المقبلة... كان نصف مليون نسمة آخرون يتثاءبون منذ السابعة ، ويتكئون على أرصفة الجوامع ، ويتحدثون عن ترميم الأبراج المتهدمة وشطف قبر صلاح الدين يومياً بالماء والصابون .

بينما كان مليون شخص ينحنون فوق زوجاتهم وسنداناتهم وموازينهم وغلمانهم ونراجيلهم كي تمر العاصفة بهدوء... عاصفة الشك واليقين ، عاصفة الأمشاط والنظارات . انهار كل شيء ، وتصاعد الغبار من الينابيع والنظارات والمطابخ ، ونبت جيل جديد كالعشب ، جيل غرير وحاد كشوك الصبار ، منتصباً ومستلقياً وهارباً على مرفقيه وإليتيه دون انذار او تبرير ، مثيراً جلبة القبور وشهوة الحبال التي قصفت اعناق الملايين ، ماتت البغايا ذوات الأسنان الذهبية ، وسقطت صور عشاقهن بأطرها المخلعة ، واعوجت قرون الخراف ، وانتشرت فقاقيع اللعاب حول الشفاه المطبقة على النراجيل والملاعق وخيطان الحذائين ، وانطلق نحو أعماق الاسفلت المحمى بصدى القباقيب وقطاع الطرق ، لهب الانوف الصغيرة وصرير الدراجات الملطخة بدم الختان .

ضاحكة باكية ، مستفهمة متجاهلة ، سعيدة بصهواتها المباحة ورؤوسها المطرقة في حمامات الذكور ، فأُغلقت الحوانيت ، وتُركت المفاتيح تتأرجح في ثقوب المزاليج ، وحُمل الكهول الذين كانوا يتكئون على ركب زوجاتهم فيما مضى في نقوش مغطاة بالقماش المقلم والمعرق ، وأخذت أغصان النارنج وأنابيب النراجيل المفضضة تتمايل كأسلاك المذياع بين الانقاض الملأى بالأرامل والمحتضرين والأقدام الغائصة في المربيات .

من أجل السلامة العامة ، من أجل الموت البطئ . لقد غلف كل شيء بغلاف رقيق شفاف كما تغلف السكاكر . وكان باستطاعة أم الفهد أن تثير ما تقشعر له الأبدان برأس بابوجها الحاد الا أنها كانت طيبة وغبية ، ولذلك تركت لدموعها العنان كي تعيد الأمور الى نصابها .

كان جورباها قذرين وملاءتها وقمصانها بالغة القذارة والترتيب . وقد توسلت الى صاحب الفندق ان يواسيها بطريقة ما ويساعدها على الوصول الى الكراج ، مؤكدة أنها لن تنسى له هذا المعروف أبداً . فلم يمانع بالطبع فحملت صرتها بما تحويه من بقايا البيض والخبز . وقبل أن تصعد الى مقعدها في السيارة ، أعطت الصرة للخادم ، وجلست تنفض ملاءتها ثم فتحت زجاج السيارة استعداداً للتقيؤ بمجرد أن تتحرك السيارة من مكانها .

لم تكن تعي ما حولها من ناس وشوارع وشرطة وحمالين وعجلات . كانت محطمة وناقمة أيضاً ، ولذلك ما أن تذكرت شيئاً حتى دسّت يدها في صدرها وأخرجت رزمة من الأوراق الحمراء والصفراء والخضراء والتي كانت تأخذها من مكاتب الاستعلامات والمقابلات ، ومزقتها إرباً إرباً وألقتها من النافذة بغضب ، وجلست تنفض ملاءتها وهي تلهث كأنها مزقت الحكومة نفسها وألقت بأشلائها من النافذة .

* * *

أما القرية التي تنشق فيها فهد التنبل أولى نسمات الحياة أو ما أشبه ذلك كما كان يردد في البارات فتتكون من الغيوم والأبقار والرياح . أما الكروم فكانت حوافرها الخضراء التي تتلقى عنها لسعات السياط الندية . كل شيء فيها رطب وحيّ وأخضر . يكفي أن تنكش سطح الأرض بظفرك حتى ينبثق الماء ، أن تداعب صوف النعجة حتى يسيل من ضرعها الحليب .

قرية نائية وباسلة ، تنظر الى وحلها ودخانها وعيونها المحمرة كما تنظر الفرس إلى أجراسها . أما التاريخ الرقم المتسلسل في المعارك الكبرى ، فيظل في جيب المختار .

ولما كانت القبور تبنى كالمنازل ، وتحفر داخل القرية... أي في البيادر وعلى مقربة من الحوانيت والكروم ، يصطدم بها الرائح والغادي ، فان موتاها كانوا يبدون كأنهم يشاركون في حياة ذويهم ، يؤازرونهم في الزرع والحصاد ، ولذلك كانت هذه القبور أشبه بخزائن ترابية بالنسبة الى الأطفال ، ففي جوانبها يخبئون دخلهم ومسروقاتهم . وعلى حوافها تجلس الأمهات ، ينقين العدس ، ويفلين الجدائل الطويلة بأمشاط مصنوعة من عظام الخيول .

كان الموت طبيعياً في تلك القرية . ضروري ومتوقع في كل لحظة . وعلى هذا الأساس ، كان أطفال القرية شرسين كالحشرات ، ورجالها لا يتورعون عن ضرب أشجارهم بالسوط لأنها لم تثمر في الوقت المحدد . حتى دجاجها كان يصرخ باستمرار كأنه مصاب بذات الرئة . وقلما تجد دجاجة حيّة أو ميتة إلا وعلى رأس منقارها قطرة أو قطرات من الدم . وكان أهالي القرية مستعدين للتزاوج مع الحيوانات شريطة ألا يتزاوجوا مع القرى أو العائلات المجاورة لا لشيء إلا لتكريس الدم القاتم واعطاء الشرايين الشخصية الزمن الكافي لكي ترتوي منه وتنمو . وعلى العموم كانت القرية نقطة زيت كبيرة في ماء الوطن . ولقد فكرت السلطات المتعاقبة جدياً في تقطيعها كالحية هي وكهولها وشبابها ومقابرها ووضعها داخل كيس ثم قذفها الى الجحيم .

ولكن أهل القرية استمروا في الحياة كبقعة زيت في ماء الوطن ، فالمياه لم تكن رجراجة وصاخبة على كل حال ، وهم يزرعون ويحصدون ويتزاوجون ضمن دائرة محصنة من الأمل في تجفيف المياه المحيطة بهم بنار الذرة والبنادق . لقد كانت سهولهم غنية بالأزهار ، وبشقائق النعمان التي تذكرهم أبداً بجماجم الأجداد المحطمة تحت حوافر الرومان ، وبالظهور التي نكئت جراحها عاماً بعد عام بأغصان التوت التي لامست الكثير من الخوذ المنتصبة والمدلاة على الصدور ، إلا أنهم لم يضعوا الزهور على قبور موتاهم أبداً ، ولم يسوروها كالأقفاص الخشبية كما يفعل الأمراء ذوو الدم الأزرق ، بل تركوها مباحة وعارية ، رمزاً لسموهم وبطولتهم حتى في

« ـ وأنا حاولت أيضاً وفشلت . وهناك شيء بينه وبين الناس ، لا أدرك تفسيره »

قالت غيمة : « أنا أقول لك هذا الشيء . فجوة... فجوة كبيرة كالتي تحدثها الزلازل في الأرض الخصبة ، ولقد حاول ردمها بشيء اسمه الضحك . ففشل ، فهل نطلق عليه الرصاص لأنه فشل ؟ » .

فأجابها صبحي : « طبعاً لا » .

وقال ياسين : « ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نتقي الرصاص عنه بصدورنا طالما لم يترك لأي واحد منا ذكرى واحدة تشجع على ذلك . كان عدواً لأي تيار ، مغرماً بالوحدة والتفرّد . إن مركبات النقص التي كانت تعصف برأسه لا يمكنني تعدادها الآن وأنا جالس على هذه الأريكة ، والجمهور ليس مضطراً الى أن يحصد ما زرع هو طالما أنه نثر بذوره بملء حريته . لقد عاد من المنفى غازياً ومقتحماً لأسرارنا وآمالنا . أثار النعرات وأهان المقدسات بتلك النكات ذات النابين الجارحين . يجلس معي في المساء فيهاجمني في الصباح . يتناول غداءه على مائدة فلان ويفضح أسراره على مائدة فلان » .

فقال زكريا : « لقد كان طفلاً متهوراً » .

وصرخ ياسين : « بل عديم الوفاء . عندما جاء من المنفى اشتريت له سروالاً وقميصاً وربطة عنق ، وعرفته على وجوه الجيل الذي كبر في غيابه . فما أن كسا الريش لحمه وأصبح عنده أكثر من سروال وقميص وربطة عنق حتى تنكر لنا ، وراح يعبث بصداقتنا بملء حريته مبرراً ذلك بأنه يسعى وراء الحقيقة . أنتِ نفسك... ألم يهجرك ذات يوم من أجل ساقطة ؟ ألم يكن يخونك ، مع الخادمات وحاملات الخبز الى الأفران ؟ »

وشعرت غيمة بأنها تجر من طرف عنانها الحقيقي الى الجهة المقابلة لحبيبها ، فرفعت رأسها صاهلة ومتحدية : « اذا كان قد هجرني فقد هجرني ولكنه عاد اليّ لطيفاً وحنوناً وباكياً . هجرني أكثر من مرة ، وإنني لسعيدة بذلك لأنني أفهمه كفنان لا كشخص عادي يتناول طعامه ويذهب الى دورة الحياة في ساعة محددة . إن حبيبي ليس رجل مطبخ وحمام وصالة استقبال .

إنه فنان . ولكي يبدع ، عليّ وعلى جميع من يؤمنون به أن يتركوه هائماً على وجهه وإلا أصبحنا كمن يربط مصباحاً في حافر جواد غاضب ، ويقول له : هيا اصعد هذه التلال الصماء ، وعدْ دون أن تحطمه » .

وقال زكريا بهدوء : « أنا معك من هذ الوجهة . ولكن كان عليه أن يولد في عصر آخر » .

« ـ ولماذا يولد في عصر آخر ؟ لماذا تخطئ الطبيعة وتصيبون أنتم ؟ الخوف وحده هو الذي يجعلكم أقرب الى الحيوانات منكم الى البشر... خوفكم من تقييم الآخرين لكم هو الذي يضطركم الى أن تظهروا بكل الوجوه ما عدا وجهكم الحقيقي . إنكم تصورون هجره لي ككارثة تقض مضاجعكم مع أن معظمكم لم يحرك عينه عن بطة ساقي . وأقولها بصراحة : إن أحداً منكم غيّر مكانه أكثر من مرة بحجة التقاط شيء لم يقع منه مصادفة كي يحدق الى ما هو محرم شرعاً وقانوناً » .

وتكلم الطالب الصامت لأول مرة ، وكأن صبره قد نفد : « اسمعي أيتها الآنسة... هناك ثورة حدثت في هذا الوطن ، ونحن منها ولها ، وهي ليست من الفراغ وكثافة الوقت بحيث ننصرف إلى مثل هذه الأمور . أنا لا أعرفه على كل حال ، ولكني سمعت عنه في مناسبات عديدة . ومهما كان في الماضي ، ومهما كان وضعه في الحاضر ، ما هو إلا فرد . والخروف يعرف ما هي قيمة فرد بسيط بالنسبة الى ثورة كبرى... » .

ثم زمَّ شفتيه وحدق الى السقف ، فأجابته غيمة بانفعال :

« اسمع أيها السيد... هل تعتقد أن المشكلة انتهت بمجرد أن تزم شفتيك هكذا وتحدق الى نقطة ما في السقف ؟ » .

« ـ يا آنسة... كلنا فداء للثورة . إنها جائعة ، وإلا لما أعلنت عن نفسها ، وهي لن تنمو ما لم تجد لقمة هنا ولقمة هناك » .

« ـ لتتغذ بنفسها إذا كانت جائعة الى هذا الحد . كل يتغذى بنفسه . ما من قوة في العالم تبيح هذا السطو . حتى مشيئة الله هي اكثر ما تكون موضعاً للتساؤل والتذمر . ماذا تسمع في المقابر وخلف النعوش ؟ لقد كان طفلاً بريئاً ، فلماذا أخذته يا الهي ؟ أو كان عاملاً مسكيناً يعيل عشرة أطفال

وامرأة ضريرة فلماذا حرمته اطفاله وامرأته منه ؟ يقولون هذا إلى الله فلماذا لا يقولونها لانسان ؟ » .

« ـ هذا ليس موضع بحث . كل ما أعرفه أن هناك ثورة جائعة ، وكان الفهد في طليعة من أسهموا في تجويعها . . عليها أن تنمو » .

« ـ الثورة الجائعة تولد جائعة وتموت جائعة لأنها لن ترتوي من شيء... قروي نهم في مطعم يغص بالأطباق ، ستزداد شهيته كلما سمع رنين الصحون وارتطام الملاعق . وهذا ينطبق على الأشخاص كما ينطبق على غيرهم . سأعطيك مثلاً واقعياً لا عليك ولا على الآخرين بل على الفهد نفسه . هل تعلم كم جورباً عنده ؟ لن تصدق إذا قلت لك : ما يكفي لنصف سكان طوكيو . إنه يشتري تلك الجوارب باستمرار ، وبشغف وحقد أيضاً . هل تعرف لماذا ؟ لأنه قضى كل طفولته ومراهقته وهو يلبس جوارب مرقعة » .

وعاد الطالب الصغير الصارم ، الى الحديث ، وقد التهب صدغاه من الحنق : « أيتها الآنسة... ما تقولينه لا يغير شيئاً من واقعنا . الفهد ومئات غيره هم طعام ضروري لثورة قامت لنقض مبادئهم ونسفها بالحجارة . ومع افتراض أنهم لم يكونوا موجودين أمامها ، فيجب أن يوجدوا بطريقة ما . إننا نمر في مرحلة انتقالية ، ويجب أ ن نتقشف الى حد كبير بهذه الكماليات الفكرية حتى يهدأ روع الثورة على الأقل » .

« ـ منذ عشرات السنين و نحن نمر في تلك الفترات الانتقالية كأننا دجاج أو أرانب في قاعات المختبر . ليذهب كل شيء الى جهنم . منذ خمس سنوات وأنا ألبس مشداً مهترئاً ، وزميلتي تفطر ببيضة مسلوقة ، وزميلي يرتدي قميصاً حائل اللون . لماذا ؟ ستقول لي : لم يحن الوقت بعد . ومتى يحين ؟ لا تعلم لأنه سر . لا ليس هناك أسرار في هذه الأمور . وتشيخ زميلتي وزميلي ، وكل منهما يأكل بيضة واحدة ويلبس قميصاً حائل اللون . والشيء الوحيد الذي يفضح هو أنتم . الحاكمون أنفسهم هم الثورة . إن عافيتها المسلوبة من خد الطفل وغرام العاشقة وحنين الكهل تتحول الى انتفاخ كريه في مكان ما من الوطن... الى غدر وارهاب وجشع لن يتوقف حتى تتوقف ملايين القلوب والأفواه . وهذا ما لن يحدث أبداً » .

وقال الطالب بحنق لا يوصف : «لا إرهاب هناك ولا جشع ، والحرية أكثر وفرة من الشعير في قراكم» .

وهمس زكريا : «أرجوكم... اخفضوا أصواتكم» .

ونهض لاغلاق النوافذ .

«ـ حسناً . لا شيء هناك سوى المرح والكرنفالات في الشوارع ، والثورة غانية بعمر الورد تخطر على دراجتها في الهواء الطلق ، وتغص بالبكاء ، ولكن أرجوكم أن تقوموا بعمل ما من أجله . إنهم يعذبونه في الليل والنهار» .

وقال ياسين : «هذا كلام مبالغ فيه . نحن نقرأ الصحف دائماً ، والتحقيق يجري في جو ملئ بالنزاهة والحياد ، وصوره التي تنشر بين الفينة والفينة تؤكد ذلك» .

«ـ ليكن ذلك صحيحاً ، ولكني أشك في ذلك لأنه حتى الوجه الممزق بالأظافر يبدو في صور الصحافة كأنه وجه يسبح في العرق لا أكثر» .

وقال زكريا : «سنقوم بمحاولة أخرى» .

وقال ياسين : «هذا بديهي ، وإذا كنا قساة في حديثنا عنه فلأننا نحبه ونتمنى أن يكون أكثر صلاحية في المستقبل» .

وقال صبحي : «علينا أن نعرف في أي معتقل هو» .

وفجأة انفتح الباب ، وأطل منه الفهد .

* * *

بعد عشرة أيام أو عشرة قرون ، لا يعرف بالضبط ، حاول الفهد أن يفتح عينيه ، فلم يفلح . كانت الأهداب والحواجب مطلية بالعمش والدم وقد تماسكت كمسننات الساعة . وعندما حاول استعمال يديه لم يفلح أيضاً اذ كانت محطمة وخفيفة كالهواء ، ولذا فقد زحف غريزياً نحو صنبور الماء وفتحه على وجهه بعد أن فتح فمه كالدجاجة . فتح الصنبور بقوة حتى انتشر رذاذه الى السقف وبلله من رأسه الى أخمص قدميه ، ثم فرك وجهه وعنقه فركاً عنيفاً متواصلاً وكأنه يريد أن يمسح تقاطيع وجهه من الوجود ثم رفرف

بجفنيه حتى أبصر الصنبور والماء والسقف ودورة المياه ، وابتسم إذ لا يزال يحيا في ذلك الشرق اللعين . وصرخ به المحقق فجأة كأنه هبط من السقف : «أين الآلة ؟» .

«ـ ...» .

«ـ أرجوك قل لي أين الآلة» .

«ـ ...» .

«ـ قل لي أين هي وسأسعى لإرسال غيمة إلى أوروبا» .

«ـ ...» .

«ـ قل لي أين هي وما هي وإلا أرسلتك إلى القبر يا ابن التي بطنها غابة من الأطفال الغرباء» .

ولم يجب الفهد أيضاً بل ظل ملتفتاً إلى الوراء متكئاً على ركبتيه ويديه أمام الصنبور كطفل يتساءل ببراءة عن السبب الذي يحرمه من رضاعة ذلك الثدي الحديد . وفجأة انهار على قوائمه ودفن رأسه بين يديه . كان اسم الآلة يؤلم قلبه لأنه تردد في أذنيه أكثر مما تردد اسم الرسول في عرفات من دون أن يعرف ماذا يقصدون بهذه الآلة التي يسأله عنها المحقق بلهفة حقيقية .

وتمتم الفهد : «أية آلة يا سيدي ؟» .

«ـ الآلة... الآلة التي كنت تصلحها في الليل يا بني ، وتصب فيها المحاليل ، ثم تضعها على الأرض ، تتأملها واقفاً أو جالساً يا بني» .

«ـ لربما كانت آلة شخص آخر» .

«ـ ربما ، ولكني أراهن يا بني على أن ملامحك لا تشبه ملامح أخيك ، وملامح أخيك لا تشبه ملامح أمك ، وأمك في أحسن التقديرات ليست أكثر من إحدى بنات الليل . حسناً أنت لا تعرف عما أتحدث ، وأرجو ألا تعرف لأنني بعد ساعة سأعيدك إلى بطن أمك مهما أعيتني الوسائل . أتفهم ؟» .

صرخ ذلك وهو مكشر ، يسحق أصابعه بكعب حذائه حتى قفز منها الدم بعد أن برزت عظامها بيضاء كالحليب .

ولما كانت التلميحات والغمزات بطرف العين أو عض الشفاه فلسفة قائمة بذاتها في ذلك السجن الرهيب ، فما هي إلا هنيهة حتى أقبل «العبد»

بكامل أبهته وزركشته ، مندفعاً إلى العمل كأي رب عمل . وكان الفهد يعرفه جيداً بل كثيراً ما رآه في منامه وفي منام منامه ، يحرمه النوم واليقظة والضحك والبكاء وكل شيء أو بالأحرى لقد افتتن به .

وتقدم العبد بتلك الخطوات الطفولية الرائعة ناشباً أصابعه سلفاً في الهواء ، يتقدم زمرة لا تقل عنه طفولة ووداعة . وكل ما يذكره الفهد هو أنهم أطبقوا عليه كالغطاء . اقتادوه بينهم في مسيرة طويلة لا تحتمل . كل ما يتذكره بعد ذلك أنه سار أو قفز أو زحف حوالي ستين متراً بين صفين من الأقفاص المتقابلة على أرض مدهونة بالبترول ، وفي كل قفص غابة من الشفاه المتدلية . كل ما يذكره ستون متراً من الضمادات والدم والذباب المتجمع في زوايا العيون . ستون متراً من الصمت واللهفة والسفلس والغيوم الرائعة المطلة من النوافذ . أحذية فارغة ، وأخرى مقلوبة كتذكار للتوقف عن المسير ، مقلوبة بحقد كأنها تعرض تراب الوطن القديم إلى الله وإلى وجوه المحققين . ثم دفعوه لاهثاً إلى غرفة مزدحمة حتى سقفها بالوجوه اللاهثة والأفواه المفتوحة كالثقوب ، تمطره أسئلة وتمحيصات عن الآلة . وعندما فتح عينيه ، تتابعت الوجوه وكأن لكل واحد منها عشرة أفواه متراصة ومفتوحة تحت الشوارب :

«ـ أين الآلة ؟ » .

«ـ يا بني قل لنا أين هي ونطلق سراحك الآن » .

«ـ وسآخذك بسيارتي إلى أفخم حمام في المدينة » .

وتمتم الفهد باكياً : «أقبل قدميك يا سيدي . أريد غطاء أو ممسحة أمسح بها جسدي» .

كان يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه وقد أضاف صوت الريح وسقوط صفائح التنك في الخارج اهتزازاً جديداً في عظامه . وحك أنفه بالأرض الباردة الصماء ، واشتهى أن يقبلها ولكنه ما أن لمح أحذية المحققين وجواربهم النظيفة الدافئة حتى اشمأز ، وأغمض عينيه . إنه يريد أرضاً أخرى .

«ـ خذ . هذا معطف كامل . زرره جيداً وتصبح كأي واحد من الحرس» .

« ـ هل أنت طفل حتى تخاف من البرد ؟ أين رجولتك ومقالاتك العنترية ؟ » .

« ـ إنه مسكين جداً... » .

« ـ أو خنزير جداً... » .

« ـ أو بالأحرى طفل... طفل كبير لا تنقصه سوى دمية في جيبه وبعض اللعاب على صدره » .

ورنت كلمة « طفل » في أذنيه رنين الجرس البعيد... طفل أسمر ، يقف عند عتبة رجل غريب واصبعه في فمه ، ماداً يده بلعبة معدنية ذات عجلات : « تقول لك ماما ان « تثلح » لي لعبتي . وقعت على الدرج ولم تعد تمشي » .

« ـ هاتها واجلس هنا بعد أن تبكل أزرار بنطلونك حتى تخفي عنا آلتك » .

الشفتان الرقيقتان تضحكان واليدان الصغيرتان السمينتان متحفزتان أمام اللعبة الصغيرة وكأنها فراشة قد تطير في أية لحظة .

وصاح الفهد بصوت حاد أذهل المحققيين : « سيدي... » .

« ـ نعم... هل تريد أن تعترف ؟ » .

« ـ نعم يا أبت... » .

وصرخ بأعلى صوته : « نعم يا أبت ولكن بشرط واحد » .

« ـ ما هو ؟ » .

« ـ أولاً... عندي مقدمة قبل الاعتراف ، أود أن أرشقها في وجوهكم بحذافيرها . ولكن بمجرد أن يصرخ بي العبد أو يرفع أي واحد منكم اصبعه في وجهي سأتوقف عن الكلام . هل تعطوني وعداً ؟ » .

« ـ نعم... نعطيك » .

« ـ وسيكارة ؟ » .

« ـ وسيكارة » .

ونفث الفهد دخانه في الهواء وهو متكئ على مرفقه ، وقال : « أولاً لا أريد أن يطلق سراحي بعد الآن . وإذا حاولتم بعد ذلك سأقوم بمجزرة . أما لماذا ؟ فلأنني لا أريد أن أحيا في بلاد لا ينقص مسؤولوها إلا أذنان بطول

خط الاستواء . وإذا كان هذا السجن يعلق مصيره على معرفة سر هذه الآلة فأنا لا يهمني مصيره ، كما لا يهمني مصير حشرة السونة . نعم هناك آلة كنت أصلحها باستمرار في غرفتي ، وكان إصلاحها هاماً جداً بالنسبة إلي وإلى الطفولة... » .

وصرخ محققان : « وما هي ؟ » .

« ـ لعبة . نعم لعبة أيها السادة ، والمرأة التي وشت بي لم تكن كاذبة لأنه كان هناك بالفعل شخص ما يحضر لأخذها وهو على أحر من الجمر ، ولكنه شخص صغير ، صغير جداً بطول سوطك هذا... » .

وحرك المحقق سوطه بحركة عفوية .

« ـ لأنه طفل... طفل صغير يا سيدي . ولذلك فالمرأة الواشية لم تخطئ إلا في حجم الإنسان الذي كان يحضر إلى غرفتي . وكانت عنده دمية على هيئة أرنب صغير ، في داخله زمبرك ، يعبأ كالساعة ، ويقفز كأرنب حقيقي بمجرد أو يوضع على الأرض . ومن دون أن يعبأ لا يتحرك قيد أنملة ولو أطلقت عليه كلباً سلوقياً . ولم يكن باستطاعة الطفل تعبئة الزمبرك ، وأمه دائماً منهمكة في حفظ النوع . ولذلك كان يلجأ إلي باستمرار واصبعه في فمه . وكنت بلا عمل ، وليس عندي لا أرنب ولا نمر ألعب به وأمرح . ولذلك كنت أقوم بهذا العمل الدقيق الموجز... من أجلي لا من أجل الطفل ، فأنا أكره الأطفال ، وأتمنى إبادتهم جميعاً بمسحوق ما . هل تعرفون لماذا ؟ لأنكم كنتم أطفالاً فيما مضى . ابصقوا عني على الأرض . لقد جف حلقي » .

« ـ ولكن الآلة لم تكن تنط كما قالت المرأة » .

« ـ بل كانت تنط » .

« ـ المرأة صادقة ، وأكثر صدقاً من ثلاثة أطنان على شاكلتك » .

وهنا تكلم المحقق الآخر قائلاً : « على كل حال سنبحث هذا الموضوع في جلسة اليوم » .

« ـ ولماذا كنت تسدل الستائر ؟ » .

« ـ لأن نافذتي كانت محطمة والريح باردة حتى في أيار » .

« ـ ولماذا كنت تطل من نافذة المطبخ ؟ » .

« ـ حتى أبصق » .

« أهذا كل ما في الأمر ؟ » .

« ـ لا... هناك أشياء كثيرة تجهلونها . كنت أفرك أسناني وأغسل وجهي بالماء ، والماء ينزل من الصنبور ، والصنبور مثبت بالحائط ، والحائط مثبت بالبناية ، والبناية مثبتة بالشارع ، والشارع مثبت بالأرض ، والأرض مثبتة بالأقدام ورؤوس الحراب » .

« ـ يكفي يكفي أيها المجنون . هذا عن الآلة ، وأما ما يتعلق بك شخصياً... » .

« ـ أما فيما يتعلق بي شخصياً فإني أكرر طلبي . لن أخرج من السجن . وإذا أخرجت بالقوة فسأضع ضمادة سوداء على عيني حتى لا أرى شيئاً في طريقي إلى المطار وحتى تحزمني المضيفة بالحبال . وإذا لم تعطوني جواز السفر ، سأذهب إلى حدود وطني ومعي موسى مفتوحة لأقطع قطعاً من لحمي ووجهي وقدمي وأقذفها خارج الحدود حتى لا يبقى مني سوى الأصابع التي تقبض على الموسى » .

« ـ لن نمنعك من السفر أبداً بل سندفعك دفعاً إلى حيث تشاء ، ولكنك ستعود... » .

« ـ سأعود ، ولكن في نعش » .



الفصل السابع



وبينما كان المحققون يرتدون قبعاتهم استعداداً ، قال المحقق الصغير : « ولكننا لم نستجوبه في بعض القضايا الأخرى » .

« ـ أية قضايا ؟ » .

« ـ الوطن الحرية الديمقراطية وبعض القضايا الأخرى » .

وأطرق رئيس المحققين برأسه قليلاً كأنه يتذكر مثل هذه الأشياء وللمرة الأولى : « لابأس . اعطه قلماً وورقة وليجب عن هذه الأسئلة هنا ريثما تدور السيارة » .

فقال الفهد لرئيس المحققين : « سيدي... لابد أنك تمزح » .

« ـ أمزح ؟! أمزح معك يا ابن الداعرة... » .

« ـ ولكن من المستحيل أن أضع ورقة صغيرة على ركبتي وأكتب لك عن الحرية والوطن » .

فقال له محقق آخر ظل صامتاً طوال فترة الاستجواب وصوته أشبه بالاستغاثة : « وماذا تريد ؟ آلة كاتبة ؟ » .

وصفعه بقوة على فمه ، ثم أخذ يحك أصابعه كأنه صفع جداراً .

« ـ والآن... هل تريد شيئاً آخر ؟ » .

« ـ لا » .

« ـ إذن لماذا تتذمر من اعتقالك كأنك شيء ما ؟ وإذا لم نعتقل أمثالك فمن نعتقل ؟ الأشجار والصيصان ؟ » .

« ـ لقد أخطأت يا سيدي . لست شيئاً ما » .
وصرخ رئيس المحققين : « وماذا تريد إذن يا بني ؟ » .
« ـ أريد أن أموت » .
وعندما حاول المحقق الصامت صفعه مرة أخرى ، كان الفهد قد انطلق محني الظهر ، متهدل الذراعين ، وأخذ يدق رأسه بالأرض كديك ذبح بسكين قاطعة ، فأمر رئيس المحققين أحد الحراس صارخاً : « اخف هذا المنظر حالاً . ضعوه في مكان مريح . أعطوه ورقاً وسجائر ، ليكتب ما يشاء . ومن يزعجه بكلمة سأطلق عليه الرصاص » .

* * *

أظن أنه لا داعي إلى ذكر الطول واللون والشعر والعلامات الفارقة لأنها موجودة في هويتي . ولما كنت قد وعدتكم أنني سأقول الحق ولا شيء غير الحق ، فأعلمكم أن هويتي ليست معي . لقد فقدتها في أحد المخافر التي أوقفت فيها إذ كان بعض رجال الشرطة يصنعون ورق لعب من الورق المقوى . وكانوا في تلك اللحظة بحاجة إلى بعض الأوراق الأخرى لتكتمل اللعبة ، فأعطيتهم هويتي لأنها من الورق المقوى ، وسرعان ما مزقوها واستعملوها لورقتين هما الدام والآس على ما أذكر . ولا أنكر أني استغربت أنهم لم ينظروا إلى ما هو مكتوب فيها عندما بدأوا تمزيقها ، ولكنني عندما رأيت بعد ذلك أن نصف الورق الذي أعدوه سابقاً هو من هوياتهم الشخصية ، زال عجبي واستغرابي .

ولست آسفاً لذلك أبداً لأني لم أكن أحس بوجودها إلا عندما أفتح محفظتي لشراء تذكرة سينما مثلاً . وعندما تمعن النظر في سيرتي الذاتية لن تلومني أبداً بل ستتساءل : لماذا أبقيت عليها حتى ذلك الحين ؟ ولماذا لم أسد بها أية نافذة محطمة في المنفى ؟

عدت في نيسان من المنفى مع ثلاثة عشر منفياً في شاحنة تابعة للسلطات الشقيقة . وكانت الريح المحملة بالثلوج تعيقها عن الصعود أو الهبوط ، وتتشبث بدواليبها كما يتشبث الطفل بذيل الكلب .

كانت العصافير تغرد فوقنا وهي تقفز على ورق السنديان الأبيض ونحن نلتف بالحرامات الممزقة ونميل يميناً وشمالاً كالنساء المغربيات ورشاشان صغيران تابعان للسلطات الشقيقة مصوبان إلينا . وكنا سعداء رغم ذلك ، فجبال الوطن وسهوله الرائعة تلوح لنا من خلال الثلج الكثيف العاصف... سعداء بأسلاك الهاتف التي تحمل الثلج والعصافير وأصوات شعبي الحبيب . لقد كان الجميع يا سيدي يبكون من شدة البرد . أما أنا فكنت أبكي من الفرح . وفجأة ألقينا في الوحل . لقد وقفت الشاحنة وكنستنا رشاشات السلطات الشقيقة كنساً إلى أرض الوطن . ورحنا ننهض ونرتمي كاللقالق نحو مكتب التفتيش ووجوهنا ملطخة بالوحل . وكنت أعتقد أن الموظف المختص سوف يلوح لنا بيده ، ويسألنا عن أحوالنا وأحوال سوانا ونحن نفرك أيدينا على لهب المدفأة ، ولكنه أبعدنا عنها وهو يسأل متى يضرب المدفع ولماذا يضرب المدفع . لقد كنا في شهر رمضان . واعترتنا الدهشة ونحن نراقب بهلع الموظف المختص وهو يقوم بالاجراءات والكشف على لوائح الأسماء ولسانه مشقق مليء بالبثور وكأنه سيأكلنا أو يأكل لسانه إذا لم يضرب المدفع في الوقت المناسب . وفي تلك اللحظة دخل كلب هرم موحل ، وراح يحتك بسيقاننا وهو يبصبص بعينيه الضيقتين إلى عيوننا ويهدر بكآبة كأنه يسألنا إذا كنا رأينا بعض أبنائه وأحفاده في المنفى أو إذا كانوا قد أرسلوا إليه عظمة في مغلف . وأمر الموظف المختص وهو يعيد اللوائح إلى مكانها بأن يطلق سراح الجميع ما عداي . لماذا ما عداي ؟ لماذا ؟ هل صلبت المسيح ؟ هل نهبت الجوامع وقصفت المنازل الآمنة بالحجارة ؟ وأردت أن أسأل مستفهماً إلا أن ضجيج زملائي وفرحهم المباغت ضيعا عليّ الفرصة . ولما قال له زملائي إنهم لا يملكون مالاً للعودة إلى قراهم ومدنهم أشار عليهم بأن يركبوا بعضهم بعضاً إذا شاؤوا .

وعندما فتحت فمي لأسأله تبريراً لحجزي دون الآخرين ، دوى المدفع ، فانهار كل شيء ، واندفع الموظف المختص إلى مائدته المعدة قرب المدفأة ، يكتسحها اكتساحاً ، فازدردت لعابي مرغماً ، وشعرت بأن كل الإهانات التي

قاسيتها يمكن أن تزول بلقمة واحدة ، ولكني عندما تأملت أسنانه وهي تبرز وتختفي ونقط الحساء تسيل على حافة عنقه ، ابتعدت قليلاً خشية أن يأكلني .

«ـ ماذا كنت تكتب في المنفى ؟» .

«ـ نعم ؟!» .

فكرر سؤاله وفمه مملوء بالطعام .

«ـ أكتب في جريدة» .

«ـ لماذا ؟» .

«ـ كي أعيش» .

«ـ وماذا أحضرت من المنفى ؟» .

«ـ القمل يا سيدي . نمت في تسع نظارات موحلة للآن دون أن أعرف السبب» .

نعم يا سيدي لا أعرف السبب ، وهو لا يعرف السبب ، والذين في الطابق الثاني لم يعرفوا السبب ، والذين في الطابق الرابع يبحثون عن السبب ، والذين في الطابق العاشر ينتظرون أن يبرق إليهم بالسبب . ثلاثة أشهر على الحدود وأنا ألمح المطر على المعاطف والشبان على دراجاتهم والفلاحين على خيولهم وجسدي قاعة استقبال يعدها القمل الوطني للقمل الأجنبي . وبعد ثلاثة أشهر لم يعرفوا السبب ، فأطلقوا سراحي . وبعد عام واحد اعتقلوني بسبب السبب الذي لم يعرف ولن يعرف أبداً .

ولدت في الثالثة والعشرين من عمري كما تعلم . وقد حاولت بكثير من السهر وحك الأصداغ أن أتذكر أهلي وأحبائي فلم أفلح لأنك لا تعرف المنفى يا سيدي . اسأل أي طائر إذا كان يريد العودة إلى المنفى . سيرفض ويبحث عن أقرب مقلاة إليه ولا يعود . ولذلك انتصبت على تلك الأرض الغريبة بقوة ، غارساً حصاها حتى الأعماق ، مصمماً على أن لا آكل فحسب بل أحتل صدر المائدة وأبطش بأي يد تريد أن تحرمني من طعامي .

كان التاريخ يا سيدي يلفظ أنفاسه الأخيرة في المطابخ المتنقلة ذات الصفير الحاد . ولما كانت شقوق الأرض كالجروح فقد اشتريت حذاء مدبباً

وسروالاً كحد السكين ، وأطلقت خطواتي الأولى عبر ضباب المستقبل وبطش التاريخ .

كنت ضد التيار وآماله الراكدة في الشوارع ، لا أتورع عن إطلاق الرصاص على أي طفل سيثب على رماد الصحف وإنقاض الموسيقى ، وألهث غضباً وراء زجاج المقهى لأن الوجوه لا تبتسم والأعلام لا تخفق والسماء لا تمطر سهاماً وأجراساً ومشانق . كان يلوح لي كل شيء وقد افترق عن الآخر إلى الأبد في هجرة لا أفهمها ، وان أي تضامن بينها أشبه بلصق رؤوس الأصابع بصمغ ، وأية وخزة دبوس في أسفل القدم ستجعلها تنفصل وتتلوى منفردة ولاهثة .

أقول لك ذلك وأنا أمضغ لقمة من الخبز . الخبز الخبز يا سيدي... الياقة النظيفة والشعر المسرح إلى الخلف . أما ما تكتبه الصحف وما يد بجه المفكرون فهو وسيلة لكسب العيش . لقد قضيت عشرة أعوام أكتب في الصحف ، أطويها وأبوبها وقد أبيعها في المستقبل لا أعلم . ومع ذلك لم أقرأ مقالاً حتى نهايته أو افتتاحية حتى منتصفها ، لأنني أعرف أن الأمور واضحة كضوء الشمس . هناك حرية ، وهناك عبودية . وكل منهما ليس بحاجة إلى سمسار أو مدير أعمال يفتح للترويج لهما في الأسواق . ولأنني أعرف أن تلك الترهات عن الفقراء والبائسين قد كتبت بأصابع مجففة لتوها من العطر والحليب ، وأنها ليست إلا أفكاراً لذر الرماد في العيون . إنها أغشية الطغيان يا سيدي... أغشية رقيقة وشفافة تتراكم يوماً بعد يوم لتصبح عظاماً في المستقبل . عظاماً تكرس على مرافق المحققين . ثم لتذهبوا إلى الجحيم ، فإذا كان الخبز هو شاطئنا البعيد فإن الفخذ والبظر هما شراعاه وسفينتاه . إن أمة تقضي حياتها بين المطبخ ودورة المياه يجب ألا تتحدث عن القامات الممشوقة والأذرع الملوحة على سطوح السفن . إن نصب السجاجيد على مداخل المدن والمكاتب الحكومية أصبحت عادة كعادة اللواط ، ولا يمكنها أن تخفي القبح المختبئ وراء السجاجيد والجدران المزينة بالصور والنقوش . اغمر كل مواطن أياً كانت فصيلته ولونه وسياراته بالقشدة والقمح . ضع على رأسه رحى طاحون ، فإنه لن يلبث أن يهجر كل شيء من أجل امرأة... امرأة عارية في مجلة .

كانت الشمس تحرق الأخضرين ، وثيابي ملتصقة بلحمي كالقصب . عرق وصمت ودخان . وعندما التقيت بها ، يمامة من السماء ، رفرفت على حافة المجرة وقالت : هل أستطيع أن أشرب ، فصرخت : اشربي يا يمامتي... ارتوي من هذا السم الجميل الراكد .

كان في عينيها رغبة جامحة في دخول عالمي المغلق المتهور ، وفي صوتها نبرة فتاة أرهقها الخوف وهدها الطيران . وإذا أردت الحقيقة تماماً يا سيدي ، فهي لم تكن سوى فتاة عادية لا تزن أكثر من خمسة وأربعين كيلوغراماً مع حقيبتها وشعرها وكتفيها ووطنها ، ولا ينبعث من عينها أي رغبة جدية في دخول الجامعة . وجاءت تتوسطني في هذا الموضوع لأنها لا تحوز على شروط الانتساب كاملة ، فاهتممت فوراً بالموضوع كأنه شروط مناقصة لا أكثر .

« ـ اعتبري الموضوع منتهياً » .

« ـ شكراً » .

« ـ كيف أهلك ؟ » .

« ـ بخير » .

« ـ كيف البحر ؟ » .

« ـ بحر ؟! » .

تثاءبتُ وتثاءبتُ .

« ـ هل تشربين شيئاً بارداً في المقهى ؟ » .

« ـ لا . شكراً . لا أخرج مع أحد . وسأمر عليك غداً للبدء في الموضوع » .

وانصرفت ، ثم أنهيت مقالي ، ولملمت قداحتي وعلبة تبغي وأقلامي ، وقصدت المقهى .

وعندما التقينا في اليوم التالي ، أطريت فستانها كأي رجل عادي ، فاحمرت أذناها ، وقالت متلعثمة : « ما الخبر . لقد أصبحت « جنتلمان » بالفعل ؟ » .

وعندما سألتها عن معنى كلمة « جنتلمان » ، انفجرت ضاحكة ، وقالت : « الآن تأكد لي أنك لم تتغير... تماماً كما عرفتك » .

ثم فترت حماسة اللقاء ، فأسرعنا إلى الذهاب إلى الجامعة حيث قدمنا بعض الأوراق ، وأخذنا تعليمات دقيقة حول بعض الأوراق الأخرى . ولما كنت ضجراً فقد دعوتها إلى المقهى مرة أخرى ، فرفضت مباشرة وقبلت في آن واحد .

وجلسنا في مقهى منعزل ومقفر أيضاً كطائرين في قفصين متقابلين . هي تحب الخريف والمطر وأنا أعبد الخريف والمطر ، وأخذنا نتحدث باقتضاب ونضحك بافتعال . وراقبتها باهتمام وهي تمتص المرطبات بقصبتها الرقيقة . كانت شقراء نحيلة كالهيكل العظمي . وإذا لم تحرك ساقها حركت يدها . وإذا لم تحرك يدها حركت شعرها حتى لتخالها مستعدة للسفر في أي لحظة إلى مقهى آخر أو إلى أقاصي الدنيا . وفي عنقها ندبتان صغيرتان تلتهبان في القيظ كأنهما آثار قبلتين قديمتين . وعندما طال صمتنا وأخذ الارتباك يكتسحنا اكتساحاً ، قالت إنها ضجرة ، وقلت أنا كذلك . وبعد أن قذفت ذلك الاعتراف شعرت بأني حقير وتافه أمام الآخرين ، واستجمعت قواي وزررت سترتي لأقول لها شيئاً مسلياً ، وتذكرت نكتة ، وعندما شرعت في سردها تلعثمت . وطبعاً أخذت النكتة كنقطة أولى وروتينية في غزو المرأة ، ولكن ما أن لفت انتباهها لرواية النكتة ومهدت لها بضحكة متقطعة حتى نسيتها عن بكرة أبيها كأن لصاً اختطفها من فمي ، فزمجرت صارخاً على الخادم كي يغير غطاء الطاولة وأن يعيد تسخين الشاي حتى يغلي ، وصببت جام غضبي على ذلك الخادم المسكين الذي كاد يستشهد في سبيل خدمتنا وتأمين راحتنا .

وفاجأتني بصوتها الغامض الحاد : « لقد تغيرت . أصبحت عنيفاً » .

« ـ إنها الأيام يا غيمة » .

ثم ودعتها على باب المقهى ، وسارعت إلى مقهى آخر ، أتعثر بالخجل والغيرة من الناس ولباقة الناس . لقد كشفتني ووجدت أن لا شيء وراء ذلك القناع سوى الفراغ ، وحتى الغوستابو لن يعيدها إلي بعد الآن . ولكنها فاجأتني بزيارة مبكرة في اليوم التالي واليوم الذي يليه بل أصبحنا نلتقي كل يوم ، نذهب إلى الجامعة ونعود إلى المقهى... ذات المقهى ، غائصين حتى ركبنا في الارتباك وإخفاء التثاؤب مما جعلني أفقد صوابي وأفكر في كثير من

الأحيان في إنهاء تلك العلاقة بأي وسيلة ، مقتنعاً أنه من المستحيل أن يترعرع أي حب ما بذرته الملل وشق الأحناك بالتثاؤب .

وأصبحنا نقضي معظم أوقاتنا في الجامعة حتى خالني البعض مدرساً فيها مع أن عدداً قليلاً من الناس يعرفون أنني لا أحمل أي شهادة . ولما كانت تعرف أيضاً أني أمقت الأجواء الثقافية مقتاً شديداً فقد كانت تذهب هي إلى المقهى كتعويض عن ذلك .

وذات مساء ، دخلنا أحد المطاعم كعادتنا . وبينما كنت أدفع لقمة كبيرة في فمي ، سألتني : « ماذا تحب ؟ » .

فأجبتها دون وعي : « البفتيك » .

ورنت ضحكتها في أذني حتى اخترقت الطبلة ، ونظرت إليها وتلك اللقمة في فمي تمنعني من إعطاء أي تعبير لوجهي عدا الرجل الرقيع المتخبط غضباً لتوقفه عن المضغ . وأنهت ضحكتها بمفاجأة : « ما هي أحب الألوان إليك ؟ » .

فأجبتها وأنا أدفع لقمة أخرى إلى فمي : « الأخضر... البنفسجي... » .

وقلت في سري : أي شيء لا يجعل العينين في حالة ذعر لا نهاية له .

وفي صباح اليوم التالي ، جاءتني كأنها بركان صغير يمشي على قدمين صغيرين ، فقلت : لا ينقصك سوى الذيل أيها الغلام إذا كنت تشك في مشاعر هذه اليمامة تجاهك .

وبينما كنا نحضر أحد الأفلام المرعبة ذات مساء ، وفي مشهد من المشاهد المرعبة ، شعرت بيدها تبحث عن يدي وتتشبث بها بتوسل وهي تشهق كأن الممثل سوف يخنقها ، وراحت تفرك يدي كزمبرك الساعة وأنا أهتف من أعماقي : مزيداً من الرعب أيها المجرم العظيم! وأتلمس يدها بهدوء . كانت ناعمة وصغيرة جداً بحيث كنت أحتفظ بها باستمرار لأتأكد من أنها مازالت موجودة . وعندما داعبت أظافرها وجدت أنها حادة جداً .

« ـ إنني أعتذر . لقد كان فيلماً مرعباً ، ولذلك لم أجد نفسي إلا وأنا أمسك يدك » .

« ـ لقد أرعبني أنا أيضاً . ولو لم تمسكني يدك لكنت سأتمسك برأس الذي بجواري » .

ويبدو أن حادثة السينما كان مهيأة من القدر ليفك عقدة لساني ، فصرنا نحضر كل يوم فيلمين ثم ندخل الفيلم أكثر من مرة ، ويدها في يدي باستمرار ، ترفد يدي بتلك الكهرباء الزرقاء التي نحس بعنفوانها ولا نراها . وعندما كنت أحاول تقبيلها في المصعد ، كانت تصدني رافعة رأسها إلى الأعلى كأن أنفي حربة ستنغرس في خدها .

واشتعل حبنا اشتعالاً بعد ذلك . نترنح ونضحك ونهز أيدينا في الشوارع ونخبطها على أفخاذنا كقادة الحروب . كنت أقبلها في زوايا المطاعم وخلف ستائر الحوانيت ، وأقدامنا الغبراء اللاهثة تضرب ذلك المجد الحجري في الشوارع الكبرى ، وتلقح الأرصفة الطويلة بالغبار . واستأجرنا غرفة صغيرة فوق أحد السطوح ، وعشنا أياماً لا تنسى بصورة غير شرعية والفم فوق الفم والذراع يطوي الذراع ، ونحن نتعانق كالزواحف عراة أو بكامل ثيابنا ، مهووسين حتى العظام ، فائضين كالسيول الرجراجة حتى كان أي عابر سبيل يستطيع أن يصعد إلى غرفتنا ويغرف ما يشاء من الحب والمطر والإرهاب .

وإذا ما تأخرت لحظة عن الموعد ، كنت أجلدها يا سيدي بالحزام على صدرها النحيل العاري وهي تصرخ وتغطي وجهها بيديها . كانت تلهث في نهاية السلالم ، وتفتح ذراعيها على مداهما وتضمني وتزفر فوق عنقي كراع يزفر في نايه العتيق . الخريف الخريف يا حبيبتي... يجب أن نستنفده حتى آخر زهرة ، ونضطجع على البلاط البارد بعيدين عن الأرض ، منقبين عن السماء والشعر والمطر... طوقنا الوحيد فوق زبد الخوف والضحايا .

أظنك يا سيدي لا تهتم بالحب جيداً ، ولكنك إذا كنت تعتقد أنه إسدال ستائر وفك أزرار فقط فيجب أن تذهب إلى أقرب حفار قبور . الحب رحيل كرحيل الطائر وعودته في ذات اللحظة . إنه الخوف... اللهاث في نهاية السلالم... العري الكامل فوق الأغطية وفولاذ السرير . لقد قتلني الحب يا سيدي ، ونثر عظامي ملحاً وصدأ على جراح الآخرين .

كنت أضربها بيدي وبحزامي حتى يبح صوتها من البكاء والتوسلات . ولما هجرتني ، تركت قلبي مفتوحاً على مصراعيه والدم يقطر من قلبها وثيابها وعنقها كما يقطر الدمع من فوهة المزمار .

لقد انقلبت حياتنا إلى جحيم . وبمجرد أن نهبط عن السرير . تنقض على بعضنا بالأيدي والكتب ، ولكنها لم تدرك الحقيقة المذهلة والفاجعة وهي أني ضد الثياب ، ضد السرير والأغطية ، ولا أعتبرها إلا مطيتي نحو العري الكامل والمشانق المفتوحة الفخذين . كانت تعتقد أن هناك امرأة أخرى . وبإمكانك على كل حال أن تقنع صخرة بأنها سحابة ، ولا يمكنك أن تقنع امرأة ما بأنها محبوبة وأنها الوحيدة فقط . ولو كنت مريضاً في الرمق الأخير وبعثت إليها برسالة مع الممرض تؤكد لها فيها أنك تحبها وتعبدها ، وأن العالم كله يساوي فردة حذائها ، لأجابتك غاضبة : ولماذا تجاهلت الفردة الأخرى ؟ .

قد تزمجر الآن غاضباً يا سيدي وتصرخ : ولكن أين المغزى السياسي في كل هذا ؟ حسناً . ليذهب المغزى السياسي إلى الجحيم . سيأتي في النهاية . إنه رنة الجرس الأخيرة خلف هذا النعش الكبير . أما الآن فسأغوص بك إلى سخافات أخرى أشد سخافة مما يحلم به رأسك اليابس هذا .

قمنا بزيارة مفاجئة إلى فتاة تربطها بغيمة صداقة قديمة . وكانت المرة الأولى التي تتنفس المقاهي والشوارع الصعداء منا . كنت أكره هذا النوع من الزيارات التي تضطرني إلى أن ألبس ربطة عنق وأدفع غيمة أمامي في كل باب تلجه ، متميزاً غيظاً من هذه اللباقة التي جعلتني أكثر شراسة من الحيوان عندما نعود إلى المنزل .

استقبلتنا صديقتها وهي تتمطى في سريرها يميناً وشمالاً كأن ثمة رجلاً قد نهض لتوه من فراشها . كانت شهوانية وذات ماض يزخر بجميع الألوان ما عدا الأبيض . ولما كنت أجهل ذلك فيما مضى فقد أخذت تتصرف معي كطفلة بجديلتين .

ألحت على أن نزورها باستمرار وخاصة أنا لأن هناك أشياء وأشياء ستشرحها لي . وكانت تبتسم بين الفينة والفينة تلك الابتسامة التي تجعلك تؤمن بأن العالم مليء بالأسنان . ولما وجدتني غير مكترث بهذه البادرة الطفولية ، أخذت تتحرك بشكل جنسي ، وتبحث بيدها عن شيء ما تحت لحافها وكأنها تبحث عن أثداء إضافية لتلصقها على صدرها لإثارتي .

وفي الطريق ، قالت لي غيمة : « كانت تنظر إليك باستمرار » .

« ـ أما أنا فكنت أنظر إليك » .

« ـ أعرف يا حبيبي ، ولكن يجب أن تحترس فأسنانها حادة وقاطعة » .

« ـ يا لك من غبية! هل نسيت أن لحمي تغطيه الدروع ؟ » .

وطوقت خصرها ، وصعدنا إلى الغرفة . وكان ثمة غراب يقف على حافة النافذة .

* * *

« ـ إنك تحلمين » .

« ـ رائحتها على ثيابك » .

« ـ إنك حتماً مصابة بالزكام » .

واتخذ النعيق بادئ ذي بدء صفة الإنذار ، وأخذ نهدا غيمة يتصلبان ويكتسيان بالوبر الذي ينبت على الصخور المهجورة ، ولقد لعب الصيف الحار فيّ دوراً كبيراً في انتحالي شخصية المثقف المفتوح الأزرار في الشوارع الصفراء الملتهبة .

وذات مساء ، قمت بزيارة لصديقتها ، فوجدت في زيارتها أحد أصدقائي الممزقين فكرياً وعاطفياً ، يجلس على مقعد صغير بجوار سريرها ، فاستقبلتني بحماسة كبيرة وتنهدت بارتياح كأنها تقول : جئت في الوقت المناسب . لقد كاد يجهز عليّ بحديثه الفلسفي الطويل!

وطلبت لي قدحاً من الشاي . وعندما كنت أرفع قدحي إلى فمي ، نظرت إليها من خلال البخار ، فوجدتها تنتفض وتتمنى لو كانت قطرة شاي على حافة القدح ، وصديقي ينظر إليها كأنه يسألها أين وصلنا في حديثنا . كان شاباً دميماً يعاني أزمة جنسية جعلت عينيه تفضحان ذلك السر الخطير . وكان يعتقد أن الحب يجب أن يأتي إثر نقاش طويل وجدل بين المرأة والرجل ، وكانت هي تعتقد أن الحب يجب أن يولد فوراً وبأي وسيلة . كانت شهوانية أو روحانية ، ولكنها تخفي هذه السمات اللعينة تحت غشاء رقيق

من الطفولة الخادعة كما تخفي الأفعى الصغيرة أجراسها تحت الحشائش . ولم تكن تثيرني على الإطلاق لأنني كنت قد شبعت فيما مضى أفخاذاً وإليات رجراجة . ولذلك وضعت قدمي الحافية على رؤوس الحشائش وخطوت الخطوة الأولى متنهداً وشاكراً لها الشاي الحار ، ومذكراً إياها بموضوع حبيبتي المهم ، فوافقت بالطبع ، وأخذت تحثني على زيارتها حتى ينتهي ذلك الموضوع ، مستنفدة كل حيويتها وطاقاتها في أن تصرعني وهي راقدة على سريرها تحت لحافها ، ترفع صدرها كالقبة ذات اليمين وذات الشمال حتى سئمت النظر إليها وفكرت في إحدى اللحظات أن أصرخ بها : « إلى الجحيم أنت وهاتين القطعتين الكبيرتين من اللحم على صدرك . لو وضعت مصباحاً كهربائياً بينهما فلن أكترث » .

وهرعت إلى غرفتي لأجد غيمة تذهب وتجيء كالخفير ، تنحت خنجر الفراق وتصقل نصله بالدموع ، وصرخت : « كنت عندها » .

« ـ نعم » .

« ـ لماذا ؟ » .

« ـ من أجلك » .

« ـ إنك تكذب » .

« ـ إنها الحقيقة » .

وانخرطت في البكاء وهي تقول : « هل سئمتني ؟ إنني لا أستطيع أن أغريك مثلها . لا أعرف تلك الطرق . أعرف أنني نحيلة ونهداي صغيران ذابلان ، ولكني قد أسمن عما قريب... » .

وأخذت ذقنها ترتجف ، وتنظر إلي بتلك العينين العسليتين الحمراوين وكأنها تقول لي : هكذا خلقها الله نحيلة ودميمة ، وانني إذا هجرتها ستنتحر .

فقلت لها وذقني ترتجف أيضاً : « سنحل الأمور في وقت آخر . أما الآن فمدي لي سجادة كي أصلي لهاتين العينين الجميلتين » .

فامتلأت فجأة بالحيوية ، واكتسى لحمها بتلك الخضرة الرائعة التي تتركها شمس الغروب على الأشجار . أقول الغروب لأنني بعد يومين كنت

أقيم الدنيا وأقعدها بحثاً عنها . لقد عدت إلى الغرفة فلم أجد أحداً . بعض الصور والمحارم والقطن الذي ينمو في قاع الحقائب مكوم على المنضدة . أما ما جعل ذقني ترتجف رأساً فكان ذلك التذكار الوحيد الذي كانت تعتز به وتفتخر ، سلسلة تنتهي بنسر من القصدير وقد محا عرق أصابعها مخالبه وأطراف أجنحته . نظرت إليه برعب متوقعاً في كل لحظة أن يهب حطام ذلك النسر وينشب مخالبه في فمي صارخاً : لماذا لم تقل لليمامة الجريحة وداعاً ؟

وبعد ساعة ، كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي . حطمت المرآة ، وخلعت الخزانة ، وقلبت السرير ، ونثرت الأوراق والأدراج ، مدركاً في الوقت نفسه أن قطرات دمها استطالت أكثر مما يجب حتى أصبحت ريشاً للسفر وقوادم للفراق .

كانت السماء تمطر في كل مكان... في آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ولكنها لم تكن تمطر في غرفتي ، فاندفعت حاسر الرأس إلى الشوارع ، ورأسي يميل على الجانبين كرأس القائد المصفوع على وجهه . لا أعرف ماذا أعمل وبماذا أفكر وإلى أين أمضي بهذه السترة المقلمة والجذور المكتسحة على وجه الأرض . لقد برز الأعداء ، وأطلت الأنثى المحاربة أمام المستسلم على سريره .

كانت قطرات المطر تتجمع على جمر لفافتي ، وتطفئ الفتوة المشاكسة واليأس الضارب جذوره في الأعماق ليعيد الطفل الثائر العاري إلى وطنه المقطوع الذراعين .

كنْ بلا رأس أو أنف أو ذراع ، ولكن لا تكن بلا مال أو امرأة في هذه المدينة . إنها تصك نقودها بملاقط الشعر . إنها عتباتها المغسولة عند الصباح... العيون التي تحدق إليك من شقوق الأبواب... الأجسام البضة في أحواض الاغتسال ، تجعلك لا تضرب رأسك بالجدران بل تعتبر اختراع الرادار والالكترون والغواصات شيئاً لا معنى له . صوت القباقيب والأساور في أحواض الاغتسال ، تجعل أي محاولة لبلوغ الأهداف القومية العليا كبلوغ القمر على دراجة .

كنت أربض لها عند مواقف الباصات ، وعلى طريق الجامعة ، وأمام ساعة المدينة ، تلوح لي في كل شيء وجهاً حبيباً وعظاماً نحيلة وفارغة كالقصب بعد أن جف فيها نخاع الحب ، وعلى شفتيها طمي الدموع وغبار البزر . نسيت أن أقول إنها كانت مولعة بالبزر . ولذلك عندما أقبل العام الجديد احتفلت بها وأنا رابض على قمة الحطام . كانت مائدتي بسيطة للغاية : شمعة وبنفسجة وصحن من البزر وآخر من المطر . وكانت حبات البزر معتمة أشبه بالعيون المفقوءة ، وقطرات المطر سوداء كأنها شويت على النار ، وكان لساني يلمع ويتراقص بين الشفتين . وعندما أطفئت الأنوار ، أشار عصفور عاشق لحبيبته : لا تغردي عند هذه النافذة يا ملاكي ، فهنا عاشق لم يقل لحبيبته الجريحة وداعاً ، ثم طوقها بجناحيه ومضى .

كانت الجيوش النازية تزحف على ركبها نحو الفيلبين وكوريا ، وأنا أزحف على ركبتي فوق السطوح ، متلصصاً على عري العائدين والزوجات الوحيدات ، منكفئاً على الوحل والقذارة والعادة السرية ، ثاقباً الجدران بالمسامير ، ولاعقاً آثار القباقيب لأعيد إلى ذاكرتي عذابها وجوهرها بعد أن غطاها الهجر .

كان الطلبة الوهميون ينطلقون من بوابات المدارس كالعجول ، والدم يقطر من دفاترهم وأقلامهم ، ويلتئمون في الساحات المعتمة سبعين مليوناً تحت ذقن رجل واحد .

وكنت ألهث في الشوارع بحثاً عنها . لقد أخطأت منذ البداية . الكلمة الحلوة يجب أن لا تقال إلا للنعش . عندما تتعرى المرأة أمامك بتلك البراءة الدامعة ، اجلدها... اضربها بذراعك المحني وسوطك المائل ، فإنها ستثب نحوك لا لتمزقك بل لتزداد قرباً منك والتصاقاً بلحمك . اهجر عندما يكون اللسان حول اللسان والذراع حول الذراع . لا تقذف السمكة الصغيرة في المنقار بل لوح بها فقط حتى ينهار الجناح . وعندما يكون الجبين واضحاً أمام فوهة البندقية ، اضغط الزناد واحمل فريستك دون عصيان إلى سريرها .

أيتها اليمامة المكسورة الجناح... كيف تطيرين ؟ ألم تخنقك رائحة

الفضلات والريش المتعفنة ؟ لك الزناد والبندقية... لك راية العرين وعشب المقابر ، ولكن عودي يا يمامتي الحبيبة .

أظن يا سيدي أن أجمل يوم في حياتك هو اليوم الذي تقبض فيه راتبك ، هذا طبيعي من رجل سيصل شخيره إلى الهند الصينية ، ولكن أجمل يوم بالنسبة إلي هو يوم رأيتها في الزحام . صرخت : غيمة ، فلم تجب . صرخت وصرخت ، ولم تجب . كانت تعدو بحذائها الرقيق المتسخ بالغبار . خبطت بقدمي وراءها وأمامها وحولها دون أن تنظر إلي ودون أن تنطق بكلمة كأنها تحمل بين شفتيها رصاصة لو انطلقت لصرعت نصف الشارع .

وعندما وصلت إلى الباص ، صعدت درجته الأولى ، والتفتت إلي ، وقالت : «أيها الوحش!» .

ثم أدارت عنقها كالغزالة وصعدت .

قمت بعد ذلك بشجار كبير مع شرطي السير ، ومعركة دموية في الجريدة ، ومجزرة في المقهى حتى كدت أفقد آخر ذرة من عقلي .

والتقيتها مرات كثيرة بعد ذلك ، فكانت تهينني وتذلني وأنا أهز برأسي مستسلماً كالجبان . كل همي أن أحتفظ بكل قواي على كفة الميزان حتى يعود التوازن بين الضحية وجلادها .

ورأيتها مرة تسير مع عملاق هائل . وما أن وقعت عيناي عليه حتى غاص قلبي وراح يئز كالبعوضة بين جوانحي . يا إلهي... من أين بعثت إلي تلك المصيبة ؟!

تأملت صدره العريض وقبضته القوية ، فتأكد لي أنه ما أن يهوي علي بلفافة حتى يحطمني كالفخار . ولذلك اكتفيت بمطاردتها محافظاً على مسافة معينة تكفل لي التواري والهرب ، ولكنهما أوقفا سيارة تاكسي ومضيا بها ، فما كان مني إلا أن أسرعت إلى حيث كانت تقف تلك السيارة ورحت أمحو آثار عجلاتها بقدمي ، وعدت إلى غرفتي معفراً بالتراب ، وحيداً وباكياً .

أنا كاذب كاذب يا سيدي . لم يكن هناك عملاق يسير معها ، ولم تكن لها صديقة تغار منها ، وما كنت أجلدها وأفرض سلطاني عليها ، ولم تهجرني لأن النساء كن يرتمين عليّ . لقد هجرتني لأنها ضبطتني بنفسها

وأنا جاث على ركبتي أتلصص على نساء المنزل المجاور وهن يغسلن ثيابهن . لم تكلمني ولم تصرخ بل تركتني مصعوقاً كمن ضبط فوق امرأة في فندق مشبوه . «نذل» هي الكلمة الوحيدة التي قيلت في هذه الفاجعة .

إنك ستصرخ الآن غاضباً . وما علاقة كل هذا بالسلامة العامة ؟

وأنا سأصرخ غاضباً مثلك : وما علاقتك أنت وسلامتك العامة بي ؟ إنكم حظرتم عليّ تدخين لفافة من أجل مجرى التحقيق ، فأي تحقيق هذا الذي يتأثر من إشعال عود ثقاف ؟

حرمتموني شهراً كاملاً من غطاء أستر به جسدي ، فأي وطن هذا الذي يتأثر من دفء بطانية أو وسادة ؟

إنها الرغبة الوراثية في الذل... المتعة السادية في تأمل العائلات الممزقة والإصغاء إلى ملايين الأفواه التي تصرخ : النجدة النجدة!

لقد أحرقتم المراكب وجعلتم من أشرعتها عمائم وقلنسوات للتنابل . قصفتم جذع الشجرة ، وتركتم سبعين مليوناً يحمون صلعاتهم الملساء بالصحف وراحات الأيدي . لقد نهبتم الأرض خيرة فلاحيها وسواقيها ، والشوارع زهرة أحبابها .

إنها الرغبة الوراثية في الذل ، المتعة السادية في الإصغاء إلى ملايين الأفواه التي تصرخ : النجدة النجدة ، ولكني سأكون القروي الوحيد الذي لن يصرخ أبداً لأنني أعرف إلى أين يذهب صوتي... لأنني أعرف ما هي السلامة العامة . إنها مصلحتكم أنتم... الأجداد المكدسون كالبضائع في نهاية القطيع المندثر تحت أغصان النخيل... البقايا المقذوفة من قمامة إلى قمامة عبر التاريخ .

وبينما كان الفهد في ذروة حماسته ، يلتهم الورق التهاماً ، ويحاول وضع السدادة في فوهة الجرح ، جاء شرطي مسرع ، وزمجر بغضب : «ألم تنته بعد من هذه القاذورات ؟» .

«ـ نعم انتهيت ولم يبق إلا التوقيع» .

«ـ وقع على البلاط» .

وأخذ الشرطي أوراق الفهد ، ومضى .

الفصل الثامن

في صباح أحد الأيام ، أعلن الراديو أن الشعب هو العمال والفلاحون... أن الفلاح المعروق الوجه الذي يرفع مجرفته تحت الشمس أو العامل الذي يهوي بمطرقته في أعماق الأرض هو ابن الشعب لا غيره .

وبعد عشرة أيام من إذاعة النبأ سمع به أبو سليم بينما كان يلتهم التمر في أحد الحوانيت ، فانتفض واقفاً ، وأخذ يلمس وجهه المعروق ويديه النحيلتين ويصرخ مندهشاً بمن حوله : « إذن نحن الشعب . ألم تسمعوا بعد بما قاله الراديو ؟ » .

ثم اقترب من صاحب الحانوت ، وقال له هامساً : « هل الأفندي يحمل مجرفة ؟ » .

فأجابه : « أنت مجنون . ليس له نفس كي يشم الورد فكيف يحمل مجرفة ؟ » .

فقال أبو سليم : « إذن كيف تفسر هذه الأمور ؟ شيء غريب! » .

وقبض على ذقنه برؤوس أصابعه ، وراح يسأل : « هل هو شخص عادي ؟ يأكل ويشرب ويبول ؟ » .

« ـ يا لك من مجنون! طبعاً » .

« ـ إذن ما هو شغله ؟ » .

« ـ يأكل متى يشاء ومتى يريد ، وينام متى يحلو له ويستيقظ متى يحلو له . لا زوجة توقظه إلى الفلاحة ، ولا جواد يصفعه بذيله في الغبار » .

«ـ إنه محظوظ . هل تعتقد أنه هو الذي كان في الراديو وقال ما قال عن الشعب ؟ » .

«ـ طبعاً لا . هو الذي يأمر الراديو بأن يقول ذلك» .

«ـ شيء يحير العقول » .

ثم مسح يديه كيفما اتفق ، وهرع إلى منزل الفهد .

«ـ أبو الفهد... أبو الفهد... هل تعرف من هو الشعب ؟ نحن . لقد أذاع الراديو ذلك . ولذلك ما عليك إلا أن تتريث قليلاً قبل أن تطلب مني معونة لابنك فهد » .

وفي بقية القرى والدساكر ، كانت الطليعة الغازية تفتح أبواب المنازل... منازل العمال والفلاحين بحثاً عن أعداء الشعب ، وانكمشت العائلات على بعضها كما ينكمش الأخطبوط إذا لمس بالأصبع ، وأطبقت الشفاه ، وكثرت تجاعيد الأرض والوجوه ، وأخذت الرياح الرمادية تلمع بين أغصان المزارع ، وانتشرت رائحة الآباط المرفوعة عبر آفاق الوطن مع الصراخات المكتومة والنداءات المعادة بقوة الراحات لتكون أسناناً أخرى على مرمى المائدة والرغيف المطارد .

لقد تسلط رعيل الطفولة ، وراحت المخصصات الاستثنائية ترصد على عجل ، والسيارات المصفحة تتأرجح بين الجبال ومصابيحها الغريبة تشع بذلك النور الواثق من نفسه ليكشف عن أطنان من المواطنين بألبسة النوم ونظارات الدراسة ، مخلفين الصحون التي لم تمس ، والأرغفة التي لم توضع على الركب بعد بينما امتلأت منازل الآخرين بالعجز من المراجعين والزوجات المهجورات والأطفال الذين ذهب آباؤهم مع مجارفهم ولم يعودوا ، طالبين أوراقاً حمراء أو صفراء لمعرفة ماذا حلّ بذويهم وماذا لم يحل .

لقد كانت أم الفهد رائدة في هذا المضمار ، حجراً صغيراً يهدد زجاج المصباح ونور الأشرطة . لقد بللت بمخاطها ذقن الصحراء . بللتها جيداً . فركتها كصحن بدموعها وآهاتها بعد أن أدركت بحس الريفية المتعبة والمهانة أن بخار الدم هو الرائد والمجلي لا بخار القدور والملاعق ، وأن موسى القدَر لا تسنه بعيداً على كل حال عن شعر الصدغين ، وأن تلك النزوات الكثيفة من

الأرواح والقلوب وفلذ الأكباد ، لابد من أن تزال بحد الموسى عن وجه الصحراء العاري ، وجه القطيع الذي أحرق صوفه بمشاعل الانتصار ، وراح يمشي عارياً وسط ثلوج لم يحتملها أجداده من قبل ، وينشر رائحة الحريق والشواء البشري على سروج الدراجات وأمام مقاعد المقاهي . إن أسنان القدر تصل ، والمطارق تلمع في قبضات الطليعة ، وقبور الأطفال والجدات المسيجة بالزهور البرية سندانات ترنّ عوضاً عن عظام موتاها ، واللقالق هاجرت بمناقيرها المفتوحة بحثاً عن مستنقعات ووحل أكثر إنسانية وصفاء مما ألفته حتى الآن ، والغيوم تجعدت واصفرت وهوت كصفائح التنك على الأرض على رؤوس الفلاحين وعلى رؤوس المحاريث المغطاة بالقش ومناديل الأبناء الأسرى ، وأزيلت الكروم ، وحطمت جرار العسل والملح لسد شقوق الأرض بحطامها ، وراحت الأصابع الخجلة المحدودبة تلتقط كسرات الخبز وأعقاب السكائر وسلاسل التذكارات المعدنية تتأرجح على الصدور التي جفّ شعرها وذبل من الغبار والجفاف حيث سيارات الإسعاف الملطخة بالدم تطوف على مكاتب التحقيق صباح مساء كعربات الحليب لتفرغ حمولتها في المستشفيات التي مازالت تنبعث منها رائحة الدهان ، ومكبرات الصوت تدوي في الريف وقلب المدن معلنة انتصار الشعب وأبناء الشعب بينما الأمهات يمسحن اباهيمهن من الحبر على الجدران وصوف الأغنام بعد أن وقعن العرائض ، وأسهمن بطريقة ما والمكنسة بأيديهن في صنع هذه الحقبة الخائنة من الزمن . أما في المدن... المدن الصلبة المظلمة التي تحيا على الأسنان الذهبية وأوراق الجوز الخضراء ، فقد هُددت بالقصف عن بكرة أبيها إذا لم تنفجر ضاحكة من الأعماق . ولقد أخذت الأيدي المتعبة ترفع الطرابيش وتحك جلدة الرأس بالأظافر كأنها تتساءل ماذا فعلت حتى انتهى كل شيء إلى هذه الحال .

واستشرى البغاء بين الطيور ، وتفاقمت عمليات القسوة في عمليات التوليد حتى أصبحت شراسة الأطباء فريدة في ذلك العصر ، وإن نظرة واحدة إلى ملاقطهم المتسخة بالدم منذ البارحة ، تؤكد أن الجريمة أصبحت شيئاً ضرورياً للمعاطف الكلسية التي يرتدونها طالما أن الفرصة لضمان طفولة سعيدة ومهذبة قد انقرضت وزال مبررها .

لقد عاش الآباء والأبناء حياتهم كما رسمت لهم .وكانوا سعيدين بذلك ، ممتنين لله لأنها لم تنحرف ولم تشذ عما كتب فوق الجبين إلا أن حدّ الخوذة قد محا كثيراً من تلك النصوص . ولتفسير الكلمات المجهولة ، ينبغي للمواطن أن يقضي بقية حياته مستنطقاً الله لماذا خلقه ولماذا لا يميته .

لقد قدموا أفخر وأجمل هداياهم للسلطة وما ترمز إليه منذ أن كانت الأمور تدار من فوق الهودج إلى أن أصبحت تدار من فوق الرادار . وأعطوا الخبز والدهن والجبن والعسل والمربى ، محافظين بطريقة غير شرعية وضرورية على الحد الأدنى من روح الملكية كرصيد للسفر أو الانتحار إذا شاؤوا إلا أنهم عندما طولبوا بمزيد من الأشياء ، بالمدخرات السرية ، تذمروا وتساءلوا دون إدراك لما يجر التذمر من كوارث وظلمات . على كل حال ، لا تنظر إلى لون السماء أو إلى الأزهار في الوطن الذي تزوره للمرة الأولى بل انظر إلى أصابع أبنائه ، فإذا كانت صفراء فقل إن الأمور ليست على مايرام . ولذلك ضاع الفهد ووالد الفهد في هذه الظلمات ، وامتلأ السجن الذي اعتقل فيه الفهد بالوجوه المفزعة والمعاصم المربوطة بالحبال ، وهي التي كانت تحك جلدة الرأس خلف الموازين وجامات الزجاج .

لقد نفدت الأصفاد . وما تبقى منها كان واسعاً جداً على تلك المعاصم الصفراء ، ولم يكن المارة على كل حال أو ما تبقى منهم ليستغربوا ذلك . لقد كانوا يعلمون إلى أي حد قد تبطش القوات الاستعمارية بهذا الوطن . ولكي لا تكون الضربة قاسية ومحكمة ، راحوا يلوحون بأيديهم المعروقة عشرين ساعة في اليوم على رؤوس الهضاب المبثوثة كغرف النوم . كانوا يدركون أن هذه السنة لن تكون على أية حال شارة الانطلاق نحو التدمير الكامل وفتح قبور جديدة وإضافية بجانب القبور المكسوة بورق الجوز الخضراء لأن لحم الفتيان الصغار مازال غضاً ، ولابد له من أن يتصلب ذات يوم ليكون جديراً بالانتقام بالموت العريق الرائع بين غابات البنادق والنجوم وأصابع الطباق المحترفة قرب الأفواه الفاغرة تكفيراً . أما الشعر ، والكلمات الحلوة ، فستظل بعيداً عن مكتبة الألغام والرصاص . ولذلك عندما دخل « العبد » وهو يحمل إفادة « الفهد » ، قال له المحقق : « ما هذا ؟ » .

«ـ إفادة الفهد» .

«ـ الفهد... نعم الفهد . ضعها هنا . لا . خذها إلى دورة المياه» .

وعند المساء ، فتح باب زنزانة الفهد بقوة ، وقال له الشرطي : «هيا أسرع مع ثيابك واتبعني» .

وذهل الفهد ، وراح يبحث عن أغراضه كأنه فعلاً يملك بعض الأغراض . وانطلق وراء الشرطي وهو يصيخ السمع مدهوشاً إلى أصوات الشاحنات والحبال المقطعة ، وإذا هو وجهاً لوجه أمام عالم آخر لا يحتمل . غابة من الوجوه والصرر تبحث عن راية حمراء لتندفع إليها . وجوه تحمل جنون الفلاسفة وزهو الأكاديميات ، أيد مصطبغة ومحملة بما لم تعد قادرة على حمله ولذلك انهارت وتأرجحت بينما الآخرون الصغار يسيرون كأنهم سيجلسون على عروشهم بعد لحظة .

لقد أطلق الخروف الأبيض في القطيع الأسود وانتهى الأمر .

انتهى الأمر... لا... لقد بدأ .

* * *

بعد أن أبلغ أبو سليم كل من في طريقه أن الشعب هو الفلاحون ، وأنه واحد من هؤلاء الفلاحين ، قفل عائداً إلى البيت ليمتطي عربته إلى الحصاد ، ولكنه ما كاد يقترب من منزله حتى وقع بصره على جمهرة من الناس وسمع صوت زوجته يشق عنان السماء . وما أن رآه بعض الغلمان الحفاة والمتربصين دائماً لأخبار السوء حتى وضعوا أطراف جلابيبهم في أفواههم وانطلقوا لقذفه بتلك البشرى السارة ، والغبار يحوم فوق رؤوسهم :

«أخذوا ابنك» .

«نعم... أركبوه في السيارة» .

«شدوه من شعره وأركبوه في السيارة ، ثم عادوا بذات السرعة» .

وما أن سمع أبو سليم ذلك حتى اندفع هائجاً في مقدمتهم وهو يصرخ : «ابعدوا... ابعدوا . ما الخبر ؟» .

فاقترب منه رجل مسن محاولاً أن يكون واعظاً أكثر مما يكون مخبراً : «يجب أن تسلم أمرك لله وأن تكون عاقلاً» .

«ـ حسناً . إنني رهن إشارتك ، ولكن قل لي ما الخبر ، ولماذا زوجتي تنعق بهذا الحماس» .

«ـ أخذوا سليم» .

«ـ ومن الذي أخذه ولماذا ؟ وإلى أين ؟ » .

فأجابه أكثر من أربعة أشخاص على الأقل : «أخذه رجال الشرطة . لقد شتم الشعب» .

«ـ لعنة الله على الشعب» .

وصرخ أبو سليم بزوجته التي كانت في تلك اللحظة تهش الغبار عن وجهها وثيابها : «كفي عن هذا يا امرأة وإلا دفنتك في الحال . هيا أيها الأولاد الوسخون من حولها . ماذا تنتظرون ؟ لقد اعتقل ابني فاسرعوا وحنّوا مؤخراتكم» .

ولكن أحداً من الأولاد لم يتحرك بل أخذ كل منهم ينظر إلى رفيقه كأنه ينتظر منه المضي أولاً .

فقال لهم أبو سليم : «حسناً لا تريدون الذهاب لأننا سنقدم لكم الحلوى بعد قليل ، وإنني آسف أن أحرمكم من هذا المنظر اليوم . انظروا إليها كم هي سعيدة وهي ترش التراب على وجهها ، ولكن بالله عليكم من يتبرع ويخبرني لماذا شتم الشعب وهو يعرف أننا سنمضي إلى الحصاد» .

وانطلقت عدة أصوات دفعة واحدة لتخبره وهي تلهث إلا أن الرجل المسن أشار إليهم غاضباً أن يسكتوا ، وتقدم من أبي سليم كأنه ما خلق إلا لأداء هذه الرسالة في الحياة ، ثم ربت على كتفه ، وقال له : «كنت ماراً من هنا عندما طلب مني ولدك أن أساعده في سرج الجواد إلى العربة . وكان غاضباً جداً لأن ميزان العربة مختل والدواليب تتأرجح وأية حصاة في الطريق قد تجعل كل دولاب يسير في اتجاه خاص ، ولأن أمه تركته يسرج الجواد وحده ، وراحت تتشاجر مع جارتها حول ما إذا كان الراديو يتكلم من تلقاء نفسه أم أن رجلاً يجلس في داخله . وفي هذه اللحظة ، جاء بعضهم...» .

«ـ من أين جاؤوا ؟ » .

«ـ من هنا . وطلبوا منه أن يترك العربة والجواد ويوقع على عريضة ،

فقال لهم إن يديه مشغولتين . وكان في تلك اللحظة بالفعل يدق مسماراً في العربة وهو تحت رحمة حوافر ذلك الجواد الشرس . وعندما ألحوا عليه ، طلب منهم أن يبصموا عنه أو أن يكلفوا أي واحد في الطريق أن يبصم عنه فكل الأصابع متشابهة على كل حال ، ولكنهم رفضوا وقالوا له إن هذا تزوير باسم الشعب . ويبدو أنه في تلك اللحظة قد أصاب إبهامه بالحجر الذي يدق به المسمار ، فطار صوابه وزمجر شاتماً الشعب « وأبو الشعب » وهو يمص اصبعه المسحوق سحقاً بذلك الحجر ، فقالوا له : حسناً ، ومضوا . ولم يمض الوقت الذي تلف فيه سيكارتك عادة حتى جاءت سيارة الشرطة وأخذوه وهو يمص اصبعه » .

وقال أحد المستمعين ، وكان طالب مدرسة كما يبدو : « وشدّوه من شعره بأصابعهم » .

فنظر إليهم أبو سليم ، وقال غاضباً : « وأنت ؟ أتظن أن شعرك المسرح هذا سيظل خالداً على رأسك . هيا اغرب عن وجهي وإلا أطلقت عليك الكلب . الشعب... الشعب ؟ من أين جاءتنا هذه المصيبة ؟ هيا يا أولاد الجحيم... » .

واتجه نحو الجواد لينهي سرجه إلى العربة . وعند ذلك أقبلت سيارة الشرطة ، فامتقعت وجوه الجميع ما عدا الرجل المسن فقد خاطب الجميع ووجهه يطفح بالبشر والغباوة : « لقد أعادوه . لابد أنهم قد أعادوه وإلا لماذا عادوا ؟ » .

وقفت السيارة بعنف ، وصرخ صوت سائقها : « من والد المعتقل سليم ؟ » .

« ـ أنا... ماذا تريد ؟ » .

« ـ هل أنت أيضاً شتمت الشعب ؟ » .

« ـ نعم وثلاث مرات . ماذا تريد ؟ » .

وهبط رجال الشرطة من مؤخرة السيارة ، وأطبقوا على أبي سليم ، وأخذوا يشدونه نحوها وهو يقاوم ويتلفت كمن وقع في فخ حقيقي .

« ـ لا... لن تعملوها معي أيضاً . إنني أريد أن أذهب إلى الحصاد . لقد

جفّ زرعي وسوف تحصده الريح . آخ! أتضربني يا كلب أمام زوجتي وهؤلاء الأولاد الصغار ؟ اتركني قليلاً . لقد سقط عقالي . يا أولاد الزنا... لن أصعد حياً إلى هذه السيارة . لا يمكن . إن الله سوف يعاقبكم » .

وصعد حياً بالطبع إلى السيارة بعد أن طوح به تطويحاً إلى جوفها ، وقد كان حاسر الرأس ، ومنديله يخفق على صارية العربة . وكانت زوجته في ذروة الذرى من الصراخ والشتائم ذات الصدى الأليم المقذع . وعندما زأر محرك السيارة هاج الجواد الشرس وأخذ يصهل ويلوح بأعنته المقطعة كأنه يريد أن يمنعها من المسير أو كأنه يعلن استنكاره لهذه الإجراءات ، وقد أسقط قبعة أحد رجال الشرطة ، فهاج الشرطي ، وهبط من السيارة مزمجراً باتجاه الجواد ، فصاح به أبو سليم : « لا... لن تعتقله . إنه مجرد حيوان غاضب » .

وتحركت السيارة بهدوء ، تزفر وتزأر وتتمايل كأنها تحاول أن تجمع أكبر كمية من الغبار تحت دواليبها لتقذفها إلى الأفواه المفتوحة دهشة واستغراباً أمام المنزل ، ثم اندفعت بأقصى سرعتها بينما وثب الجواد كالراقص في الهواء وهو يصهل صهيلاً فاجعاً وراء سحابة الغبار التي غمرت القرية بأكملها .

* * *

اجتازت السيارة عشرات الكيلومترات بين الحفر والأغنام الملتاعة من شدة الحر ، وأبو سليم يسأل : « إلى أين تأخذوننا بالله عليكم يا جماعة ؟ قولوا فقط إلى أين وعليكم الأمان » .

وعندما لم يتلق جواباً من أحد ، التفت وراءه بسرعة . كان الجواب خلف رأسه مباشرة ، ولكنه أحس بلكزة في خاصرته ، فقال متذمراً : « من هذا الوحش الذي يلكزني ؟ » .

والتفت يمنة ويسرة . وإذا بالسيارة تغص بالمعتقلين . لقد عرف جميع الوجوه ما عدا بعض البدو الطويلي الجدائل ، فشعر ببعض الاطمئنان إلى أن له شركاء في هذه المحنة الشديدة الاهتزاز . وسأل مرة أخرى : « إلى أين يا جماعة ؟ » .

فهز المعتقلون رؤوسهم علامة الجهل المطبق بما يخص إلى أين ، وقال

أحدهم : « قالوا لنا : سؤال وجواب في المخفر وتعودون إلى بيوتكم . وها أنت ترى » .

وقال آخر : « قد يأخذوننا إلى الهند » .

وقال ثالث : « أو إلى باريس » .

وكانت باريس بالنسبة إليهم نهاية العالم بل يلفظونها كأنها أكثر بعداً من النجوم .

وصاح شرطي : « إما أن تسكتوا ، وإما أن أكسر هذه البندقية على رؤوسكم » .

فسكت الجميع سكوتاً مطبقاً ومن دون أن ينظروا إلى بعضهم البعض ، وراحوا يصغون إلى صوت المحرك الملتهب يدوي في تلك البراري القفراء .

وبعد زمن طويل ، شعر أبو سليم أنه سينفجر لو سكت دقيقة واحدة أخرى ، فقال للشرطي من دون أن يرفع رأسه : « ولماذا بالله عليك ستكسر هذه البندقية على رؤوسنا ؟ » .

فأجابه الشرطي مكشراً : « لأنها رؤوس بالية ، رؤوس فارغة فراغاً مخيفاً ولم يجد الله ما يعبئه فيها للآن . هيا انطق كلمة أخرى ولن أجعلك تصحو حتى يوم الحشر . لا تنظر إليّ هكذا . لن تخيفني . انظروا جميعكم إلى أسفل . تأملوا وجوه بعضكم الجميلة . لا أريد التفاتة واحدة نحو الفضاء ثم كفوا عن الأنين والتذمر . إن من يرتكب جرماً عليه أن يتحمل عاقبته » .

وقال أبو سليم : « عاقبته ؟! أي جرم هذا الذي ارتكبناه لنتحمل عاقبته . لقد اعتقل ابني ، فماذا تريدني أن أفعل ؟ أن أغني ؟ كنا على وشك الرحيل إلى الحصاد . التفتْ قليلاً يا ملك الملوك وانظر تحت تلك السحابة الصغيرة . هذا هو حقلي » .

فالتفت إلى أبي سليم وسأله ساخراً : « وكيف عرفت أنه حقلك ؟ » .

« ـ من رائحته ، من عدد سنابله . انظر . إنه أصفر كالشمع كأن الخوف قد غزا الحقول أيضاً . كنت سأمضي إليه هذا الصباح لأتأمل سنابله الرائعة لا لأتأمل هذا الوجه » .

وعاد الصمت من جديد ، فرفع أبو سليم ذقنه ، ووضعها على كتف

أحدهم ، وأرسل نظراته المتعاقبة نحو السهول المترامية الصفراء عبر الطريق المتربة والتي كانت تتلون بلون اللحم تحت عجلات السيارة القاسية .

هناك حقله . إنه يبتعد ويتضاءل كوردة كبيرة تنهي تفتحها وتلملم أوراقها عند الغروب وترقد على عنقها حتى الصباح . لقد أصبح حقله صغيراً كالرغيف ، كقطعة النقود ، كلاشيء . شجرة التين التي كان يتناول طعامه في ظلالها ، كانت وحيدة وحدة العانس ، ولا تينة تتدلى من عيدانها بينما تراءت له دموعاً أخرى من خلال أصابع الشرطي المسترخية في الهواء الطلق ، دموعاً أشبه بثمار صفراء تتدلى من شجرة التين... من عنق تلك السحابة الرمادية التي جاءت تحوم فوق حقله اليابس كأن الله أرسلها منذ أن علم باعتقاله لكي ترطب تلك السنابل وتقيها وهج الشمس حتى يعود من رحلته الطويلة هذه ، ثم انزلق رأسه على ركبة أحدهم ، وبدأ يشخر .

وقال الشرطي بعد أن تأكد له أن ذلك الشخير ليس نزوة عابرة من ذلك العجوز النائم المهموم وإنما شيء أصيل وتاريخي فيه : « لا تشخر من أنفك أيها العجوز » .

وأوقظ أبو سليم بأكثر من وسيلة ، وأفهم ما يريده الشرطي حرفياً ، فهمهم قليلاً ثم تابع النوم ، فقال الشرطي بنفاد صبر : « قلت لك لا تشخر من أنفك أيها العجوز » .

وأجابه أبو سليم بنفاد صبر أشد : « ومن أين تريدني أن أشخر إذا لم يكن من أنفي ؟ » .

« ـ لا تنم » .

« ـ لا أنام . اسمعوا يا جماعة . يريدني أن أقضي كل هذا الوقت في التفرج عليه » .

وعاد ملهوفاً إلى شخيره ، فلكزه الشرطي بأخمص بندقيته بقوة : « قلت لك اخنق هذا الصوت المزعج . إنك تثير أعصابنا » .

وعندما أدرك أبو سليم أن ما يقوله الشرطي خال من أي نكهة كوميدية ، أخذ يشق طريقه زحفاً على ركبتيه وراحتيه حتى أصبح في الزاوية اليمنى من السيارة ، ثم وضع رأسه على ركبة أحدهم وتابع النوم .

كان جوف السيارة خليطاً خانقاً من الرؤوس والركب والأنفاس الكريهة ، خليطاً متراصاً لا تنفذ منه الإبرة إلا إذا ضربت بمطرقة . ومع ذلك استطاع أبو سليم أن يهيء لرأسه مكاناً ما وينام . وران الصمت على الجميع ، وكان جميعهم أشبه برجال لم يمارسوا في حياتهم إلا النوم حتى رجال الشرطة زالت عن وجوههم ملامح الغلظة والتوتر ، وأخذوا يحنون أعناقهم وهم يتثاءبون .

وكانت السيارة قد اجتازت المناطق الزراعية ، وأصبحت السهول حمراء من كثافة الغبار والقيظ الذي يجعل العين ترى حفنة الغبار الواحدة مليوناً وأكثر . وكانوا يمرون في طريقهم بأسراب من الجمال والرعاة المشبعين بالغبار والقذارة .

وقطع هذا الصمت الطويل صمت ناعس يسأل : «من ينام على ركبتي ؟» .

فلم يجبه أحد .

وسأل الصوت نفسه بنبرة أشد استياء من الأولى : «قلت من ينام على ركبتي ؟» .

فلم يجبه أحد ، فصاح : «يا شرطي... هناك من ينام على ركبتي في هذه السيارة ولا يتكلم» .

ولم يجبه أحد ، فراح صاحب الصوت يلتفت يميناً وشمالاً وقد شعر بالهلع . لماذا لا يجيب أحد ؟ لماذا لا يتحرك شيء من كل هذه الأشياء ؟ هل فقدوا القدرة على الكلام ؟ هل ماتوا ؟ وكيف يموت الإنسان في رحلة قبل أن يصل إلى نهايتها ؟

كان بدوياً من إحدى العشائر الشهيرة بلصوصها وولعها بالطعن والنزال . وقد اتهم بأنه آوى أحد الهاربين من وجه العدالة وأطعمه وسقاه ، فجيء به للتحقيق لماذا أطعم رجلاً جائعاً وآواه . كانت شفته قصيرة ومشطورة بوشم أخضر كلون طبيعي للجوع والمسغبة . وكانت أسنانه في تلك اللحظة تلمع في وجه تلك الصحارى الغبراء عارية ومضمخة بذلك اللعاب المر ، فوق هذا الحطام الذي بدأ يتحرك ويتصل ببعضه ويتابع مجراه . إذن لم

يمت أحد ، وكل ما في الأمر أنهم لا يكترثون به ، ولذلك لم يجب أحد عن سؤاله ، فثارت ثائرته ، واعتبر حياته كلها مرهونة بالإجابة عن هذا السؤال ، وصرخ بانفعال بلغ القمة : «طوال عمري وأنا أعرف أن لي ركبتين . وأنا الآن لا أجد إلا واحدة» .

فقال الشرطي : «كفاك صراخاً أيها الماعز . هيا قم وابحث عنها . هيا إنني آمرك بذلك ، ولكن إذا تحركت من مكانك جلدتك حتى الموت» .

واهتزت السيارة ، وترنحت ذات اليمين وذات الشمال وهي تمر فوق عدد من الحفر ، فاختلط ذلك الخليط ، وتبدلت أوضاع المعتقلين بصورة غير إرادية ، وطار صواب أبو سليم : «أيها الأخوان . كان هناك شيء كالحجر أرقد عليه . أين هو ؟ شيء وسخ ومع ذلك أين هو ؟» .

فأجابه البدوي : «إذن أنت هو الذي كان ينام على ركبتي» .

«ـ قلت لك : شيء ما أضع رأسي عليه ، ولا يهمني إن كان ركبتك أو ركبة فرسنا التي في الحقل . والآن أستغني لك عنه . لقد حطم رأسي على كل حال» .

«ـ آه جازاني الله . كان يجب أن أدعك تنام على بطني فهو أكثر ليونة . أغرب عن وجهي وإلا حدث ما لم يكن بالحسبان» .

فصاح الشرطي : «ماذا هناك يا دواب ؟ أنت... ألم تجد ركبتك بعد ؟» .

«ـ نعم... وجدتها ، ولكنها متسخة بلعاب هذا العجوز» .

ومد أبو سليم يده ، وصفع البدوي على وجهه : «قلت لك إني لم أكن أعلم أنها ركبتك . ولو أنني كنت قد رأيتها بهذه القذارة لما استعملتها كوسادة لي إطلاقاً بل لكنت قد قطعت رأسي واستعملته عوضاً عنها» .

وقال البدوي فزعاً وباكياً : «أنت ترى أيها الشرطي أنه ضربني ولم تفعل شيئاً . سأقول للذين أعلى منك» .

فقال الشرطي لأبي سليم : «أيها العجوز القذر . لن تدعنا نصل بسلام . إنك تخلق لنا المشاكل في نومك وفي صحوك . تسأل في الوقت الذي يجب أن تجيب ، وتجيب في الوقت الذي يجب أن تسأل . هيا . كلمة واحدة فقط وأجعل أحدهم... بل هذا البدوي بالذات يركب على ظهرك حتى نصل» .

فقال أبو سليم كمناقش حول طاولة مستديرة : « وأنت أيها الشرطي... منذ أن انطلقنا بهذه السيارة لنلاقي مصيرنا وأنت تتدخل فيما يعنيك وما لا يعنيك وأنا أغض الطرف... وأنا أقول بعد قليل سيتحسن سلوكه... بعد لحظة يقلل من أخطائه ، ولكن دون جدوى كأنك تعتقد أن الله خلق العالم وهو يلبس خوذة ، ولذلك منذ الآن وصاعداً قد يركب على ظهري وقد أركب على ظهره فلا علاقة لك بالموضوع . نحن من الشعب والدولة معنا . وهذا الكلام ليس من اختراعي بل سمعته من الراديو بأذني هذه . والراديو لا يكذب لأنه ليس إنساناً . لقد قال إننا نحن الشعب ، فمعنى ذلك أننا نحن الشعب » .

والتفت إلى رفاقه ليرى تأثير كلامه وتحليله على وجوههم ، فوجدهم نائمين ، فضحك لنفسه ، وصمت وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ظاهرها الهدوء والاستسلام وباطنها أعظم الغضب والاستفزاز في العالم . وهنا قال شرطي كان صامتاً طوال الوقت ، ومخفضاً قبعته على عينيه اتقاء للشمس اللاهبة : « من هذه القاذورة التي تقول إنها الشعب ؟ » .

ولما لم يجبه أخذ يهدر كالمجنون : « من كان يثرثر طوال الوقت ولم يؤدبه أحد ؟ » .

ونهض منحنياً ، وأخذ يدوس على أعضاء المعتقلين المختلطة ببعضها وهو يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه . وتصلبت وجوه الجميع من الفزع ، وراحوا يزحفون منكمشين إلى الوراء في جوف السيارة المحرق .

« ـ قلت من الذي كان يثرثر عن الشعب ؟ » .

فقال له زميله : « ذلك العجوز الذي ينظر إليك كأرنب ، ولكن دعه... » .

وهمس في أذنه : « ممنوع الضرب في الآليات » .

فعاد الشرطي الغاضب إلى مكانه ليخفض قبعته من جديد على عينيه ، وعاد معه الصمت المتوتر إلى جو السيارة . ولكي يحفظ أبو سليم ماء وجهه ، وبعد أن اجتازت السيارة عدداً من الكيلومترات كان خلالها يقلب الموضوع ويمحصه من كل جانب ، قال والاتكال على الله : « أنا القاذورة التي كانت تتحدث عن الشعب » .

فانتفض الشرطي الصامت من رأسه حتى أخمص قدميه ، وقال لزميله متوسلاً : « دعني أنهض وأحطم رأس هذا الحيوان » .

« ـ ولماذا تكسره ؟ ألا ترى أنه فارغ ؟! » .

وقال أبو سليم وهو يشير إلى رأسه : « لا... ليس فارغاً . وإذا كان فارغاً من شيء ، فمن أية ذرة من المودة تجاهكم » .

وقال الشرطي لزميله بتوسل حقيقي : « أرجوك أرجوك . دعني أحطم شيئاً في جسد هذا العجوز وإلا فقدت توازني » .

« ـ لا تستشرني في مثل هذه الأمور . تصرف تلقائياً . اتخذ الموقف الذي يكرس مبادئك في الحياة دون استشارة الآخرين » .

وتابع أبو سليم : « لنفرض أن رأسي فارغ كما تدعي ، ولكن قل لي بالله عليك : هل تعتقد أن الذي تحت قبعتك هو رأس . أبداً . إنه شيء ما... » .

وجحظت عيناه فجأة ، وتقلص فمه متخذاً شكل سياج من الدم حول أسنانه التي غزاها الدم أيضاً . وهوى عليه الشرطي بعلبة أخرى من السردين ، ونهض يرفسه رفساً دقيقاً ومحكماً ويصفعه بيده وهو فاغر العينين ، مقلوب على ظهره ، وأطرافه الأربعة مشرعة في الهواء كأرجل الكرسي .

« ـ يكفي... ممنوع الضرب المبرح في الآليات » .

ولكن الشرطي تجاهل هذه الحكمة تجاهلاً تاماً ، وتابع ضرب العجوز الذي قاوم بعض الشيء ثم هدأ ووجهه على حديد السيارة الشاحنة ، وتمتم : « لقد حطم أسناني . يجب أن أكون الآن في الحصاد لا في هذه السيارة » .

وتأزم الحوار الإنساني بين رجال الشرطة ، فقال أحدهم : « قلت لك إنه المسؤول . هيا بلط البحر » .

وجلس الشرطي لاهثاً بينما تحرك فلاح ما في آخر السيارة قائلاً : « ما هذه الضجة ؟ نريد أن ننام » .

وعاد الصمت من جديد إلا أن أبا سليم كان لايزال غاضباً وحانقاً ووجهه يتقلص وينبسط كغدة ملتهبة . وكان يراقب الموقف بدقة وبعينين

صغيرتين مستديرتين ، متحيناً الفرصة المناسبة كي ينقض على الكلام .
وكان الشجار الهامس بين رجال الشرطة لا يزال مستمراً ومتأججاً .

«ـ قلت لك إنه المسؤول . لا تدعني أنهض مرة أخرى وأقذفه من السيارة» .

«ـ أنت المسؤول عن مصيره» .

«ـ ومن هو حتى أكون مسؤولاً عن مصيره ؟» .

وانبعث صوت ما من نهاية السيارة... صوت فلاح عجوز يحمل في رأسه ذكرى جميع الأشخاص الذين ولدوا وماتوا واحتضروا في هذه المنطقة ، وفي صوته نبرة العظماء الذين يضطرون في معظم الأحيان إلى أن يفندوا عظمتهم حرفاً حرفاً في الأمكنة غير المناسبة ، في المجالات التي تكتم الصوت البشري كما تكتم النوافذ المغلقة صوت المسدس : «فعلاً ومن هو حتى تكون مسؤولاً عن مصيره ؟ يجب ألا يستمر الجدل حول هذا الموضوع أكثر من ثانية ولكن طالما كان الطريق طويلاً ، ولابد للإنسان من أن يجد شيئاً يتسلى به... أحب أن أقوم بتسليتك وأقول : عندما كان العشرات يأكلون على مائدته لا أظنك كنت تلبس هذه القبعة التي ما تنفك تنفضها وتمسحها بمرفقك كأنها من الدمقس أو الحرير الهندي . هيا تعال اضربني ، فأنا مشتاق إلى نوع آخر من الألم غير الذي أحسه في أعماقي . لقد كانت مواشي البدو الظامئة تنهل شهوراً وشهوراً من نهره الأزرق الجميل وهي معتوقة الأرجل ، وبساتينه مباحة في كل الفصول . عشر سنوات وخيوله تصهل مرحبة بضيوفه . وعندما كانت حتى الكلاب الضارية تأكل من لحم ضحاياه في الأعياد وغير الأعياد لحماً أحمر لن يراه جيل من أجيالنا بعد الآن ، كان أمثالك يسيل لعابهم من أجل قطعة من هذا اللحم الزنخ (وأشار إلى علبة السردين) إن زوجتي مستعدة أن تطعن رأسها بالمقص ولا تشم رائحة مثل هذا اللحم . أعوذ بالله! كل معوز وكل عابر سبيل وكل ذي فاقة أو عاهة ، كان يأتي ، كان يدخل من دون أن يقرع الباب لأن الباب كان مفتوحاً باستمرار . عشر سنوات والملاعق الفضية تغسل بالمئات في مياه الآبار... الآبار التي ليس فيها من الماء الآن ما يكفي لحلاقة ذقنك أيها السيد...» .

ثم التفت العجوز ، وصرخ في أذن جاره البدوي : « أتفهم ما أقول يا ذا الجدائل الطويلة ؟ طبعاً لا ، ولكنك لو كنت تفهم لنهضت ووثبت كالفهد لتمسح علبة السردين بجلبابك وتعيدها إليه . جبناء وتعساء ، والله وحده كفيل بإزالتكم الواحد بعد الآخر » .

فقال البدوي : « أتعني أن... » .

« ـ نعم أنت . أنت والآخرون . لا أعرف كيف أن تلك الفيافي البعيدة الساحرة ، تلك النجوم والرياح والأرض الصلبة الرائعة ، تنتج هذا الذل والأيدي المهزوزة على الركب » .

فقال البدوي : « لم أكن كذلك في يوم من الأيام » .

الفصل التاسع



عبثاً حاول الشرطة المسلحون تنظيم الموقوفين في صفوف منتظمة أمام باحة المخفر في ضواحي المدينة ، فما أن ترف أعين الحرس لحظة واحدة حتى يجلس أحدهم القرفصاء والبعض الآخر ينام ، والبعض الآخر يذهب ليتبول . وبينما يكون أبو سليم في المؤخرة لا يجد نفسه بعد لحظة إلا في المقدمة أو في الوسط أو في أي مكان آخر ما عدا مكانه الحقيقي . وقد غضب الحراس كثيراً ، وهوموا عليهم بالعصي ، وأمطروهم بأقذع أنواع السباب وأكثرها جدة وابتكاراً . وعندما كان يعود أحد الحراس والصفارة تزعق في فمه ، كان أبناء المدن أول من ينتظم في الصفوف لا حباً بالنظام بل خوفاً منه . أما الفلاحون فكانوا لا يتحركون بل يبقون في أماكنهم حتى ينهضهم الشرطي بعصاه أو قدمه . وكان أبو سليم قد عيل صبراً من الجلوس والوقوف . وقرر أخيراً عدم النهوض ولو شنقوه في الحال . ولذلك اتكأ على جنبه الأيمن بين الأرجل تماماً ، وأخذ يتحدث مع زميل له عندما أقبل الحارس وصرخ به : « هيا قف » .

« ـ لن أقف » .

« ـ ولماذا لا تقف ؟ » .

« ـ لأني سأعود إلى الجلوس بمجرد أن تذهب » .

« ـ لا لن أذهب وستقف عاماً كاملاً . وإذا ذهبت ستقف حتى يوم القيامة » .

« ـ شيء غريب! وما هي الفائدة التي تعود عليكم من وقوفنا في هذه الشمس المحرقة ؟ حسناً . سأقف إلى ما شاء الله ، ولكن لابد أن أجلس ذات يوم » .

وأخيراً نجحت الصفارات والهراوات والحشود المتدفقة من السيارات الأخرى الوافدة من القرى في تشكيل خط ملتو لا يعرف إلا الله أين ينتهي . وعندما ذهب الحرس لتنظيم صف آخر ، جلس الجمع ما عدا أبناء المدن ، فقد ظلوا منتصبين كأعمدة الهاتف وسط صحراء لا نهاية لها . وقال أبو سليم كأنه يخاطب نفسه : لم يصدقني ذلك الحارس . إنهم سيجلسون . يقول إنه النظام . حسناً ، ولكني أؤكد أن الذي كتب ذلك النظام لم يكتبه واقفاً .

ثم مد أبو سليم ساقيه بارتياح كأنه في بيته .

وأقبل فجأة شرطي واحد بل ثلاثة أربعة خمسة ولوحوا بهراواتهم : « قفوا وراء بعضكم ولا تتحركوا . ومن يسمع اسمه يجيب بأعلى صوته : حاضر ، كدليل على أنه سمع وأنه موجود » .

كانت هناك صفوف أخرى تنظمها هراوات أخرى . وبدأ الشرطي قراءة الأسماء وهو يرغي ويزبد وينثر « التحف » من فمه يميناً وشمالاً . كان معظمهم كأنهم نسوا أسماءهم ، لم يكونوا يجيبون بشيء عند سماعهم تلك الأسماء كأنها لا تمت إليهم بصلة أو لم يسمعوها من قبل . ولذلك ساهم السوط إلى حد كبير في تذكيرهم بأسمائهم . وأخذ معظمهم يجيب وهو يحك ظهره أو رقبته بينما بعضهم الآخر يجيب وهو يتبول بعيداً تحت الشجرة حتى أصبح الحرس في حالة يرثى لها فعلاً كأن الأسماء المرددة عصافير مكلفون بالتقاطها . أسماء... أسماء... مضحكة ومبكية ومشوهة ، تنفجر في الهواء ، ترفرف ، دون أن تحط على شيء . لقد فقدت الأسماء أي معنى ، وأصبح تذكرها كتذكر سحق أصبع تحت حجر ، مؤلم لكنه ضروري .

ولما كان أبو سليم يقف في المقدمة فقد أجاب عندما سمع اسمه كأنه رآه يخرج من فم الشرطي . وقد كان ترتيبه في الوسط ولكنه خلق في المقدمة بقدرة قادر ، ولذلك كان يظن أن كل هذه التهديدات تتناوله شخصياً ، وأنه هو المسؤول عن كل الذي وراءه ، فوقف جامداً كالتمثال .

وقد كانت المسافة بين صفوف المعتقلين وواجهة السجن طويلة ، ففوجئ المعتقلون عندما أمرهم الحرس بأن لا يتحركوا وأن لا يرفسوا . وقال أحد المعتقلين : « إنهم سيصوروننا » .

« ـ وسيرسلون صورنا إلى أمريكا » .

فصرخ الشرطي وهو منظم أيضاً في صف مع زملائه : « ألا تسكتون أيها الكلاب ؟ ألا ترون من القادم ؟ » .

وتصلب الجميع ، وأصبحوا كالصخر . حتى الأشجار والأعمدة وبراميل المحروقات بدت أكثر تصلباً واستقامة عندما أقبل المسؤول الكبير تحيطه حاشيته . ورد على تحية الحرس بأحسن منها ، ووقف مفتوح الساقين ويداه خلف ظهره ، وقال لكل هذه الجموع ، لكل هذه العيون والرؤوس والأحشاء وما لها من ذكريات وأطفال وبيوت وأحلام : « كلكم كلاب » .

ثم عدل فجأة عن الكلام ، وتحرك مع حاشيته بين الصفوف المتراصة وكأنه أراد أن يتأكد من أن مثل هذه الأشياء تستحق المخاطبة بضع دقائق تحت هذه الشمس المحرقة أم لا . ثم عدل فجأة عن ذلك ، وراح يتفقدهم فرداً فرداً بعينيه الحادتين الجميلتين كأنهم صفقة خيول يريد أن ينتقي أجدرها بمهمازه وسوطه المطوي تحت إبطه . وكان الحرس يسير حيث يسير ويقف حيث يقف . وكان لا يفتأ يسأل من يقع عليه الاختيار عن سبب اعتقاله ومتى وأين . يسأل بشفاه رقيقة وندية برضاب الفاكهة والمرطبات ، ويتلقى الجواب بشفاه يابسة ومكسوة بالقش والغبار . لم يكن ذلك المسؤول يرى أفواهاً مطالبة بالإجابة بل ثقوباً نتنة ، فوهات يجب أن تغلق بأي شيء حتى تأخذ الأصوات النظيفة الأخرى حريتها في اللعلعة والانتشار .

وكان الرجل الذي يقف خلف أبو سليم لا يفتأ يلكزه بقدمه ويسأله هامساً : « من هذا ؟ وماذا سيعمل بنا ؟ وهل حقاً سوف يصوروننا ؟ » .

وكان أبو سليم يحك قدمه بساقه مزمجراً بهدوء ، يقف في المقدمة كبوصلة حقيقية لكل هذه الآلام ، أباً شرعياً لهذا الخجل المريض المنهار رغم انتصابه وشموخه أمام هاتين العينين الجميلتين اللتين تحملان في بؤبؤيهما الأسودين بذرة البداوة وجمرة الطغيان .

وكان أبو سليم بعباءته المنتفخة الشراع الوحيد في هذه العاصفة بل تلك السفينة المندفعة كالثور نحو العلامة الحمراء الأخيرة لشرف الريف وبسالة الحقل . ولذلك كان يرفع رأسه قدر ما يستطيع في المقدمة رغم أن شاربه الكثيف الممتلئ بالعرق والغبار يضغط على فمه كفخ موحل لالتقاط أية شكوى مفترضة قد تنبت سهواً من الشفتين المغلقتين .

كان جديراً بأن ينحت خياله على الرخام والبرونز ، ويغرس حتى ركبتيه فوق جبل من الغبار لتهدأ الفراشات المتبقية على شاربيه الأسودين وليشرب الرعاة الظامئون من راحتيه المملوءتين بماء المطر .

كان جديراً بهذا الصمت ، وبتلك القيادة النبيلة الحاسمة لهؤلاء اليتامى ، لحاملي الفؤوس والعناقيد والدلاء الطافحة من الآبار ، ولكنه لا يتورع في الوقت نفسه عن الصراخ حتى تتفجر جمجمته إذا ما ذكر أحدهم أمامه حقلاً أو جواداً .

كان الوحيد في هذا الخضم الهائل من المعتقلين الذي لم يكن فمه مجرد ثقب أو فوهة يجب أن تغلق بأي شيء بل كان فماً بشرياً على أحسن مايرام ، ومؤهلاً في كل لحظة أن يكون بوقاً ضارباً ومبشراً بالغ الروعة لهذه السهول العاقة الملحدة ، لهذه الحصى المغروسة كالأظافر تحت أحذية البوليس والشاحنات . ولذلك لن يبتسم باسترخاء ولن يترنح ولن يجلس كما فعل في الصباح . لقد كان ذلك الوقت وقت مزاح مع الشرطي وغير الشرطي . أما الآن وحيث أمر أن يقف مع غيره منذ ثلاث ساعات تحت الشمس اللاهبة لا لسبب معين فإنه يقف للتجربة ، لاختبار أي السيقان جديرة بالوقوف والانتصاب على أرض الوطن .

لقد ذهب المسؤول من دون أن يخوض في أي موضوع سوى موضوع الكلاب . ذهب هو وحرسه وسوطه ، وجاء حرس آخرون ، يسوقون أمامهم مئات أخرى من المعتقلين ، محاولين عبثاً صفهم في أرتال موازية أفقياً أو شاقولياً أو لاهوتياً مع الأرتال الأخرى . لقد كانت الفوضى تفرض سلطانها ، واليأس البالغ الروعة يخزّ هذه الفوضى في قلبها ليعمي بصرها ويجعلها متفاقمة ومزبدة إلى الأبد . وقد حاول أبو سليم أن يميل برأسه قليلاً ليرى

ماذا تعني هذه السحب البيضاء الدامية التي تلمحها زاويتا عينيه المحمرتين من الغيظ والغبار ، ولكن الحارس كان يقف قبالته تماماً بحيث لو خطا أي منهما خطوة واحدة لالتقى الأنف بالأنف والفم بالفم . ولذلك لم يتمكن من تنفيذ رغبته تلك ، ولكن خمّن من الرائحة على كل حال بأنهم لابد من أنهم ليسوا كالبشر أو ما أشبه ذلك .

وأحس بالنار تلتهب في جوفه وفي رأسه وفي عينيه وكأن شمس آب القائظة تجلس فوق مقعد على رأسه . وسمع أزيزاً مقرفاً في الصفوف الأخيرة ولغطاً واحتكاك ثياب لزجة ببعضها وضربات سياط خافتة ليست بمستوى هذه الصدور والمناكب التي تسبح بالعرق والانتظار . إنه على كل حال ، لن يجلس ولن يترنح وهذا الشرطي منتصب أمامه ، ولو جلس الجميع ، ولو مات واقفاً أمام ذلك الشرطي . وإذا ما مات فعلاً فليحفروا له قبراً في الهواء . صحيح أن عمره ٥٤ سنة فقط ، ولكن لو وضعت هذه الأعوام فوق كتفيه بكل ما فيها من زرع وحصاد وصهيل وسهرات ودعاء للكلأ والمطر لاحتاج مثل هذا الشرطي الذي يقف قبالته إلى مئات السلالم كي يصل إلى نهايتها . ومع ذلك لن يجلس ولو مات واقفاً .

* * *

وأطل المسؤول الكبير مرة أخرى بهيئة سامة ووقف بعيداً بعض الشيء عن الصفوف المنتظمة منذ ساعات من أجله ، وعقد يديه خلف ظهره بطريقة خاصة كأنه مصباح يريد أن يشع على الجميع ، وفتح فمه كشاعر يريد أن يضرب قلب العاطفة في جمهوره الكثيف المصغي : «اسمعوا أيها البغال . يبدو أنكم رضعتم الفوضى مع حليب أمهاتكم . وهذا بالطبع لا يهمنا بكثير أو قليل . ولو كنا نفضل لو أنكم رضعتم الزرنيخ في ذلك الحين ، ولكن هذا لا يمنعني من الإشارة إلى أن بعضكم كان مثال التهذيب والانضباط ، وبعضكم أساء إلى الحرس ، وجعلهم ينضحون عرقاً وأملاحاً . ولذلك أرجو ألا يذهب المجرم بجريرة البريء ، فنحن بطبيعتنا وطبيعة ثقافتنا وتركيبنا الموضوعي لا نسيء إلى أحد لأننا هنا في خدمة الشعب . وأنتم منه وإليه ، ولن يعتدي أحد عليكم خارج أوقات الدوام إذا استعملتم ما في رؤوسكم جيداً ، وإذا كانت الظروف قد نهبتكم هذا النهب

الطويل من أقاصي الوطن ووضعت مصيركم بين أيدينا فثقوا بأن مصيركم هذا سيكون موضع عنايتنا وسهرنا ، لا من أجلكم بل من أجل الظروف التي لا يعرف المرء كيف تنقلب وتخون وتبطش . إنكم رعاع . ما في ذلك من شك . ولم يقف معظمكم أمام مغسلة أو مائدة إفطار . وهذا ما سوف يزيد الأمور تعقيداً ، ولكننا سنحاول بقدر الإمكان أن نجعلكم تقفون أمام المغسلة ومائدة الإفطار ، ولكن بعد ترويض لا يقل أهمية وصعوبة عن ترويض الضواري الجائعة . وهذا يتطلب جهداً منا وطاعة منكم . إنني أحاول أن أشرح بالتفصيل ما هي الواجبات الملقاة على عاتقكم بين أيدينا . إن أحداً من رجالنا لن يسيء إلى الشعب الذي منحنا السلطة الكاملة لنفي الأمور وتبريرها واقترافها . أيها البغال الأكارم : إن أحداً منكم أيضاً لا يستطيع أن يثبت أنه أهين أو عذب حتى الآن ، مع ثقتي المطلقة بأنكم لم تكونوا أقل حركة من البراغيث خلال رحلتكم الطويلة في تلك الشاحنات التي ترون زجاجها كيف يشع في هذا اللهيب القاتل ، فهيا اقضوا فترة توقيفكم بهدوء ، ومن ثم اغربوا عن وجوهنا... » .

وقاطعه أبو سليم قائلاً : « سيدي... قلت إن أحداً من رجالكم لن يسيء إلينا... إلى الشعب . لقد ضربني أحدهم بعلبة سردين على وجهي » .

وصعق المسؤول والحرس وجميع الأرتال الأخرى من هذا الصوت الوحيد المغامر الذي يطلب المناقشة والتبرير . فم واحد انفتح بهدوء من بين كل هذه المئات المغلقة المتراصة من الأفواه . وصاح المسؤول بصوت مرتفع : « من أين خرج الصوت... هذا الصوت المنكر ؟ » .

فقال أبو سليم : « من هنا يا سيدي » .

« ـ تعال إلى هنا » .

وأسرع أبو سليم ، ووقف أمام المسؤول الكبير منفرج الساقين واليدين لأنه يعتقد بأنه يكفي الإنسان أن يرفع رأسه ليكون في غاية الانتصاب .

« ـ أنت أيها العجوز ؟ » .

« ـ نعم يا سيدي . أنظر . إن أنفي ليس طبيعياً كما ترى ، وإنني منذ الضحى وأنا أبصق دماً » .

«ـ اخرس . لا يهمني لماذا اعتقلوك إنما الذي يهمني هو أنهم اعتقلوك وانتهى الأمر . وإذا فتحت فمك مرة أخرى في مثل هذه الأمور ستكون هيئتك كلها غير طبيعية . هيا عد إلى مكانك وإلا نقلتك إلى هناك على محفة» .

ثم وجه المسؤول كلامه إلى الآخرين : «وأنتم... تابعوا التحديق إليّ وأفواهكم مفتوحة كالبلهاء . أسمعتم ما قلت لذلك العجوز ؟ هذا الكلام موجه إلى كل منكم دون استثناء . والآن هيا انصرفوا» .

وردّ التحية للحرس ، ومضى نحو السيارة التي كانت تنتظره وجلة على الطريق المؤدي إلى المدينة .

وبلمح البصر انقلب كل شيء رأساً على عقب وكأن ألف ألف خلية نحل هزت من طرودها ، وبدأت الأسئلة والاستفسارات تنهمر من كل حدب وصوب . وكان أبو سليم البطل المجلي في هذا المضمار . لقد خلق لنفسه شعبية لابأس بها بعد التحدي العنيف الظاهر الذي جابه به المسؤول وأخبره أنه ضرب ، وراحوا يسألونه من كل حدب وصوب وهو أكثر جهلاً بما يشغل ذهنهم وأفكارهم لأنه هو أيضاً يملك ذهناً شارداً وفكراً محظوراً عليه التحليق في الأعالي ، ثم جلسوا حوله على شكل حلقة ، فقال لهم أبو سليم : «انظروا إلى هذه الشمس . لا ينقصني سوى قطعة صابون حتى أستحم بعرقي» .

وقال آخر : «أما أنا فقد أشعلت سيكارتي هكذا من الهواء» .

وقال آخر : «أما أنا فقد وقف المسؤول أمامي أكثر من ثلاث دقائق ولم يتحرك كأنه عشقني» .

وقال أبو سليم ملخصاً الموضوع كله : «حسناً . إنهم لا ينظرون إلينا بأكثر مما ينظرون إلى بهائم . لقد رأيت نظرته إلي منذ قليل . كان لا ينقصه إلا أن يسد أنفه وعينيه بأصابعه كأن ما في داخل هذه العباءة جيفة وليس إنساناً يحمل دفتر عائلة على الأقل» .

ثم راح يرفع رأسه ويخفضه نحو الصفوف المنهارة الأخرى بحثاً عن إبنه ، لعله هنا أو هناك ، ثم حاول التسلل إلى حيث تتجه عيناه ، فزجره

الحارس بقسوة ، ولكن أبا سليم ازدرد لعابه بمرارة ، وقال له : «اسمع يا رجل . هناك في العالم شاب اسمه ابني ، وهو معتقل في مكان ما ، وأريد أن أبحث عنه . هل من مانع ؟ » .

«ـ لا . لا يوجد مانع بل ألف مانع . هيا عد إلى صفك» .

وعاد أبو سليم كسير الخاطر إلى حلقته التي استقبلته بالهياج والصفير .

«ـ حسناً أيها الجبناء ، ولكن لولا ذلك الشرطي الذي يذهب ويجيء كأنه فقد راتبه ويبحث عنه في تلك النقطة لما عدت بخفي حنين كما ترون . لابد من أن أرى ذلك المسمى ابني في يوم من الأيام» .

وركز راحة يده بشكل أفقي على جبينه ، وراح يجول ببصره يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً نحو الوجوه الغامضة البعيدة من دون أن تستقر عيناه على شيء من الأشياء يخفق لها القلب... أشياء لطيفة ومشتاقة كالأبناء مثلاً . وحوم رأسه قليلاً كالجناح ، واستقر في اتجاه معين ، وأخذت عيناه ترفرفان بل وتنطان نطاً تحت الحواجب . لقد رأتا شيئاً ما لا كالابن أو الحفيد بل كالذي لا تستطيع إلا أن تخاطبه بابني حتى ولو كان يكبرك بعشرين عاماً وتفصلك عنه عشرون مدينة وقارة ، وصاح أبو سليم بمن حوله وهزهم من أكتافهم : «انظرو . إنه الفهد الصحفي . إنه الصحفي ابن أبي الفهد . أعرفه . طول عمره يعيش في المدن . وهو مثلي شتم الشعب . ألا تعرفونه ؟ تباً لكم من أبقار! آه إنه لا يلتفت هذه الناحية بل يدير مؤخرته لكل هذه الجهة» .

وراح يصرخ ، ويلوح بمنديله كمرشد السفن حتى صاح به الحارس : «كف عن هذا اللعب أيها العجوز . إنك لست في مرفأ . انقبر مع الآخرين وكن مثلهم على الأقل» .

وكان الفهد غارقاً في التأمل والاستسلام أمام هذه الفوضى المزدرية نفسها وهي تحاول الانتصاب عبثاً أمام هذه السحن المهدمة . إنه لا يفكر بهذه الصفوف المتراصة الآن ، فلقد فكر بها أكثر مما يجب ، ولذلك جذبته إلى أحضانها كما يجذب الكلب بالسلسلة ، ولن يفكر بهم الآن ، فهناك وقت كبير للتفكير في المستقبل . المستقبل يبدو كأنه نادم لأنه صنف في

هذه المرتبة ولم يصنف ماضياً أو حاضراً يمضي . وعليه الآن أن يفكر بذلك المسؤول الذي وقف منفرج الساقين أمام المئات وكأن القارات الخمس تربض بين قدميه ليهذي ويصارع في حلبة فارغة . كان رجلاً واحداً لا يزن أكثر من ستين كيلوغراماً حتى إذا اعتبر سوطه وحذاؤه وقبعته من صميم أنسجته وخلاياه . ومع ذلك أرعب المئات ، فما السر إذن يا فهد ؟ فما السر يا من تضجع وراء الفهد وأمام الفهد ؟ إنه التاريخ ، نسل الهراوة ونتاج الخيمة العاصفة . إن هذا الذي وقف على الحصباء منذ قليل واحد من الذين أخلصوا للصحراء حتى آخر ذرة من شرفهم... واحد من الذين لو كشطت جلدهم بالموسى لترسب على حدها أطنان من وبر الإبل وزغب الماعز . إن الفرق بينه وبين الهندي الأحمر الذي يجندل قافلة من أجل محفظة أو ساعة ليس سوى اللون فقط . إنه هندي متوحش وما اللون الأبيض هذا إلا نتيجة قرون لا تعد من البغي ، ولن يمتقع هذا الوجه ويعود إلى لونه الغابر ما لم يوجد أكثر من شخص واحد يقف أمامه كما وقف ذلك الفلاح المجهول ويقول له : لقد ضربني رجالك دون ذنب .

إن كلمة واحدة من مثل هذا الصوت المضحك الحاسم كافية لأن تعيد إلى الصحراء لذتها وبكارتها في آن واحد ، وتجعل الكلاب الهائمة تتغذى وهي شامخة الرأس من عظام كل الجلادين والمنافقين .

ونظر الفهد إلى أمامه برؤيا جديدة وأمل جديد في العالم وكأنه يتوقع أن يسمع مئات الأصوات المؤيدة لذلك تنبعث أمام فوهات المدافع المنبثقة من صف الدبابات الرابض على الجانبين بينما الأفواه الأخرى متهدلة يسيل لعابها على الركب المضمومة داخل الذراعين .

وهز أحدهم كتف الفهد : « يا أستاذ... هناك من يصارع منذ ساعة لتلتفت إليه . إنه ذلك العجوز المنبثق من ذلك الرتل . إنه يصرخ ويلوح بمنديله منذ ساعة » .

وكان صوت أبي سليم بعيداً ، خافتاً ، يمكن رؤيته كالخيط الذي تربط به أرجل العصافير وتدعى بعد ذلك إلى الطيران : « ألم تعرفني ؟ أنا عمك أبو سليم... من عندكم من الضيعة » .

« ـ وكيف لا أعرفك يا رجل ؟ أي شيطان أتى بك إلى هنا ؟ » .

« ـ الشرطة » .

« ـ أعرف ، ولكن لماذا ؟ » .

« ـ لقد شتمت الشعب » .

« ـ أنت ؟ ولماذا ؟ » .

« ـ لا أعلم . كنت غاضباً ، وكانت ساعة شيطان . أخذوا إبني أيضاً ، ولكن هنا من يقول إنهم تركوه وأبقوني أنا » .

« ـ سأراك قريباً على كل حال عندما نصل إلى المكان الجديد » .

« ـ هل حقاً سيأخذوننا إلى الهند ؟ » .

وضحك الفهد : « إلى الهند ؟ أي مغفل قال لك هذا ؟ » .

وجاء الشرطي مسرعاً لينهي هذا الحوار اللاسلكي بخبطتين من قدميه على الأرض ، فزمجر أبو سليم ، ولكنه كان سعيداً حتى بزمجرته . وقال لأفراد حلقته مبتهجاً : « لقد عرفني . إنه من ضيعتنا . صحفي... صحفي من ضيعتنا » .

وقال أحدهم وهو يضطجع على التراب : « إذن هكذا يكون الصحفي » .

ونام .

* * *

رنت الأصفاد في الأرتال القديمة ، وخبّت الأحذية المملوءة باللحم والعروق المنتفخة بين صفين من البنادق ، وتلألأت قطرات العرق على الأنوف المحدودبة وقمم الصوان ، وراحت عصافير الصيف المرحة ترفرف فوق الأرتال القديمة والجديدة على السواء .

وإذا كان عدد كبير من الموقوفين قد امتطى الشاحنات فإن العدد الأكبر سار خلفها مجذوباً بالسلاسل كقطيع من الكلاب وكأن هذا الحر الشديد قد أذاب كل هذه الآلام والصرر والثياب وجعلها تتداخل فيما بينها وتتغلغل كجذور ضاربة في الرمل ، ولذلك لم يكن لربط معاصمهم بالحبال أي معنى أو غاية لأنهم لم يشعروا بها أبداً وكأنها خلقت معهم... أساور من القنب

الأحمر جاؤوا بها من قراهم البعيدة ، وإذا ما سألت أياً منهم عما يشتهيه في هذه اللحظات لأجابك دون تردد بأنه يتمنى لو أن هذه المسيرة الطويلة تتم في الليل حيث كان بإمكانهم أن يغنوا وأن يفسحوا المجال لكل الفراشات المحطمة على أشواكها ولنسيم الليل أن ينقل عارهم حرفياً إلى أبنائهم وزوجاتهم وكل الأشخاص الذين أحبوهم أمام الحوانيت وفي غرف الطابور . أما في النهار ، في مثل هذا الوضوح الشديد في الظهيرة الخانقة فتلك المسيرة تمتص عارهم كالبق وتعصر وحلاً ودماً على المناديل المربوطة حول الأعناق .

كانوا واثقين بأنهم لن يتركوا أي ذكرى لشقائهم وبؤسهم في هذا القفر حيث لا أقلام ولا نظارات ولا أبناء ، ولأن طيور العدالة المعاصرة ستلتقط أي دمعة أو قطرة دم وتلقيها أمانة في حلق الصحراء . ولما كان الفهد يعرف ما هي الصحراء كما يعرف سريره فيما مضى فقد أدرك أن أية محاولة لردم هذه الحلوق الفاغرة أشبه بمحاولة ردم البحر بملعقة الشاي . وحتى لا يبقى وحيداً ومكابراً ، فما أن أعلنت صفارات الحرس انتهاء المسيرة العظيمة والوصول إلى السجن الجديد ، وطلب من المعتقلين الاستراحة بالطريقة التي يختارونها ريثما يتم توزيعهم على المهاجع ، طفق الفهد يبحث عن أبي سليم بين الصفوف المتهالكة المدماة كما يبحث المدمن عن قطعة مخدر . وأخيراً وجده هائجاً محتقناً من الغضب ، يؤكد لمن حوله تارة وللملأ تارة أخرى بأنه سيهرب : « نعم سأهرب ولو قمطوني بالسلاسل ، فإذا كنتم أنتم حيوانات فأنا لا » .

وصاح الفهد : « لا... لن تهرب أيها العجوز لأنهم سيعملون من ظهرك غربالاً . وأي غربال ؟! » .

والتفت أبو سليم ممتعضاً ليرى من هذا الوقح الذي يصب الماء على ناره الهائجة ، وتقلص وجهه الأغبر الكالح قاذفاً ابتسامته ومرحه دون وجل أو تبرير ، مدّ يديه مصافحاً ومعانقاً : « أيها الصحفي... يا ابن ضيعتنا... لماذا لم تضع على رأسك جريدة كي أعرفك ؟ » .

« ـ ولماذا لا تضع أنت محراثاً على ظهرك حتى أعرفك ؟ » .

وتعانقا بإخلاص وحرارة حتى امتزجت دماء قروحهما ، وشمشم

أحدهما الآخر كحيوانين حظر عليهما ممارسة الحنان والذكريات ما عدا زفير الأنف وتحريك الذيل .

وقال أبو سليم : « انظر يا أستاذ... إني أصبحت كالطبل » .

وبصق في الغبار : « ولماذا ؟ لأنهم أخذوا ابني وغضبت . نعم سأهرب . وما من قوة في العالم تحول بيني وبين ذلك » .

« ـ هدئ روعك أيها العجوز ، فلن يطول بك المقام هنا » .

« ـ لا أحد يعلم . لقد قالوا لذلك البدوي الذي يتبختر بجدائله اللعينة : « سؤال وجواب في المخفر وتعود إلى أغنامك . وها هو مازال معنا . وهو لا يفقه شيئاً . حتى اسمه يحتاج إلى سيكارة وشرود خمس دقائق حتى يتذكره . وذلك الأبله الذي يلبس نظارات قال ربما يحكموننا عشر سنوات... » .

« ـ إنه يسخر منك . عشر سنوات ؟! » .

« ـ لا لم يكن يسخر مني ، وقال إنه ليس من الغريب أن نحكم بعشر سنوات بل الغريب ألا نحكم » .

« ـ لقد خرفت . لن يحكموك عشر ثوان . هل قمت بثورة ؟ » .

« ـ لا يهمني . سأهرب . عندما تكون الاحتمالات بحراً هادراً فكن شراعاً أو ضفدعة . ليذهب كل شيء إلى الشيطان . لقد غمرت وجهك برذاذ فمي . كيف حالك يا رجل ؟ أهلك لا يعرفون الرقاد في الليل بسببك » .

« ـ خبرني... خبرني كيف أحوالهم » .

« ـ لولاك لكانوا بألف خير . لقد رأينا أباك وأمك يتغازلان عند البئر » .

« ـ ألم يعجزا بعد ؟ » .

« ـ ماذا تقول ؟ لولا الحزن لأنجبا ما يكفي لملء هذه الشاحنة . جاءت أمك لتتبع أخبارك ، ولكنها لم تفلح ، وقد أعطوها بعض الأوراق فمزقتها ، وغضب أبوك غضباً شديداً لأنه لايزال يعتقد أن سبب بقائك للآن في السجن هو تمزيق تلك الأوراق » .

« ـ أية أوراق ؟ » .

«ـ أوراق كانوا يعطونها إياها في دوائر الحكومة كتلك الأوراق التي يعطونها في السيارات في هذه الأيام . وقد بقي أبوك حتى منتصف الليل وهو يسألها مزمجراً عن لون الأوراق وطولها وعددها حتى انفجرت أمك باكية لأنها تسرعت ومزقتها في ساعة شيطان» .

وضحك الفهد ، وقال : «يا للعجوزين المسكينين! ألا يعرفان أن الشوارع ملأى بمثل هذه القاذورات ؟» .

«ـ لا... لا يعرفان شيئاً ويصدقان كل شيء يصل إلى أسماعهما . مرة يقولون لهما إنهم ينخزونك بالأبر كل ليلة ، ومرة يتركونك عارياً على الثلج ، وأنت تعرف قلب الأم . إنها تموت كل يوم ألف مرة . لقد اشترت كفناً لها وغسلته وعطرته بالصابون حتى تخيطه حول جسمها بمجرد أن تخرج من السجن لأنها لن تتحمل هذه البشرى ، ولكنها أكدت أنها ستموت سعيدة . والآن دعنا من هذه الخرافات . إلى متى تبقى هنا ؟» .

«ـ لا أعلم ، وإن كانت هناك شائعات تقول إنهم سيطلقون سراحنا بعد أيام إذا ما تعهد كل فرد بأنه لن يتدخل بالسياسة» .

«ـ وأنا ؟» .

«ـ وأنت... أصبح اسمك عندهم... أصبحت رجلاً هاماً» .

«ـ إذن اسمي عندهم في الأوراق ؟!» .

وضحك بزهو : «شيء ممتع أن يكون الإنسان خطراً» .

«ـ ولكن حذار أن تتكلم في هذه الأمور . لم يعد يعرف الإنسان عدوه من صديقه حتى جوادك قد يكون مكلفاً بمراقبتك» .

«ـ هل ستعود إلى الضيعة ؟» .

«ـ لا أعلم . هناك بعض الضياع... ينتظر قدمي في هذه المدينة» .

«ـ يقولون إنك تحب إحدى بنات المدن . هل هذا صحيح ؟» .

«ـ إلى حد ما» .

«ـ وتمشي دون غطاء للرأس ؟» .

«ـ هذا شيء يتعلق بها وبحياتها يا أبو سليم» .

«ـ فعلاً . كل يحيا حياته كما هي . ولو أنني شخصياً قد أفتت عنق أم

سليم لو خرجت مليمتراً واحداً دون غطائين . واحد للرأس وواحد للوجه » .

« ـ الظروف هي التي تقرر لا أنت » .

« ـ بل أنا الذي يقرر . شيء حنون ورائع أن تضع على رأسك شيئاً » .

« ـ مازلت تستعمل تلك المناديل المطرزة » .

« ـ نعم . إنه من أيام عرسنا . كان هدية أم سليم ، طرزته لي أنا وحدي من بين جميع سكان الأرض » .

« ـ ولكنهم لن يدعوه على رأسك » .

وقفز أبو سليم كمن لدغته أفعى : « ماذا ؟ لن يدعوه على رأسي ؟ هل يظنون أننا مجانين حتى يدعوني أتبختر كأبناء المدارس » .

« ـ على كل حال ، ستلاقي بعض الصعوبات . كن معي دائماً . سيوزعوننا على المهاجع بعد قليل ، ويجب أن لا نفترق » .

« ـ طبعاً لن نفترق ، ولكن لكي تضمن ذلك يجب أن تربطني بحزامك وإلا فقدتني حتماً . سأضيع بمجرد أن يغيب ناظرك عني دقيقة واحدة . لا أعرف ماذا حدث لي يا رجل . عندنا في الضيعة أغمض عيني باصبعيك واسألني عن الجهة التي تريدها ، أجيبك فوراً وأشير إليها باصبعي . ولكني بعد أن مارست ذلك الارتجاج الخانق في الشاحنة لم أعد أعرف شيئاً بل منذ وصولي وأنا أحاول أن أعرف جهة واحدة من الجهات ، ومعظم الآخرين لا يعرفون حتى أن بدوياً قال : لا جهات في العالم » .

« ـ هيا... الحرس يصرخون ويصفرون... هيا أيها العجوز الثرثار » .

* * *

وانتظموا مرة أخرى في صفوف طويلة ملتوية ، وكان الحر شديداً . وأقبل عدد من الجنود يحملون بأيديهم آلات حلاقة صدئة وقال الفهد لأبي سليم : « هيا اطرح منديلك المطرز جانباً ، سيحلقون لنا » .

« ـ لن أطرحه » .

وصاح شرطي نبت فجأة أمام أبي سليم : « بل ستطرحه أيها العجوز... هيا... » .

«ـ ولماذا أنا أول من تحلقون له ؟» .

«ـ ولماذا لا تكون الأول ؟ لابد من واحد يكون الأول» .

«ـ حسناً . توجد في مؤخرة رأسي حفنة من الشعر ، لا مانع من أن أفقدها» .

وطوى منديله تحت إبطه ، وراح يصغي إلى تكتكة آلة الحلاقة وعيناه جاحظتان نحو الفهد وكأنه يقول له : انظر... لقد وقعت في الفخ .

وبعد هنيهة ، انتصب أبو سليم وهو يتحسس رأسه ولحيته بيديه ويصرخ : «ما هذا ؟ إنهم يحلقون لك ولا شيء على الوجه بل يلبطونك في خاصرتك كالنعجة . يا إلهي... مازال وجهي مليئاً بالشعر» .

«ـ وهل ستتزوج أيها العجوز ؟ ومع ذلك لقد أصبحت شيئاً جديداً حتى لو أن أم سليم رأتك الآن لخطبتك مرة أخرى» .

«ـ أيها الصحفي... يا ابن ضيعتنا... إنك تتكلم جيداً...» .

وتحلق حولهما عدد كبير من البدو والقرويين ومختلف السحن والهيئات :

«ـ لقد حلق أبو سليم . انظروا» .

«ـ لقد أصبح كتلميذ المدرسة» .

«ـ سيرسلون شعره إلى المتحف» .

وصاح أبو سليم : «هيا يا أولاد الزنا . كفوا عن التهليل لي كأني شيء ما» .

وكان هناك شيء يجذبهم إلى ذلك العجوز... شيء ما لا علاقة له بالشعر أو المنديل ، شيء جعل الفهد نفسه يتساءل عنه في سره وهو يتأمله بذلك التذمر الممزوج باللامبالاة ، يضحك مع الرؤوس المنحنية تحت آلات الحلاقة ، مؤشراً باصبعيه المحدودبين على «طلبة المدارس» وذقونهم ترتجف عند رؤية شعرهم يغوص تحت الأقدام الغبراء : «انظرو . إنهم يبكون . أيها الحلاقون... أما من مصاصات معكم لحكامنا في المستقبل ؟ اللعنة عليكم وعلى هذا الشعر! انظر إلى ذلك البدوي . لقد أصبح كالقنفذ بعد أن ذهبت جدائله» .

وكان ثمة بدوي قد أفرج عنه الحلاق ، ينظر إلى وجهه في قطعة من مرآة صغيرة ويضحك ويعبس ، ينظر إلى فوق وإلى تحت كأنه غير مصدق أنه هو نفسه الذي كان بجدائله منذ قليل ، ثم ابتسم ابتسامة الرضى وأعطى المرآة لغيره . وأمرهم الحرس بأن ينتزعوا أحزمتهم وسيور أحذيتهم وكل المدى والأشياء المعدنية حتى ولو لم تكن قاطعة ، ثم أدخلوهم كل خمسين إلى عنبر .

كانت العنابر قذرة ومعتمة وعارية من أي شيء . وفي كل لحظة كان يتدفق مزيد من المعتقلين حتى أصبحوا فوق بعضهم ، حائرين وخائرين ، لا يعرفون ماذا يعملون بعد التمتع بحق المأوى الجديد ، ثم قذف الحراس رزمة من الأغطية ، وصاحوا : « هيا توزعوها فيما بينكم وارقدوا عليها بدلاً من أن تقفوا هكذا كالمجانين » .

وبعد معركة حامية الوطيس ، عاد أبو سليم وهو يحمل جزءاً من بطانية ، يطويه وينشره صارخاً : « انظروا يا جماعة.. انظروا إلى هذا الكرم الحاتمي وصلوا على الأنبياء » .

وسعل سعالاً خانقاً ثم قال : « لا تقولوا لي : لا تهرب أيها العجوز . بل سأهرب . سأهرب ، ولن أضع هذا القماش الوسخ فوق صدري أو تحته » .

فقال له أحدهم : « كف عن الشكوى يا عجوز . إذا أطلقوا الرصاص عليك فلن أكون متلهفاً حتى لعد الثقوب في ظهرك » .

وقال آخر : « بل سأعدهم على أصابعي . إنه صديقي » .

وعلا الصراخ والهياج والتهديد والتشجيع والاستنكار حتى دخل الشرطي ، فصمت الجميع .

واتكأ أبو سليم بجانب الفهد ، وقذف قطعة البطانية بعيداً عنه ثم نهض وأتى بها ، وعاود الاتكاء بجانب الفهد وهو يزفر كالثعبان . كان الشخص العادي لا يرى في هذا الإنسان أكثر من مهرج عجوز يثير الضحك . أما الفهد فكان يرى فيه شيئاً آخر لأنه يدرك أن المزاح والتهريج والرضوخ الحتمي بعد كل تمرد ما هو إلا طبقة شفافة كطبقة القشدة تخفي تحتها من الخوف والاستنكار لكل الأشياء المفروضة فرضاً ما يكفي لزعزعة مدينة بكاملها ،

ولذلك اقتربَ الفهد منه وقال له باهتمام بالغ : « يجب أن تكف عن التدخل في شؤون الآخرين . إنهم من مستويات مختلفة ولا تعرف ما يدور في خلد أحد منهم ، النكتة التي تضحك هذا قد تبكي ذاك » .

« ـ لا لا... إنهم يحبونني . مساكين جداً . تحدثت مع عدد منهم . إنهم شباب لا ينسون الكروم وعربات الحصاد إلا أن الذي أعلن أنه لن يعدّ الثقوب في ظهري لا أعلم من أين أتى » .

« ـ إنه مسكين مختل » .

« ـ إنهم يحتكون بي ويحومون حولي دون أن أطلب منهم ذلك ، فهل تريدني أن أثور إذا كانوا يحبونني ؟ » .

« ـ بل يجب أن تكون حذراً بعض الشيء . لقد رأيت بعض الحرس يتهامسون وينظرون إليك» .

« ـ إلي أنا ؟ » .

« ـ إليك أنت ، واحترس من ذاك الذي يلبس نظارة » .

« ـ من هذا الصعلوك ؟ بصفعة واحدة آتيه بأجله ساعة يشاء . هه . إنك لا تعرفني » .

ونهض أبو سليم صارخاً : « من يلعب الورق ؟ » .

الفصل العاشر

مع أن المهاجع كانت عارية عرياً تاماً فقد خلق المعتقلون منها خلقاً كل الأشياء التي لم تكن لتخطر لهم على بال وهم يقفون تحت الشمس اللاهبة في العــراء... خلقـــوا ورق لعب وطاولات زهر وشطرنج ووســائد ومناشف ومشاجب . ولم يمض شهر على وجودهم فيه إلا وأصبح المهجع كأي مخزن من مخازن البقالة ، ولكن بعض السجناء كان يعاني أزمة مصيرية بالنسبة إلى الطعام الذي يقدم إليه ، فرفض عدد كبير منهم ، وفي طليعتهم أبو سليم بالطبع ، تناول اللحوم المعلبة دون نقاش ومنذ أول مرة بل كانت فرائصهم ترتعد لمنظرها . وقد تناولوا ذات يوم لحماً مطبوخاً لم يفكر أحد في منشئه إلى أن رفع أحدهم رأسه عن صحنه ، وقال : « هذا لحم أرنب » .

« ـ بل لحم خنزير » .

وتوقفت اللقمة في حلقوم أبي سليم ، ثم نهض إلى إحدى الزوايا ، وبصقها بقوة كأنه يريد أن يبصق معدته معها ، وصرخ وهو يمزمز شفتيه : « لماذا لم تتكلموا من قبل ؟ لماذا أيها البلهاء ؟ إنني أشك كثيراً في أن يكون من لحم العلب وإن كان طعمه كالتبن تماماً » .

وصاح الشرطي المكلف بتوزيع الطعام : « لماذا لا تجلس وتأكل كالبشر أيها العجوز ؟ » .

« ـ لن آكل من هذا اللحم » .

« ـ لماذا ؟ » .

« ـ إنه لحم خنزير » .

فأجابه الشرطي ساخراً : « ألا تحب أن تأكل من لحمك ؟ » .
وأغلق الباب خلفه وهو يضحك .
وفي المساء تناول أبو سليم والنخبة الغاضبة من أجل اللحم الخبز المبلول بالماء فقط ، وأخذوا يناقشون فكرة مقابلة المسؤولين حول هذا الموضوع الخطير إلا أنهم تفرقوا بمجرد أن سمعوا خطوات الشرطي تقترب من الباب .

وقضى أبو سليم ليلة ليلاء ، فقد فيها مرحه ومزاحه ، وأخذ يذهب ويجيء في الممر الضيق بين رؤوس السجناء ومؤخراتهم حتى ساعة متأخرة من الليل ، ومد يده ليشعل سيكارة فلم يجد شيئاً . بحث في جيوبه وتحت إبطه ، فلم يجد شيئاً ، فتقدم من أحدهم وهو يحك خصره : « هيه! أعطني سيكارة » .

« ـ لم يعد معنا يا عم » .

وتوسل لأكثر من سجين عن سحبة واحدة ، فلم يوفق . نسي كل شيء : ابنه ومزرعته وحريته ، وأصبح هدفه الأول والأخير سيكارة . ثم اضطجع بجوار الفهد وأخذ يزفر : « كلاب! أراهن أن هناك أكثر من عشرين سيكارة في هذا المهجع » .

ففتح الفهد عينيه ، وقال وهو يسند رأسه إلى راحتيه : « ألم أقل لك أن لا تبالغ كثيراً بثقتك بهم ؟! » .

« ـ ليذهبوا إلى الشيطان ، ولكني أعطيتهم الكثير . أليس معك سيكارة ؟ » .

« ـ لا . لقد بدلت قلمي بثلاث سكائر ودخنتها منذ ثلاثة أيام » .

« ـ إذن لا توجد سيكارة واحدة في هذا العالم » .

وأغفى أبو سليم ، فغطاه الفهد بالبطانية المهترئة وهو يشعر بأن حربة تذهب وتجيء في صدره . كان معه سيكارتان أخفاهما تحت إبطه . سيكارتان . واحدة سيدخنها ويفكر في غيمة ، وأخرى سيدخنها وهو يفكر... ترى لو خانته غيمة ؟

* * *

عندما أخرجوهم للتنفس في الصباح ، كان لا عمل لأبي سليم سوى البحث عن سيكارة . وعندما استنشق رائحة تنبعث من مكان ما ، ترك الفهد يشرح مطولاً رأيه في الغوغاء ، واندفع كالكلب البوليسي يبحث عن مصدر الرائحة حتى عثر عليه . كانوا أربعة يتناوبون على تدخين شيء ما... كان لفافة قديمة... كتلة صغيرة مبللة باللعاب بللاً كاملاً ، وقد غرسوا في مؤخرتها دبوساً حتى لا تحرق الشفاه المرتجفة حولها . وعندما هبط عليهم أبو سليم من السماء ، كانت قد لفظت أنفاسها . وتجهمت الوجوه الأربعة ، وأطرق أصحابها إلى الأرض كأنهم فقدوا ابنتهم الوحيدة المدللة .

وكان أحد الحراس يدخن لفافة طويلة . وينفث دخانها على شكل أنبوبين أزرقين من أنفه ، فارتجفت ذقن أبي سليم وقال لمن بجواره : « بإمكاني أن أتناول حجراً وأهشم رأسه » .

« ـ من هو ؟ » .

« ـ الشرطي . إنه يدخن . أنظر إليه إنه يدخن كأن التدخين شيء عادي في هذا العالم » .

وعاد أبو سليم إلى التهديد بالهرب محدداً هذه الليلة بالذات لا التي قبلها ولا التي بعدها : « نعم سأهرب وربِّ الكعبة! إني أكاد ألد غلاماً من أجل سيكارة » .

ثم حكّ ذقنه الخشنة الغبراء ، وأخذ ينظر شذراً إلى الأفق الأخير المغبر ، فقال له المختل : « أما أنا فلن أهرب . ولماذا أهرب ؟ لكي أنام في الشارع ؟ إنني على الأقل آكل وأنام في هذا المكان » .

« ـ أما أنا فلي زوجة... زوجة حقيقية ، وفراش من الصوف الحقيقي . ولن أبقى هنا كي اتهم بذكر ما في إحدى الليالي » .

ولما كانت مثل هذه الأحاديث هي العسل الذي يغفو عليه من لا موهبة له في الحديث ، فقد تجمع عدد كبير منهم حول أبي سليم ، يصغون إليه بأفواه مفتوحة وعيون غبية تتساءل إذا كان في هذا العالم شخص واحد جدير بمثل هذه المغامرة وسط هذا القفار . وكان أحدهم طالباً نحيفاً يلبس نظارتين سميكتين تشعان في الشمس كنجمتين بعيدتين . وكان ما ينفك

يقترب من أبي سليم ، ويدوس تارة على قدمه اليمنى ، وتارة على اليسرى ، فالتفت إليه أبو سليم صائحاً :-«انظروا إليه . إنه مافتئ يحتك بي منذ الصباح كأنني أنثى» .

فقال البدوي : «اعذره . إنه أعمى» .

«ـ أو أرمل» .

وصرخ أبو سليم : «هيا اذهب أنت ونظارتك من ورائي . إن لكم أنتم يا أهل المدن رائحة العقاقير . تعال أيها البدوي لأشم رائحتك ولو أنك مقزز بدون تلك الجدائل» .

ودفع يديه وسط الزحام ليشم أي شيء آخر غير الطالب وغير البدوي ، فسقط من سقط وترنح من ترنح ، وصدحت الشتائم وأنواع السباب ، وتعالى الغبار والتأوه ، فجاء رجال الشرطة مسرعين .

«ـ من قام بذلك ؟» .

«ـ إنه مزاح» .

«ـ قلنا لكم من قام بذلك» .

«ـ قلنا لكم إنه مزاح» .

وجاء صوت كالرعد... صوت المسؤول الكبير والسوط مطوي تحت إبطه : «من فعل ذلك ؟» .

فتجمد الجميع في أمكنتهم ، وكان بعضهم منحنياً يداوي ظفره الدامي ، وبعضهم ينفض الغبار عن ثيابه ، وبعضهم الآخر يلتقط أنفه استعداداً للتمخط ، فتلعثم أبو سليم وهو ينظر إلى الجميع كأنه يقول لهم : ها أنا مرة أخرى أتكلم وأنتم صامتون .

«ـ أحدهم كان يحتك بي كأني أنثى» .

فقال المسؤول مخاطباً الشرطة : «اجلدوا الإثنين أمام الجميع على أسفل أقدامهم» .

وتحلق السجناء على شكل هلال ، بعضهم تحت بعض ، وبعضهم فوق بعض ، محدقين ، مرهفين آذانهم . وصرخ الشرطي بأبي سليم وبذي النظارة : «استلقيا على الأرض» .

فاستلقى ذو النظارة فوراً ، ورفع ساقيه في الهواء حيث أحكم الشرطي حزام البندقية حولهما فأصبحا جاهزين للاستعمال في أية لحظة. وعندما رأى أبو سليم هذا المشهد تراجع إلى الخلف متعثراً . وقال بصوت حزين ومرتفع كالعواء : «لا... لن أفعل ذلك» .

فصاح به المسؤول بعد أن صفعه بالسوط على وجهه : «ولماذا أيها القذر ؟ طالب المدرسة المثقف يطيع الأوامر ، وأنت الرجل الكبير تعصى ؟ » .

«ـ إنني لا ألبس سروالاً ، ولن يرى أحد ما تحت ثيابي غير زوجتي » .

«ـ وزوجتك من يرى ما تحت ثيابها الآن ؟ » .

وضحك مرتجفاً في ثيابه الزاهية الشفافة ، ونظر إلى الجميع كأنه يعطيهم الفرصة الوحيدة كي يضحكوا في هذه اللحظة التاريخية .

وشعر أبو سليم بصدمة كأن زوجته أم الأولاد ، العجوز المسنة ذات الساقين المعروقتين والصرة المليئة بالبثور ، تقف عارية ، بعورتها ذات التجاعيد... تقف عارية أمام هؤلاء الكلاب ، فصرخ : «لا . لن أستلقي ولو قطعتموني قطعاً . أرجوك يا سيدي أرجوك . أطلق عليّ الرصاص حالاً في أذني ولا ترغمني على ذلك» .

وراح يرفس الأرض بينما الشرطي يطوقه من خصره ويطويه ، ثم تكاثر عليه رجال الشرطة ، وأدخلوا ساقيه في حزام البندقية ، وانهالوا على قدميه ضرباً بالسياط المحماة بالشمس بينما هو يصرخ وينتفض ويحفحف قدميه ببعضهما كأن جبالاً من الجمر تتراكم فوقهما .

كان بالفعل لا يرتدي سروالاً داخلياً ، ولذلك تمكن الفهد أن يرى لأول مرة منذ عشر سنين سيقاناً ريفية وجهاً لوجه . كانت فخذاه رفيعتين ومكسوتين بالشعر ، ولونهما أخضر وأسمر ، وعروق لحمه زرقاء ومنتشرة انتشار الجذور في لحمه ، ولكنها جذور ميتة يمكن نسلها من لحمها كما ينسل الخيط من البكرة.

وانتهى العقاب بشكل خاطف ، وتفرق المتفرجون زمراً زمراً يتحدثون ويتأوهون ويبصقون وقد جمدهم الرعب والاشمئزاز بينما وقف أبو سليم ينظر

بالتراب ، يتلقى نصائح المسؤول ورفسات الشرطة على مؤخرته . وكان ذو النظارة يتخبط كالسمكة وسط الغبار ويبحث عن شيء ما...

وصاح به أبو سليم : «ايه أيها الأعمى! إنك تبحث عن نظارتك . ها هي...» .

والتقط أبو سليم النظارة ، وهرول وهو يضحك ملوحاً بها بينما صعق السجناء بمرحه الشديد غير الطبيعي إلا أن الفهد لم يفاجأ بل أحس بأن العنقود قد نضج كثيراً ، وأن عصيره قد بدأ يسيل .

* * *

كان أبو سليم يهرول بعيداً عن زملائه وهو يضع نظارة الطالب على عينيه صارخاً وباكياً في آن واحد : «إنني لا أرى شيئاً يا جماعة . إنني لا أراكم . الموظفون في الحكومة... لابد من أنهم يلبسون مثلها حتى لا يروننا . إنني لا أرى شيئاً ، لا جروحكم ولا رؤوسكم ولا بطونكم» .

ثم مسح النظارة مسحاً عنيفاً بثيابه ، وقفز على حجر مرتفع ، ووضع النظارة على عينيه ، وهتف : «لا ورب الكعبة... إنني أرى كل شيء الآن . أرى فضاءً أبيض كالحليب . أرى زوجتي مائلة الرأس ، مضمومة الركبتين ، أمام المنزل ، وسروالي يخفق جافاً كالورق على شجرة التوت . أرى فرسي الحمراء تضرب طرف الحقل بحافرها ، أرى سنابل... سنابل سوداء طافية فوق النهر . لن تأخذوا النظارة مني قبل أن أرى كل شيء . ها هو راع يغفو على حماره الأبيض والريح تصفر بين قوائمه الغائصة في الطين . ها هو ولدي يغرس مسماراً في النهر فينبثق الدم . لا... لا تقتربوا مني . أرى أيضاً حقولاً محدودبة ، تلوح بأعنتها فوق المزابل ، صحوناً من الزيت والعسل المراوغ مجمدة على القمم البعيدة . أرى شجرة التين ترفع أوراقها كامرأة شمطاء . أرى قبقابي المزوق بالنار يابساً ونظيفاً تحت سريري الخشبي ، ولكنه سرير بارد ومغطى حتى وسادته لأن زوجتي تجلس مائلة الرأس في الزقاق ، والخيول مدفونة حتى حواجبها في العشب الطويل اليابس...» .

وصاح صوت صارم : «أعطني هذه النظارة» .

«- لا... لن أعطها إلى أحد حتى ولو كانت زوجتي» .

«ـ أعطني إياها وإلا قتلتك» .

كان المختل هو المتكلم . وقد لاح لأول مرة بهيئة النسر المفترس . كان يمد يده بأصابع مرتجفة وأظافر مسنونة ، وعيناه حمراوان جائعتان كأنهما مليئتان بعصير البصل : «أرجوك أعطني هذه النظارة لأرى شيئاً ما» .

وكان أبو سليم ممسكاً طرف النظارة ، ويسير متعثراً إلى الوراء قائلاً : «انظروا إليه . يريد هذه النظارة . كاد يموت ليلمسها وهي ليست أكثر من رقعتين من الزجاج . ومع ذلك لن أعطيه إياها» .

وكزّ المختل على أسنانه ، وتقدم إليه كالوحش : «أعطني النظارة لأنظر فيها فقط وإلا قتلتك أيها العجوز» .

«ـ عجوز ؟! يا لك من طفل مورد الخدين!» .

وهجم المختل على أبي سليم ، وأوقعه أرضاً على ظهره ، وراح الاثنان يتدحرجان في الغبار ، يخبطان بعضهما بعضاً بكل شيء ، ثم نهضا يلهثان كديكين منفوشي الريش . وكان أبو سليم لايزال يمسك النظارة بيده ، فصاح : «انظروا . إنها لم تنكسر . أي شيطان صنعها بهذه المتانة ؟» .

واندفع المختل نحو أبي سليم وبيده تلمع أداة قاطعة مصنوعة من إحدى صفائح علب السردين .

«ـ خذ... خذ... هذا هو نصيبك . هيا انظر في نظارتك السخيفة إلى هذه الوجوه السخيفة» .

وتراجع المختل إلى الوراء والدم يقطر من آلته الحادة المضحكة ، فذعر أبو سليم ، ورفع يده إلى عنقه ماطاً شفتيه كأنه يبحث عن فمه ، ثم نشر أصابعه أمام الجمع فإذ هي تقطر دماً : «لقد قتلني ذلك المجنون ليس بسكين حقيقية بل بتنكة فقط» .

ثم هوى على ظهره مفتوح العينين والساقين يتغرغر دماً وغباراً : «أتسمعني أيها الصحفي يا ابن ضيعتي ؟ لقد قتلني بتنكة» .

ولكنه بعد يومين خرج من المستشفى وعاد إلى المهجع صاخباً مرحاً ، ولم يتخل عن تهديده بالهرب .

* * *

كانوا يقفزون على السطح الحار . يتذكرون ويحلمون ويتأوهون... الفهد والمختل وأبو سليم والبدوي ، من دون نقاش أو تمحيص في معنى هذا القفز الجنوني في أثر الحلم أو الآهة والذكرى من أجل مصلحة الوطن العليا . كانوا شعراً ميتاً بين أسنان المشط الذي نثرهم يميناً وشمالاً من دون أن يكون لهم أي حق في الأناقة المتواضعة والإغراء المقبل ، من دون تمييز بين الشعر الأشقر الجميل وقصاصاته الملقاة على الوحل والغبار وإن كانوا جميعهم لا يشكون لحظة واحدة في أن ما يقاسونه هو شيء يتعدى المصلحة الشخصية لأنه ضروري للمصلحة العامة ، إلا هو... الفهد الصغير الجائع .

كان في اعتقاده أن ما يهدد الحياة البشرية بكل ما فيها من جيوش وأطفال ومدن وغابات هو الضجر ، وليس الاستعمار كما تقول المنشورات الرسمية ومكبرات الصوت بل هو الضجر الضجر ، فالطبيب يزور مرضاه لقتل الوقت ، والعصفور يغني لقتل الوقت ، والمرأة تستحم وتتعطر لقتل الوقت ، والجيوش تسفح دمها في الخنادق وعلى شطآن المحيطات لقتل الوقت ، فالمجزرة واحدة ومستمرة وإن اختلف الفصل ولون الدم . فهؤلاء الأسرى بما فيهم الأمي والمثقف والخائف والشرس والهادئ بعد أن كنسوا مهاجعهم وغسلوا صحونهم وفتلوا شواربهم ووضعوا أيديهم على ركبهم... ماذا يعملون ؟ ماذا يعمل المختل بفلسفته والحاكم بأحلامه والبدوي بذكرياته ؟ ماذا يعمل الفهد المجتث كالسرطان من أعماق الحجر والشوارع ؟ هل يغني ؟ هل يغرس الدبابيس في صدر أبي سليم البائس العجوز ؟ لقد كان صوت أبواق السيارات البعيدة ووقع خطوات الحارس في الممر يذكرهم بالحرية... بالمسافات الطويلة التي يمكن أن تجتاز في كل لحظة في العالم ، وكان الأسرى الجدد بعيونهم المذعورة وصررهم الكئيبة شيئاً يثير حماستهم للنقاش والجدل فيما إذا كان العالم مازال هو العالم ، وإذا كانت الأشجار لم تهرم والمعامل لم تتوقف والشمس لم تشرق حداداً عليهم . أما الآن فلم يعد يثيرهم شيء . لقد فقدوا الأمل حتى في أن يكون الأمل شيئاً مهماً في الحياة ، وأصبحوا يرون في عنبرهم حانوتاً عادياً يعرض الأنسجة والدم بدلاً من الأقمشة والصابون . ولذلك كان توقع مجزرة حقيقية في أية لحظة منتظراً

وشهياً إذا ما اعتبر هذا الملل واليأس غلافين فقط يخفيان طرف الزناد وظلام الفوهة . كان لا يستبعد أن ينهض اثنان معاً لم يكلما بعضهما كلمة واحدة منذ اعتقالهما ليهشما بعضهما تهشيماً من أجل إبرة أو ذرة ملح... من أجل ذلك الاجتياز العظيم من ثانية إلى أخرى في زمن لا يعرف إلا الله كم هو مشحون بالثواني والساعات والقرون ، أما الوحيد الذي يتصرف إلى آخر فترة ممكنة كأن الفجر نوع من الدنس لا يجوز التفكير به فهو أبو سليم فقد كان دائم الحركة ، واسع النشاط ، وإن لم يعمل شيئاً من الصباح إلى المساء سوى الحك تحت إبطيه أو يصلح حذاءه أو ينفض بطانيته أو يشذب شواربه . وإذا لم يجد شيئاً من هذا ولا من ذاك خرّب الحنفية أو النافذة ثم قام بإصلاحهما . وما أن يفد أسرى جدد حتى يسارع إلى استقبالهم والترحيب بهم كأنه صاحب حانوت حقيقي ، يدلهم على أماكنهم ، ويشرح لهم التعليمات والتوصيات والواجبات ، ويسألهم لماذا اعتقلوا ومتى وإلى متى . وأخيراً يسألهم إذا كانوا يحملون بعض السكائر ، فإذا كان جوابهم الرفض ، تغيرت سحنته واضطربت حركاته ، وصعد إلى مكانه ليتمدد كأنه لن ينهض بعد اليوم ، ولكن ما أن تمضي عدة دقائق حتى ينتصب واقفاً على قدميه ليتساءل عمن يلعب الورق ، فإذا لم يجبه أحد ، عاد إلى التمدد ثانية وهو يحك إبطيه متثائباً .

وفي إحدى الأمسيات ، كان أبو سليم يتصرف كأنه سيرتكب جريمة إذا لم يجد رفاقاً للعب الورق . كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً عندما أحس بأن اجتياز المسافة بين الثانية والثانية أكثر صعوبة من اجتياز نهر بقدمين من الرصاص ، وبأن النوم لا يحل المشكلة بل يجمع تلك الثواني في الصباح الباكر كما يجمع صاحب الحانوت غلته ويشتري بها بضاعة أخرى .

كان واقفاً على حافة المصطبة ، تتشبث قدماه بحافة المصطبة كما يتشبث النسر بحافة القمة ، وكان الجميع في رقاد تام . لا نأمة ولا حركة سوى صوت التنفس الأليم المحاصر بين الجدران الأربعة ، وقد صرخ : « من يلعب الورق مع عمه أبي سليم ؟ » .

فنقر الشرطي على النافذة : « لماذا تقف ؟ » .

«ـ ولماذا أجلس ؟» .

«ـ يجب أن تنام» .

«ـ بل يجب أن أستيقظ» .

«ـ يجب أن أحطم دماغك» .

ولما سمع أبو سليم صرير الباب يفتح ، جلس فوراً وهو يتمتم : « وماذا يهمك أنت وحكومتك إذا كنت واقفاً أو نائماً ؟ ماذا يهم حكومتك إذا كان رجل عجوز من رعاياها لا يريد أن ينام ؟ ماذا يجني هؤلاء من النوم سوى النفس الكريه في الصباح ؟» .

وقال الفهد لأبي سليم متبرماً : « كفاك نقيقاً أيها العجوز» .

«ـ ألم تنم بعد ؟» .

«ـ وهل تترك أحداً ينام ؟» .

«ـ هل تضايقت مني ؟» .

«ـ لا... ولكنك مزعج في بعض الأحيان . الذي يلعب الورق يلعب ، والذي لا يلعب فليذهب إلى جهنم . إنك لست طفلاً صغيراً حتى تتصرف هكذا » .

«ـ معك حق . لن ألعب الورق بعد اليوم . لا لن ألعبه ولو في ذلك خلاصي» .

وفي اليوم التالي كاد يأكل نفسه لأنه لم يجد لاعبين للورق : « ترقدون على مؤخراتكم من الصباح إلى المساء دون أن تفعلوا شيئاً سوى الجلوس على مؤخراتكم ، تأكلون وتذهبون إلى دورة المياه . لن ألعب مع أي واحد منكم ولو لعبت مع حذائي بعد الآن . تعرفون كم أكره هذا البدوي ولكني سألعب معه . هو لا يعرف اللعب بل لا يعرف شيئاً سوى أنه كان له جدائل ، ولكني سأعلمه ، وسأجلس قبالته في الليل والنهار . أما أنتم فالعبوا بما بين سيقانكم . هيا من يلعب الورق مع عمه أبي سليم ؟» .

وينفر البدوي واثنان آخران لا يقلان عنه بلاهة وجهلاً بالأمور كافة ، ويرفع المختل رأسه وقال : « ممنوع اللعب» .

فقال له أبو سليم : « اسمع أيها المختل . أنا لا أريد التحرش بك ، ولكنك إذا أرغمتني على ذلك فلن تنام ووجهك مستدير كما هو الآن » .

وجثا المختل على ركبتيه مزمجراً : « ممنوع اللعب... يجب أن تجلسوا القرفصاء وأيديكم على خدودكم » .

« ـ وأيدينا على خدودنا... لماذا ؟ » .

« ـ كي تفكروا بالعالم » .

وهبّ أبو سليم من مكانه كأن استمراره في الجلوس هو قرار مبدئي : « ولماذا نفكر بالعالم يا أستاذ ؟ » .

« ـ كي تنقذ نفسك » .

« ـ من ماذا » .

« ـ من ملايين الوحوش الضارية التي تتربص بنا » .

فذعر البدوي ، وسأل ببلاهة : « وأين هو العالم لأفكر به ؟ ها أنا أضع يدي على خدي » .

فضربه أبو سليم على يده : « أخفض هذه اليد القذرة . هل تظن العالم جملاً أو خروفاً لتفكر به أيها الحيوان ؟ » .

وقال المختل لأبي سليم : « لماذا ضربته ؟ » .

« ـ لأنني ضربته . لأنك لو قلت له إن العالم برتقالة لصدق ذلك . ولو قلت له : اذهب إلى جهنم ، لذهب » .

فقال الفهد : « وما الضير في ذلك . على العالم أن لا يخلو من هؤلاء وإلا توقف التاريخ كله » .

ووضع يده على خده ، فقال المختل : « بل على الإنسان أن يتخذ موقفاً » .

فقال الفهد : « وهذا موقف . الطاعة موقف أيضاً » .

قال المختل : « يجب أن نتفق أولاً إذا كان هذا إنساناً أم لا » .

« ـ نعم إنه إنسان حقيقي ، وما جريمته إذا كان أبلهاً » .

وكان أبو سليم والبدوي ينقلان بصرهما إلى الفمين المتصارعين ببلاهة من دون أن يفقها شيئاً إلا أن البدوي كان ما ينفك يزحف بمؤخرته عندما علم بطريقة ما أنه هو موضوع البحث ، وينظر إليهما بشفتين تربطهما خيوط من اللعاب الأصفر .

قال المختل : « بل يجب أن يناقش الأمور حتى ولو كانت بديهية وإلا فقد هويته بل هو في الحقيقة بلا هوية في هذه اللحظة » .

فارتبك البدوي ، وراح يفتش في جيوبه ، ثم قال مبتهجاً : « ها هي هويتي . إنها موجودة معي » .

فضربه أبو سليم على يديه قائلاً : « اخف هذه الورقة أيها الحيوان . إنهما لا يتناقشان عن هذا الشيء أم تظن أني أبله مثلك لا أفقه شيئاً » .

فأعاد البدوي هويته إلى جيبه خائفاً من أن ينال ضربة أخرى .

قال الفهد : « يجب أن تكف عن ضرب هذا المسكين . إنه لا يفتأ يجفل كلما اقترب منه أحد . أنتِ ترعبه . لنعد إلى موضوع بحثنا . نعم إنني أصر على أن هذا البدوي إنسان حقيقي . لقد أدرك فوراً أنه موضوع بحثنا وأنه موضوع جدل . بل أشك في أنه يدرك أنه سجين . ما قيمة هذا الرجل هو وبعيره وخرافه إذا مات ظمأ في الصحراء ؟ ما علاقة ذلك بالمصانع التي تدور في نيويورك أو بالموسيقى التي تعزف في علب الليل ؟ طبعاً لا شيء . إن الالام البشرية منفصل بعضها عن بعض بل تفصلها المسافات ، والزمن الذي كانت تشتعل فيه الحرب من أجل امرأة أو فارس قد مضى وولى . إن شعوباً جريحة برمتها يساوم عليها أمام قدحي خمر . لكي يكون هذا البدوي إنساناً عليه أن يكون واضحاً وذا رؤية عميقة للأمور حتى يرى ويسمع ويلمس وحتى ينفعل هو لا أن ينفعل عنه الآخرون ويثورون . إنني لا أراه بوضوح رغم أن خيوط الشمس تسطع عليه . لا أراه فعلاً بوضوح مع أن فحوصي الطبية أثبتت أن عيني ثاقبتا النظر » .

« ـ بل إنك تراه وتلمسه وتشمه أكثر من أي واحد في تلك العنابر رغم قبحه وأسنانه الجاحظة . هذا العنبر مليء بالرجال الوسيمين ذوي الغضاريف اللينة والشفاه النظيفة المبتلة بلعاب نظيف . ومع ذلك فأنا لا أعرف أسماء معظمهم بل لا أحس بوجودهم مع أنهم يأكلون معنا ويشربون وينامون ويشخرون في الوقت الذي لا يوجد واحد منهم إلا ويعرف أن هذا هو البدوي . إنه متفرد عن الآخرين بشيء ما » .

« ـ متفرد بقبحه » .

« ـ قلت بشيء ما . ولسنا آلهة لنقيم هذا الشيء أو ذاك » .

« ـ يا حضرة المختل... يا رجل... إنه متفرد بقبحه ولماعته . أنت قلت ذلك لا أنا . الطاعة التي قد تدمره... تنفيذ الأوامر التي لا يعرف حتى إعادة كلماتها » .

« ـ هذا ضروري إذا كان الجميع قادة فمن الضروري أن نخلق مرؤوسين » .

« ـ عليه أن يطيع بعد أن يقتنع » .

« ـ وما الفائدة إذا كان الرضوخ هو النتيجة ؟ لماذا لا يختصر هذا العذاب ؟ لماذا يحول بملء إرادته تلك الطاعة البسيطة السهلة إلى هزيمة واندحار ؟ إن هزيمة المثقف والجاهل كالفرق بين الموت غرقاً والموت شنقاً . إنه يتصرف بشكل طبيعي عندما يطيع الأوامر الصادرة إليه لأن الطبيعة المتطورة منحته هذه القدرة على تجاوز العذاب وانفجار الذهن . إنه يحس الأمور ولا يدركها . عندما تأمره بأن يقفز من علو ستين متراً إلى الأرض فهو يقفز ويتألم ويفجر رأسه ، ولكن عزاءه الوحيد في أنه أدى واجباً ما . أما المثقف فينفجر رأسه مرتين . مرة لأنه لم يقتنع بهذه العملية ، ومرة لأنه ارتطم بالأرض ، وليس له عزاء على الإطلاق » .

« ـ هل تريد أن تقول لي إن هناك أنواعاً من الموت كما ان هناك أنواعاً من الحبوب ؟ » .

« ـ نعم » .

« ـ إنك أنت المجنون الحقيقي ، واسمك يدل على ذلك بوضوح » .

« ـ إن أمة فيها ثلاثة مثل هذا البدوي جديرة بأن تسمم فرداً فرداً » .

« ـ لو لم يكن هناك ارتجاج في عقلك كاهتزاز المصعد لفعلت بك شيئاً لم يفعل أبداً . إن هذا البدوي ينتسب لأمة . كان كل أفرادها على هذه الشاكلة ، ذات العيون وذات الأسنان . ومع ذلك أنجزت من الأعمال والبطولات ما لا يصدقه العقل » .

« ـ ومن قال لك ذلك ؟ » .

« ـ التاريخ... الروايات » .

« ـ وكيف تعرف أن هذه الروايات ليست كاذبة وملفقة طالما لم يكن هناك حبر وطباعة ؟ » .

« ـ على كل حال إن الأشياء الصحيحة مترسبة كالكلس في مكان ما في هذا العالم » .

« ـ هذا لا يهمني . ما يهمني في ذلك هو الذي يترسب الآن . أليس كذلك يا أبو سليم ؟ » .

« ـ لا أعرف يا ابن ضيعتنا . ولو أنني أتمنى أن أقوم بشنق هذا البدوي بيدي » .

وكان البدوي قد أخذته سنة من النوم ، فغفى مفتوح الفم ، متهدل اليدين ، وقد انقلبت عيناه إلى هلالين أبيضين تحت الأهداب ، فنهض أبو سليم ، ومدده في مكانه ، وأسدل عليه غطاءه : « إنني أكرهه ، ولكن لابد من أن يقوم بتغطيته أحد ما . انظروا . إنه يتقلب على جنبيه كالعقرب . يدفع مؤخرته للآخرين وراءه . لا يهمه شيء ولا يفكر بشيء » .

كان رأس البدوي الحليق وأسنانه الجاحظة على حافة الفضاء وشعر أنفه المتشابك خارج الأنف يعطيه صورة القديس الذي يرسم في الزوايا النائية في اللوحات الشهيرة بعيداً قرب التوقيع أو الإطار ، ولكنه رسم بدقة تفرض وجوده كرمز للبؤس والإهمال البشري .

داعب أبو سليم رأس البدوي ، ووضع تحته ما يشبه الوسادة ، وقال : « إنني أكرهه ، ولكني لا أسمح لأحد بإهانته أو بالأحرى بضربه » .

فنظر إليه المختل مشمئزاً .

« ـ أعرف كم هو مقرف! ماذا يعمل بعد هذا النوم سوى الاستيقاظ . إن موته هنا أو في صحراء لا يترك أي أثر على المعامل التي تدور في نيويورك أو الموسيقى الصاخبة في علب الليل » .

« ـ إلى الجحيم أنت ومعاملك التي في نيويورك وموسيقاك الصاخبة التي في علب الليل . إن موته يؤثر على العالم أجمع ويزلزله ويكسر عظم ساقه إذا شئت النقاط على الحروف . كف عن تصنع القسوة . فأنت أكثر جبناً من أنثى . الآلام منفصلة كأنها حصى . إن كل آلام العالم متحدة ومتصلة ببعضها

كالغيوم ، وانفصالها فوق هذه المدينة يعني التحامها فوق مدينة أخرى . هل تعتقد أن العامل المتمنطق بأنابيبه ومجهره في الدور الثامن والثمانين في معاملك في نيويورك أكثر سعادة من هذا البدوي وهو متمنطق عصاته ومقلاعه في أحد الوديان ؟ هل تعتقد أن كآبة أي رئيس للوزراء في أي بقعة من العالم أشد كثافة من كآبة هذا البدوي ؟ إن الروح البشرية تحت الثياب لا فوقها . إن العدالة التي تشمل الجميع وتستثني فرداً واحداً ولو في مجاهل الأسكيمو هي عدالة رأسها الظلم وذيلها الإرهاب ، والرخاء الذي يرفرف على موائد العالم ، ويتجاهل مائدة واحدة في أحقر الأحياء هو رخاء مشوه . الكل أو لا شيء طالما أن الشمس تشرق على الجميع... طالما أن السنبلة الأولى لم تكن ملكاً لأحد » .

« ـ إنك تكذب وتوغل في الكذب . إنك تؤمن بما تقول إن كنت أؤمن بأن رأسي هو رأس عصفور . لقد كان أبو سليم البارحة في حالة يرثى لها . قضى سحابة نهاره واصبعاه مفتوحان من أجل سيكارة . وطلب منك أولاً بأول ومع ذلك لم تعطه بحجة أنك لا تملك تلك السيكارة . ورأيتك تدخن في المرحاض جاثياً القرفصاء وعيناك جاحظتان في الزوايا حتى لا يراك أحد . كأنه تكفيك أن تقول إن فلاناً جائع حتى يشبع ، وذاك مريض حتى يشفى . لماذا لا تعلن الأمور مباشرة ؟ قل إن فلاناً هو جائع فليأكل لحمه ، فأنا لست كذلك . قلها . تنح عن صهوة اللياقة الاجتماعية والمؤازرة اللامجدية حتى يخترع الجائع طعامه والمريض دواءه . هذه هي إنسانيتكم أيها الكتاب : إنسانية كاذبة ومضللة . ومن نتائجها هذه الجيوش من المرضى والمشوهين والمنبوذين . إنكم بدونهم كالسمك بلا ماء . ولولا أنهم موجودون عرضاً لعملتم على خلقهم . إنك جبان ، وباستطاعتي تمزيقك إرباً ، ولكن... أليس كذلك يا أبو سليم ؟ » .

« ـ أنا مع ابن ضيعتنا » .

وصمت المختل . أغلق فمه حتى أصبح خطاً رفيعاً لا يرى ، وتكاثفت تجاعيد وجهه ، وأخذت تتسع وتضيق بعد أن فشل في التأثير على الآخرين وخلق جمهوره الخاص . لا فائدة . مهما قيل ومهما سيقال ، فالكلام يذهب

وتبقى الأشياء كما هي . لو قرأت لهذا البدوي كل المؤلفات التي أنجزت عن الصبر والتضحيات فلن يستطيع الابتسام ، ولو غرد كل فلاسفة التاريخ من الصباح إلى المساء ، لن يجعلوا هذا الغطاء الخلق أكثر دفئاً ومنفعة . عبث كل شيء عبث .

لو أعطيت تلك السكائر لأبي سليم لبقيت المشكلة قائمة ، وعاد للمطالبة بغيرها طالما أن الأشياء ليست بمتناول الأيدي ، والاحتكار راسخ الجذور في كل ميدان... في الطبيعة قبل كل شيء ، في السلطة ، في الزهرة ، في الطبيعة قبل كل شيء . ولكن فجأة وكما يحدث عادة للمسافرين وسط الظلام حيث تبزغ نجوم نارية لا قبل لهم بها ، لاح لهم أن العكس هو الصحيح تماماً ، وأن كل شيء ضروري... السيكارة المشتعلة والثوب النظيف والخطوات الطويلة في شارع نظيف... إن كل أفكار العالم وحضارته لا تنقذ المرء من أكمامه القذرة وغطائه الرث القصير .

هنا في هذا العنبر ثمانون شخصاً يطحنون الأرز والبرغل والمرق النتن ، يمزجونه مزجاً بأسنانهم الحادة القاطعة . يؤكل البصل في بعض الأحيان والثوم أحياناً . من أولى أمنيات أحدهم أن يحصل على بصلة مع الطعام ، فهل يفكر الآخرون الذين في نيويورك في بصلة ؟

إن بعض الأشياء المعادية ضروري إلى أقصى الحدود لمحاربتها وسحقها ، وعلى الجميع بدءاً برئيس الوزراء السابق وانتهاء بالبدوي أن يحسوا بالبغض والعداء كي يقاوموا ويتحدوا .

إن رائحة الثوم المتراكمة يوماً بعد يوم... منظر البرغل الممزوج بالمرق واللعاب... الازدحام في الزمهرير على باب دورة المياه... أمور جليلة وقادرة في كل لحظة على إثارة ذلك البغض وذلك التحدي وذلك الانفجار . المختل يفكر بهم كي يبدلهم أما الفهد فلكي ينقذهم وينقذ نفسه من خلالهم .

إن ثقافتين عدوتين توشك كل منهما أن تشك منقارها في عنق الأخرى .

وفي تلك اللحظة ، دخل العنبر شرطي ، ودنا من أبي سليم متسائلاً : «أنت الفهد ؟» .

فقال أبو سليم ممتعضاً : « لست أنا الفهد ، ثم ماذا تريدون منه أو مني في هذه الساعة المتأخرة في الليل ؟ » .

وتنبه الفهد إلى أن الشرطي يسأل عنه ، فقال له : « أنا الفهد » .

« ـ تفضل معي » .

« ـ إلى أين ؟ »

« ـ يريدونك في الإدارة . سأنتظرك حتى ترتدي ثيابك » .

وسار الفهد مع الشرطي وهو يخب بحذائه العتيق المفكوك الشريط عبر الساحة الرملية المخيفة . لقد كانوا قد كفوا عن استجوابه منذ أمد طويل ، فلماذا يريدونه الآن ؟ سأنتظرك ريثما ترتدي ثيابك . الأمور تبدلت . كانوا في السابق يأخذونه واللقمة في فمه .

وأدخل الفهد إلى غرفة نظيفة مضاءة ، أبرز ما فيها علبة سكائر على الطاولة ورجل يجلس وراء الطاولة ، دعاه للجلوس برقة بالغة : « لا تخف . أريد أن أسألك سؤالاً عابراً وأريدك أن تجيبني بوضوح » .

« ـ سأجيبك بوضوح » .

« ـ لماذا هاجمت غزو كوبا ؟ » .

« ـ في الحقيقة لا أعرف بالضبط ، ولقد كتبت أكثر من مرة في هذا الموضوع » .

« ـ وكل موضوع يختلف عن الآخر » .

« ـ يختلف في الأمور العامة . أما في الجوهر فهو واحد . الحرية قبل كل شيء » .

« ـ على كل حال ، ما يهمنا في الوقت الحاضر هو حرية الشعوب قبل حرية الأفراد . أما أنت فيبدو أن لك وضعاً خاصاً . إنني أسعى لإطلاق سراحك » .

« ـ أنا ؟! » .

« ـ نعم أنت ، فسيدي طلب ملفك لإعادة النظر فيه . وأبلغت خطيبتك بذلك » .

« ـ خطيبتي... أين هي ؟ » .

« ـ جاءت مرتين لتطمئن عليك ، ولكن تعرف أن الزيارات ممنوعة ، ولكنها كانت تعامل باحترام بالغ ولقد أوصلها سيدي بسيارته » .

« ـ أوصلها سيدك بسيارته ؟! » .

« ـ نعم . في أول الأمر كانت كئيبة . أما الآن فقد تغيرت بعض الشيء . إنها تضحك باستمرار » .

* * *

ودخل الفهد إلى عنبره وهو يطفح تعاسة وشقاء . فوجد أبا سليم متربعاً في مكانه وفي عينيه أخبار وأخبار .

« ـ لماذا لا تنام ؟ لماذا دائماً مستيقظ كخفير ؟ ثم من ينام في مكاني ؟ » .

« ـ إنه البدوي . لا تصرخ به . إنه يبكي » .

« ـ لماذا ؟ » .

« ـ حاولوا اغتصابه » .

« ـ ماذا ؟ » .

« ـ حاولوا اغتصابه » .

« ـ من ؟ » .

« ـ رئيس الوزارة السابق... فتحي بك» .

* * *

كان صباح اليوم التالي كئيباً حاراً ، مناسباً لأي حديث حزين متقطع .

قال الفهد لأبي سليم : « ماذا حدث للبدوي ؟ » .

« ـ أولاً لماذا أخذوك أنت في الليل ؟ » .

« ـ لا شيء يذكر . سألوني سؤالاً عابراً عن أزمة كوبا » .

وهز أبو سليم رأسه ساخراً كأنه أدرك أزمة كوبا من جميع جوانبها ، ثم قال : « ما حدث للبدوي شيء لا يصدق . كنت نائماً على جنبي الأيمن كما تعرف عندما سمعت صوتاً أشبه بخوار الثور أو كتلك الأصوات التي نسمعها من نوافذ التحقيق ، ثم حركة في الهواء . ساقان رقيقتان تنتهيان بمخالب

قذرة ويدان رفيعتان تنتهيان بمخالب قذرة أيضاً وأسنان جاحظة وعورة قذرة ، كل هذا يثب في الهواء ويطلب النجدة النجدة . ثم عرفت أنه البدوي . واستيقظ الجميع وراحوا يصرخون بالبدوي : اسكت أيها المجنون ، اسكت ، فسكت ، وأخذ يتقي رأسه بمرفقه عندما وجد معظمهم يهدده بالضرب ، وسار كطائر اللقلق تجاهي ، فالتقطت حذائي وقلت له : من هو ؟ فأشار باصبعه قائلاً : فتحي بك . وهويت بحذائي على فتحي بك . وأظنك رأيته . بعين واحدة لأن عينه الثانية اختفت بعد ذلك فجأة . على كل حال لابد من أنها موجودة في مكان ما من وجهه ، وقلت له : مرة ثانية سأقتلك أيها الكلب . ثم رحت أهدئ من روع البدوي الذي رفض أن ينام في مكانه بل ظل يجلس القرفصاء خوف أن تضربه إذا وجدته نائماً في مكانك . انظر ها هو . ابعدوا عنه أيها الكلاب . تعال أيها البدوي » .

وكان عدد من الطلبة السجناء يتحلقون حوله ويهددونه بكلمات بذيئة . وصرخ بهم أبو سليم : « ماذا تريدون منه . اللعنة عليكم وعلى ثقافتكم! » .

ثم التفت إلى البدوي متسائلاً : « لماذا تبكي ؟ ماذا فعلوا بك ؟ » .

« ـ ضربوني بالحصى على رأسي وسألوني إذا كانت أختي تسير بلا سروال » .

« ـ اجلس في ظل هذا الجدار ولا تتحرك حتى يحين وقت الرجوع إلى العنبر . وإذا اعتدى عليك أحد قل للحارس . ألا تراه يقف كالبغل هناك ؟ عندي أشغال كثيرة هذا الصباح » .

ورفع رأسه وراح يشمشم رائحة سكائر من مكان ما ، ثم ، وانطلق نحو مصدر الرائحة .

الفصل الحادي عشر والأخير

كان الفهد مصاباً بمغص مريع وهو يقف محدودب الظهر أمام دورة المياه لعل من في داخلها يخرج في هذا القرن .

كان مصاباً بالضجر وهو يأكل ، وبضيق الصدر وهو يشرب ، وبالحزن وهو يضحك ، ولا يعرف لحالته رأساً من ذيل .

« ـ أخرج يا رجل . إنني أحتضر » .

وجاءه صوت عميق خافت كأنه صادر من منجم : « وهل تظنني سعيد بالجلوس في هذا المكان ثم إنك لم تفتأ تذهب وتجيء إلى هنا كأنك في حديقة عامة » .

« ـ وهل تظن أني أقف هنا لأحاورك وأستمتع بأجوبتك ؟ » .

وصاح به آخرون : « دع الرجل ينهي ما هو موشك على إنهائه » .

« ـ أحشائي تتمزق » .

« ـ لتتمزق . يجب أن نسمع شيئاً آخر غير صوتك » .

« ـ إنني مريض ، ويعرف أنني مريض ، ومع ذلك فهو يتباطأ » .

« ـ هو حر في ذلك . وإذا لم يعجبك ما نقول فاضرب رأسك بالحائط الذي يعجبك . نريد أن نرى شيئاً آخر غير وجهك » .

كانت غالبية المعتقلين يكرهون الفهد ويشمئزون منه ، وكان يعزي نفسه بأنهم لا يعرفون شيئاً عن مستواه وماضيه . رجال فظون ، مجرمون ومنحرفون .

قال الفهد ومثانته تكاد تتمزق : «أرجوك أن تخرج» .

«- سأخرج ولكن كي أهشم رأسك» .

واندفع من وراء الستارة رجل له ملامح الخنزير المرتطم بجدار حتى ليستحيل التكهن بما هو مكتوب في هويته عن لون الوجه والعينين والشعر ، وأطبق على عنق الفهد بيديه المبتلتين بالماء ، وراح يصرخ : «قلت لك تريث . إنني لست سعيداً حيث كنت ، ولكنك دائماً تلح على كل الأمور كأنها لن تحصل لك أبداً . هيا اغرب عن وجهي وإلا قتلتك . لن تدخل هذا المكان حتى الصباح وإذا دخلته فلن تخرج منه حتى الصباح» .

واستسلم الفهد للأمر الواقع ، وجلس القرفصاء على غطائه ، يصغي إلى التعليقات والغمزات التي بدأت تفرمه فرماً هنا وهناك ، ويحاول أن يستعيد شجاعته وثقته بنفسه ويدخل دورة المياه . لقد تلاشى الألم من مثانته وانقلب إلى جمرة صغيرة في القاع . وكلما حاول أن ينهض أو يرفع رأسه ، كان يعتريه خجل لا يحتمل من أن أحلامه كشائر تتركز كلها في أن يفعل شيئاً تفعله الكلاب الهائمة . وعندما كان في أوج سلطانه وزهوه ، كان يحلم دائماً بشجار عنيف وسط الشوارع... برصاص ينهمر عليه من النوافذ . أما هنا بين هذه القباقيب والقشور ذات الرائحة النتنة فهذا ما لا يمكن احتماله .

وأخيراً نهض ودخل دورة المياه ثم خرج منها وجلس في مكانه من دون أن يعترضه أحد ، فشكر الله وحمده على أن الأمور مرت بسلام ، ولكنه ما أن رفع بصره عن ركبتيه حتى دوى العنبر بالضحك وفتحات الأنوف المرتجفة من المرح .

ودخل الحارس وأعطاه صرة ما وانصرف ، فخلقت له مشكلة كبرى : هل يفتحها أمامهم أم يتركها حتى يعم الظلام ؟ تحسسها بيده . كانت طرية وزنخة . وكان غلافها مبقعاً وقذراً ، فوضعها خلف ظهره وتمدد بارتياح .

كان الآخرون منهمكين في إعداد طعام العشاء . كل ثلاثة أو أربعة يعملون شيئاً ما . أما هو فكان وحده . دائماً لم يقبل أحد بمشاركته ، كما أنه لم يعرض على أحد المشاركة . وحاول أن يفعل شيئاً فلم يفلح . وعند توزيع الطعام ، أخذ طعامه وعاد إلى مكانه . وضع صحنه وملعقته على

المنديل ، وفك الصرة بوجل وقدسية . كانت عبارة عن عدد من الفطائر القروية المضحكة مغلفة بخرقة غير سميكة تكهن فوراً بأنها قطعة من ثوب قديم لأمه ، فداعبها بطرف سبابته كأنها كفن ، ثم عد الفطائر ، وفتح إحداها ، كانت محشوة بأشياء عديدة يسيطر عليها البصل ، وكانت حوافها مطرزة كالمحارم بدقة وصبر عجيبين . إن أمه أرهقت نفسها كثيراً حتى أتمت صنعها ، وبكت كثيراً وتمخطت كثيراً وهي تعد تلك الفطائر النادرة لطفلها الحبيب فهد .

نظر الفهد إلى الآخرين ، فوجدهم يأكلون ويتهامسون عليه . حمل عدداً من الفطائر بيديه ، ودار على الآخرين مرتبكاً وخجلاً وبائساً : « إنها فطائر من الضيعة . هل تشاركوني في شيء ما ؟ » .

فلم يرد أحد عليه .

« ـ إنها مصنوعة بالسمن الحقيقي . إنها شيء غير طعام السجن » .

وضرب أحدهم الفطائر بيده ، فتناثرت على الأرض : « قلت لك لا نريد شيئاً منك ولسنا بحاجة إلى فطائرك الممزوجة بالبصل . نحن نعرف كيف يصنعونها في القرى » .

فتح فمه ليقول شيئاً ما وهو يلتقط أجزاء الفطائر الكبيرة والصغيرة على السواء ، ثم استنكف عن ذلك ، وعاد إلى مكانه حيث وضع ما بيديه في الصرة ، وجلس مطرق الرأس .

كان دباح يسيطر على العنبر سيطرة مطلقة بحيث أن نظرة واحدة من نظراته كافية لأن تذيب أي سجين في مكانه كالملح . كان ذا واجه مستدير وعينين صفراوين بلون الشمع وأذنين كبيرتين لا تفوتهما صغيرة أو كبيرة ، تحيط به حلقة من أزلامه ، وهم لا يقلون عنه غلظة وجهلاً وقسوة ، اعتقلوا جميعاً في حادث سرقة . وكان الإقطاعي السجين قد حرضهم على الفهد ، وأقنعهم أنه بقي سنة كاملة وهو موضع سخرية الفهد وهجومه ، ولذلك كرهوا الفهد ، وجعلوا حياته جحيماً لا يطاق ، يسرقون غطاءه في الليل ، ويلقون الأوساخ بجانبه ، ويحملونه مسؤولية أي شغب أو فوضى في العنبر ، ويمنعونه من الشرب في بعض الأحيان ومن استعمال دورة المياه في أحيان كثيرة ،

ويتهمونه بأنه هو مصدر القمل ، وأن رائحته لا تطاق ، وأن عليه أن يشنق نفسه إذا أراد أن يكون سعيداً إلى الأبد . وحاول بشتى الطرق أن يتجنب شرورهم ويتحاشى الاصطدام بهم . كان يقف في آخر الصف عند توزيع الطعام ، وآخر من يستعمل أدوات الغسيل ، ويضحك لنكاتهم ويتحمس لقصصهم . وآخر محاولة له كانت تقديم فطائره العزيزة فلم يفلح وفشل فشلاً ذريعاً وكرس ذلك العداء بحيث أن مجرد فكرة الاستمرار ساعة واحدة بعد الآن معهم كانت ينهلع لها قلبه . كان وحيداً . لا أحد يؤازره أو يواسيه ما عدا ذلك البدوي بساقيه الرفيعتين وفمه المفتوح صيفاً وشتاءً . كان يرقد بجواره ، ولكنه لا يتذكر أنه افتتح حديثاً معه سوى : هل عندك ملح ، أو هل غسلت الصحون ، ثم يدير كل منهما ظهره للآخر ويشرد على هواه . وكان البدوي لا يجيد الحديث ولا المشي ولا الأكل ولا الشرب . لا يجيد سوى التحديق إلى الآخرين وتلبية الأوامر مهما كان نوعها أو مصدرها ، ولذلك تمنى الفهد له أن يموت أو ينقل إلى عنبر آخر أو يحدث له أي شيء يقضي على الزمالة العدوة .

كانت سماء الخريف النارية تلوح من النافذة شيئاً غير عادي... شيئاً أشبه بفوهة البركان ، نار حمراء مخططة بالأسود ومنقطة بتلك النجوم التي تمهد لذلك الظلام الدامس الأبدي .

وكان السجن بعيداً في القفار ، منبوذاً عن المدينة ، ومطوقاً برائحة دهنية تمتص كل الاستغاثات المفترض انطلاقها من السهول البعيدة . وكان وجه دباح يبدو أسطورياً في تلك اللحظة وهو يستعد للاضطجاع بين أزلام حلقته بينما لاح وجه البدوي كوجه كلب يلهث على رابية جائعاً وقذراً لا يعرف ماذا يعمل بهذا الوقت الطويل المترامي كالسلسلة الفقرية خلف قوائم الزمن : هل يعوي أو يغني أم يستمر مفتوح الفم أمام الفهد ؟

كان الصمت يخيم على الجميع ، وأي همسة كانت جديرة بأن تخلد في تلك اللحظة وينصب لها تمثال ضخم وسط العالم ، وكانت عينا البدوي تنصبان على صرة الفطائر مغروستين فيها غرساً لا يمكن تجاهله ، فقال له الفهد : «خذ واحدة» .

«ـ إنها لذيذة» .

« ـ كل ما تشاء » .

وقبض البدوي على الفطيرة بيديه الاثنتين وراح يقضمها قضماً . ولما كانت يابسة الحواف فقد أحدث قضمها صوتاً لا يمكن احتماله في ذلك الصمت القاتل كصوت نواح في عرس . رفع دباح رأسه ، وقال : « لا تأكل أيها البدوي » .

فتجمد الدم في عروق الفهد بينما توقف البدوي لحظة عن القضم استهلكها في النظر إلى دباح ثم عاود القضم مرة أخرى ، ولكن ببطء وخجل شديدين ، ثم توقف نهائياً ، ووضع ما تبقى من الفطيرة قرب رأسه وأثر أسنانه واضح على حوافها ، فضحك دباح وأزلام حلقته واضطجعوا في أماكنهم ، فشعر الفهد كأن كابوساً هبط من على رأسه وزال في تلك اللحظة . وأشعل دباح لفافة ، ونفث دخانها في الفضاء بارتياح كدليل على أن أمراً آخر من أوامره قد نفذ بحذافيره . وفجأة انطلق صوت : « أطفئ هذه السيكارة » . فانتفض الجميع في أماكنهم . ولما لم يتكرر الصوت فقد ظنوه حلماً ، واسترخوا من جديد .

وجاء الصوت مرة أخرى آمراً ونافد الصبر : « قلت لك أطفئ هذه السيكارة » .

وارتعد الجميع مرة أخرى . لم يكن صوتاً بشرياً من النوع الذي يسمع في الحافلات أو أسواق الخضراوات... كان صوتاً منفجراً من الداخل محموماً وضارباً كذيل الأسد ، لا يمكن أن يقال أو يهمس به إلا عندما تكون الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب... صوت الصوت المطارد ، الفارس المثخن بالجراح وقد وجد سيفه مغروساً قرب رأسه بعد بحث طويل لا يحتمل . وأشعل أحدهم زر الكهرباء ، وكان في رأس دباح ذرة عقل وطارت : كان الفهد يقف منتصباً أمام دباح وبيده أنبوب من الحديد يستعمل في تنظيف دورة المياه ، وقد أطبق فمه للمرة الأولى من اعتقاله بحزم وتصميم على جميع أسنانه ما عدا أسنانه الأمامية التي كانت تشع بلعابها الفائض كسهم لا يعرف ماذا يخترق... وجه مليء بالهزائم المنكرة يطفح بتلك المروءة التي انتفضت على قدميها في عالم من الكساح والمقعدين : « أنت أيها

القذر...» .

«ـ أنا يا كلب ؟ » .

«ـ أطفئ هذه السيكارة وإلا أطفأتها في فمك» .

وإذا كان دباح قد شعر بضرورة التريث ولو ثوان معدودة لمعرفة سر هذا الانقلاب الصاعق إلا أنه شعر أن مثل هذا التريث جبن لا يحتمل عندما رأى البدوي يقف على مبعدة من الفهد وبيده قبقاب مرفوع حتى رأسه من دون أن يفقد سمة واحدة من سمات البلاهة الخالدة فيه . ووثب دباح إلى الأمام متجاهلاً الضربة القاصمة التي نزلت على عظم كتفه وقبض على أذني الفهد يريد اقتلاعهما من جذورهما .

وتكاثر أزلام دباح على الفهد . ضربة من هنا وصوت من هناك حتى شعر بالاختناق . وكان البدوي يتراجع ببطء والقبقاب مرفوع بيده . أيضرب... أيقوم بالخطوة الوحيدة الجبارة في هذه الحياة أم ماذا ؟

وهرع الحرس وصفاراتهم في أفواههم ، وأطبقوا على الجميع وهم يلهثون . وعند ذلك هرب البدوي إلى دورة المياه بينما اقتيد دباح والفهد إلى الإدارة .

* * *

«ـ أغدق عواطفك على الكلاب ولا تغدقها على البشر . لا تقم بإعداد الشاي إذا كانت الأقداح يملكها سواك . عش حياتك كما لو أن لك ذراعاً واحدة فقط . لا تكتب وتقرأ وتناقش وتحارب في آن واحد . لا تكن متفوقاً في عالم منحط لأنك ستكون بقعة عسل في عالم من الذباب... ستفنى ويبقى الذباب . إنني لا أكلمك كرجل مسؤول هنا عن عدد الأغطية ومواعيد التنفس ولكن كرجل مفتون بك يا أستاذ . قرأت كل ما كتبته ، وتمنيت دائماً أن تكون لي الجرأة الأدبية والمظهر الأليف كي أطلب منك ولو هاتفياً أن تكف عن تعذيب نفسك وعن إعداد النار التي ستلتهمك مع طاولتك وأوراقك . كنت أسمع صوتك في المذياع حنوناً وغاضباً ، يسري في أوصالي ، ويهزني من قدمي حتى قبعتي وأنا راقد في هذا المقعد وأمام هذه المدفأة . وكان بعضهم

يكرهك ويتمنى أن يقضم حنجرتك بأسنانه . وعندما أتوا بك إلى هنا بتلك اللحية الطويلة وذلك العمش والأظافر المحطمة ، لم أتألم فحسب بل شعرت بالاشمئزاز أيضاً . وعندما طلبوا إليّ أن أضربك رفضت شفقة واشمئزازاً وجلست أشرب الخمر هنا... أشرب وأشرب حتى لم أعد أدرك إذا كنت في سجن أو في ملهى ليلي . وكل ما كنت أدركه أنني سعيد بتلك الجدران التي تفصلني عن آلام الآخرين » .

ونهض الموظف في إدارة السجن ليضع عدداً من قطع الحطب في المدفأة ، وليطل من النافذة قليلاً . وكانت الريح تعوي عواءاً أليماً في الخارج ، وبراميل المحروقات تتدحرج وتتصادم في ذلك الليل الطويل .

«ـ كان من واجبي أن أصفعك أنت ودباح وآمركما بالزحف عشر مرات على الأقل فوق الوحل وتحت المطر لأنك هددت إنساناً ما بالقتل ، ولكني بدلاً من ذلك ، قدمت لك الشاي واللفائف بيدي لأني لا أريد أن أكون وحشاً ضارياً في الوقت الذي أستطيع فيه أن أكون وحشاً بائساً فقط... لا... لا تقاطعني ببضع كلمات مرتبكة كالتي يقولها أحدنا مضطراً في مكان للتعزية » .

وكرع ما تبقى من قدح الشاي دفعة واحدة ، وراح يسعل ويلوح برأسه : « إنني أعرف دباح... حشرة خارج السجن وعملاق في السجن ، وأعرف رئيس الوزراء... حشرة في السجن وعملاق خارجه . بيديّ قدمت له القهوة وفطور الصباح فيما مضى ، وبيدي جلدته . كنت أرتعد منه هلعاً خارج القضبان ويرتعد مني هلعاً داخلها . ومع ذلك فالأمور لاتزال غامضة ، ولا أعرف إلى متى يستمر هذا السحاق الحيواني بيننا وبين العالم » .

قال الفهد : «على الأمور أن تأخذ مداها ، ولابد للجياد من أن تقف ولو في الهواء » .

«ـ لتأخذ الأمور مجراها ولكن شريطة أن يكون بيننا وبين ذلك المجرى كما بيننا وبين الصين . أو بالأحرى لا تكافح عن الآخرين ولا تشعر عنهم . لا تصرخ وتتأوه عنهم وأفواههم ملأى بالطعام . أنا مثلاً أستطيع أن أقوم بتهريبك وأخلق ألف فتوى وفتوى بأن الهرب حدث مصادفة واستثناء .

ولكني لن أقوم بذلك طالما أن المسؤولين سيخلقون أيضاً ألف فتوى وفتوى بأن الهرب لم يحدث مصادفة أو استثناء . ومهما كنت أحبك وأقدرك وأجلك ، لا أريد أن أحبس في مكانك في العنبر ولو دقيقة واحدة . للتوضيح أكثر فأكثر ، لو دخلت علينا الآن دورية فسيجن جنون رئيسها لأنك تجلس على هذا المقعد وتدخن وتشرب هذا الشاي . ولينفي أي شك حول علاقتنا وتقارب أفكارنا فقد يأمرني بجلدك لا هنا بل تحت المطر . فماذا تظنني سأفعل ؟ » .

« ـ ستطيع أوامره » .

« ـ سأطيعها حتماً وأؤدي له التحية لاهثاً وأقول : سيدي... لقد انتهيت . وإذا سألني : أين هو ؟ سأقول له إنه يتخبط خارجاً في الوحل ، لا لأنني أتلذذ بذلك بل لأنني أؤمن بأن النظام لن يدعنا نتصرف وفق مشاعرنا . والآن قبل أن تنصرف إلى عنبرك ، أودك أن تعتبرني صديقك الذي لن يفوت فرصة واحدة لإنقاذك مما أنت فيه... » .

وسمعا في تلك اللحظة هدير محرك يقترب وصدى دواليب نزقة تحتك وتختنق بالوحل ، فاقشعر بدن الفهد ، وزاد صوت الرعد في الخارج من صوت تنفسه العميق . ولما كان طوال حياته يؤمن بالمصادفة وويلات المصادفة فقد أخذ يستجمع قواه لينصرف وكأنه كان في زيارة عائلية .

وعندما سمع موظف الإدارة أن شيئاً ما قد راح يخبط قدميه الموحلتين خبطاً على الأرض ليعطي فكرة ولو للحيطان عما عاناه في تلك السيارة الخربة... عند ذلك وجد أنه لابد من أن يتصرف من خلال النظام ، فصرخ بالفهد : « أخرج أيها الكلب ، ولا تدعني أرى وجهك بعد الآن » .

وقال المسؤول وهو يعلق معطفه في مكان وقبعته في مكان : « لماذا هذا هنا ؟ » .

« ـ حدث شغب في العنبر وأتيت به كشاهد » .

فقال الفهد واضعاً النقاط على الحروف : « نعم... شاهد » .

فصاح به الموظف : « اخرس... هيا أمامي » .

وخرج الفهد مذعوراً من الغرفة الصغيرة الدافئة إلى حيث كانت برك

الماء الصغيرة تلمع وترتجف على مسافة أميال ، وكان عدد من السجناء المنهكين يجلسون القرفصاء ويدخنون صامتين .

وقبل أن يفتح باب العنبر ، قال الموظف للفهد : «لا تنس أني صديقك مهما حدث ، ولن أدخر فرصة واحدة لإنقاذك شريطة أن تعي جيداً أن سجناً يستهلك مئة ربطة من السياط كل صباح ليس جديراً بأن يجلس أحد موظفيه في مقهى ويقول باعتزاز : »

وعندما رآهما الحراس ، التفتوا إليهما ببطء وهم ينفثون دخان سكائرهم .

« ـ ما الفرق بيننا وبين هؤلاء ؟ » .

« ـ لا شيء » .

« ـ على الأقل هم يتألمون . أما نحن فلا نفعل شيئاً » .

* * *

في منتصف الليلة الأخيرة من العام ، كانت عشرات من أعواد الثقاب توضع على أطراف اللفائف في كثير من المكاتب والسراديب لتضع حداً لهذه الفوضى في تصريف الحقد البشري . وكان الدخان الأزرق يرتجف فوق الوجوه ليزيد في استهلاكها لأدق العيوب والمخازي التي تتناقل أخبارها من بيت إلى بيت ومن حانوت إلى حانوت بالهمس وخبط الراحات على الصدور . وكان وجه غيمة من أكثر الوجوه حيوية وتوسلاً وهي تبعد دخان الآخرين عنها بيدها الصغيرة كيد العصفور . كانت قد قاست الأمرين خلال عام . لقد استجوبوها مراراً ، وسخروا منها ، وصفروا لها في الشارع لأنها تحب رجلاً لا يستحق قلامة ظفرها . ومع ذلك بقيت مخلصة ودؤوبة على لجم عواطفها الشهوانية في الأعماق ، لا تظهر إلا الزهد الواضح والحنان العظيم ، تمضي من شارع إلى شارع ، ومن مقهى إلى مقهى ، مستفسرة ومتسائلة ومطمئنة . وقد توصلت أخيراً بقليل من أحمر الشفاه وصباغ الشعر لاختراق أخطر سور في تاريخ المدينة لتعرف كل شيء مما يجري وراء الكواليس من دون أن تعرف أي شيء ذي قيمة .

وكانت هناك بالفعل مئات الأيدي تسرح شعرها عند الصباح ، ومئات الأسنان تنظف عند الصباح ، ومئات الأمهات يسلقن البيض لفطور الصباح ، ولكنهم جميعاً كانوا يتمنون أن يفعلوا ذلك للمرة الأخيرة لا لنقص في المواد الغذائية أو رغبة في عدم إنهاك الأيدي ، ولكن لأن البشاعة الحضارية قد أتلفت كل شيء وجعلت من التنهيدة البسيطة حتى ولو في أثناء النكاح استغاثة شرعية تصدع آذان المارة وترغمهم على أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء مندهشين كأن المطر قد فاجأهم على حين غرة . هذا إذا وجد أحد المارة في الشوارع . لقد أقفر كل شيء وتوارى متورماً ومتعفناً كأقذار الأذن في أمكنة بعيدة لا تطالها أعقاب البنادق . وهل يمكن لكل بنادق العالم أن ترغم عصفوراً على أن يغني إذا كان لا يريد ذلك ؟ وهل تستطيع أعظم هيئة قضائية في التاريخ أن تقاضي أحقر ديك في أصغر قنّ في العالم لأنه لا يصيح عند شروق الشمس ؟ طبعاً لا تستطيع ، ولذلك اختلط الحابل بالنابل ، الصباح بالمساء ، الجبان بالشجاع ، والضحك بالعواء ، ولكن في الداخل الذي ترك الساحات والشوارع فارغة ومقعرة كالقشرة الخارجية لأخطبوط كبير .

وحدها غيمة كانت تسرح شعرها وتسرحه ، تمسح حذاءها وتمسحه... حذاءها العتيق المرقع بألف رقعة ورقعة... كي تمشي وتمشي وتصعد وتصعد حتى تلفظ أنفاسها وهي تلصق هذا الطابع أو ذاك لا بدافع الحب العظيم فحسب بل بدافع الغرور وتسجيل المواقف الطنانة ، وقد أفلحت في ذلك إلى حد كبير ، وجعلت من هذا الحب شيئاً أسطورياً تضرب به الأمثال بين العشاق وطلبة المدارس . كانوا ينظرون إليها من نوافذ البيوت المتراصة والمقاهي . وكانت ترتبك في بادئ الأمر وتتعثر في مشيتها السريعة الراقصة ، ولكنها الآن لا يربكها شيء أو يعثرها... غزالة برية في صحراء . الشعب... الكتب... الأفلام الرائعة... أشياء انتهى دورها في تغذية الجرب ، ولم تعد الأظافر الحادة تستخلص منها إلا القشور . وها هي الآن وحيدة وضالة في مدينة تغمرها المصابيح ، تختال بمنديلها الأحمر وشفتها اليابسة كرمز للانتظار القاتل والحرمان العظيم... في مدينة تتسلخ عوراتها

تحت وهج الأظافر ولسعات السياط... العورات المجعدة بين الأثداء المتفحمة تحت المطر... الأثداء الجاحظة الغريبة والملوية تحت رقابة الحوذي .

خذني إلى جهنم أيها الحوذي العجوز... خذني إلى أقرب حانوت في العالم واشتر لي أوقتين من المطر والخريف... عد بي أيها العجوز ، وقل لجوادك العجوز أن يسرع إلى أقرب مقهى واشتر لي ربطة من الأصدقاء ، واقذفهم معي على طاولة المطبخ .

وشد الحوذي عنانه الطويل المهترئ حيث صرخت به أن يقف ، وقفزت على الرصيف وعيناها ملهوفتان على جميع النوافذ خوفاً من أن يكون البيت الذي تقصده قد طار ، وضغطت باصبعها الرطب المحمر على الجرس ، فانفتح الباب والجرس مازال يرن . كانت شاردة وحزينة وخجولة من الأشخاص الذين ستقابلهم والأشخاص الذين لن تقابلهم .

وضحك ياسين ضحكته البليدة المصطنعة : « أهلاً... أهلاً... لقد انتظرناك كثيراً . وقد خمن البعض أنك لن تأتي ، ولذلك ذهب » .

« ـ ومن بقي من البعض الآخر ؟ » .

« ـ أنا » .

« ـ أنت... وحدك ؟ » .

« ـ أنا والويسكي والفراغ » .

وجلسا متباعدين على أريكة يبدو من مظهرها أن عدداً لابأس به كان يجلس عليها ويصرخ ويعربد .

« ـ وماذا حدث ؟ هل فعلتم شيئاً ؟ » .

« ـ نعم... قمنا باتصالات واسعة . ثلاثة أسابيع وأنا أتصل وأنتظر وأراجع ، وكذلك أسامة وصطوف إلى أن وصلنا إلى النتيجة المطلوبة » .

« ـ وما هي ؟ » .

« ـ لا شيء » .

« ـ وكيف لا شيء... كيف ؟ » .

« ـ أرجوك اجلسي ولا تصرخي » .

« ـ لا أريد مقابلتكم . أريد مقابلته هو لأعرف هل هو ميت أو حي... هل

بقي برأس أو بدون رأس» .

«ـ أرجوك لا تصرخي ولا تخطئي في فهم عواطفنا وخاصة أنا . إنك لا تقدرين كم أحبه وأحترمه وأتمنى مساعدته» .

«ـ أرجوك... مللت سماع هذه الأسطوانة . تحبه وأنت في المقهى ، تحترمه وأنت في السينما ، تتمنى مساعدته وأنت في الحانة . إنك لم ترسل إليه زراً منذ اعتقاله حتى الآن» .

«ـ إنك مازلت تتكلمين كتلميذة مدرسة . إنني أحس الأمور ولكني لا أعرف كيف أترجمها» .

«ـ هو... لا تعرف كيف تترجمها ؟ عفواً... لقد نسيت أن هذه العواطف من فصيلة اللغات الهيروغليفية» .

ومسحت عينيها بمنديلها ، وقالت يائسة : «تترجمها بأن ترسل إليه شيئاً ما ، وتكتب عليه هذا من شخص ما . إنه عزاء كبير له لأنه إنسان كبير» .

«ـ نعم... إنسان كبير ولكنه طفل» .

«ـ لقد أعطوني عنوان منجمة شهيرة... سأذهب إليها . يقولون إنها تعرف كل شيء وتنبئ بكل شيء» .

«ـ أهكذا تتكلم طالبة الجامعة ؟» .

«ـ ماذا أعمل ؟ لابد من فم ما في هذا الكون يطمئنني وإلا قتلت نفسي» .

«ـ إنك تبالغين في عواطفك تجاه رجل أوقعك في مآزق فيما مضى» .

«ـ أعرف... انه مولع بالنساء ، وان ما من قوة في العالم كانت تمنعه عن الشطط والانزلاق . ولكن ماذا أعمل إذا كنت أحبه ؟ أرجو أن يكون السجن قد علمه شيئاً في هذه الحياة» .

«ـ أرجو ذلك» .

«ـ لقد آن لي أن أذهب وأقابل المنجمة ومن ثم سأسافر إلى القرية . الديون تنهشني من جميع الجوانب ، ولكن عزائي أنني نجحت في الامتحان . سيسر الفهد كثيراً لذلك . نعم سأسافر إلى القرية وأستريح بعض الشيء .

كم الساعة الآن ؟ » .

« ـ اسمعي يا غيمة . رأيي أن تذهبي رأساً إلى القرية وتدعي جانباً فكرة هذه المنجمة لأنك متعبة أولاً ، ولا جدوى من هذه المقابلة ثانياً » .

« ـ أعرف أعرف . ولكن حتى لا يقال إنني قصرت في ناحية واحدة في غيابه . وأنت لا تنس أن تعمل شيئاً من أجله » .

« ـ لن أنسى » .

« ـ إلى اللقاء . لا... أرجوك لا تخرج معي . إن أوصلتني إلى الباب أم لا فلن يتغير شيء . أنت تعرف كم أحبه » .

« ـ نعم أعرف » .

وابتسم ، فابتسمت وهي ممتعضة ، وانطلقت .

* * *

كانت غرفة المنجمة مملكة قائمة بذاتها . الطنافس طنافس ، والكراسي كراسي . وأول ما يطالعك أسنان ذهبية زرقاء يحيطها وجه طافح بالخزعبلات . وكان على الحائط ثلاث صور مؤطرة تشير إلى أن صاحبتها كانت في صباها مومساً ، وفي كهولتها قوادة ، وفي شيخوختها منجمة . وما أن رأت زائرتها الصغيرة المبللة بالمطر تقف على عتبتها مذعورة العينين حتى فتحت ذراعيها المليئتين بالأساور وهزت رأسها يميناً وشمالاً ، وقالت : « تعالي يا حبيبتي تعالي قبلي جدتك العجوز لتقول لك ما لا تستطيع هذه الكتب التي تحت إبطك أن تقوله في يوم من الأيام . تعالي... إنني لا أستطيع النهوض فأنا مصابة بداء المفاصل . لا تجلسي على هذه الأريكة فساقها مكسورة . وقد أرسلتها مراراً لإصلاحها . وكانت دائماً تعود ولا تتحمل دجاجة فوقها . الجميع يبتزون مني المال كأنني أقطفه من بستاني . لقد جنيته بعرق جبيني وبأشياء أخرى أرجو أن لا تضطرك الظروف إليها . ما بك ؟ هل أنت محمومة ؟ لا . وجهك كالورد . اجلسي حيث تشائين . اجلسي على هذه الأريكة المكسورة إن شئت فسأستعملها على كل حال للموقد هذا الشتاء . آه كم هو بارد هذا الشتاء . حتى الفصول تغيرت يا

بنيتي . قد يأتي الصيف بدل الشتاء أو الشتاء بدل الصيف دون أن نحس بذلك . إنني أعرف هذه المدينة حجراً حجراً ، وأعد حنفياتها واحدة واحدة لأنني شربت منها جميعاً . كان الماء ماء والعطش عطشاً . ماذا تريدين ؟ أنت ريفية حتماً وأحببت واحداً من المدينة هجرك ولا يريد أن يرى وجهك . افتحي هذه الكف الصغيرة لأرى ما تخبئه لك الأقدار ، ولكن بسرعة لأن المئات من أمثالك يوقظونني من نومي في كثير من الأحيان . أما أنت فيبدو أنك جئت في الوقت المناسب . إنك لطيفة وهادئة كأن القط قد أكل لسانك مع أني لا أشك مطلقاً في أن لسانك لن يتوقف حتى يتوقف قلبك إذا اتهمك أحد بأنك لا تزنين عشرين كيلوغراماً . آه من هذا السعال! إنه يمزق عنقي . ومن المضحك أن ألفظ ذلك الحرف كالأطفال . لأن هناك فجوة في مقدمة أسناني . ولذلك يبدو منظري مقززاً عندما أسعل أو أضحك . ولكن ماذا أعمل ؟ هل ألبس قناعاً عندما أخاطب أحداً ؟ على كل حال لم أحفرها بيدي . هل تعلمين كيف حدثت هذه الفجوة . لقد ضربني جندي فيما مضى لأنني هددته بهجره . هكذا كان الرجال . أما الرجال اليوم... هه... فإنك تبصقين في وجوههم فيقولون لك : ما هذا العسل يا ملاكي ؟ على كل حال ، سأذهب إلى طبيب الأسنان لأملأها بشيء ما أو بالأحرى لماذا أذهب . لقد اعتاد علي زبائني ، وهم يأتون إلي من كل الطبقات... نواب... وزراء الخ... ويعطوني مالاً وفيراً لمجرد أنني أقول ما يحلمون به وما يريدون أن يحدث . حتى البزاقة تعرف ما يحلم به الرجل الشرقي : امرأة وسلطة وطعام . يجب أن تقولي لي ما قصتك فوقتي ضيق ولا أستطيع إضاعة ما تبقى منه بلا معنى . على الأقل يجب أن أدخر ثمناً لكفني ونعشي وإلا أكلت جثتي الكلاب . إنك طالبة . أليس كذلك ؟ طالبة... أليس كذلك ؟ » .

« ـ نعم نعم... طالبة طالبة طالبة... » .

« ـ طالبة ؟ هه... ذكور وإناث على مقعد واحد ؟ إنني أراهن أنكم لا تفهمون شيئاً مما يقوله المعلم . ألا يلحمس لكم الطلاب من تحت الطاولات ؟ قولي الحقيقة ولا تخجلي » .

« ـ نعم نعم... يلحمسون... وماذا تريدين بعد ذلك ؟ إنني أكاد أنسى

لماذا أتيت مع أن من أتيت من أجله يساوي كل رجال العالم » .

« ـ إذن... جئت من أجل رجل » .

« ـ طبعاً... أم ظننت أني جئت من أجل جواد ؟ » .

« ـ لماذا هجرك ؟ أبعدي هذه الهرة . إنها تتبول علانية كالبدوية . ما هذه الهرة ؟ أنظري كيف ترفع ذيلها . إنه يكاد يلامس ذقنك ، ولكن لا تخشي شيئاً . إنها أنظف مما تتصورين . نعم! لم يهجرك ، ولكن إذا لم يهجرك فماذا فعل إذن ؟ » .

« ـ أصغي إلي ثانية واحدة . أقبل قدميك » .

« ـ لا أستطيع . وقتي ضيق ولا أستطيع أن أفقده بلا معنى . أعرف . ستقولين الأمور مداورة حتى لا تجرح كبرياءك . آه كم أنت بائسة . الرجل لا يستطيع أن يفعل إلا شيئين : إما أن يحب ، وإما أن يهجر . أقول عما يجري هنا في هذه المدينة الساقطة . ماذا أتى بك أيتها الريفية البسيطة ؟ ماذا تستطيعين أن تفعلي بحفنة من الطهارة في هذه المدينة الساقطة . إنني أعرف معظم من يرقد في قبورها... عرفتهم جميعاً . هل تتصورين أن ما بداخل هذه القبور كان يضحك ويصرخ ويقبل ؟ موضوعك صعب يا صغيرتي . تعالي إلى جواري . لن آكلك . هيا لا تضيعي الوقت . ماذا فعل بك حبيبك ؟ » .

« ـ أريد أن أعرف أين هو وما هو مصيره » .

« ـ إذن لا تعرفين أين هو ؟ » .

« ـ طبعاً لا أعرف وإلا لما تشرفت بأريكتك وهرتك » .

« ـ إنه حيث كان فهو تعيس ومهموم ويفكر بك باستمرار » .

« ـ أعرف أعرف أنه يفكر بي لا بك ، ولكن أين هو ؟ هل سيخرج ؟ » .

« ـ يخرج... من أين ؟ » .

« ـ من السجن » .

« ـ قولي ذلك مسبقاً . يا إلهي كم هن ثرثارات بلا معنى فتيات هذا الجيل . ما اسمه ؟ » .

« ـ فهد التنبل » .

«ـ فهد التنبل... فهد التنبل . رائع . هذا اسم حقيقي . اسم رجل حقيقي . أما أسماء اليوم... أسامة... هزار ، فشيء يقزز النفس... » .

«ـ يا ست نظمية . دقيقة واحدة وأقتل نفسي . حقيبتي في الكراج والسيارة مليئة بركابها ولا تنتظر أحداً سواي كي تسير » .

«ـ كان يجب أن تفصحي عن ذلك من قبل . ولكن ما العمل إذا بدأ الإنسان بالحديث لا يعرف كيف يسكت ؟ ماذا فعل حبيبك حتى دخل السجن ؟ » .

«ـ كان يكتب... عن الآخرين » .

«ـ وماذا كتب ؟ ولماذا كتب ؟ إنه أبله » .

«ـ ولماذا أبله ؟ يا ست نظمية... إن الدور الذي لعبه فيما مضى لا يمكنك نسفه بهذا العنف البذيء . إنك على كل حال لا تفقهين في هذه الأمور » .

«ـ اسمعي . قد لا أفقه كثيراً مما جرى ويجري من أمور ، ولكن ما أفقهه وحدي دون سواي أن الإنسان مهما لعب من أدوار فلابد أن يناله التعب في النهاية ، ومهما ارتفع لابد أن يسقط . رأيت نواباً ووزراء يتبولون على جدران الأزقة وحيدين مهملين . مهما بلغ الإنسان ما بلغ ، سينفض عنه الآخرون عندما يتوقف عن الصعود ويتركوه وحيداً مجهولاً في المقهى يبحث عبثاً عن إنسان ما يلعب معه الورق أو النرد أو يشاركه في تأمل صور الاستعراضات والاحتفالات الغابرة » .

«ـ إنك ثرثارة أكثر مما أنت منجمة . لم أفهم كلمة واحدة عن حقيقة وضعه الآن » .

«ـ اسمعي يا فتاة . ما من زبون أو زبونة بالأحرى أرهقتني مثلما أرهقتني أنت . لم تتركي لي فرصة واحدة كي أتم حديثاً أو أعطي حكماً ، وكل ما يهمك هو حبيبك وحده دون سواه » .

«ـ أرجوك أن تقولي لي شيئاً عنه... شيئاً من الحقيقة عن وضعه » .

«ـ سأقول لك الحقيقة بكاملها لأن نصف ما سأقوله قد يحدث ، ونصفه الآخر قد لا يحدث . ولذلك لابد أن تكون الحقيقة هنا وهناك » .

«ـ هنا أو هناك ؟» .

«ـ وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ هل أمسك عكازي هذا وأشير به إلى الحقيقة كأنها مقعد أو قدح ؟ لماذا تورطين نفسك مع شاب ؟ لماذا تحبين ؟ ألا ترين حالتي أم تعتقدين أنني خلقت هرمة مقعدة بهذا الشكل ؟ لم يأت بائع البابونج اليوم . إنني لا أستطيع أن أشرب شيئاً سوى البابونج . إنك تحبين ذلك الفتى ، وإذا هجرك ستجنين بكل تأكيد . لماذا ؟ أنصحك بأن تتركيه» .

«ـ أتركه ؟! سنة كاملة وأنا أركض بهذا الحذاء العتيق من مكان إلى مكان ، أغسل ثيابي وأنتظرها حتى تجف لأرتديها وأهرع لمقابلة فلان وفلان ، سنة كاملة وأنا لا أرقد إلا إذا رقد السمك في الماء . آه يا ست نظمية ، لو تدركين الأمور أكثر مما تدركين الآن» .

«ـ بل أدركها أكثر مما تظنين ، وأستطيع أن أريك إياها بأم عينيك . تعالي معي . لا تدوسي بحذائك الموحل على السجادة ، فليس عندي خدم كي ينظفوها . ما شكل حبيبك ؟ هل هو جميل ؟» .

«ـ نعم . إنه طويل قليلاً . أشقر وذو عينين واسعتين ضاحكتين» .

وكانت العجوز قد وصلت إلى سرداب مظلم يضيئه شمعدان يرسل لهباً كلهب الثقاب ، ووقفت أمام ستارة صفراء مقلمة كالتي تستعمل للتوابيت ، وأزاحتها بيديها المليئتين بالأساور ، وقالت لغيمة : «انظري . هنا أيضاً واحد كان يسرح شعره ويلمع حذاءه ويضع محرمة في جيبه الصغير . وقد ضحك لنكات كثيرة ، وقبض كثيراً من النقود . وماذا هو الآن ؟ انظري إليه . إنه عظام . عظام وغبار . قولي أمامه ألف نكتة ونكتة فلن يضحك . اقذفي أمامه كل مجوهرات الدنيا فلن يختلج . كومي أمامه كل أثداء النساء فلن يطرف له بصر . تعالي . اقتربي . سأضيء لك مصباحاً آخر . داعبي أسنانه بأصابعك . إنها مقرفة ومفزعة . أليس كذلك ؟ ولكني طالما لعقتها بلساني فيما مضى... طالما مسحتها بمنديلي من بقايا الأرز واللوبياء . كان يحب طبخي كثيراً ، ويقول لي : أخاف أن آكلك ذات يوم...» .

وكانت خيوط العنكبوت المتدلية من السقف ومن عدد من السروج وأدوات الصيد ، تتأرجح وتتساقط هنا وهناك ، وقد انطلقت غيمة هاربة ، متعثرة بالأريكة ، فحطمتها ، فصاحت العجوز وهي تغلق الستارة وتحاول الإسراع خلفها : « لا تذهبي قبل أن تعطيني أجرتي . إن الله لا يرسل إلي نقوداً بدلو من السماء » .

وفتحت غيمة حقيبتها على عجل ، وقذفت بكل ما فيها من نقود ، وأسرعت لا تلوي على شيء ، قاصدة قريتها .

* * *

« ـ سكوت » .

وانقلب الجميع إلى تماثيل فاغرة من البرونز . ما من كلمة إلا وقيلت فيما مضى ، ولكن ما من كلمة أدت مفعولها حتى الآن . الكلمات كنقر المياه في الصخر إلا هذه الكلمة فقد كان لها وقع الفأس . لقد سمعوها مراراً في الأيام الغابرة عندما كانوا صغاراً . عندما كانوا يطلبون إذناً للتبول ، فكان يقال لهم : « سكوت » . أما الآن فهم يطلبون إذناً للحياة .

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، الفترة التي لا تمت إلى الزمن بصلة . ودباح والفهد والبدوي والرياضي وكل الذين ضلوا في الصحراء المحرقة ، يقفون الآن بكل مرارتهم وجوعهم وعبوديتهم على الحافة تماماً كما تقف العصافير على أسلاك الهاتف استعداداً للتحليق . الثالثة بعد الظهر... الوقت العجوز الأحدب ، الوقت الذي يفترق فيه الأطفال عن الموائد وتغلق الحوانيت... الوقت الذي ينام فيه الأطفال على دفاترهم والتجار على موازينهم ، وتستلقي فيه العائلات السعيدة على الحصر والأرائك... الوقت الذي يخلع فيه الطاغية بزته ، وتخلع المرأة مشدها ، والأب طاقيته وسترته ، تحاشياً ضرورياً لهذه اللقمة الفاسدة من مائدة الحياة . كان يوماً آخر من الشرق . إنه هنا يأخذ مجده ، ويتطاول كملاكم محترف بين حفنة من الأطفال . إنه هنا عطر وربيع وغبار وجنس ، يذكرك دائماً بأنك ولدت ذات يوم ، وضحكت ذات يوم ، وعليك الآن أن تتعهد بأن لا تضحك ولا تولد مرة

أخرى إلا بإذن خاص كما تتعهد بأن لا تمشي على الرصيف ولا تدخن قبل الإفطار .

«ـ سكوت . كل من يسمع اسمه ، يجمع ثيابه ويقف أمام الباب» .

كان الشرطي ذو الأسنان الصفراء والفم الكريه هو الذي قال ذلك . ومع ذلك رأى السجناء أن فمه أجمل من فم فينوس في تلك اللحظة وهم يرقبونه بعيونهم الجاحظة إلى درجة جعلت البدوي يمسح عينيه بأصابعه أكثر من مرة ليتأكد من أنهما لم تطيرا بعد من وجهه . أما الفهد فكان يهتز من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه وهو يتأمل فم الشرطي بينما يداه تقلبان الأوراق . أما دباح فقد كان أكثرهم هدوءاً واتزاناً نظراً لمروره أكثر من مرة في مثل هذه المواقف ، وإن كان يمكن القول إن نصفه الأسفل كان لا يهتز فقط بل يرقص . أما الرياضي فكان يقف كرياضي بجوار البدوي وكأنه يقول : أليس من العار أن يبقى هذا الجسم حبيس القضبان ؟

وأشعل الشرطي لفافة ، ونفث دخانها وهو يهز رأسه لشخص ما كان يوشوشه باسماً بينما الجميع يرمقونه بذات العيون المشدوهة ويمدون أعناقهم وهم في أماكنهم كأنهم يريدون قراءة أوراقه مباشرة .

«ـ فهد التنبل... دباح الشاويش... نايف أبو عطية... راجي زكور... محمود القش...» .

«ـ حا... حا... ضر...» .

وقفز الفهد إلى أعلى وإلى أسفل ، وأخذ يدور كالمروحة في جميع الجهات بحثاً عن أغراضه ، ثم وضعها تحت إبطه ووقف عند الباب ، ووقف خلفه دباح والرياضي ونايف والأربعة الآخرون .

ومع أن الشرطي قد أعاد الورقة إلى مصنفه ، وأخذ يعد المطلق سراحهم إلا أن البدوي كان لايزال واقفاً منتظراً اسمه ، ولكنه عندما أدرك الحقيقة ، أسرع إلى الشرطي وسأله : «وأنا ؟ لم يطلع اسمي» .

«ـ لم يطلع . عد إلى مكانك» .

«ـ لقد خرج الفهد ودباح» .

«ـ نعم خرجوا» .

«ـ ولكن ذنبي ليس أكبر من ذنبهم» .

ويبدو أن الشرطي قد تأثر لمنظره وبلاهته ، فقال له : «لا تزعل... ستخرج غداً» .

«ـ أقسم بشرفك» .

«ـ قلت لك ستخرج غداً وأنا لا أمزح» .

فقال بعض السجناء متملقاً الشرطي : «فعلاً إنه لا يمزح» .

«ـ والآن بإمكانك أن تأخذ ما تشاء من الأغطية والصحون . ألم يعتقلوك أنت اعتباطاً ؟» .

«ـ نعم... نعم... اعتباطاً أو صدفة» .

«ـ ولماذا اعتقلوك ؟» .

«ـ لا أتذكر... كنت أتذكر ذلك من أسبوع» .

فقال بعضهم للبدوي وهم ينظرون إلى الشرطي كأنهم يقولون له : انظر كم نحن بجانبك : «كيف لا تتذكر ؟ أمرك غريب . إنك غامض أكثر من اللازم» .

فقال البدوي وراحتاه مفتوحتان : «لا أتذكر» .

أما الفهد فقد كان صامتاً طوال هذه المدة وواقفاً كالصنم ووجهه إلى الباب . فقال الشرطي للبدوي : سأعود إليك عندما تتذكر» .

ثم ابتعد بالسجناء وهو يزمجر كأنه تورط أكثر من اللازم في إنسانيته ، فصاح به البدوي وراحتاه مفتوحتان : «ولكنني لا أتذكر» .

* * *

وأخيراً بعد عذاب لا يحتمل... بعد كثير من الشوق والخوف والقذارة والرعب أعطوا الفهد حريته وحزامه ومحتويات جيوبه ، وعادوا إلى أوراقهم يتمخطون ويتثاءبون .

ورفع الفهد ذراعيه عند مدخل المدينة ، وصفق بهما على فخذيه كنسر ركب جناحين جديدين ، متوسلاً يقظة الجماهير ، مؤكداً لها بعينيه الزرقاوين أن السماء رائعة والأرض رائعة والسجون رائعة ، وأن ما من شيء

في العالم يوازي الخطوة الحرة وقراءة الجريدة وفصفصة البزر وإشعال اللفائف عند المنعطفات ، ولكن من يصغي إلى هذا الرنين الطويل... من يفتح معطفه لهذه العظام المطروحة بكل بياضها وصلابتها للماء والريح ؟

لا شيء يمنعه الليلة من أن يختبر العالم وحيداً... أن يتلصص على وفائه خلال الزحام ، واندفع إلى أول هاتف في أول حانوت رآه ، واتصل بغيمة ، فأخبروه أنها قد سافرت إلى قريتها ، فأغلق سماعة الهاتف بحنق ، وأسرع إلى مكتب البريد ، وأبرق إليها أن تحضر فوراً... أن تترك الملعقة من يدها وتطير إليه . ثم سار في الشارع وهو يفرك يديه بمرح متقدماً إلى مهرجان الأضواء .

كانت السماء تمطر والأرض تمطر . كان المارة يحملون المظلات فيما مضى . أما الآن فهم لا يحملون شيئاً ، ويضعون أيديهم في جيوبهم ويسيرون ببطء على الأرصفة . كانوا ينظرون إلى السماء وهي تمطر . أما الآن فينظرون إلى جميع الجهات ما عدا السماء . كانوا يتحاشون الحفر في الطريق . أما الآن فهم يتعمدونها . كان سائقو الباصات يطلقون أبواقهم في الأماكن المزدحمة . أما الآن فيطلقونها في الأماكن الخالية . كان أصحاب الحوانيت يدفعون الزبون دفعاً إلى الداخل . أما الآن فيدفعونه دفعاً إلى الخارج . كانت المطاعم تزدحم بالأشخاص الذين لا يأكلون . أما الآن فهي مزدحمة بالأشخاص الذين يأكلون . كانت الأمهات يملأن الدنيا صراخاً وزعيقاً إذا عاد أطفالهن متأخرين . أما الآن فيملأن الدنيا صراخاً وزعيقاً إذا عادوا مبكرين .

وعندما استقل الفهد باصاً ، ووجد السائق يقود الباص بيديه لا بقدميه ، أدرك أن الدنيا لم تنقلب كلها ، وأن بعضها مازال في وضعه الطبيعي وإن كان مهتزاً ومترنحاً .

لا لن يذهب الآن إلى المقهى حيث أصدقاؤه . سيترك هذه المفاجأة حتى منتصف الليل حين لا يكون مليئاً بما هب ودب ويضطر إلى استجواب متقطع لا ينتهي . سيفاجئ الجميع على دفعات .

*   *   *

كانت المدينة مقفرة في ذلك الليل الفاجع ، وكتل الغيوم الكبيرة تتجمع وتفترق فوق الأعلام المبتلة بالأسى . إنه الوقت المناسب للذهاب إلى المقهى . سيكون موشكاً على الإغلاق . وفي أشنع الاحتمالات سيكون هناك عدد من الغرباء يلعبون الورق .

ودار الفهد حول المقهى أكثر من مرة محاولاً أن يستشف من خلال المارة المسرعين وانعكاسات المصابيح على الأرصفة القذرة ما إذا كان أحد من أصدقائه في المقهى . زرر سترته العتيقة ، ودفع الباب الزجاجي بيده . لم يلتفت أحد فملأت الغبطة قلبه . جلس إلى أول طاولة ، وأحدث ضجة في أثناء جلوسه ، ولم ينتبه أحد . فملأ السلام قلبه .

دخل ثلاثة يعرف وجوههم جيداً . لم يلتفتوا إليه . ملأ الأسى قلبه ، فتحرك في مقعده محدثاً ضجة إلا أن أحداً لم يلتفت . كان يريد أن يلفت انتباه النادل على الأقل كأنه يقول له : نعم... لقد خرجت... ألا تراني ؟ ولكن النادل الذي يعرفه لم يكن موجوداً . كان هناك نادل آخر . ولوح له محاسب المقهى بيده . وبلغ سمعه حديث للثلاثة الذين يعرفهم :

« ـ أليس هذا فهد التنبل ؟ » .

« ـ بلى » .

« ـ تعالوا نسلم عليه » .

« ـ أين كان ؟ » .

« ـ في السجن » .

وكان الفهد يتصنع الشرود وعدم الإصغاء إلا أن قلبه كاد ينفطر من الفرح ، وشعر بأن الحياة جميلة كما هي ورائعة حتى عندما تكون مقطبة كالوحش .

« ـ الحمد لله على السلامة . متى خرجت » .

« ـ اليوم » .

« ـ إنك أصفر » .

«ـ ولكن صحتك ليست سيئة على كل حال» .

«ـ نعم ليست سيئة» .

وتثاءب الرجال الثلاثة ، وخرجوا من المقهى يودع بعضهم بعضاً . ثم جاء محاسب المقهى نحو الفهد وهو يتمطى متثائباً بعد أن أنهى حساباته .

«ـ متى خرجت ؟» .

«ـ اليوم» .

«ـ إنك أصفر» .

«ـ نعم أصفر» .

«ـ لكل إنسان ماربه في هذه الحياة . أغلق النوافذ جيداً يا ولد . كنت أعتقد أنك مسافر إلى القرية حتى سمعت بعضهم يتحدث عنك . لا لا تشطف الآن . دع ذلك للصباح . هل ضربوك حقاً ؟ لا أظن . صحتك ليست سيئة . قلت لك لا تشطف الأرض الآن . ما هذا النوع من الخدم كأنك تخاطب حطباً . يريد أن يشطف الأرض عنوة» .

وتثاءب المحاسب ، ومضى ليلبس سترته استعداداً للذهاب ، ثم وضع الخادم المكنسة في الزاوية ، وأطفأ الأنوار ، ولبس سترته ، ونظر إلى الفهد كأنه يستفهم منه ما إذا كان يريد أن ينام في المقهى حتى يحضر له وسادة ، فنهض الفهد ، وزرر سترته ، ودفع باب المقهى ومضى .

كانت الشوارع طويلة ، وسلبية ، لانهائية ، تنبعث منها رائحة شواء بعيد ، وكانت الهررة الضالة ، المفتوحة الأفواه ، تتشمم فضلات الزوايا وتموء مترنحة تحت أضواء النيون الغبراء .

ها هو الفهد وحيد ضد المدينة ، وفي عينيه ملامح الغزو .

لكي تكون جراحك واضحة لا لبس فيها ولا إبهام ، عليك أن تدفع جزية الدمار .

عليك أن ترفع حافة القبعة إذا كانت الندوب في الجبين ، وتخبطها خبطاً في الشارع إذا كانت في قمة الرأس . يجب أن يرى الشعب الفرح والألم والحرية كما يرى الباص والهاتف والمئذنة . أما الجراح والإهانات الدفينة في الأعماق فإبرازها يحتاج إلى المهارة والصبر .

لقد ذهب وولى عهد البطل النظيف المعتكف ، وجاء دور البطل الوحش... البطل الذي تتلألأ الجراح في رأسه . البطل الذي يتمخط في الشارع ويكسر مرفقه على حديد الحافلات... البطل المتسول الأحول الضائع... المغروس كالحربة خلفك وأمامك .

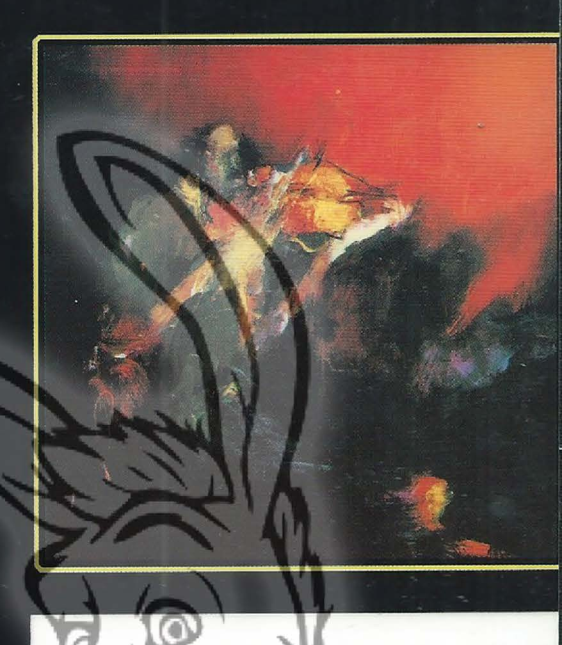
وهذا البطل المغروس كالحربة أمام الحقائق يحتاج إلى حشود وأساطيل ، وإلى شوارع مكتظة وزغاريد يخرج معها دم الحناجر ، وإلى خيول ودراجات وبيارق ، وإلى رغيف ومأوى .

لو كان الفهد في القفار في هذه اللحظة لزحف على ركبتيه بين الصخور ورقد على هضبة قريبة من السماء ، قريبة من الله ، ليناجي حبيبته ووطنه . أما الآن في هذه الساعة الكئيبة من الليل فحبيبته نائمة ووطنه يشخر ، وعليه وحده أن يبقى مستيقظاً ، فلابد من كلب حراسة لهذا الشرق الذليل المنهوب... هذا الشرق الذي يرقد خارج لحافه ، ومن صرته تشرب خيول الغزاة وتصهل .

الفهرس







يعتبر محمد الماغوط من أبرز الثوار الذين حرروا الشعر من عبودية الشكل. دخل ساحة العراك حاملاً في مخيلته ودفاتره الأنيقة بوادر قصيدة النثر كشكل مبتكر وجديد وحركة رافدة لحركة الشعر الحديث. كانت الرياح تهب حارة في ساحة الصراع، والصحف غارقة بدموع الباكين على مصير الشعر حين نشر قلوعه البيضاء الخفاقة فوق أعلى الصواري. وقد لعبت بدائيته دوراً هاماً في خلق هذا النوع من الشعر، إذ ان موهبته التي لعبت دورها بأصالة وحرية كانت في منجاة من حضانة التراث وزجره التربوي. وهكذا نجت عفويته من التحجر والجمود. وكان ذلك فضيلة من الفضائل النادرة في هذا العصر.

سنية صالح

لوحة الغلاف: جبر علوان